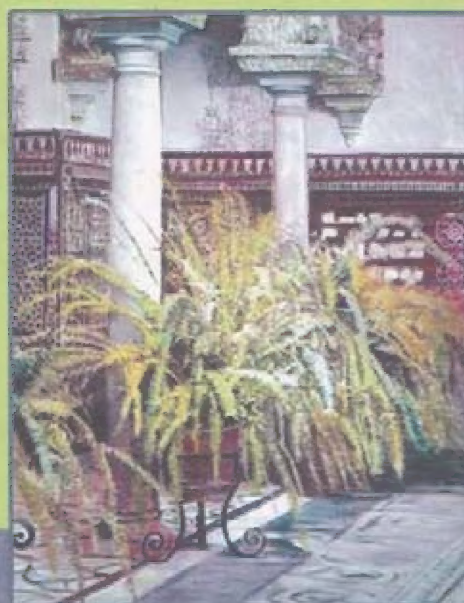


رثاء النفس في الشعر الأنجلوسا

الدكتور مقداد رحيم



جبين
 للشعر والادب

لوحة الغلاف للفنانة نهلة صبر

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

نظام النفس في التفكير الإنساني

الدكتور مقdad رحيم

حقوق الطبع محفوظة

1433هـ-2012م

جهينة
للشؤون والأدب

العبدلي - عمارة جوهرة القدس - ص.ب 8670 عمان 11121 الأردن

تلفاكس: 4620078 - خلوي: 07 965 873 71

Jawhart El-Quds Building - Al-Abdali - P.O.Box Amman 11121 Jordan

Telefax: 4620078 - Mob.: 07 965 873 71

E-MAIL: Darjuhaina@yahoo.com

وما الناس إلا هالكٌ وابنُ هالكٍ

وذو نَسَبٍ في الهالكين عريق

أبونواس

وقد فارق الناس الأوبة قبلنا

وأعيا دواء الموت كلَّ طبيب

المتنبي

لا بد من فقْدٍ ومن فاقْدٍ

هيهات ما في الناس من خالِدٍ

أبوفراس الحمداني

أقولُ لنفسي ما مبین كهالكِ

وما الناسُ إلا هالكٌ وابنُ هالكِ

ابن حزم الأندلسي

المقدمة

يتناول هذا الكتاب واحداً من أغراض الشعر العربي في الأندلس هو رثاء النفس، وهو غرض لم يتناوله كتاب مستقل من قبل، بل كان يمر في الكتب والأبحاث مروراً خفيفاً في ظل غرض الرثاء.

وقد رأيت رثاء النفس متفشياً في الشعر العربي في الأندلس تفشياً بدا لي واسع النطاق، كبير الأهمية، خطير الأثر، فرأيت أنه يقوم بوضع كتاب، أو أكثر من كتاب، بل رأيت أنه يصلح أن يكون غرضاً قائماً بذاته، وإذا كنا سوغنا له ذلك من خلال الشعر الأندلسي، فجدير به أن يكون أسوة لمثيله في المشرق إذا توفر له الصبر في البحث والتحري، أو إذا ظفر بمثل ما ظفر به في الأندلس من إقبال شعراء الأندلس عليه واهتمامهم به على اختلاف حظوظهم من المنازل والطبقات والاتجاهات، مع وفرة زاخرة من النصوص، على نحو ما سنرى من خلال فصول هذا الكتاب.

وكان الشائع لدى النقاد القدماء قولهم: "أصغر الشعر الرثاء، لأنه لا يعمل رغبة ولا رهبة"^(١)، ولكن رثاء النفس يعملهما كليهما، ففيه الرغبة في الحياة ورهبة الموت، كما بدا واضحاً في أثناء هذا الكتاب، وقد نقل ابن رشيق في كتابه "العمدة"^(٢) عن ابن قتيبة قوله: "قال أحمد بن يوسف الكاتب لأبي يعقوب الخريمي: أنت في مدائحك لمحمد بن منصور كاتب البرامكة أشعر منك في مراثيك.

له، فقال: كنا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن نعمل اليوم على الوفاء"، وليس في قصيدة رثاء النفس شيء من وفاء، بل هي وعاء لأحد رجاءين أحدهما في الدنيا وثانيهما في الآخرة، وهي وعاء لأحاسيس موهنة وصادقة وقوية ليس وراءها غير الشاعر نفسه، وبذلك يمكن أن يكون شعراً عالي الطبقة، وربما ينطوي تحت مقصد القرطاجني في كتابه

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/١٢٣.

(٢) ١/١٢٣.

"منهاج البلغاء"^(١) عندما قال: "إنَّ خير الشعر ما صدرَ عن فكرٍ وَلِعٍ بالفنِّ والغرض الذي القول فيه مرتاحٌ للجهة والمنحَى الذي وجَّه إليه كلامه لإقباله بكلِّيته على ما يقوله وتوفير نشاط الخاطر وحدِّته بالانصباب معه في شيعهٍ والميل معه حيثُ مال به هواه"، فليس هناك ما يربو على التفكير بالموت من ذلك.

ثمَّ شاعَ بين أولئك النقاد أنَّ الرثاء هو مدحٌ للميت كما أنَّ المدحَ للحي،^(٢) وأنَّه ليس بين المرثية والمدحة فصلٌ إلاَّ أنَّ يُذكر في اللفظ ما يدلُّ على أنَّه لَهالك، مثل: "كان" و"تولَّى" وقضى نحبَه" وما أشبه ذلك، وهذا لا يزيد في المعنى ولا ينقص منه، لأنَّ تأبين الميت إنما هو بمثل ما كان يُمدح به في حياته"^(٣)، فأين رثاء النفس من هذا؟.

واستناداً إلى ما قدمناه نرى الحقَّ لِرثاء النفس أنَّ ينفرد بذاته دون أنَّ يتكئ على رثاء الآخر، وأنَّ يُدرَسَ باعتبار ما له من خصوصية وتفرُّد وأهمية.

يُعنى هذا الكتاب بدراسة النص الشعري الأندلسي الذي يرثي الشاعرُ فيه نفسه وهو يواجه الشعور بالموت الحقيقي، ولذلك فهو يستثني الشعور بالموت الجماعي، وأعني رثاء النفس من خلال الجماعة، وهو مما يرد كثيراً جداً في قصائد الوعظ والزهد والإرشاد، ويستثني النصوص التي تتحدث عن الموت بشكلٍ عام دون أنَّ تعبر عن موت الشاعر نفسه، فغرض الكتاب هو الوقوف على التجربة الفردية في مواجهة الموت على وجه الحقيقة لا المجاز أو الافتراض أو التخيل، من خلال الشعر، فلا يلتفتُ إلى الموت العشقي البلاغي الطبيعي كمثل قول ابن عبد ربه:

ودَّعتَ فاركبْ جناحَ البينِ في سفره
هذا الفراقُ وهذا الموتُ في أثره^(٤)

(١) ص ٣٤١.

(٢) أنظر طبقات الشعراء: ص ٨٤.

(٣) نقد الشعر: ص ١٠٠.

(٤) المختار من شعر بشار.

ولا إلى الشاذ منه كمثل قول إبراهيم بن سهل في معشوقه موسى:

وما أنا فرعونٌ كفورُ الصنائعِ	أموسى لقد أوردتني شرَّ موردٍ
عذارٍ وقد أغرقتني في مدامعي	سحرت فؤادي حين أرسلت حية الـ
يكفيك والأيام ذات بدائع	وما كنت أخشى أن تكون مني
حذاري أن تُرمى بلؤم الطباع ^(١)	وما أسفي أني أموت وإنما

ولا إلى الموت الصوفي المحض كمثل قول ابن الجثن الشاطبي:

حَتَّى تَلَا شَيْءَ وَجُودِي	أَفْنَانِي الْقَبْضُ عَنِّي
رُوحِي بِفَضْلِ وَجُودِي	وَجَاءَنِي الْبَسْطُ يُحْيِي
لِذَاكَ بِالنَّفْسِ جُودِي	فَقُلْتُ لِلنَّفْسِ: شُكْرًا،
فَغَبْتُ عَنْ ذَا الْوَجُودِ! ^(٢)	وَقُمْتُ أَشْطَحُ سُكْرًا

وكقول الشيخ محيي الدين بن عربي:

فَنَى وَجُودِي وَغَابَ نَجْمِي	لَمَّا بَدَا السَّرُّ فِي فُؤَادِي
وَغَبْتُ عَنْ رَسْمِ حَسِّ جِسْمِي	وَحَالَ قَلْبِي بِسَرِّ رُبِّي
فِي مَرَكَبٍ مِنْ سِنِّي عَزْمِي ^(٣)	وَجِئْتُ مِنْهُ بِهِ إِلَيَّ

أو الموت في الغزل الصوفي كمثل قوله:

عَلَّلَانِي بِذِكْرهَا عَلَّلَانِي	مَرَضِي مِنْ مَرِيضَةِ الْأَجْفَانِ،
------------------------------------	--------------------------------------

(١) ديوانه: ص ٢٣٨.

(٢) تاريخ الأدب العربي (فروخ): ٦/٢٧٣-٤.

(٣) ديوانه: ص ٤٣٠.

يا خليلي عَرَجًا يعناني	لأرى رسم دارها يعانني
فإذا ما بلغت الدار حطًا	وبها صاحي فلتبكيانني
وقفا بي على الطلول قليلاً	نتباكي، بل أبك مما دهانني
واندباني بشعر قيس وليلى	ويامي، والسُمبلى غيلان ^(١)

وهذا لا يمنع اختلاط رثاء النفس بأغراض أخرى كالمديح ورثاء الآخر وشكوى الزمان والزهد ووصف الشيب ووصف الطبيعة وغير ذلك مما يُعدُّ تطويراً وتجديداً لقصيدة الرثاء.

وقد اشترط البحث في هذا الكتاب أن يكون الشاعر أندلسيَّ النشأة، فلم يعتدُّ بأبي علي القالي وزرياب، على سبيل المثال، وإن قضا الشطر الأخير من حياتيهما في الأندلس، ولا بابن المغربي وابن سيد الناس، وإن كانا من أصل أندلسي، لأنهما لم يعيشا في الأندلس، كما لم يُعَنَّ بالمقارنة بأدب آخر غير أندلسي.

وقد امتدَّ زمنُ البحث ليشمل العصور السياسية جميعاً في الأندلس كلها، وهي مدةٌ زادت عن ستة قرون من الزمان، تجمعت منها لديَّ نصوص كثيرة جداً، غير أنَّ قسماً كبيراً من هذه النصوص لم يتم بحثها أو الإشارة إليها في هذا الكتاب، وهناك شعراء كثيرون لم يُذكروا فيه، فغرض الكتاب هو رسم صورة لهذا الغرض بكل معطياته وليس الإحصاء والإيعاب، وربما يُتناوَل النصُّ الواحد أكثر من مرة واحدة لتعدد دلالاته.

وقد اقتضى منهج البحث في هذا الموضوع أن ينقسم على أربعة فصول، وقد تتبع الفصل الأول تاريخ رثاء النفس في الشعر الأندلسي وأهميته، بينما اختصَّ الفصل الثاني بالكلام على بواعث النظم في هذا الغرض، وكان من بين المُسهمين فيه جماعة كبيرة من عليّة القوم في الأندلس من الحُكَّام والملوك والأمراء والرؤساء والوزراء وقادة الجيوش

(١) ترجمان الأشواق: ص ٧٨-٨٣.

وأصحاب السلطة والقرار، فكان الفصل الثالث خاصاً بالحديث عن تجاربهم مع الموت وموقفهم منه، وطرائق تعبيرهم عنه، والظروف التي كانت تحيط بتجاربهم تلك.

أما الفصل الرابع الأخير فقد كان جولةً في رحاب فلسفة الموت والحياة لدى الشعراء الأندلسيين الذين رثوا أنفسهم، وهي بدون شك موقف المجتمع كله. وقد حاولت الخاتمة أن تلمّ بأهم النتائج التي توصل إليها هذا الكتاب.

وقد صاحبني هذا الكتاب ثماني سنواتٍ منذ أن تبدّى لي فكرةٌ حتى استوى كامل الخلق، وموضوعه يشفع لي بطول المدة، لتطلبه الدقة في البحث والفحص والتمحيص، فضلاً عن تورّعه في مصادر تستدعي الاستقصاء، ويصعب أن تتجمع في مكانٍ واحد، ولا أنسى أن اقتحام موضوعٍ مثله يحتاج إلى مزاجٍ نفسي خاص، وأشهد أن البحث فيه كان متقطعاً على وفق ذلك.

وعلى الرغم من كثرة ما توفّر لديّ من مادةٍ تصلح للدرس والبحث والتطوير غير أنني آثرتُ عدم الإفاضة في القول، واكتفيتُ بالإشارة دون الإطالة، والدلالة بالقليل على الكثير مع الاستيفاء، على عادتي من ذلك، وبخاصةً والكتاب دلّ على موضوعٍ واسع النطاق شمل الأندلس كلها، وزمانها كله.

ولعليّ أن أكونَ وفّقتُ إلى الغاية، وما التوفيق إلا من عند الله وهو حسي.

الدكتور مقداد رحيم

أستاذ الأدب الأندلسي ونقده

الفصل الأول

رثاء النفس في الشعر الأندلسي
تاريخه وأهميته

يؤرخ هذا الفصل لقصيدة رثاء النفس الأندلسية، بحسب ما وصل إلينا منها عبر المصادر، ويميط اللثام عن أهميتها ومكانتها في الشعر العربي والأندلسي منه خاصة.

أولاً: تاريخ رثاء النفس في الأندلس

لاشك في أن النظر في أمر الحياة والموت هو مما اعتاد عليه بنو البشر في كل زمان ومكان، ومهما اختلفت الرؤى في معالجة أمر الموت فلم يتعد كونه قدراً محتوماً لم يستطع أحد رده، وإن لم يعدم المحاولة إلا أن أحداً لم يفرغ من الفشل.

ولاشك أيضاً في أن كثيراً من الناس في كل العصور كانوا رثوا أنفسهم وهم يجابهون الموت أو يقتربون منه أو يتوقعونه، ولكن الشعر قيّد أكثر نصوصهم للحفظ، حيث أمكنت الكتابة، بينما ضيّع النثر أكثرها، ولهذا عثرنا على نصوص شعرية عربية في هذا الغرض ترجع إلى عصر ما قبل الإسلام والعصور التالية، ولم تكن الأندلس مكاناً وزماناً لتتخلّى عن هذا الغرض الإنساني، ولم تعد أسبابه، بل لقد أسهمت بقسط وافر منه في الشعر، وأنجبت رعيلاً مهماً من الشعراء أسهموا فيه توزّعوا على كل العصور السياسية، منذ عصر الإمارة (١٣٨ - ٣١٦هـ) حتى آخر يوم من أيام الحكم العربي في الأندلس، كما سنرى.

أما سنوات الأندلس الأولى خلال عصر الولاة التي لم تبلغ الخمسين عاماً (٩٢-١٣٨هـ) فلم نعثر فيها على شيء من هذا النوع من الرثاء، كما لم نعثر على كثير من الشعر في غيره من الأغراض، وفضلاً عن قصر المدة فإن العرب المسلمين كانوا منشغلين ببناء الدولة الجديدة، وتسييس أمورها كافة، فلم يكن لتدوين الشعر مجاله الواسع في مثل هذه الظروف، وإن كان حاضراً دائماً، يُضاف إلى ذلك أن قسماً كبيراً من الذين كتبوا الشعر منهم كان مشرقياً وافداً، ولم يكن أندلسي النجار.

ونحن نظنّ ظناً قوياً أن شعر رثاء النفس في هذا العصر كان موجوداً، لأنه كان عصر صراعات سياسية وقبلية، وما كان يدور في ساحة الأندلس فيه من تنكيل وتعذيب وتقتيل في ظلال البناء والتأسيس، وفي ظروف التعصّب والخلاف في الرأي كان جديراً

بإنتاج نصوص ذات باعث سياسي في الأقل، فضلاً عن باعث الشعور بالغربة والبعد عن الأوطان الأولى، وعن باعث الشعور بدنو الموت الطبيعي نفسه باستمرار.

وقد اعتمدنا على تواريخ وفيات الشعراء في التأريخ لهذا الشعر، والتقسيم على العصور السياسية، وهو تقسيم مُتَّبَع، على الرغم من تداخل تواريخ العصور السياسية في الأندلس منذ عصر الطوائف، ومنذ بدء تفتت الأندلس وتقسيمها على مناطق نفوذ متباينة الولاءات، إذ لا يمكن لنا تجاوز مثل هذا التقسيم وإن لم يكن على قدر كبير من الدقة، فهو يفي بالغرض على أية حال، على الرغم من جعله الشاعر منتبهاً إلى عصرين أحياناً، وخاصةً عندما يكون الموضوع شاملاً للأندلس كلها ولتاريخها كله.

وكان أول شاعر أندلسي رثى نفسه ووصل إلينا رثاؤه هو أبو المخشي عاصم بن زيد بن يحيى، الذي توفي على عهد الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ)، وكان الأمير هشام بن عبد الملك قد سَمَلَ عينيه، فرأى أن فقدَه لبصره موازٍ لفقدته الحياة، وأن من الواجب أن يرثي نفسه، على ما سنذكره فيما بعد، فقال في مقصورة:

خَضَعْتُ أُمُّ بَنَاتِي لِلْعَدَى	أَنْ قَضَى اللَّهُ قَضَاءً فَمَضَى
وَرَأَتْ أَعْمَى ضَريراً إِنَّمَا	مَشْيُهُ فِي الْأَرْضِ لَمْ يَسْ بِالْعَصَا
فَاسْتَكَانَتْ ثُمَّ قَالَتْ قَوْلَةً	وَهِيَ حَرَّى، بَلَغَتْ مَنَى الْمَدَى
فَقَوَّادِي قَرَحَ مِنْ قَوْلِهَا:	مَا مِنْ الْأَدْوَاءِ دَاءٍ كَالْعَمَى
وَإِذَا نَالَ الْعَمَى ذَا بَصَرٍ	كَانَ حَيًّا مِثْلَ مَيِّتٍ قَدْ تَوَى
وَكَأَنَّ النَّاعِمَ الْمَسْرُورَ لَمْ	يَكْ مُسْرُوراً إِذَا لَاحَ الرَّدَى

ويلتحق به جملة من الشعراء في عصر الإمارة والخلافة منهم الغزال يحيى بن حكم (ت ٢٥٠ هـ) وهاشم بن عبد العزيز (ت ٢٧٣ هـ)، وسعيد بن جودي (ت ٢٨٤ هـ)، ومحمد بن عبد السلام الخشني (ت ٢٨٦ هـ) والأمير عبد الله بن محمد (ت ٣٠٠ هـ)، وأبو الأصبح موسى بن محمد بن سعيد بن موسى (ت ٣٢٠ هـ)، وابن عبد ربه أبو عمر أحمد

(ت ٣٢٨هـ)، وابن أخيه سعيد بن إبراهيم بن عبد ربه (ت ٣٤٢هـ)، وجهور بن عبيد الله بن أبي عبده (ت ٣٤٤هـ)، وإسماعيل بن بدر (ت ٣٥١هـ)، وأبو عبد الله محمد بن حارث الخثني (ت ٣٦١هـ)، وابن هانئ محمد بن هانئ بن محمد بن سعدون (ت ٣٦٢هـ)، وجعفر بن عثمان بن نصر المصحفي (ت ٣٧٢هـ)، وأبو بكر الزبيدي محمد بن الحسن (ت ٣٧٩هـ)، وابن شهيد عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك (ت ٣٩٣هـ)، وعبد الملك بن جهور (ت ٣٩٣هـ)، وأبو مروان الجزيري عبد الملك بن إدريس (ت ٣٩٤هـ)، وابن أبي زمنين محمد بن عبد الله بن عيسى (ت ٣٩٩هـ)، والطلق المرواني مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر (٤٠٠هـ)، وسعيد بن محمد السرقسطي المعافري (ت بعد ٤٠٠هـ)، وأبو الوليد ابن الفرضي عبد الله بن محمد بن يوسف (ت ٤٠٣هـ)، وحسان بن مالك بن أبي عبدة (ت ٤١٦هـ)، وابن دراج القسطلي أحمد بن محمد بن العاصي (ت ٤٢١هـ)، وغيرهم.

أما في عصر ملوك الطوائف فتقع على مجموعة أخرى من الشعراء منهم يوسف بن هارون الرمادي (ت ٤٢٢هـ)، وأبو عامر بن شهيد أحمد بن عبد الملك (ت ٤٢٦هـ)، وابن الأبار الخولاني الإشبيلي أحمد بن محمد (ت ٤٣٣هـ)، وأبو الحزم جهور بن محمد ابن جهور (ت ٤٣٥هـ)، وابن حصن الإشبيلي علي بن غالب بن حصن (ت ٤٤٩هـ)، وعبد الملك بن غصن الحنجاري (ت ٤٥٥هـ)، وابن حزم الكبير علي بن أحمد بن سعيد صاحب طوق الحمامة (ت ٤٥٦هـ)، وابن سيدة علي بن إسماعيل (ت ٤٥٨هـ)، وابن زيدون أحمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٤٦٣هـ)، وأبو جعفر اللمائي أحمد بن أيوب (ت ٤٦٥هـ)، وأبو إسحاق الألبيري إبراهيم بن مسعود (ت بعد ٤٦٩هـ)، وأبو الوليد الباجي سليمان بن خلف بن سعد (ت ٤٧٤هـ)، وأبو بكر محمد بن عمار (ت ٤٧٧هـ)، وابن الحداد الوادي أشي محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٤٨٠هـ)، والمعتصم ابن صمادح محمد بن معن (ت ٤٨٤هـ)، والراضي العبادي يزيد بن محمد المعتمد بن عباد (ت ٤٨٤هـ)، وغيرهم.

ونجدُ مجموعة أخرى من الشعراء في عصر المرابطين يقف على رأسهم المعتمد محمد بن عبّاد (ت ٤٨٨هـ)، والحميدي محمد بن فتوح بن عبد الله بن حميد (ت ٤٨٨هـ) وأبو بكر بن اللبانة محمد بن عيسى بن محمد الداني (ت ٥٠٧هـ)، وأبو بكر بن عبد العزيز ابن القبطرنة (ت ٥٢٠هـ)، وأبو بكر بن رحيم محمد بن أحمد (ت ٥٢٠هـ)، وأبو بكر الطرطوشي محمد بن الوليد (ت ٥٢٠هـ)، والأعمى التطيلي أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة (ت ٥٢٥هـ)، وابن الزقاق البلنسي علي بن إبراهيم بن عطية الله (ت ٥٢٩هـ)، وأبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت (ت ٥٢٩هـ)، وابن حمديس عبد الجبار بن أبي بكر محمد الصقلي (ت ٥٢٩هـ)، وأبو بكر محمد بن يحيى الصائغ المعروف بابن باجة (ت ٥٣٣هـ)، وابن خفاجة أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح عبد الله (ت ٥٣٣هـ)، وأبو الفضل بن شرف جعفر بن محمد (ت ٥٣٤هـ)، وأبو العلاء عبد الحق بن خلف بن مفرّج المعروف بابن الجنان (ت ٥٣٩هـ)، وأبو بكر بن العربي محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله (ت ٥٤٣هـ)، وابن بقي أبو بكر يحيى بن أحمد بن عبد الرحمن (ت ٥٤٥هـ)، وابن يثّق الشاطبي أبو عامر محمد بن يحيى (ت ٥٤٧هـ)، وابن وكيل الأقلشبي أحمد بن معد بن عيسى (ت ٥٤٩هـ)، وأبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد (ت ٥٥٩هـ)، وغيرهم.

وفي عصر الموحدين نعثر على جملة أخرى من الشعراء من أمثال ابن طفيل محمد بن عبد الملك (ت ٥٨١هـ) وأبي محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي (ت ٥٨١هـ)، وأبي بكر بن مغاور عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٨٧هـ)، وأبي بكر بن زهر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء (ت ٥٩٥هـ)، وأبي بحر صفوان بن إدريس بن إبراهيم (ت ٥٩٨هـ)، وأبي عمر المارتنلي موسى بن عمران (ت ٦٠٤هـ)، وابن جبير محمد بن محمد بن جبير بن سعيد (ت ٦١٤هـ)، وأبو القاسم بن سعيد عبد الرحمن ابن محمد بن سعيد العنسي (ت ٦١٧هـ)، وأبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي (ت ٦٣٤هـ) وابن مرج الكحل أبي عبد الله محمد بن إدريس بن علي (ت ٦٣٤هـ)، وأبي الربيع الكلاعي سليمان بن موسى بن سالم (ت ٦٣٤هـ)، وغيرهم.

أما عصر بني الأحمر وهو آخر العصور الأندلسية فقد أسهم فيه في هذا الغرض على سبيل المثال أبو بكر بن قسوم محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللخمي الإشبيلي (ت ٦٣٩هـ)، ومحمد بن أحمد الإستجي (ت ٦٣٩هـ)، وحميد الأنصاري أبو بكر أحمد بن عبد الله بن الحسن (ت ٦٥٤هـ)، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله المرسي (ت ٦٥٥هـ)، وابن الجنان الأنصاري محمد بن محمد بن أحمد (ت ٦٥٥هـ)، وابن سراقه الشاطبي محمد بن أحمد بن محمد (ت ٦٦٢هـ)، وابن الفقار الرعيني علي بن محمد بن علي بن محمد (ت ٦٦٦هـ)، وابن الناظر القرشي الحسين بن عبد العزيز (ت ٦٧٩هـ)، وابن الغماز البلسي أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٦٩٣هـ)، وابن جزي أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد (ت ٧٤١هـ)، وأبو حيان الغرناطي أثير الدين محمد بن يوسف بن علي (ت ٧٤٥هـ)، والطويجن الساحلي إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأنصاري (ت ٧٤٧هـ)، وأبو بكر بن شبرين محمد بن أحمد بن محمد (ت ٧٤٧هـ)، وأبو جعفر بن صفوان أحمد بن إبراهيم بن أحمد (ت ٧٦٣هـ)، وأبو البركات بن الحاج البلفيقي محمد بن محمد بن إبراهيم (ت ٧٧٣هـ)، ولسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله بن محمد (ت ٧٧٦هـ)، وابن زمرك أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد (ت ٧٩٦هـ)، ويوسف الثالث بن يوسف بن الأحمر ملك غرناطة (ت ٨١٩هـ)، وابن عاصم أبو بكر محمد بن محمد بن عاصم (ت ٨٢٩هـ)، وعبد الكريم ابن محمد القيسي البسطي الغرناطي (ت ٨٩٨هـ)، وابن العربي العقيلي محمد بن عبد الله (ت ٩٢٨هـ) على لسان آخر ملوك الأندلس أبي عبد الله الصغير، وغيرهم.

وبذلك يكون رثاء النفس في الشعر الأندلسي حاضراً في كل العصور الأندلسية، بل على مدار العقود والأجيال، بشكل لافتٍ للاهتمام، غير أن وضع اليد على أول نص قيل في رثاء النفس في الشعر الأندلسي، خلاف ما ذكرناه، يبقى موكولاً بما يستجد من مصادر.

على أن التفكير بالموت لم يشغل بال الشاعرة الأندلسية كما لم يشغل بال أختها المشرقية، فعلى الرغم من وجود عدد من الشواعر الأندلسيات، ووجود عدد لا بأس فيه

من النصوص الشعرية، غير أننا لم نعثر على أزيد من نص واحد في رثاء النفس للشاعرة مريم بنت أبي يعقوب الفصولي الشلي (ت بعد ٤٠٠هـ)، وكانت بلغت من العمر سبعة وسبعين عاماً، كما بلغ الوهن منها مبلغه، فطرت باب الموت بقولها:

وما ترتجي من بنت سبعين حجةً وسبع كنسج العنكبوت السهلل^(١)
تدب ديبب الطفل تسعى إلى العصا وتمشي بها مشي الأسير المكبل^(٢)

وهو أمر غير مستغرب، فموضوع رثاء النفس موضوع لا تطيقه المرأة في الظروف العادية الطبيعية، ولم تكن هي على مدى العصور الأندلسية، إلا ما ندر، تحفل بأمور السياسة وتعاني الحياة كما كان يعانيها الرجل، فضلاً عن أن تسجيل أدب المرأة والوقوف عليه لم يكن شغل الكتاب والمؤلفين، استناداً إلى ذكورية المجتمع، على الرغم مما نالته المرأة في الأندلس من التحرر المشروط المحدود، ولذلك بقي أدبها حبيس المنتديات الخاصة، وما وصل إلينا من أدب نسوي لم يتعد كونه أدب امرأة نشأت في قصر كولادة بنت المستكفي، أو رضعت من علم وأدب وأرضعتها مثل مريم بنت أبي يعقوب، أو اتصلت بأسباب الثقافة وكان لها حظ من الإسهام فيها وتشجيع من أهلها وعشيرها مثل حفصة بنت حمدون الحجارية وأم العلاء بنت يوسف الحجارية، وفيما عدا ذلك كانت شذرات هنا وهناك.

ثانياً: أهمية رثاء النفس في الشعر الأندلسي

بدا لنا رثاء النفس في الشعر الأندلسي غرضاً مهماً جداً وبارزاً، فلم يكن من الأغراض المهمة أو الأغراض الثانوية، وتتجلى لنا أهمية من خلال عدة أمور يمكننا تفصيلها كالآتي:

(١) يُنظر كتاب الشعر النسوي في الأندلس.

(٢) جذوة المقتبس: ص ٤١٢ ، وبغية الملتبس: ص ٥٤٤.

١- إظهار الجوانب الروحية

حاول الشعراء الأندلسيون، في رثائهم لأنفسهم، أن يُظهروا الجوانب الروحية والنفسية التي تسود في المجتمع الأندلسي، وبدأت جوانب عربية إسلامية لم تؤثر فيها الظروف الخاصة لهذا المجتمع، ولم يغير منها الخليط العرقي والقومي والجنسي والديني الذي عُرف في الأندلس، ولا التسامح الذي أبداه المسلمون إزاء أصحاب الأديان الأخرى.

وقد شاعت لأجل ذلك معاني المغفرة وانتقال الروح إلى الملكوت الأعلى، وتلاقي الأرواح في الآخرة، ولاسيما أرواح المحبين، وطلب الدعاء، وسماع الميت لدعاء أحبه له، وسماعه لما يتحدثون به وهو محمول على نعشه، وانسعاد روح الميت بتخليد الأثر الذي تركه في الحياة بعده، وهكذا.

ومن أمثلة ذلك رثاء الأعمى التطيلي لنفسه من خلال رثائه لزوجته ويأمل فيه أن يلتقيها في جنة عدن:

رُزْتُكَ أَحلى مِن شَبَابِي وَمِن وَفَرِي	أَمِنَ إِن أَجَزَعُ عَلَيْكَ فَإِنِّي
وإن كنتُ لا أخشى الترابَ على التبرِ	برغمي حُلِّي بين جسمك والثرى
مَقَرُّ الحيا أو هالة القَمَرِ البدرِ	هنيئاً لقبرِ ضمِّ جسمك إئهِ
تقدُّمُتي إلّا مشيتُ على الإثَرِ	إذا جئتَ عَدْنَا فاطلبينا فقلّما
تأخَّرَ بي سعيي وأثقلني وزري ^(١)	ولا تعذّليني إن أقمتُ فربّما

كما أظهرت بعض النصوص حالات الضعف واليأس والانكسار التي كانت تسود المجتمع الأندلسي في بعض الحقب التاريخية، وفي بحر الظروف الاجتماعية والسياسية القاهرة، وهو أمر دعا الشعراء الأندلسيين إلى التزام الجانب الروحي بشكل أكثر شمولاً،

(١) ديوانه: ص ٧٠.

للتخفيف من حدة الجانب المادي وفضاعته وثقله على النفوس، والتعبير عن الاستسلام للموت، وشأنهم في ذلك هو شأن باقي أفراد المجتمع في مثل هذه الظروف.

يقول أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود:

قالوا ألا تستجيدُ بيتاً	تعجبُ من حُسْنِ البيوتِ
فقلتُ ما ذاكمُ صوابُ	حِفْشٌ كثيرٌ لِمَن يموتُ
لولا شتاءٌ وَلَفْحٌ قيظُ	وخوفٌ لصٌّ وحفظٌ قوتِ
ونسوةٌ يبتغينَ سَترا	بَنيتُ بنيانَ عنكبوتِ ^(١)

٢- إظهار الجوانب المادية

ولم يقتصروا على إظهار الجوانب الروحية السائدة في المجتمع الأندلسي فحسب، بل تجاوزوا ذلك إلى إظهار جوانبه المادية، فسجلوا جوانب من تمكّن الفقر المادي من المجتمع، في بعض الحقب الزمنية، وقد تجلّى ذلك من خلال رثاء بعض الشعراء لأنفسهم بدوافع الحاجة المادية، أو لانتقاض الناس عنهم أو انتقاضهم عن الناس للدافع نفسه.

يقول ابن جبير:

ربّ إن لم تـؤتني سـعةً	فما طوّر عني فضلة العُمر
لا أحبُّ اللبثَ في زمنٍ	حاجتي فيه إلى البشرِ ^(٢)

وقد عبر بعض هؤلاء الشعراء عن عزوفهم عن التواصل مع ماجريات الحياة اليومية، وعدم اكترائهم بمظاهر حياتهم، لتمكّن الشعور باليأس في نفوسهم، ولإيمانهم بعدم جدوى البناء والحياة كلها إلى زوال.

(١) المغرب في حلى المغرب: ١٣٣/٢.

(٢) نفع الطيب: ٤٩٢/٢.

ومن أشدّ مظاهر اليأس من الحياة والضجر فيها رثاء مجموعة كبيرة من الشعراء لأنفسهم في أعمارٍ مبكّرة وقصيرة جداً، كما فعل عبد الكريم القيسي الذي رثى نفسه عندما بلغ الأربعين، وكانت ولادته في العام ٨٣٦، وربما لم يمِتْ إلاّ قبل سقوط غرناطة بقليل^(١):

مرور الأربعين أطار نومي وأجرى فوق صَفْح الخدِّ دَمعي
وعِلَمي بالرحيل غداً وتُركي مِن أهلي مَنْ غدا بَصَري وسَمعي^(٢)

وهناك مَنْ رثى نفسه قبل بلوغه الأربعين، مثل أحمد الاقليشي بقوله:

ثلاثون عاماً قد تولّت كأنها حلومٌ تقضّت أو بروقٌ خوافُ
وجاء المَشيبُ المُنذرُ المرء أنه إذا رحلت عنه الشَّيبةُ تالفُ^(٣)

بل لقد رثى محيي الدين بن سراقه محمد بن محمد بن إبراهيم نفسه عندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وكان يظن أنه لن يزيد عن الثلاثين، ثم لم يمِتْ قبل بلوغه السبعين (٥٩٢-٦٦٢هـ)، يقول:

إلى كم أُمِنِّي النفسَ ما لا تناله فيذهب عمري والأمانِي لا تُقضَى
وقد مرّ لي خمسٌ وعشرون حَجَّةً ولم أرضَ فيها عيشتي فمتى أرضَى؟
وأعلمُ أنّي - والثلاثون مُدَّتْني - حرِّ بمعاني اللهو أوسعها ركُضاً^(٤)

(١) أنظر مقدمة ديوانه: ص ١٣-١٤.

(٢) ديوانه: ص ٤١١.

(٣) التكملة: ص ٦١.

(٤) فوات الوفيات: ٦-٢٤٥/٣.

٣- إظهار الجوانب الاجتماعية

أظهرت جملة من النصوص جوانب كثيرة من العلاقات الاجتماعية والعاطفية التي كانت تسود المجتمع الأندلسي، ولاسيما بين الأفراد من حيث القوة والضعف، على أن ضعف العلاقات وانشغال الناس عن العلائق الطيبة والصدقات كان أكثر شيوعاً فيها، وهو أمر طبيعي لأن سياق التفكير بالموت وتوديع الدنيا وانقطاع الرجاء يجعل المرء بعيداً عن الجاملات وقريباً من قول الحقيقة كما هي، ولهذا السبب جاءت قصيدة رثاء النفس لتكون مستودعاً صادقاً للاستخبار عن العلاقات الاجتماعية.

يقول ذو الوزارتين عيسى بن لبون مشيراً إلى ضعف العلاقات الفردية في المجتمع وقد هيمنت الحياة المادية على الروحية، وغاب الصدق والإخلاص فيها، وقد وجد في لزومه بيته واللجوء إلى كتبه عزاءً له وراحةً حتى يحين موته:

نفضتُ كفي عن الدنيا وقلتُ لها: إليك عني فما في الحق أغتبنُ
من كسر بيتي لي روضٌ ومن كتي جليس صدقٍ على الأسرار مؤتمنُ
أدري به ما جرى في الدهر من خبر فعندهُ الحقُ مسطورٌ ومختزنُ
وما مصابي سوى موتي ويدفني قومٌ وما لهم علمٌ بما دفنوا^(١)

ويرى أبو جعفر أحمد بن عتيق الشاطبي أن علاقة الأهل والأقرباء به هي من باب الإفادة منه وتحقيق المآرب:

وقل انتفاعُ الأهل منك فأعرضوا كأنك فرخٌ ملٌّ من زقه الطير^(٢)

ويستثنى من ذلك العلاقات العائلية بين الآباء والأبناء، الأزواج، الإخوة، والأقربين، وهي كثيرة، وكذلك العلاقات الروحية بين التلاميذ وشيوخهم، ورجال

(١) قلائد العقيان: ص ٢٤٣.

(٢) الكتيبة الكامنة: ص ١٠٦.

الدين ورموزه، وهي قليلة، فقد بدا واضحاً صدق العاطفة وقوتها في مثل هذه العلاقات.

وأعود إلى الصداقات الفردية فأؤكد أنَّ جملةً من القصائد كانت تعبر تعبيراً واضحاً عن وجود صداقات قوية ومخلصة يسودها المحبة والاحترام والتآلف وحسن العشرة، كالصداقة التي كانت تربط بين ابن شهيد وابن حزم وآخرين كما دلت على ذلك قصائده في توديع الحياة، ومن قصائده تلك التي يخاطب فيها ابن حزم قصيدته التي منها:

فمن مبلِّغ عني ابن حزم وكان لي	يدأ في ملِّماتي وعند مضايقي
عليك سلام الله إنني مُفارقٌ	وحسبك زاداً من حبيبٍ مفارقٍ
فلا تنسَ تأييني إذا ما فقدتني	وتذكر أيامي وفضلَ خلائقي
وحرَّكْ له بالله من أهل فنِّنا	إذا غيبوني كلَّ شَهْمٍ غُرَانِقِ
فلي في اذْكَاري بعد موتي راحةٌ	فلا تمنعونيها غلالةٌ زَاهِقِ
وإنِّي لأرجو الله فيما تقدَّمتُ	ذنوبي به مما درى من خلائقي ^(١)

وهناك شخص آخر سمَّاهُ عمراً خصَّه بالذكر في قصيدة مثل هذه يقول فيها:

أقرِّ السلامَ على الأصحاب أجمعهم	وخصَّ عمراً بأزكى نور تسليم
وقلْ له: يا أعزَّ الناس كلَّهم	شخصاً عليَّ وأولاهم بتكريم
الله جارك من ذي منعةٍ ضفرتُ	منه الليالي بعَلَقٍ غير مذموم
ما كان حُبُّكَ إلا صوبَ غاديةٍ	طيباً وحاشا لِحُبِّي فيكَ من لوم
إن شاء صرفُ الردى تقديمَ أطوعنا	فقد رضيتُ -حماك الله- تقديمي
وإن أحبَّ الثرى جسماً ليأكله	أسمحُ بجسمي له يفديكَ تعظيمي

(١) ديوانه: ص ١٠٢.

عشنا أليفين في برّ الهوى زَمناً
فَشَتَّتْ نُوبُ الأَيامِ أَلْفَتَنَا
حَتَّى زَقَا بنوانا طائرُ الشُّومِ
قَسَراً ولم يُغْنِها ظَنِّي وتنجيمي^(١)

وفي قصيدة أخرى يكشف عن أنَّ له جماعةً من الأصدقاء المقربين خصَّهم بالخطاب وهو يفارق الحياة دون أن يسمِّي أحداً منهم:

أستودع الله إخواني وعشرتهم
وفتية كنجوم القذف، نيّرهم
وكلَّ خرقٍ إلى العلياء سَبَّاقٍ
يَهْدِي، وصائبهم يُودِي بِإِحراقٍ^(٢)

وقال من قصيدة أخرى في الغرض نفسه:

فَمَنْ مَبْلَغُ الْفَتِيانِ أَنْ أَخَاهُمْ
عليكم سلامٌ من فتى عضّه الردى
أخو فتكةٍ شنعاء ما كان شِكْلَهَا؟
ولم ينسَ عيناً أثبتت فيه نُبلَهَا
وبين وكفُّ الموت يُخلعُ نفسه
وداخلها حبٌّ يهْوُّ نُكْلَهَا^(٣)

وفي جانب آخر من هذه العلائق الإيجابية كانت هناك أخلاق اجتماعية سلبية تقوم على إظهار العداء والتشفي بموت الآخر.

يقول عبد الملك بن غصن يرثي نفسه منتظراً الموت على يد المأمون وقد نكبه شرٌّ نكبة في سياق العداوة:

فديئك هل لي منك رُحَى لعلني
وليس عقاب المذنبين يَمُنْكَرُ
أفارقُ قَبْراً في الحياة فَأَنْشُرُ
ومن عَجَبٍ قولُ العُدَاةِ مَثْقَلُ
ولكن دَوَامَ السَخَطِ والعُتْبِ يُنْكَرُ
ومثلي في إلحاحه الدهرُ يُعْذِرُ^(٤)

(١) ديوانه: ص ١٢١-١٢٢.

(٢) ديوانه: ص ١٠٤.

(٣) ديوانه: ص ١١٠.

(٤) نفح الطيب: ٤٢٤/٣.

ويقول أبو بكر محمد بن إبراهيم القرشي النحوي في سياق التشفي بالموت:

فقل للذي سرّة مهلكي تأهّب فإنك بي لاحق^(١)

وفي السياق نفسه يقول الوزير هاشم بن عبد العزيز وقد تأكد له مقتله على يد
المنذر بن محمد، وكان نكبه بعد أن ولّاه الحجابة:

فمن يك مسروراً بحالي فإنه سينهل في كأسٍ وشيكاً ويشرب^(٢)

أما الوشايات والسعايات فلم يكن المجتمع الأندلسي بمنأى عنها، وقد عبرت قصيدة
رثاء النفس عن هذه الصفة من خلال شعراء كثيرين.

قال أبو عبد الله محمد بن مسعود الغساني البجاني يرثي نفسه وهو ينتظر الموت
على يد المنصور:

إن كنت أضمرت الذي زخرفوا عني فدعني للقدير الرحيم^(٣)

وقد عانى ابن زيدون كثيراً من الوشاة والسعاة، وذكرهم في قصائده في كل مناسبة
استعطافاً أو رثاء لنفسه، وهي مناسبات متكررة، وهاهو يشكو تحميله ذنباً لم يحمله، بل
نسبت إليه من لدن سواه:

ما للذنوب، التي جاني كبائرهما غيري، يُحمّلني أوزارها وزري؟
مَنْ لم أزل من تأنيهِ على ثقة ولم أبت من تجنيهِ على حدرا^(٤)

(١) تحفة القادِم: ص ٢٤.

(٢) الحلة السراء: ١/ ١٤١.

(٣) نفح الطيب: ٣/ ٣٨٩.

(٤) ديوانه: ص ٢٥٥.

ويشير إلى صفة النفاق التي اتصف بها مَنْ كانوا يضمرون له العدااء والغیظ:

إِنَّ الْأَلَى كُنْتُ - مِنْ قَبْلِ افْتِصَاحِهِمْ -
مِثْلَ الشَّجَى فِي لَهَامِهِمْ لَيْسَ يُتَزَعُ
لَمْ أَحْظَ - إِذْ هُمْ عِدَا بَادٍ نِفَاقِهِمْ -
إِلَّا كَمَا كُنْتُ أَحْظَى إِذْ هُمْ شَيْعٌ^(١)

ويرى أَنَّ سَبَبَ عداوة الآخرين له هو ما تحلَّى به من العلم والأدب وعلو المكانة:
وَلَوْ أَنِّي أَطِيعُ كَيْ أَرْضِيَ الْعِدَا
شَرِيتُ بِيَعْضِ الْحِلْمِ حِظًّا مِنَ الْجَهْلِ^(٢)

وإلى ذلك يشير في قصيدة أخرى له:

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ النِّجْمَ فِي قَرْنٍ
فَفِيمَ أَصْبَحْتُ مُنْحَطًّا إِلَى الْعَفْرِ؟
أَحِينَ رَفَّ عَلَى الْآفَاقِ مِنْ أَدْبِي
غَرَسَ لَهُ مِنْ جَنَاهُ يَانِعُ الثَّمَرِ؟^(٣)

ولذلك يتخذون من الوشاية سبيلاً للإيقاع به:

لَنْ زَعَمَ الْوَاشُونَ مَا لَيْسَ مَزْعَمًا
تُعْذِرُ فِي نُصْرِي وَتُعْذِرُ فِي خَذْلِي
وَأَصْدَى إِلَى إِسْعَافِكَ السَّائِغَ الْجَنَى؟
وَأَضْحَى لَدَى إِنْصَافِكَ السَّابِغَ الظِّلَّ
وغيرِكَ رَامَ الْعُذْرُ إِبْلَاحَ سَمْعِهِ
فَصَمَّ وَأَصْعَى لِلْوَقِيعَةِ وَالْعَذْلِ^(٤)

أما المعتمد بن عباد فيشير إلى مجموعة من الصفات المذمومة مثل الغدر والغشّ والبغض والحقْد خلال رثائه لنفسه في اعتذاريته لأبيه المعتضد وكان ينتظر منه البطش:

وَمُتْ إِلَّا دَمَاءَ فَيٍّ يُمْسِكُهُ
أَنِّي عَهْدُكَ تَعْفُو حِينَ تَقْتَدِرُ

(١) ديوانه: ص ٣٠٢-٣٠٣.

(٢) ديوانه: ص ٢٦٣.

(٣) ديوانه: ص ٢٥٧-٨.

(٤) ديوانه: ص ٢٦٨.

لم يأتِ عبدك ذنباً يستحقُّ به
ما الذنبُ إلا على قومٍ ذوي دغلٍ
قومٌ نصيحتهم غشٌّ وجُبُّهم
يُمَيِّزُ البغضُ في الألفاظِ، إنْ نطقوا
إنْ يُحرقُ القلبَ نفتٌ من مقالهم
وإنما أنا ساعٍ في رضاك، فإنْ
عُتِباً، وها هو قد ناداك يعتذرُ
وفى لهم عهدك المعهودُ إذ غدروا
بغضٌ، ونفعهم - إنْ صرَّفوا - ضررُ
ويُعرفُ الحقدُ في الأحاظِ، إنْ نظروا
فإنما ذاك من نارِ القلي شررٌ.....
أخفقتُ فيه، فلا يُفسخ لي العمرُ^(١)

وقد شاعت معاني الفخر بالذات في قصائد رثاء النفس، فدل ذلك على اعتداد
الأندلسي بنفسه في مجتمعه، على قول أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الذي جعل فضله
الباهر سبباً لموته المبكر:

عَذِيرِي مِنْ دَهْرٍ كَأَنِّي وَتَرْتُهُ بِبَاهِرٍ فَضْلِي فَاسْتَقَادَ بِهِ مَنِّي^(٢)

وقول ابن الحداد الوادي أشي:

إِلَى الْمَوْتِ رُجْعِي بَعْدَ حِينٍ فَإِنْ أُمْتُ فَقَدْ خُلِدْتُ خُلْدَ الزَّمَانِ مَنَاقِي^(٣)

وقول أبي الفضل جعفر بن محمد بن شرف:

وإنَّ الدهرَ لم يعلمْ مكاني ولا عرفتْ بنوهُ ما لديَّ
زَمَانٌ سَوْفَ أَنْشُرَ فِيهِ نَشْرًا إِذَا أَنَا بِالْحِمَامِ طَوَيْتُ طَيًّا^(٤)

(١) ديوانه: ص ٣٨-٣٩.

(٢) أبو الصلت: ص ١٥٣.

(٣) نفع الطيب: ٤/٤٩.

(٤) التكملة: ٢/٢٨٠.

وقد بدا المجتمع الأندلسي، من خلال قصيدة رثاء النفس، مهووساً بالطيرة والتطير، وما ذاك إلا لشدة ارتباطه بالحياة وحبها وإقباله عليها بقوة، ولذلك نراه شديد الحساسية مرهفاً، فنرى الأندلسي يحزن لدى سماعه صوت النواير، أو شدو الحمام، فضلاً عن بعض مظاهر الطبيعة الأخرى، كما سنرى، ويقلق قلقاً شديداً إذا بدأ الشيب يتسلل إلى شعر رأسه وإن كان ذلك في سن مبكرة، ويعزو كل ذلك إلى فقدان شيء يكون غالباً هو الحياة، ويستدعي التفكير بالموت ورثاء النفس.

يقول ابن حمديس:

يدمع القلوب فما أنصفوه	بكى الناس قبلي فقد الشباب
من البث والحزن ما أهملوه	وإني عليه لمُستدرك
يفوديك إلا الردى أو أبوه ^(١)	لعمرك ما الشيب إمّا بدا

ويقول يوسف بن هارون الرمادي:

فعلمت أن نزولهن رحيلي ^(٢)	وثلاث شيبات نزلن بمفرقي
--------------------------------------	-------------------------

ولعل هذا يعود إلى عدم ثقة المجتمع الأندلسي بحياته في حاضره، وعدم اطمئنانه إلى مستقبله، وكان هذا الشعور نتيجة طبيعية لما يراه من تقلب السياسات والدول، وتعدد الولاءات وأسباب التعصب، وكثرة الحروب والمجابهات مع أعدائه المتربصين على الحدود باستمرار لمحاولة استرداد الأندلس من ناحية، وبين الأندلسيين أنفسهم من ناحية أخرى، فتكون الآمال كاذبة، وأوقات السعد محدودة، وقد يأتي الموت في مثل هذه الظروف اعتباطاً، ولا يصلح معها إلا أنتهاز الحياة، واقتناص لحظات المتعة اقتناصاً.

(١) ديوانه: ص ٥١٩.

(٢) وفيات الأعيان: ٢٢٦/٧.

٤- إظهار موقف الأندلسيين من الحياة والموت

أسهم هذا الغرض في الكشف عن موقف الأندلسيين من الحياة والموت، وهو موقف يستند إلى قدر كبير من الأهمية، لما له من الأثر في الإقبال على الحياة وبنائها، أو العزوف عنها وإهمالها، وقد رأينا من خلال النصوص في هذا الغرض أنهم كانوا يتباينون في هذا الموقف، فمنهم من كانوا يتشبثون بالحياة ويأملون البقاء على قيد الحياة مدة أطول، منطلقين في ذلك من الجانب المادي للحياة، ومنهم من كانوا يؤمنون بأن الموت حق وأنه قدر لا بد منه إن عاجلاً أم آجلاً، فيستسلمون له، بل إن البعض منهم كان يتمناه، متخذين من العقيدة الإسلامية، في أغلب الأحيان، السبيل إلى ذلك.

ومن ناحية أخرى نرى القسم الأول منهم يودّعون الحياة آسفين، ويستقبلون الموت غاضبين، يذكرون الحياة بفخر وكبرياء، ويرجون خلود أثرهم الذاتي، ويتعلقون بما كان من ذلك فيها، فجاءت نصوصهم هذا أكثر حرارة وأشد عاطفة، وبينما نرى القسم الثاني يودّعون الحياة راضين، ويستقبلون الموت مطمئنين، نظراً لزهدهم في الدنيا وإيمانهم بضرورة الموت وانتظارهم الرحمة والغفران ونوال الجنة، فكانت نصوصهم تتسم بالرزانة والهدوء والسكينة وضعف العاطفة، بينما وقف قسم ثالث في حيرة بين حب الحياة والتعلق بها وبين القبول بقدر الموت والاستسلام له، وينتمي إلى هذا القسم أولئك الذين علّوا من الحياة كأساً هائلاً واقربوا من زمن فراقها وفي نفوسهم حب الفوز بالحياة معاً.

يقول ذو الوزارتين أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر وهو يستقبل الموت أسفاً خائفاً:

كَانَ الَّذِي خَفْتُ أَنْ يَكُونَ إِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَيَّ رَاجِعُونَ^(١)

أما الطول الطبيعي للعمر فكان يتراوح عندهم في الغالب، وكما يظهر في نصوصهم، بين الستين والسبعين، فإذا زاد عن هذا القدر تشاءموا وضاقوا بالحياة، ولعلمهم ينزعون بذلك منزعاً دينياً، مستندين إلى حديث الرسول الكريم محمد (ص):

(١) قلائد العقيان: ص ١٤٧.

"عُمَرُ أُمِّي مِنْ سِتِينَ إِلَى سَبْعِينَ سَنَةً"^(١)، وحديثه (ص): "مَنْ عَمَّرَ سِتِينَ سَنَةً أَوْ سَبْعِينَ سَنَةً فَقَدْ عُدَّزَ إِلَيْهِ فِي الْعُمَرِ"^(٢)، غير أنَّ عدد الستين يتردد في قصائدهم أكثر من أي عدد آخر.

هذا ابن خفاجة يقول وقد بلغ الستين من العمر:

ألا ساجلُ دموعي يا غماماً وطارحني بشجوك يا حماماً
فقد وفَّيْتُهَا سِتِّينَ حَوَلاً وناديتني ورائي هل أمام؟^(٣)

ولكنه لم يمت قبل بلوغه والثانية والثمانين (٤٥١-٥٣٣هـ).

يقول أبو جعفر أحمد بن محمد بن سعيد بن أبي حبل المعافري:

وقد جعلتُ لي السِتُّونَ قيداً وثيقاً مؤذناً بلحاقِ حَتْفِ^(٤)

أما بلوغ السبعين من العمر فيقول فيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن يخلف القيسي المعروف بابن النشا الوادي أشي:

وليس ذا منكراً على مَنْ مرت عليه سبعون عاماً
وعن قريبٍ أحلُّ قبراً أطيلُ في قعرهِ المَقامِ^(٥)

ويتعجبُ ابنُ عبد ربه عندما بلغ من العمر ما بلغه ابن خفاجة ولم يمت:

وما لي لا أبلَى لسبعين حجةً وعشرٍ أتت من بعده سنتان!^(٦)

(١) سنن الترمذي: رقم ٢٢٥٣.

(٢) مسند أحمد: رقم ٨٨٨٣.

(٣) ديوانه: ص ٦٥.

(٤) الكتيبة الكامنة: ص ١٠٨.

(٥) بغية الوعاة: ٤١٧/١.

(٦) جذوة المقتبس: ص ١٠٤، وبغية الملتبس: ص ١٥٠-١.

وبالجملة نرى أنَّ التشبث بالدين وبالعقائد يعظم في إطار الضعف السياسي،
وانحلال الدولة، ويضعف الشعورُ مع ذلك، بينما يقوى في إطار قوة الدولة ووسطوة
العوامل السياسية، ويضعف الاتجاه المتصل بالدين والعقائد مع ذلك، وهذا ما كان في
الأندلس على مرّ العصور والدويلات.

٥- توثيق جوانب من التاريخ السياسي

حفظتُ لنا نصوص رثاء النفس جوانب مهمة جداً من الحياة السياسية في الأندلس،
وأرّختُ لأحداثٍ سياسية كثيرة، ودلّتُ على ماجرياتٍ جديرة بالاهتمام في بلاطات
الملوك والحاكمين وأصحاب السلطة، وخاصةً عندما يكون الشاعر واحداً منهم، فضلاً
عما كان يحدث في الأندلس من فتن وحروب متواصلة^(١) وبذلك استطاعتُ هذه
النصوص أن ترقى إلى مرتبة الوثيقة التاريخية والسياسية..

وقد ورد أغلب هذه النصوص في موضع العقوبات التي تُنزلُ في الشاعر، أو
العقوبات التي يتوقّع الشاعرُ إنزالها فيه من لدن الحاكم، ويختلطُ فيها الاستشفاع
والاستعفاء والتوسّل والاعتذار باليأس من النجاة، وفي موضع زوال السلطة وأفول
السعد الذي لم يكن يساوي أقلّ من الحياة لدى الحاكمين.

٦- التاريخ لشعر الشاعر وحياته

كان لرثاء النفس في الشعر الأندلسي فضل معرفة آخر شعر قاله الشاعر، وليس بعد
الشعر الذي يقوله الشاعر وهو يعاني سكرات الموت مِن تال، وقد عثرنا على مجموعة
كبيرة من النصوص الشعرية التي كانت آخر ما نظمه أصحابها من شعر. وقد نصّرُ
المؤرخون على ذلك بعبارات مثل: "وأخر شيء قاله"، و"قال في العلة التي مات فيها"،
و"قال وهو مختضر"، و"قال في الليلة التي مات فيها"، و"كان ذلك آخر شيء قاله قبل
موته"، و"قاله قبل موته بشهر"، وهكذا، فضلاً عن ذكر الشعراء أنفسهم إلى ما بلغوه
من العمر بالسنين وهو كثير جداً.

(١) أنظر في ذلك كتاب الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي.

إنَّ مثل هذا الأمر يساعد الناقد ومؤرخ الشعر على دراسة مستوى تطور شعر الشاعر من نواحٍ مختلفة، أو تواريخ نظم القصائد، أو تواريخ وفيات الشعراء إذا لم يتم على ذلك دليل غير نصوصهم الشعرية.

يقول لسان الدين بن الخطيب في أثناء ترجمته لابن فرقد إبراهيم بن خلف بن محمد ابن الحبيب بن عبد الله بن عمر: "ومن شعره وهو حُجَّةٌ في ميلاده ووفاته:

ثمانون عاماً مع ستِّ عمُرْتُ وليتني	أرقتُ دموعي بالبكاء على ذنبي
فلا الدمعُ في محو الخطيئة غنية	إذا هاجَ من قلبٍ مُنيبٍ إلى الربِّ
فيا سامعَ الأصواتِ رحماكُ أرتجي	فهبْ لي انسكابَ الدمعِ مع رقة القلبِ
وزكِّ مقامي في العقودِ وكتِّبها	لوجهك لم أقبلْ ثواباً على كُتِّبِ
ولا تخزني يومَ الحسابِ وهولِهِ	إذا جئتُ مذعوراً من الهولِ والرعبِ ^(١)

٧- إسهام عليّة القوم

اشتملت قائمة الشعراء الذين أسهموا في رثاء أنفسهم مجموعة كبيرة من رؤساء القوم والملوك والحجّاب والأمراء وأصحاب الوزارتين وأصحاب الوزارة الواحدة والقوَّاد في العصور المختلفة، فضلاً عن مجموعة كبيرة من العلماء والفقهاء ورجال الدين، كما سئرى في الفصلين الثالث والرابع، وقد أثرى هذا الإسهامُ غرضَ الرثاء، فعرض طرائق تفكيرهم ومواقفهم من الحياة والموت، وأضاف إليه بواعث مهمة جديدة بالدرس والاهتمام.

كما دلَّت النصوص في هذا الشأن على تشابه العواطف والمواقف إزاء الموت بين العامة والخاصة، من حيث هو فقد وانتهاء، والفرق الذي يمكن أن يُشار إليه هنا هو أنَّ أغلب هؤلاء العلية يتشبثون بالحياة أكثر من أغلب العامة، لتعلقهم ببهرج الحياة، وزينتها، ونوالها، إذا استثنينا منهم، طبعاً، مَنْ رَهَدَ في الحياة.

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة: ٣٧٤ / ١.

٨- إسهام كبار الشعراء

لم يقتصر رثاء النفس على عامة الشعراء في الأندلس دون كبارهم والمشهورين منهم، بل كان هؤلاء الكبار الإسهام الفعّال، ولاسيما إذا كانوا من أصحاب الشأن في السياسة أو المجتمع، أو كانوا ذوي شهرة واسعة، ومكانة مرموقة في المجتمع. إن إسهام مثل هؤلاء الشعراء جعل من هذا الغرض غرضاً من الأغراض الرئيسة في الشعر العربي، فضلاً عن الشعر الأندلسي، وسوّج له أهميته الكبيرة بوصفه وعاءاً لموضوع حيوي إنساني يعبر فيه الشاعر عن أهم التجارب الإنسانية في مواجهة الموت.

٩- كثرة الشعراء

أسهم في هذا الغرض مجموعة كبيرة من الشعراء اقترب عددهم من المائتين، بحسب ما توصلنا إليه، ولن يكون هذا العدد، طبعاً، هو الأخير، فهو عدد سمح به البحث والاستقصاء وتوفر المصادر، فضلاً عما ضاع منها ولم يمكن العثور عليه، وهو كثير.

١٠- كثرة النصوص الشعرية

وقد وقف البحث والاستقصاء على مجموعة كبيرة جداً من النصوص الشعرية الخاصة بهذا الغرض، ولم يكن ذلك بسبب كثرة الشعراء وحسب، بل لأن كثيراً من الشعراء رثوا أنفسهم بأكثر من قصيدة واحدة أو بقصائد متعددة، مثل ابن زيدون وأبي بكر بن عمّار والمعتمد بن عباد. وسبب ذلك الرثاء المبكّر، حيث يظن الشاعر منهم أن موته قد أزف فيرثي نفسه، ثم يتأخّر أجله فيُضطر إلى رثاء نفسه مرةً أخرى، أو مرةً بعد مرة.

وهناك سبب آخر لتعدد الرثاء هو المصاب الجلل مثل المرض الطويل أو انتظار العقوبة، وفي كلتا الحالتين ينتظر الشاعر أجله المحتوم الذي قد يتأخّر، أو قد يتأخّر كثيراً أحياناً، وتُعدّ مدة الانتظار هذه بمثابة موتٍ مؤجّل يستحقّ الرثاء.

وقد اعتمدنا في هذا الكتاب على النماذج الشعرية التي تساعد على رسم صورة دقيقة لهذا الغرض في الأندلس، واستخلاص دلالاتها جميعاً، ولذلك تمّ اطّراح كثير من النصوص الشعرية لعدم توفرها على خاصّ.

يُضاف إلى ذلك ما اشترطناه على أنفسنا من تناول الشعر الخاص برثاء النفس في النصوص الشعرية دون تلك التي تتحدث عن الموت والحياة والوعظ بالتزام الدين وتنبيه الناس على الإعداد للموت ووصف الدنيا والآخرة والتذكير بعذابها وعذاب القبر وعاقبة الغافلين عن الإيمان الحق على أيدي الفقهاء والوعاظ ورجال الدين والزهاد والمتصوفين، ما لم يكن كلامهم ينصُّ على رثاء أنفسهم تحديداً وهم يواجهون قدر الموت، كما أشرنا إلى ذلك في المقدمة، ولذلك أهملنا مجرأً من النصوص هي خارج نطاق البحث، كما أهملنا الإشارة إلى مجموعة كبيرة من الشعراء الذين لم يرث أحدهم نفسه وإن كان رثى نفسه من خلال الجماعة، لأن فكرة هذا الكتاب تتناول تجربة مواجهة الفرد للموت، وليس مواجهة الجماعة له والتعبير عن هذه المواجهة من خلال فرد.

١١- الحضور المتواصل

كانت قصيدة رثاء النفس شديدة الحضور في جميع العصور والأجيال، ولم تسجل انقطاعاً يُذكر، ولم تشكل ظاهرة طارئة قابلة للاضمحلال أو الزوال، وأرى أن مثل هذا الأمر يساعد على ترسيخ هذا الغرض في الشعر العربي بوصفه غرضاً أصيلاً قائماً بذاته، يمكن الاعتداد به كواحد من الأغراض التي أثبتت جدارتها في الاستقلال عن بقية الأغراض، ويلفتُ النظر إلى دراسة مثيله في الشعر العربي في المشرق في العصور المختلفة، فضلاً عما له من خصوصية وطرافة.

١٢- قيمة النصوص الشعرية فنياً

توفّر البحث على مجموعة طيبة من النصوص الشعرية ذات الخصائص الفنية العالية بما اشتملت على قوة النظم، وجمال الأسلوب، وطرافة المعاني والتشبيهات، وحسن التأني للغرض، في وعاءٍ من رهاقة الأحاسيس وصدق التجربة، وقد خُصّصَ الجزء الخامس من هذا الكتاب ليحتفظ بأهم ذلك.

أخذ رثاء النفس في الشعر الأندلسي على عاتقه الكشف عن كثير من العادات والتقاليد الخاصة بالموت، مثل وصية الميت والصلاة عليه والدعاء له وتشيعه ودفنه وزيارة قبره وذكره والترحم عليه، فضلاً عن مواصفات القبر، وإمكان كتابة شعر الرثاء على شواهد القبور، ومنهم من يذكر اسمه في رثائه لنفسه ليكون على شهادة قبره، كما فعل أبو عبد الله بن باق:

ترحم على قبر ابن باقٍ وحَيِّهِ فَمِنْ حَقِّ مَيِّتِ الحَيِّ تَسْلِيمُ حَيِّهِ^(١)

وقد كانت ظاهرة كتابة رثاء النفس على شواهد القبور ظاهرة بارزة كبيرة جداً في الأندلس كما دلت عليها كثرة النصوص، بل نستطيع أن نقول إنها كانت تشكّل تقليداً متعارفاً عليه في المجتمع الأندلسي.

كشفت هذه الدراسة عن اهتمام الأندلسيين البالغ بالشعر، وعدم استغنائهم عنه في كل شأن من شؤون الحياة، بل إنه لم يفارقهم في أشد التجارب قسوة، وأعظم الأقدار بطشاً بالإنسان: الموت، ولم يكتفوا برثاء أنفسهم في موضع الاستشعار بالخطر أو دنو الرحلة الأبدية، بل نظموا الشعر في مختلف الحالات التي تتعلق بهذه القضية مثل الاحتضار، ونظم الشعر في آخر لحظة من لحظات العمر، ومعاناة الآلام الشديدة وأوجاع الأمراض، فضلاً عما ذكرناه من لحظات انتظار عقوبة الموت، وقد وقف الفصل الثاني من هذا الكتاب على عدد كبير من بواعث رثاء النفس، وبذلك كفاية للدلالة على أن رثاء النفس بالشعر يسير إلى جوار تفصيلات الحياة اليومية لدى الشاعر الأندلسي.

إن في ذلك دلالة عظيمة على حب الأندلسيين للشعر، وإقبالهم عليه في الظروف والأحوال المختلفة، ولم يتغير موقفهم منه أو احتفاؤهم به حتى آخر ساعة من وجودهم في الأندلس، وحتى وهم يواجهون الموت.

(١) نفع الطيب: ٦/ ٢٦٥.

لم يكن قصيدة الرثاء في الشعر الأندلسي مستودعاً لأحاسيس الشاعر وموقفه من الموت والحياة وحسب، بل لقد عمد جملة منهم إلى إيداعها ما اكتسبوه من ثقافات وخبرات في حيواتهم، ففضلاً عما أودعوه نصوصهم الشعرية من آي القرآن الكريم وعلوم الدين والفقه أودعوها كذلك أخباراً من التاريخ، ولح من العادات والتقاليد والأمثال والحكم وجانباً مما كان يُسمَح لهم من تفلسف وإمعان نظرٍ في أمور الكون والخلق ودواعي الحياة، وقد سَوَّع ذلك أن تكون مثل هذه النصوص طويلة.

وممن طَوَّلوا في رثائهم لأنفسهم على هذا النمط ابن شهيد وابن زيدون والألبيري وأبو بكر بن عمَّار والمعتمد بن عباد وأبو بكر بن رُحيم وابن همديس وأبو بكر بن عاصم وابن الجياب ويحيى بن هذيل وابن الخطيب.

١٦- تلون الإيقاعات

كان ابن رشيق يقول بأن "أصغر الشعر الرثاء، لأنه لا يُعملُ رغبةً ولا رهبة" ^(١)، ولكن الأمر اختلف لدى شعراء الأندلس، فقد رثى الكثيرون منهم أنفسهم تحت وطأة الرغبة في الحياة والرهبة في مواجهة الموت، كما سترى في ثنايا هذا الكتاب، ولا شك في أن رثاء النفس يفوق في جدِّيته رثاء الآخرين مهما بلغ قربهم من الشاعر، ولا سيما في موضع الخوف والجزع والتشبث بالحياة، وقد أشار حازم القرطاجني إلى نوع من الرهبة نراه ينطبق على رثاء النفس، بقوله: "وإذا كان الارتماض لضرار كانت تلك رهبة" ^(٢).

وقد عرفَ الرثاء لدى القدماء النظم على الأوزان الطويلة والثقيلة مثل الطويل والبسيط، ليكون متناغماً مع غرض الرثاء الذي يقتضي الجدَّة والرزانة، ثمَّ عُدَّ النظم على بعض الأوزان الرقيقة والرشيقة في هذا الغرض في القرن الثاني الهجري تطوراً وتجديداً،

(١) العمدة: ١/ ١٢١.

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ص ١٢.

نظراً لما أصاب المجتمع العربي آنذاك من تطور في الحضارة والتجديد في أساليب الحياة، وإن كان هذا التجديد في الرثاء محدوداً^(١)، غير أنه لم يكن كذلك في الأندلس، أعني أن التجديد في استخدام الأوزان الرقيقة والرشيقة في الرثاء في الأندلس لم يكن محدوداً.

ويبدو واضحاً من خلال تحليلنا لإيقاعات نصوص رثاء النفس في الأندلس أن الشعراء الأندلسيين لم يكونوا يفكرون بالأوزان الشعرية ساعة النظم، بل كانوا يتركون نفوسهم على سجيته، فجاءت نصوصهم موقّعة بحسب إيقاعات تلك النفوس التي تنتظر الموت من حيث الانفعال والهدوء، أو القلق والاطمئنان، أو اليأس والأمل، وغير ذلك من المشاعر المتضاربة، يحدهم في ذلك نفوس مطبوعة على قول الشعر حيث "لا يعتاص وزن الكلام على المطبوعين"^(٢).

إنّ الشعراء الأندلسيين أثبتوا بشكل تطبيقي من خلال غرض رثاء النفس بطلان نظرية مناسبة الأوزان للأغراض في الشعر التي روج لها القدماء والتزموا بها مدة طويلة، وتداولتها الأجيال، فما قد رأينا كيف نوّعوا في الأوزان واستخدموا أخفها وأكثرها رشاقة وإطراباً مع أنّ رثاء النفس أولى بأن يكون أكثر الأغراض الشعرية جدية.

ففضلاً عن الأوزان الطويلة والثقيلة والحادة مثل الطويل والبسيط والكمال استخدم الشعراء الأندلسيون الأوزان الخفيفة الرشيقة واللينّة الرقيقة مثل الرجز والرمّل والسريع والخفيف والوافر والمنسرح والمتقارب ومخلّع البسيط والمديد، بل لقد استخدم بعضهم وزن الخبب^(٣) وهو بحر سريع راقص. كما استخدموا مجزوءات الأوزان مثل مجزوء الكامل ومجزوء الرجز ومجزوء الرمل ومجزوء الوافر، بل إنّ ابن جبير استخدم وزن المديد ذا التفعيلات: فاعلاتن فاعلن فاعلاتن محذوفاً مخبوناً في العروض والضرب، أي في الصدور والأعجاز، حيث جعله: فاعلاتن فاعلن فعلن، وما ذاك إلا تخفيفاً للإيقاع وترقيقاً له. قال:

(١) ينظر: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري: ص ٤٦٦ وما بعدها.

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ص ٢٠٩.

(٣) أنظر: ابن حريق البلنسي حياته وآثاره: ص ١١٥.

رَبِّ إِنْ لَمْ تُؤْتِنِي سَعَةً
لَا أَحَبُّ اللَّبَثِ فِي زَمَنِ
فَهُمْ كَسْرٌ لِمُنْجَسِرٍ

فَاطِرٍ عَنِّي فَضْلَةَ الْعُمَرِ
حَاجَتِي فِيهِ إِلَى الْبَشْرِ
مَا هُمْ جَبْرٌ لِمُنْكَسِرٍ^(١)

أما القافية فلم يتقيد الشعراء الأندلسيون بنوع منه دون آخر وهم يرثون أنفسهم، فكان منها المقيد بكل أنواعه، والمطلق بكل أنواعه، ولم تكن لديهم تحديدات للموسيقى الخارجية لنصوصهم، بل لقد استخدم بعضهم القوافي النادرة مثل الثاء والطاء والغين، ليدلوا بذلك على تنوع قدراتهم وعلى استغلال الجوانب الفنية للكلام بكل طاقاته. قال ابن عمّار على قافية الثاء مخاطباً المعتمد بن عباد وقد تأكّد له مصيره على يديه:

لك المثل الأعلى وما أنا حارثُ
ولا شاركتك الشمسُ في وإنه
فديتك ما للبشر لم يسر برقه
أظن الذي بيني وبينك أذهبتُ
تنكرت لا أني لفضلك ناكرُ
ولكن ظنون ساعدتها نمائمُ
أبعد مضت خمس وعشرون حجة
مضت لم ترّب مني أمور شوائبُ
حللت يداً بي هكذا وتركتني
وهل أنا إلا عبد طاعتك التي
أعد نظراً لا توهن الرأي إنه

ولا أنا ممن غيرته الحوادثُ
ليأى بحظي منك ثانٍ وثالثُ
ولا نفحت تلك السجايا الدمائثُ
حلاوته عني الرجال الأخابثُ
لدي ولا أني لعهدك ناكثُ
كما ساعدت مثنى المثاني المثالثُ
تجافت بنا تلك الخطوب الكوارثُ
ولا ثليت مني مساع خوابثُ
نهاباً وللايام أيدي عوابثُ
إذا مت عنها قام بعدي وارثُ
قديماً نبأ هافٍ وأدرك رائثُ

(١) نفح الطيب: ٤٩٢/٢.

ستذكرني إنَّ بَانَ حُبْلِي وَأَصْبَحْتُ
وتطلبني إنَّ غَابَ للرأي حَاضِرُ
أعوذُ بعهدِ نطْئِهِ بكَ أنْ تَرى

تئنُ بِكفِّكَ الحبالُ الرثائثُ
وقد غابَ مِنِّي للخواطِرِ باعْثُ
تُحِلُّ عُرَاهُ العاقِداَتُ النوافِثُ^(١)

أما قافية الطاء فقد نظم ابن زيدون عليها قصيدته:

شَحَطْنَا، وما لِلدَّارِ نَأْيٌ ولا شَحْطُ
أَحْبَابِنَا أَلَوْتَ بِحَادِثِ عَهْدِنَا
لَعَمْرِكُمْ إنَّ الزَّمانَ الَّذِي قَضَى
وأما الكرى مُذْ لم أَرْزُكُم فَهَاجِرُ
وما شَوْقُ مَقْتُولِ الجِوانِحِ بالصَّدَى
بِأَبْرَحَ مِنْ شَوْقِي إِلَيْكُمْ، ودُونَ ما
وفي الرِّبْرِبِ الْإِنْسِيَّ أَحْوَى، كِناسُهُ
غَرِيبُ فَنونِ الحُسَنِ يَرْتاحُ دَرْعُهُ
كَأَنَّ فِؤادِي يَوْمَ أَهْوَى مودَّعاً
إِذا ما كِتَابُ الْوَجْدِ أَشْكَلَ سَطْرُهُ
أَلَا هَلْ أَتَى الْفَتِيانَ أَنَّ فَتَاهُمْ
وَأَنَّ الْجِوَادَ الْفائِتَ الشَّوْا صَافِنُ
وَأَنَّ الحُسَامَ الْعَضْبَ ثاوٍ بِجَفْنِهِ
عَلَيْكَ "أَبَا بَكْرٍ" بَدَرْتُ بِهِمَّةً

وَشَطُّ يَمَنْ نَهَوَى الْمَزارُ، وما شَطُّوا
حِوَادِثُ لا عَقْدٌ عَلَيْها ولا شَرَطُ
يَشَتْ جَمِيعُ الشَّمْلِ مِنْما لَمْ شَتَّ
زِيارَتُهُ غِيبٌ، وإِلِمامُهُ فَرَطُ
إِلَى نُطْفَةٍ زَرْقَاءَ أَضْمَرها وَقَطُ
أَدِيرُ الْمُنَى عَنْهُ الْقَتَادَةُ وَالْحَرْطُ
نِواحِي ضَمِيرِي، لا الْكُتَيْبُ ولا السَّقَطُ
مَتى ضاقَ دَرْعاً بِالَّذِي حازَهُ المَرَطُ
هَوَى خافِقاً مِنْهُ بِحَيْثُ هَوَى الْقُرَطُ
فَمِنْ زَفَرَتِي شَكْلٌ وَمِنْ عَبَرَتِي نَقَطُ
فَرِيسَةٌ مَنْ يَعْدُو وَنُهْزَةٌ مَنْ يَسْطُو
تَخَوُّنُهُ شَكْلٌ وَأَزْرَى بِهِ رِبْطُ؟
وما دُمَ مِنْ غَرَبِيهِ قَدْ ولا قَطُ
لِها الْخَطَرُ الْعالِي، وَإِنْ نالَها حَطُ

أَبِي بَعْدَ مَا هِيلَ التَّرَابُ عَلَى أَبِي
لَكَ النِّعْمَةُ الْخَضِرَاءُ تَنْدَى ظِلَالُهَا
وَلَوْلَاكَ لَمْ تَثْقُبْ زِنَادُ قَرِيحِي
وَلَا أَلْفَتْ أَيْدِي الرِّبْعِ بَدَائِعِي
هَرِمْتُ وَمَا لِلشَّيْبِ وَخَطٌّ يَمْفَرُقِي
وَطَاوَلَ سُوءُ الْحَالِ نَفْسِي فَأَذْكُرْتُ
مِثْنًا مِنَ الْأَيَّامِ خَمْسٌ قَطَعْتُهَا
أَتَتْ بِي كَمَا مَيَّصَ الْإِنَاءُ مِنَ الْأَذَى
أَتَدْنُو قُطُوفُ الْجَنَّتَيْنِ لِمَعْشَرٍ
وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنْ تُغَرَّرَ بِي السُّمْنَى
أَمَّا وَأَرْنِي النِّجْمَ مَوْطِئَ أَخْصِي
وَمُسْتَبْطِئِ الْعُتْبَى إِذَا قُلْتَ قَدْ أَتَى
وَمَا زَالَ يُدْنِي وَيُنْيِي قَبُولَهُ
وَنَظْمٌ كُنَاءٌ فِي نِظَامٍ وَلَائِهِ
عَلَى خَصْرِهَا مِنْهُ وَشَاحٌ مُفْصَلٌ
عَدَا سَمْعُهُ عَنِّي، وَأَصْغَى إِلَى عِدَا
بَلَغْتُ أَمْدَى إِذْ قَصَرُوا - فَقَلُوبُهُمْ
يُؤَلُّوْنِي غُرُضَ الْكَرَاهَةِ وَالْقِلَى
وَقَدْ وَسَمُونِي بِالنِّي لَسْتُ أَهْلَهَا
فَرَرْتُ، فَلِنْ قَالُوا الْفِرَارُ إِرَابَةٌ

وَرَهْطِي فَلَذَا حَيْثُ لَمْ يَبْقَ لِي رَهْطُ
عَلَيَّ، وَلَا جَحْدٌ لَدَيَّ وَلَا غَمْطُ
فَيَسْتَهْبُ الظُّلْمَاءُ مِنْ نَارِهَا سِقْطُ
فَمَنْ خَاطِرِي نَثَرٌ وَمِنْ رَوْضِهِ لَقْطُ
وَلَكِنْ لِشَيْبِ الْهَمِّ فِي كَيْدِي وَخَطُ
مَنْى الرُّوضَةِ الْعُتَاءُ طَاوَلَهَا الْقَحْطُ
أَسِيرًا، وَإِنْ لَمْ يَبْدُ شَدُّ وَلَا قَمْطُ
وَأَذْهَبَ مَا بِالثُّوبِ مِنْ دَرَنِ مَسْطُ
وَعَايِي السُّدْرُ الْقَلِيلُ أَوْ الْخَمْطُ؟
وَلِلْغُرِّ فِي الْعِشَاءِ مِنْ ظَنِّهِ خَبْطُ
لَقَدْ وَطَّأَتْ خَدِّي لِأَخْصَرِ مَنْ يَخْطُو
رِضَاهُ ثِمَادَى الْعَتَبِ وَاتَّصَلَ السُّخْطُ
هَوَى سَرَفٍ مِنْهُ وَصَاغِيَةً فَرَطُ
تَحَلَّتْ بِهِ الدُّنْيَا، لَأَلُّهُ وَسَطُ
وَفِي رَأْسِهَا تَاجٌ، وَفِي حَيْدِهَا سِمْطُ
لَهُمْ فِي أَدْيِي كُلِّمَا اسْتَمَكَّنُوا عَطُ
مَكَامُنْ أَضْعَانِ أَسَاوِدُهَا رُقْطُ
وَمَا دَهَرَهُمْ إِلَّا النَّفَاسَةُ وَالْعَمْطُ
وَلَمْ يُبْنِ أَمْثَالِي بِأَمْثَالِهَا قَطُ
فَقَدْ فَرَّ مُوسَى حِينَ هَمَّ بِهِ الْقَبْطُ

وإنني لراج أن تعود كبدئها
 وحلم امرئ تغفو الذنوب بعفو
 فما لك لا تختصني بشفاعة
 يفي بنسيم العنبر الورد نفحها
 فإن يسعف المولى فتعمى هنيئة
 وإن ياب إلا قبض مبسوط فضله

لي الشيمة الزهراء والخلق السبط
 وتُمحي الخطايا مثل ما محي الخط
 يلوح على دهري لميسمها علط
 إذا شعث المسك الأحم به خلط
 تُنفس عن نفس أظ بها ضغط
 ففي يد مولى فوقه القبض والبسط^(١)

كما نظم القاضي الشريف قصيدته مخاطباً نفسه:

أهزلاً وقد جدت بك اللمة الشمطا
 أغرك طول العمر في غير طائل
 رويداً فإن الموت أسرع وافد
 فإذا ذاك لا تستطيع إدراك ما مضى
 تأهب فقد وافى مشيبك منذراً
 فوافقت منه كاتب السر وأشيأ
 معمى كتاب فكك "احذر" فهذه
 وإن طالما خاضت به اللجج التي
 وما زلت في أمواجه متقلباً
 فقد أوشكت ثلثيك في قعر حفرة
 ولست على علم بما أنت بعدها

وأما وقد ساورت يا حية رقطا؟
 وسرك أن الموت في سيره أبطأ؟
 على عمرك الفاني ركائبه خطاً
 بحال، ولا قبضاً تطيق ولا بسطا
 وهاهو في فوديك أحرفه خطاً
 له القلم الأعلى يخط به وخطاً
 سفينة هذا العمر قاربت الشطاً
 خبطت بها في كل مهلكة خبطاً
 فأونة رفعا وأونة خطاً
 تشد عليك الجانبين بها ضغطاً
 ملأق، أرضواناً من الله أم سخطاً^(٢)

القصيدة.....

(١) ديوانه: ص ٢٨٥-٩٣.

(٢) نفح الطيب: ٥/٤٤٠.

أما قافية الغين فسياًتي الكلام عليها خلال حديثنا عن القصيدة الأنموذج.

إنَّ تلوُّن رثاء النفس بمثل هذه الإيقاعات، وعلى هذا النحو من الحرية في البناء يكشف عن نزوع الأندلسيين إلى التجديد في مجالات الشعر كافة، دون أن يتقيدوا بتحديدات سابقة مع التزامهم بالأصول، ونستطيع أن نضيف هذا إلى سلسلة إنجازاتهم في التجديد.

١٧- القصيدة الأنموذج:

استطاعت قصيدة رثاء النفس في الشعر الأندلسي أن تكون أنموذجاً يُحتذى، فنشأت ظاهرة بارزة في هذا النمط من الشعر هي ظاهرة المعارضات لازمتها منذ وقت مبكر جداً من تاريخه حتى وقت متأخر منه، وقوام ذلك أن يحتذي شاعرٌ شاعراً آخر فينظم على وزن قصيدة من قصائده وعلى قافيتها وموضوعها.

وأول قصيدة أنموذج كانت للغزال، وهي:

وَبَلَّلَ خَلْقِي كُلَّهُ وَبِرَانِي	أَلَسْتَ تَرَى أَنَّ الزَّمَانَ طَوَانِي
سَوَى اسْمِي صَحِيحاً وَحَدَّهُ وَلِسَانِي	تُحَيِّفُنِي غُضُوءاً فَعُضُوءاً فَلَمْ يَدْعُ
لَقَدْ بَلَّيَ اسْمِي لَامْتِدَادِ زَمَانِي!	وَلَوْ كَانَتْ الْأَسْمَاءُ يَدْخُلُهَا الْبَلَى
وَسَبَّحَ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا سِنَتَانِ	وَمَالِي لَا أَبْلَى لِتَسْعِينَ حِجَّةً
شُبَيْهُ ضَبَابٍ أَوْ شُبَيْهُ دُخَانٍ! ^(١)	إِذَا عَنَ لِي شَخْصٌ تَحْيَلُ دَوْنَهُ

وقد أصبحت هذه القصيدة أنموذجاً لعددٍ من الشعراء منهم أحمد بن عبد ربه الذي

قال:

طَوَيْتُ زَمَانِي بُرْهَةً وَطَوَانِي	كِلَانِي لِمَا بِي عَاذَلِي كَفَانِي
وَصَرَفَانٍ لِلْأَيَّامِ مَعْتُورَانِ	بَلَيْتُ وَأَبْلَثْنِي اللَّيَالِي وَكَرُّهَا

(١) ديوانه: ص ١١٢-١٣.

وما لي لا أبلَى لسبعين حجةً
فلا تسألاني عن تباريح علي
وإني بحمد الله راجٍ لفضله
ولست أبالي عن تباريح علي
هما ما هما في كلِّ حالٍ تلمُّ بي

وعشرٍ أتت من بعدها سنتان
ودونكما مئتي الذي ثريان
ولي من ضمان الله خير ضمان
إذا كان عقلي باقياً ولساني
فذا صارمي فيها وذاك لِساني^(١)

ومنهم أبو الحسن علي بن زيد النجار الكاتب الأشيلي إذ قال:

أما تشتفي مني صروفُ زماني
وحسب المنايا أن خلعتُ شبيتي
فغيضتُ أمواهَ الدموعِ بمقلتي
ونزّهتُ عن سَمعِ القيانِ مسامعي
فأشرقُ عُذري للنهي فعذرني
ولم تقنع الأيامُ حتى رميني
فطار فؤاد البرقِ يحكي جواني

وهلاً كفى الأيامُ أليّ فان؟
ولولا حذارِها خلعتُ عناني
وأخذتُ نيرانَ الجوى بجناني
وقدستُ عن بنتِ الدنانِ بناني
وأظلمَ في عيني الصبا فلحاني
بعرضِ شمامٍ أو بركنِ أبانٍ
وأرسلَ عينيهِ الحيا فبكاني

ومنها:

بدا لي أن الدهرَ ليسَ مصرّداً
وأبصرتُ ما بين المصارعِ مصرعي

كؤوسَ الردي أو يشربَ الملوانِ
سريعاً رماني الدهرُ أو متواني^(٢)

(١) بغية الملتبس: ص ١٤٩-١٥٠، ومطمح الأنفس: ص ٢٧٤-٥، والمطرب: ص ١٥٥=٦، ونفع الطيب: ٥٣/٧.

(٢) تحفة القادم: ص ٧٣-٧٤.

وقد أصبحت قصيدة أبي عثمان بن عبد ربه أمودجاً لعدد من القصائد، وهي:

أبعد نفوذي في علوم الحقائق
وفي حين إشراقي على ملكوته
وقد آذنت نفسي بتقويض رحلها
ولائي وإنْ نَقَبْتُ أو رَحْتُ هارباً
وطول انبساطي في مواهب خالقي
أرى طالباً رزقاً إلى غير رازقي؟
وأعنف في سوقي إلى الموت سائقي
من الموت في الآفاق فالموت لاحقني^(١)

فمن ذلك قصيدة ابن شهيد:

ولما رأيت العيش ولّى برأسه
تميّت أُنّي ساكن في غيابة
أذرت سقيط الحب في فضل عيشة
خليلي من رام المنيّة مرة
كأنّي، وقد حان ارتحالي، لم أفز
فمن مبلغ عني ابن حزم وكان لي
عليك سلام الله إني مفارق
فلا تنس تأبيني إذا ما فقدتني
وحرّك له بالله من أهل فننا
عسى هامتي في القبر تسمع بعضه
ولائي لأرجو الله فيما تقدّمت

وأيقنت أن الموت لاشك لاحقني
بأعلى مهبّ الريح في رأس شاهق
وحيداً، وأحسو الماء تُنّي المفالِق
فقد رُمّتها خمسين، قولة صادق
قديماً من الدنيا بلمحة صادق
يداً في ملّماتي وعند مضايقي
وحسبك زاداً من حبيب مفارق
وتذكّر أيامي وفضل خلائقي
إذا غيّبوني كلّ شهم غرانق
بترجيع شاذ أو بتطريب طارق
ذنوبي به مما درى من حقائقي^(٢)

(١) جذوة المقتبس: ص ٤٠٠، وبغية الملتبس: ص ٥٢٧.

(٢) ديوانه: ص ١٠١-٢.

وقصيدة أبي جعفر بن وضّاح التي منها:

فلا تعذلاني في تسرع مهجتي
إلى حَتَفِها بين القنا والفيالق
فلستُ مزيجاً من قنا اللحظ راحتي
ولا مُعْفِياً عن محمل السيف عاتقي^(١)

وقصيدة ابن الزقاق البلنسي:

أُمِّخواننا والموتُ قد حال بيننا
وللموتِ حُكْمٌ نافذٌ في الخلائق
سبقتُكم للموتِ والعمرُ ظِنَّةٌ
وأعلمُ أنَّ الكلَّ لا بدُّ لاحقي
بعيشكم أو باضطجاعي في الثرى
ألم نكُ في صَفْوٍ من السود رائق؟
فمن مرَّ بي فليمض بي مترحماً
ولا يكُ منسياً وفاء الأصادق^(٢)

وقصيدة أبي بكر الرندي الحكيم التي منها:

ولما رأيتُ الشيبَ حلَّ بمفرقي
نذيراً بترحال الشباب المُفارق
رجعتُ إلى نفسي فقلتُ لها انظري
إلى ما أرى، هذا ابتداء الحقائق^(٣)

ولأبي الوليد بن الفرضي قصيدته التي يقول فيها:

أسير الخطايا عند بابك واقفُ
على وجلٍ مما به أنتَ عارفُ
يخافُ ذنباً لم يغبْ عنك عيُّها
ويرجوك فيها فهو راجٍ وخائفُ
ومن ذا الذي يُرجى سواك ويُتقى
وما لك في فصل القضاء مُخالفُ
فيا سيّدي لا تُخزني في صحيفتي
إذا نُشرتْ يومَ الحسابِ الصحائفُ

(١) مطمح الأنفس: ص ٤٠٠.

(٢) ديوانه: ص ٢٠٥.

(٣) نفح الطيب: ٤٩٨/٥.

وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما
لئن ضاق عني عفوك الواسع الذي

يصد ذوو القربى ويجفو الموالف
أرجي لإسرافي فإني لتالف^(١)

وقد كانت هذه القصيدة أنموذجاً لأبي العباس الوقشي وقد وافقه في مفتحتها فقال:

أسير الخطايا عند بابك واقف
قديماً عصي عمداً وجهلاً وغرة
تزيد سنوه وهو يزداد ضلة
تطلع صبح الشيب والقلب مظلم
ثلاثون عاماً قد تولت كأنها
وجاء المشيب المنذر المرء أنه
فيا أحمد الخوان قد أدبر الصبا
فهل أرق الطرف الزمان الذي مضى
فجذ بالدموع الحمر حزناً وحسرة

له عن طريق الحق قلب مخالِف
ولم ينهه قلب من الله خائف
فها هو في ليل الضلالة عاكف
فما طاف فيه من سنا الحق طائف
حلوم تقضت أو بروق خوافف
إذا رحلت عنه الشيبة تالف
وناداك من سن الكهولة هائف
وأبكاه ذنب قد تقدم سالف
فدمعك يني أن قلبك آسف^(٢)

وقد عارضها كذلك العباس أحمد بن الغمار فقال:

هو الموت فاحذر أن يبيشك بغتة
وإياك أن تمضي من الدهر ساعة
ويادر بأعمال تسرك أن تُرى
ولا تياسن من رحمة الله إنه

وأنت على سوء من الفعل عاكف
ولا لحظة إلا وقلبك واجف
إذا نُشرت يوم الحساب الصخائف
لرب العباد بالعباد لطائف^(٣)

(١) نفح الطيب: ١٢٩/٢.

(٢) التكملة لكتاب الصلة: ٥٧/١، ونفح الطيب: ٥٩٩-٦٠٠.

(٣) نفح الطيب: ٣١٦/٤.

وقد رثى الرمادي نفسه بقصيدته التي يقول فيها:

على كبري تهمني السحابُ وتذرفُ	ومن جزعي تبكي الحمامُ وتهتفُ
كأنَّ السحابَ الواكفاتِ غواسلي	وتلك على فقي نوائحُ هُتُفُ
ألا ظننتُ ليلي وبانَ قطيئُها	ولكنني باقٍ فلوموا وعُتُفوا
ولأنستُ في وجهِ الصباحِ لبيزُها	نحولاً كأنَّ الصبحَ مثلي مُدُفُ
وأقربُ عهدٍ رشفةً بلَّت الحشا	فعادَ شتاءٌ بارداً وهو صيفُ
وكانتُ على خوفٍ فولتُ كأَها	من الردفِ في قيدِ الخلاخلِ ترسُفُ ^(١)

فكانتُ أنموذجاً احتذاه البليقي في قصيدته التي يقول فيها:

تأسَّفَ لكنَّ حينَ عزِّ التأسَّفُ	وكفكفَ دمعاً حينَ لا عينَ تذرفُ
ورامَ سطوناً وهو في رجلِ طائرٍ	ونادى بأنسٍ والمنازلُ تهتفُ
أراقبُ قلبي مرَّةً بعدَ مرَّةٍ	فألفيه ذِيَاكَ الذي أنا أعرفُ
سقيمٌ ولكنَّ لا يحسُّ بدائه	سوى مَنْ له في مآزقِ الموتِ موقفُ
وجاذبُ قلباً ليس يأوي لِمألفٍ	وعالجَ نفساً داؤها يتضاعفُ
وأعجبُ ما فيه استواءُ صفاته	إذا الهمُّ يشقيه أو السرُّ يُترِفُ
أقولُ وفي أثناءِ ما أنا قائلٌ	رأيتُ المنايا وهي لي تتخطَّفُ
ولإني مع الساعاتِ كيفَ تقلَّبتُ	لأسهمها إنَّ فوقتُ مُتَهَدَّفُ
وما جرَّذا التسويفَ إلا شيبتي	تُخِيلُ لي طولَ المدى فأسوفُ
إذا جاءَ يومٌ قلتُ: هذا الذي يلي	ووقتُكَ في الدنيا جليسٌ مخفَّفُ

(١) مطمح الأنفس: ص ٣٢٠.

أَقْدَمُ رَجُلًا عِنْدَ تَأْخِيرِ أُخْتِهَا
كَأَنَّ لِدَاتِي فِي مِرَاقِدِهِمْ وَلَمْ
وَهْنِي أَعَشْ هَلْ لِي إِذَا شَابَ مَفْرَقِي

وهي واحد وسبعون بيتاً.

أما ابن زيدون فقد رثى نفسه بقصيدته التي يقول فيها:

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَبْكِيَ الْغَمَامُ عَلَى مِثْلِي؟
وَهَلَا أَقَامَتْ أَنْجُمُ اللَّيْلِ مَاتِمًا
وَلَوْ أَنْصَفْتَنِي - وَهِيَ أَشْكَالُ هِمَّتِي -
وَلَا فَرَقَتْ سَبْعُ الثَّرَيَّا وَغَاضَهَا
لَعَمْرُ اللَّيَالِي إِنْ يَكُنْ طَالَ نَزْعُهَا
تَحَلَّلْتُ بِأَدَابِي، وَإِنْ مَارَبِّي
أَخْصَرْتُ لِفَهْمِي بِالْقَلْبَى، وَكَأَنَّمَا
وَأَجْفَى عَلَى نَظْمِي لِكُلِّ قِلَادَةٍ
وَلَوْ أَنَّنِي أَسْطِيعُ كَيْ أَرْضَى الْعِدَا
أَمْقُولَةَ الْأَجْفَانِ مَلَكِ وَالِهَا؟
أَقْلِي بُكَاءً، لَسْتُ أَوَّلَ حُرَّةٍ طَوْتُ
وَفِي "أُمِّ مُوسَى" عِبْرَةٌ إِذْ رَمَتْ بِهِ
لَعَلَّ الْمَلِيكَ الْمُجْمَلَ الصَّنْعَ قَادِرًا

وَيَطْلُبُ ثَأْرِي الْبَرْقُ مَنْصِلَتَ النَّصْلِ؟
لِتَنْدَبَ فِي الْأَفَاقِ مَا ضَاعَ مِنْ تَتْلِي
لَأَلْقَتْ بِأَيْدِي الذَّلِّ لَمَّا رَأَتْ دُلِّي
بِمَطْلَعِهَا مَا فَرَّقَ الدَّهْرُ مِنْ شَمْلِي
لَقَدْ قَرَطَسْتُ بِالتَّبْلِ فِي مَوْضِعِ التَّبْلِ
لَسَانِحَةً فِي عَرْضِ أُمْنِيَةِ عُطْلٍ
يَبِيتُ لِذِي الْفَهْمِ الزَّمَانُ عَلَى دُخُلِ
مَفْصَلَةِ السَّمُطَيْنِ بِالْمَنْطِقِ الْفُضْلِ
شَرِيتُ بَعْضَ الْجَلْمِ حِطًّا مِنْ الْجَهْلِ
أَلَمْ تُرْكِلِ الْأَيَّامُ نَجْمًا هَوَى قَبْلِي؟
بِالْأَسَى كَشْحًا عَلَى مَضَضِ الثَّكْلِ
إِلَى الْيَمِّ فِي التَّابُوتِ، فَاعْتَبِرِي وَاسْلِي
لَهُ بَعْدَ يَأْسٍ سَوْفَ يُجْمَلُ صُنْعًا لِي

(١) شعر البلقيي: ص ٥٠-٦٠.

والله فينا علمٌ غيبٌ، وحسبنا
 وإن رجائي في الهمام ابن جهورٍ
 همامٌ عريقٌ في الكرام، وقلمنا
 نهوضٌ بأعباء المروءة والثقي
 إذا أشكل الخطب الملم فإنه
 وذو ثدرٍ، للعزم تحت أناته
 يرف على التأميل لألاء بشره
 محاسن ما للحسن في البدر علة
 تُغص ثنائي مثلما غص جاهدًا
 وتغنى عن المدح - اكتناء يسروها -
 "أبا الحزم" إني - في عتابك - مائلٌ
 حمائم شكوى صبْحك هوادلاً
 جواد إذا استن الجياد إلى مدى
 ثوى صافناً في مربي الهون يشتكي
 أفي العدل أن وافتك تترى رسائلي
 أعدك للجلى، وأمْل أن أرى
 وما زال وعد النفس لي منك بالمتى
 أئن زعم الواشون ما ليس مزعماً
 وأصدي إلى إسعافك السافغ الجنى؟

به - عند جور الدهر - من حكم عدلٍ
 لمستحكّم الأسباب مستحصد الجبل
 ترى الفرع إلا مستمداً من الأصل
 سحوب لأذيال السيادة والفضل
 وآراؤه كالخظ يوضح بالشكل
 كمون الردى في فترة الأعين الثجل
 كما رف لألاء الحسام على الصقل
 سوى أنها باتت ثمل فيستملي
 سوار الفتاة الرود بالمعصم الحذل
 غنى المقلة الكحلاء عن زينة الكحل
 على جانب - تأوي إليه العلاء - سهل
 ثناديك من أفنان آدابي الهذل
 تمطر فاستولسى على أمد الحصل
 يتصهاله ما ناله من أذى الشكل
 فلم تترك وضعاً لها في يدي عدلٍ
 يعماك موسوماً، وما أنا بالغفل
 كأني به قد شمت بارقة المخمل
 تعذر في نصري وتعذر في خذلي
 وأضحى لدى إنصافك السابغ الظل

وغيرك رام العذرُ إبلاغَ سَمْعِهِ
ولو أنني واقعتُ عمداً خطيئةً
فلم أستزْ حربَ: الفُجارِ " ولم أُطعْ "
ومثلي قد تهفوَ به نَشوةُ الصِّبَا
وإني لَتَهاني تُهاي عَن التي
أأنكثُ فيكَ المدحَ مِن بعدِ قُوَّةِ
دَمَتُ إِذَا عَهْدَ الحِياةِ، ولا يَزَلُ
وما كنتُ بالمُهْدي إلى السُّودِ الحُنا
وما لي لا أنْسي بآلاءِ مُنعمٍ
هي النعلُ زَلْتُ بي، فَهَلْ أنتَ مُكْذِبُ
وهلْ لكَ في أنْ تشفعَ الطُّولُ شائعاً
أجِرْ أَعِدْ آمِنَ أَحْسَنِ ابدًا عِدِ اكفِ حُطُ
مُنَى - لو تَسْنَى عَقْدُهَا بيدَ الرضا -
ألا إِنَّ ظَنِّي بينَ فَعَلَيْكَ - واقِفٌ
فإنْ تُمنَ لي مِنكَ الأمانِي فَشِيمَةٌ
وإلا جَنيتُ الأُنسَ مِن وَحْشَةِ النوى
سَيَعْنَى بِمَا ضَيَّعْتُ مِنِّي حَافِظُ
وَأينَ جَوَابُ مِنكَ تُرضَى بِهِ العُلا

فَصَمَّ وَأصغَى للوقيعةِ والعَذَلِ
لما كان يدعَا مِن سجاياكَ أنْ يُملي
مُسيلمَةً " إِذْ قالَ: إني مِن الرُّسُلِ
ومِثْلِكَ مَنْ يَغفِرُ، وَمالِكَ مِنْ مِثْلِ
أَشادَ بِها الواشي، وَيَعْقِلُنِي عَقْلِي
ولا أَقْتَدِي إِلَّا بِناقِصَةِ العَزْلِ
مُمرّاً على الأَيامِ طَعْمُهُما المَحْلي
ولا بِالْمَسِيءِ القَوْلَ في الحَسَنِ الفِعْلِ
إِذا الرُّوضُ أَثْنَى بالنسيمِ على الطَّلِّ
لِقِيلِ الأَعادي إِلِها زَلَّةُ الحَسْلِ!
فَتَنجَحَ مَيَمُونُ النَقِيبَةِ أوْ تُبْلِي
تَحَفُّ ابْسطِ اسْتَأْلَفَ صُنْ أَحْمِ اصْطَنَعَ أَعْلِ
تَيْسَرُ مِنْها كُلُّ مُسْتَصْعَبِ الحَلِّ
وَقُوفَ الهوى بَيْنَ القُطِيعَةِ والوَصلِ
لِذاكَ الفَعالِ القَصْدَ والخُلُقِ الرُّسُلِ
وَهولِ السُّرى بَيْنَ المَطِيَّةِ والرُّحْلِ
وَيُلْفَى لِمَا أَرخَصْتَ مِن خَطَرِي مُغْلِي
إِذا سَأَلْتَنِي عَنْكَ أَلْسَنَةُ الحَفْلِ؟^(١)

(١) ديوانه: ص ٢٦١ - ٢٧٣.

فكانتُ أُمُودِجاً احتذاه ابن حمديس في قصيدته:

ننأَمُ من الأَيَّامِ في غَرَضِ الثُّبُلِ
وقد فرغتُ للقومِ في غَفَلَاتِهِم
أرى العالمَ العلويَّ يَفْنَى جميعُهُ
ويَبْقَى على ما كانَ مِن قَبْلِ خَلْقِهِ
وَيَبْعَثُ مَنْ تَحْتَ التُّرابِ وفوقَهُ
أرى الموتَ في عيني تَخْبِيلَ شَخْصُهُ
وكادتُ يَدُ مَنْهُ تَشُدُّ على يدي
وفي مدِّ أنفاسي لَدَيَّ وَجْزِهَا
ثمانونَ عاماً عِشْتُهَا ووجدْتُهَا
وإِنِّي لَحَيُّ القَوْلِ في الأملِ الذي
إذا اللهُ لم يَمْنَحْكَ خيراً، مُنِعْتُهُ
فيا سائلي عَن أَهْلِ ذَا العَصْرِ دَعُهُمُ
إذا خَلَلُ في الحَالِ مِنْكَ وَجَدْتُهُ
تَأَمَّلْتُ في عَقْلِي وَضعَفي فَقُلْ إذا
وَهَمُّ لَهُ حِمْلٌ على الهَمِّ ثَقُلُهُ
رَجَعْتُ إلى ذَكَرِ الحِمَامِ فَإِنَّهُ
وَكَمْ لِقَوَّةٍ مِنْ قُلَّةِ النِّيْقِ حَطَّهَا
وقسورة أَفْضَى إلى نَزْعِ رُوحِهِ
فما لِلرَّدَى مِنْ مَنَهِلٍ لا تُسَيِّعُهُ

وَتَغْدَى بِمُرِّ الصَّابِ مِنْهَا فَنَسْتَحْلِي
حَتُوفَ بِهِمْ تُمَسِي وتُصْبِحُ في شُغْلِ
إذا خَلَّتِ الدُّنْيَا مِنَ العَالَمِ السُّفْلِي
إِلَّا هَذَى أَهْلِ الضَّلَالَةِ بالرُّسُلِ
نشوراً، إِلَيْهِ الفَضْلُ، يا لَكَ مِنْ فَضْلِ
وَلِي عُمُرٍ في مِثْلِهِ يَتَّقِي مِثْلِي
وَرَجُلٌ لَهُ بِالقُرْبِ تَمْشِي على رِجْلِي
بِقَاءَ لِنَفْسٍ غَيْرِ مُتَّصِلِ الحَبْلِ
تَهْدُمُ ما تَبْنِي وتَفْضُ مَنْ تُعْلِي
إذا رُمْتُه أَلْفِيَّتُهُ مَيَّتَ الفَعْلِ
على ما تُعَانِيهِ مِنَ الحِذْقِ والثُّبُلِ
فبالْفِرْعِ مِنْهُمْ يُسْتَدَلُّ على الأَصْلِ
فإِيَّاكَ والتَّعْوِيلَ مِنْهُمْ على خِلِّ
سَلَّتْ: رَأَيْتُ الشَّيْخَ في عُمُرِ الطِّفْلِ
فيا لَيْتَهُ مِنْهُ على كَاهِلِ الكَهْلِ
لَهُ زَمَنٌ مِلاَنٌ بِالْعَذْرِ والخِثْلِ
إلى حَيْثُ تُفْنِيهَا الذَّبَابَةُ بِالْأَكْلِ
وَشَقَّ إِلَيْهَا بَيْنَ أُنْيَابِهِ العُصْلِ
وَوَارَاهُ يَسْغَى عَنِ العَلِّ بالنَّهْلِ^(١)

القصيدة...

وقد كان لابن سيدة علي بن إسماعيل النحوي اللغوي أنموذج هو قصيدته التي

يقول فيها:

سبيلٌ فإنَّ الأَمَنَ في ذاكَ واليُمنا	ألا هلْ إلى تَقِيلَ راحَتِكَ اليَمْنى
فلا غارِباً يُبْقِيَنَّ مِنْهُ ولا مَتنا	فَتَنْضَى هَمومٌ طَلَحَتْهُ خُطوبُها
هَواهُمُ، فَأَمْسَى لا يَقْرُ ولا يَهنا	غَرِيبٌ نَأى أَهلُوهُ عَنْهُ وَشَفَّه
على الوَرْدِ لا عَنْهُ أَذاذٌ ولا أَدنى	فيا مَلِكَ الأَملاكِ إِيَّيْ مُحوِّمٌ
لذي كَبِدٍ حَرَّى وذِي مَقْلَةٍ وَسَنى	ضَحِيتُ فَهَلْ في بَرْدِ ظِلِّكَ نَومَةٌ
إِلَيْكَ أَمَّا ذَوْنُ لَعْبِكَ أَمْ يَشَى؟	تَحَقَّقْتُ مَكروهاً وَأَقْبَلْتُ شاكِياً
فإِني سِيفٌ لا أَحَبُّ لَهُ جَفْنا	وإنْ تَتَأَكَّدُ في دَمي لَكَ نِيةٌ
فَقَدِّمًا غداً مِنْ بَرْدِ نَعْمائِكمُ سُخْنا	إذا ما غداً في حَرِّ سِيفِكِ بارداً
سَتَقْرَعُ ما عُمِّرْتُ مِنْ زَمَنِ سِرْنا	وهلْ هِيَ إلا ساعَةٌ ثُمَّ بَعْدُها
إذا في دَمي أَمْسَى سَنائِكَ مُسْتَنّا	وللَّهِ دَمْعِي ما أَقْلُ اسْتِنازِهِ
فَتَعْتَدُها نَعْمى عَلَيَّ وَيَمْتَنّا	وما لي مِنْ دَهْرِي حِياةً أَلَدُها
حَبِيبٌ إلينا ما رَضِيتَ بِهِ عَسّا ^(١)	إذا قَتَلَتْ أَرْضُكَ مَنّا فَهاتِها

وهي طويلة، وقد عارضها أبو بكر الصائغ بقوله:

أَقولُ لِنَفْسي حِينَ قَابلَها الرَدى	فراغتُ فِراراً مِنْهُ يُسَرى إلى يُمْنى
قَرى تَحْمِدي بَعْضَ الَّذي تَكرِهِيه	فقد طالَ ما اعتَدتِ الفِرارَ إلى الأَهْنى ^(٢)

(١) بغية الملتبس: ص ٤١٨ - ٤١٩، ومطمح الأنفس: ص ٢٩٢ - ٣، ونفع الطيب: ٢٧/٤ - ٢٨.

(٢) قلائد العقيان: ٧٣٧، والوافي بالوفيات: ٢/٢٤١، ونفع الطيب: ٧/٢٤.

وقال أبو محمد القاسم بن فتح بن يوسف بن الأريولي الحجاري:

إلى كم تقول ولا تفعل	وتغفل والموت لا يغفل
أأملت خلدًا؟ فهيئات أن	يرى المرء يُدرِك ما يأمل
أم الدهر غرَّك إمهالُهُ	ولو قد تحقَّقت ما يُمهِّل
أليس يُجزِّيك أجزاءهُ	وذلك من فعلِهِ الأعدل
ومن رام من ربِّهِ منزلاً	بغير التقى خائنه المنزل
كتاب عزيز به ناطق	وحسبكم الحكم الفيصل ^(١)

فقال أبو عمران المارثلي معارضاً:

إلى كم أقول ولا أفعل	وكم ذا أحوم ولا أنزل
وأزجر نفسي فلا ترعوي	وأنصح نفسي فلا تقبل
وكم ذا تعلل لي ويحها	بعل وسوف وكم تمطل
وكم ذا أوَّمل طول البقاء	وأغفل والموت لا يغفل
وفي كل يوم يُنادي بنا	منادي الرحيل ألا فارحلوا
أمن بعد سبعين أرجو البقا	وسبع أنت بعدها تعجل
كأن بي وشيكاً إلى مصرعي	يساقُ بنعشي ولا أمهل
فيا ليت شعري بعد السؤال	وطول المقام لما أنقل! ^(٢)

(١) أخبار وتراجم أندلسية: ص ٥٣-٥٤.

(٢) تحفة القادِم: ص ١٣٢-٣، والغصون اليا نعة: ص ١٣٦-٧، ونفح الطيب: ٢٩٦/٣.

وقال أبو الحسن غلام البكري:

ألاحت وللظلماء من دونها سِدْلُ
تكرتُ الدُّنَى والأهل فيها فليس لي
وأفردني صرفُ الزمانِ كأني
فيا ليت شعري هل مقامي لِنِيَّةٍ
وسير يخلّي المرءَ منه قريتهُ

عقبةُ برقٍ مثلما انْتُضي النصلُ
بها عقوةُ أوي إليها ولا أهلُ
طيرٍ من الهندي أخلصه الصقلُ
تصيحُ لإنجواها المطيَّةُ والرحلُ
فريداً كما خلّى تريكتهُ الرُّألُ^(١)

وهي طويلة، وقد كانت أمودجاً للمعتمد بن عباد وقد كان البكري من شعرائه، فنظم قصيدته:

بكيتُ إلى سرب القطا إذ مررن بي
ولم تكُ - والله المعيدُ - حَسادةُ
فأسرُحُ، لا شَملي صديق، ولا الحشا
هنيئاً لها أن لم يُفرَّقَ جميعُها
وأن لم تبتْ مثلي تطيرُ قلوبُها
وما ذاك مما يعتريني، وإنما
لِنفسي إلى لُقيا الحِمَامِ تَشوُّفُ
ألا عصمَ الله القطا في فراخِها

سَوارحُ، لا سجنُ يعوقُ ولا كِبْلُ
ولكنُ حيناً أنْ شكلي لها شكلُ
وجيعُ، ولا عينا يُكيهما كُلُ
ولا ذاقَ منها البُعدَ من أهلها أهلُ
إذا اهتزَّ بابُ السجنِ أو صلصلَ القفلُ
وصفتُ الذي في جيلةِ الخلقِ من قبلُ
سواي يُحبُّ العيشَ في ساقِه حَجْلُ
فإنْ فراخي خائها الماءُ والظلُّ^(٢)

وبعد أن نظم ابن الخلدّاد الوادي أشي قصيدته:

إلى الموت رُجعي بعد حينٍ فإن أُمْتُ
فقد خُلدتْ خُلدَ الزمانِ مناقبي

(١) الدخيرة: ٣٣٢/٢.

(٢) ديوانه: ص ١١٠-١١١.

وذكرى في الأفق طارَ كائهُ
ففي أيِّ علمٍ لم تبرّرْ سوابقي

احتذاها ابن خفاجة فقال:

يعيشك هل تدري أهوجُ الجُنائبِ
فما لُحْتُ في أُولَى المشارقِ كوكباً
وحيداً تُهاذني الفيافي فأجتلي
ولا جارَ إلا من حسامٍ مصَّمٍ
ولا أنسَ إلا أن أضاحك ساعةً
يليلٍ إذا ما قلتُ قد بادَ فانقضَى
سحبتُ الدياجي فيه سُودَ ذوائبِ
فمزقتُ جيبَ الليلِ عن شخصٍ أطلسِ
رأيتُ به قطعاً من الفجرِ أغبشاً
وأرعنَ طمَّاحَ الذؤابةِ باذخِ
يسدُّ مهبَّ الريحِ عن كلِّ وجهةٍ
وقورٍ على ظُهرِ الفلاةِ كائهُ
يلوثُ عليه الغيمُ سُودَ عمائمِ
أصختُ إليه وهو أخرسٌ صامتٌ
وقال ألا كم كنتُ ملجأً فاتكُ

يكلُّ لسانٍ طيبٌ عذراءَ كاعِبِ
وفي أيِّ فنٍّ لم تبرّرْ كتائي^(١)

نُخبٌ برحلي أم ظهورُ النجائبِ
فأشرقَتْ حتَّى جُبْتُ أُخرى المغاربِ
وجوهُ السمنيا في قناعِ الغياهبِ
ولا دارَ إلا في قُودِ الركائبِ
تُغورُ الأمانى في وجوهِ المطالبِ
تكشَفَ عن وعدٍ من الظنِّ كاذبِ
لأعتنقَ الآمالَ بيضَ ترائبِ
تطلّعَ وضّاحُ المضاحكِ قاطِبِ
تأملَ عن نجمٍ توقّدَ ثاقِبِ
يطاولُ أعنانَ السما بغاربِ
ويزحمُ ليلاً شُهْبُهُ بالمناكبِ
طوالَ الليالي مطرَقَ في العواقبِ
لها من وميضِ البرقِ حُمُرُ ذوائبِ
فحدّثني ليلَ السرى بالعجائبِ
وموطنَ أوّاهِ تَبَسُّلَ تائبِ

(١) مطمح الأنفس: ص ٣٣٧، ونفع الطيب: ٤٩/٤.

وَكَمْ مَرَّ بِي مِنْ مُدْلِجٍ وَمَوْؤَبٍ
وَلَا طَمَ مِنْ نُكْبِ الرِّيحِ مِعَاطِفِي
فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ طَوَّهْمُ يَدُ الرَّدَى
فَمَا خَفَقُ أَكْيَ غَيْرُ رَجْفَةٍ أَضْلَعِ
وَمَا غَيَّضَ السُّلُوانُ دَمْعِي وَإِنَّمَا
فَحَّيْتُ مَتَى أَبْقَى وَيُظْعَنُ صَاحِبُ
وَحَّيْتُ مَتَى أَرَعَى الْكَوَاكِبَ سَاهِرًا
فَرُحْمَاكَ يَا مَوْلَايَ دَعْوَةَ ضَارِعٍ
فَأَسْمَعْنِي مِنْ وَغْظِهِ كُلِّ عَبْرَةٍ
فَسَلِّ يَا أَبَكَيَّ، وَسَرِّ بِمَا شَجَا
وَقُلْتُ وَقَدْ نُكِبْتُ عَنْهُ لَطِيفَةٍ

وَقَالَ يَظْلِي مِنْ مَطْيٍ وَرَاكِبٍ
وَزَا حَمَ مِنْ خُضْرِ الْبَحَارِ جَوَانِي
وَطَارَتْ بِهِمْ رِيحُ النُّوَى وَالنَّوَابِ
وَلَا نَوْحُ وَرُقِي غَيْرُ صَرَخَةٍ نَادِبٍ
نَزَفْتُ دَمُوعِي فِي فِرَاقِ الْأَصَاحِبِ
أُودِعُ مِنْهُ رَاحِلًا غَيْرَ آيِبٍ؟
فَمِنْ طَالَعِ أُخْرَى اللَّيَالِي وَغَارِبٍ؟
يَمُدُّ إِلَى نُعْمَاكَ رَاحَةً رَاغِبٍ
يُتَرْجَمُ عَنْهُ لِسَانُ الثُّجَارِبِ
وَكَانَ عَلَى لَيْلِ السُّرَى خَيْرَ صَاحِبٍ
سَلَامٌ فَإِنَّا مِنْ مُقِيمٍ وَذَاهِبٍ^(١)

كما احتذاها أبو عبد الله محمد بن أحلى فقال:

خَلِيلِي قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ مَذَاهِي
وَضَاقَتْ جَفُونُ الْعَيْنِ عَنْ عِبْرَاتِهَا
وَشَبْتُ وَلَمْ أَبْلُغْ ثَلَاثِينَ حِجَّةً
دَعَانِي وَشَجَوِي وَالْأَسَى وَبِلَابِلِي
أَلْتَدُّ بِالْدُنْيَا وَأُرْنُو لِحَسَنِهَا
لَعَمْرِي لَقَدْ أَصْبَحْتُ سَكْرَانًا حَاتِرًا

وَكَفَكَفْتُ نَفْسِي عَنْ جَمِيعِ مَطَالِي
لَأَمْرٍ يَرَاهُ الْحَبْرُ ضَرْبَةً لَا زَبٍ
لِحِجَّةٍ جَبَّارٍ عَلَى الْخَلْقِ غَالِبٍ
وَلَا تَعْدِلَانِي فِي الدَّمُوعِ السَّوَاكِبِ
وَلَسْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَوْتِي بِآيِبٍ
جَدِيرًا بِمَا عِنْدِي، وَلَسْتُ بِشَارِبٍ^(٢)

(١) ديوانه: ص ٢١٥-٢١٧.

(٢) الحلة السيرة: ٢ / ٣١٦-٣١٧.

وكان المعتضد عباد بن محمد قد رثى نفسه بقصيدة منها قوله:

يُصَبِّرُنِي أَهْلُ الْمَوَدَّةِ دَائِباً وَإِنْ فَوَّادِي، وَالْإِلَهِ، صَبَّورُ
أَغَارُ عَلَى مَعْنَى الرِّئَاسَةِ، إِنِّي عَلَى كُلِّ حُسْنٍ فِي الزَّمَانِ غَيُورُ
أَصْرَفُ ذَهْنِي فِي أُمُورٍ جَلِيلَةٍ وَأَعْلَمُ أَنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ^(١)

فأصبحت هذه القصيدة أنموذجاً لغيره من الشعراء، ومنهم ابنه المعتمد، حيث قال:

غَرِيبٌ بِأَرْضِ الْمَغْرِبِينَ أَسِيرُ سَيِّبِكِي عَلَيْهِ مَنَبَرٌ وَسَرِيرُ
وَتَنْدُبُهُ الْبَيْضُ الصَّوَارِمُ وَالْقَنَا وَيَنْهَلُ دَمْعٌ بَيْنَهُنَّ غَزِيرُ
سَيِّبِكِي فِي زَاهِيهِ وَالزَّاهِرِ النَّدَى وَطُلَّابُهُ، وَالْعَرَفُ ثُمَّ نَكِيرُ
إِذَا قِيلَ فِي أَغْمَاتٍ قَدْ مَاتَ جُودُهُ فَمَا يُرْتَجَى لِلْجُودِ بَعْدَ نَشُورُ
مَضَى زَمَنٌ وَالْمَلِكُ مُسْتَأْنَسٌ بِهِ وَأَصْبَحَ عَنْهُ الْيَوْمَ وَهُوَ نَفُورُ
بِرَأْيٍ مِنَ الدَّهْرِ الْمُضِلِّ فَاسِدٍ مَتَى صَلَحْتُ لِلصَّالِحِينَ دَهْورُ
أَذَلُّ بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ زَمَانُهُمْ وَذُلُّ بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ كَثِيرُ
فَمَا مَأْوَها إِلَّا بَكَاءٌ عَلَيْهِمْ يَفِيضُ عَلَى الْأَكْبَادِ مِنْهُ بِحُورُ
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتُ لَيْلَةً أَمَامِي وَخَلْفِي رَوْضَةً وَغَدِيرُ؟
بِمُنْبَتَةِ الزَّيْتُونِ مَوْرُوثَةِ الْعُلَا تُغْنِي قِيَانًا أَوْ تَرْنُ طَيُورُ
بِزَاهِرِهَا السَّامِيِّ الذَّرَا جَادَةُ الْحَيَا تُشِيرُ الثَّرِيَّا نَحْوَنَا وَتُشِيرُ
وَيَلْحَظُنَا الزَّاهِي وَسَعْدُ سَعُودِو غَيُورِينَ وَالصَّبُّ الْمَحَبُّ غَيُورُ
تَرَاهُ عَسِيراً أَمْ يَسِيرُاً مَنْأَلُهُ أَلَا كُلُّ مَا شَاءَ الْإِلَاهُ يَسِيرُ
قَضَى اللَّهُ فِي حِمَصِ الْحِمَامِ وَبُعْثَرَتْ هُنَالِكَ مِثْلًا لِلنَّشُورِ قُبُورُ^(٢)

(١) الخلة السيرة: ٤٤/٢.

(٢) ديوانه: ص ٩٨-٩٩.

ومنهم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز فقال:

سكنْتُك يا دارَ الفناءِ مصدِّقاً
بأنِّي إلى دارِ البقاءِ أصيرُ
وأعظمُ ما في الأمرِ أنِّي صائرُ
إلى عادلٍ في الحكمِ ليسَ يَجورُ
فيا ليتَ شِعري كيفَ ألقاهُ بَعْدَها
وزادي قليلٌ والذنوبُ كثيرُ!
فلإنَّ ألكَ مَجْزِئاً بذنبي فإِنِّي
بحرٍّ عذابِ المذنبينَ جديرُ
وإنَّ يكَ عَفْوٌ - ثمَّ - عَنِّي ورحمةٌ
فَثمَّ نعيمٌ دائِرٌ وسرورُ^(١)

كما احتذاها المظفر عبد الملك بن عبد العزيز بن الناصر بن المنصور بن أبي عامر، وجعل مطلعها خاتمةً لقصيدته كما يفعل الوشاح في خرجة الموشح، فقال:

علمتُ بأنَّ الدائِراتِ تدورُ
وقد كُشِفَتْ مَنا هُناكَ بدورُ
ونادى مُنادي السِّينِ فينا ترحَّلوا
فطارَ فؤادٌ للفراقِ صبورُ
وُثِّرَ سِلْكُ طالٍ في الملكِ نَظْمُهُ
كذا كلُّ نَظْمٍ بالزمانِ ثَثيرُ
خرجنا من الدنيا وكانتْ بأسرِها
تُصيحُ لِمَ اَنومِي بِهِ وَثِثيرُ
نهضنا بها ما دامَ في السعدِ نَجْمُنا
فلما هوى جارتُ وليسَ مُجيرُ
فلا يَنسَ تسليمَ السَماطينِ مِسمعي
بحيثُ القَنا والمُرهفاتِ سَطورُ
وحيثُ بنو الآمالِ تَكرِغُ كالقَطا
وقد قامتِ المِدايحُ تَنثُرُ نَظْمُها
أثارَ به ركضُ الفوارسِ قَسطلاً
وللهِ يومٌ قد نهضتُ بِصدرِهِ
وقد زحرتُ للمكرماتِ بِحورُ
أثارَ به ركضُ الفوارسِ قَسطلاً
وحدولي من صَيدِ الكُماةِ صُقورُ
يُرضُّعُهُ للباتِراتِ قَتيرُ

(١) أبو الصلت: ص ٨٧.

وقد جال جرّارُ الذبولِ ممّاصعٌ
وقد صمّتْ الأسماعُ إذ طاشتْ التّهى
وأصدرتْ الراياتُ حُمراً كأنّها
ألا بأبي ذاك الزمانُ الذي مضى
تُصاحبُنا فيه الرزايا فتارةً
لقد أسخنَ المقدارُ طرفي بعدهُ
أيا مُهدياً نحوي التحيةَ عن نوى
فسلّه عن الماضين قبلي فإِنَّهُ
قلو أبصرتْ عيناك هَمّي حالكاُ
ومِن أدمعي زَهْرٌ تنائرَ غُصْنُهُ
لأنشدتُ مِن طولِ التفجّعِ والأسَى
"غريبٌ بأرضِ المغربينِ أسيرُ"

وطارَ إلى نهبِ النفوسِ مُغيرُ
وحامتْ على ما عودُتْهُ طيورُ
صدورُ حسانٍ مَسْهَنٌ عَيرُ
وتعساً لدهرٍ جاءَ وهوَ عَثورُ
تُصمُّ صمّاخاً أو تجيشُ صدورُ
وكم قرّاً بالآمالِ وهوَ قَيرُ
تُسائلُني، إنَّ الزمانَ خَيرُ
على كلِّ حالٍ لا يزالُ يَجورُ
وشُهبُ الدِياجِي في السماءِ تُسيرُ
ينكبأءُ يُزجِيها جوى وزفيرُ
وقد قُصرتْ عَنِّي مُنى وقُصورُ
سيبكي عليه منبرٌ وسريرُ" (١)

كما احتذاها ابن صفوان أحمد بن إبراهيم بن أحمد المالقي، فقال:

يقولون إنَّ الموتَ حَتْمٌ على الورى
فلا تَتَنَسَّم رِيحَ راحٍ لِفَقْدِهِ
فقلتُ: بلى حُكْمُ المَنِيَّةِ شاملٌ
ولكنْ لتَقديمِ الأعادي على الردى
وأمنٌ ينامُ المرءُ في بردٍ ظلّه

يديرُ صَغيرٌ كَأَسَهِ وكَيرُ
فإِنَّكَ عَن قَصدِ السبيلِ تحورُ
وكلُّ إلى ربِّ العبادِ يَصيرُ
نشاطٌ يعودُ القلبَ منه سرورُ
ولا حَياةٌ للحَقْدِ ثمَّ تَثورُ

(١) المغرب في حلى المغرب: ٣٠٢/٢-٣.

وحسبي بيت قاله شاعر مضي
" وإن بقاء المرء بعد عدوه

غدا مثلاً في العالمين يسيرُ:
ولو ساعة من عمره لكثيرُ ^(١)

واحتذاها ابن جلوط أبو زكريا يحيى بن السراج، فقال:

نَهاكَ نَذِيرُ الشَّيْبِ لو كُنتَ ترعوي
إلى كَمْ تُرَى عن نُصْحِ نَفْسِكَ مُعْرِضاً
أَرَى العَمَرَ وَلِي مُعْرِضاً عَنْكَ فَاغْتَنَمْ
وَبَادِرْ إلى الطَّاعَاتِ غَيْرَ مَقْصِرٍ
إِلَهِى أَجِرْنِي مِنْ عَذَابِكَ إِنَّهُ
وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ الحِسَابِ وَتُجَنِّي
نَدَبْتُ إلى الصَّفْحِ الجَمِيلِ فَجُدْ بِهِ
وَمَنْ يَجْبِرِي مِنْ قَبِيحِ إِسَاءَتِي
فَمَا ضَلَّ مَنْ آتَيْتَهُ رُشْدَ نَفْسِهِ

وَهَلْ بَعْدَ إِنْذَارِ المَشْيَبِ نَذِيرُ؟
وَتُصْغِي إلى الآمَالِ وَهِيَ غُرُورُ؟
بَقِيَّتُهُ إِنَّ البَقَاءَ عَسِيرُ
فَأَطُولُ أَيَّامَ الحَيَاةِ قَاصِرُ
عَذَابُكَ مَحْذُورٌ وَأَنْتَ مُجِيرُ
يَفْضِلُكَ إِنَّ الفَضْلَ مِنْكَ كَبِيرُ
فَأَنْتَ بِهِ يَا ذَا الجَلَالِ جَدِيرُ
فَعَبْدُكَ مِمَّا قَدْ جَنَاهُ كَسِيرُ
وَلَا ذَلَّ مَنْ وَالَاهُ مِنْكَ نَصِيرُ ^(٢)

أما نصّ محمد بن عبد الله بن الغازي بن قيس القرطبي التي منها:

الحمد لله ثم الحمد لله
يا ذا الذي هو في لهو وفي لعب
ماذا تُعَايِنُ هَـذِي العَيْنُ مِنْ عَجَبٍ

كَمْ ذَا عَنِ المَوْتِ مِنْ سَأْوٍ وَمِنْ لَأْوٍ
طَوْبَى لِعَبْدٍ حَقِيبِ القَلْبِ أَوْأَوْ
عند الخُروجِ مِنَ الدُّنْيَا إلى اللّهِ؟ ^(٣)

(١) الديباج المذهب: ص ٤٣.

(٢) الكنية الكامنة: ص ١٢٤-٥.

(٣) بغية الوعاة: ١/ ١٣٩.

فقد كان أتمودجاً للشاعر عبد الله بن عيسى بن عبد الله الشليبي الأندلسي الذي قال:
 الحمد لله ثم الحمد لله ماذا يرى المرء ذو العينين من عجب
 ماذا عن الموت من ساء ومن لاو عند الخروج من الدنيا إلى الله^(١)

ويبدو واضحاً أن أبا بحر صفوان التجيبي تأثر بأجواء هذا النص فنظم بيتين ولكن
 على وزن آخر:

قالوا وقد طال بي مدى زمي ولم أزل في تجرؤمي ساهي
 أعددت شيئاً ترجو النجاة به فقلت أعددت رحمة الله^(٢)

وقال أبو بكر مالك بن حمير:
 رحلت وإنني من غير زاد وما قَدِّمْتُ شيئاً للمعاد
 ولكّني وثقتُ بجود ربي وهل يشقى المقل مع الجواد^(٣)

فعارضه أبو الأصبغ عيسى بن محمد العبدي المعروف بابن الواعظ، فقال:
 رحلتُ بغير زادٍ للمعاد ولكّني نزلتُ على جواد
 ومن يرحل إلى مولى كريم فما يحتاجُ في سفرٍ لِزاد^(٤)

كما عارضه ابن الفضل الأريولي علي بن أحمد، فقال:
 فوا أسفاً أتدركني المنايا ولم أبلغ من الدنيا مرادي؟

(١) بغية الوعاة: ٥١/٢.

(٢) زاد المسافر: ص ٣٠.

(٣) تحفة القادِم: ص ٨٤.

(٤) تحفة القادِم: ص ٨٤.

وما هو غير أن أدعى وحسي

حيا الإخوان أو حرب الأعادي^(١)

وقد كانت قصيدة ابن الناظر الحسين بن عبد العزيز بن أبي الأحوص الغرناطي
أتمودجاً لمجموعة من القصائد، وهي:

رغبتُ عن الدنيا لِعلمي أنها
وقد لآخ في فودي شيبٌ على الردى
وأملتُ من مولاي نظرة رحمة
فأحظى إذا الأبرارُ قيلَ لهم غداً
رأيتُ بنيتهم ما رميتهم سهامها
فُعجتُ إلى دارِ البقاءِ بهمتي
محلُّ حياة المرء فيه بلاغٌ
دليلٌ وفيه ما أردتُ بلاغٌ
يكون بها مئتي إليه بلاغٌ
هلمُّوا إلى دار النعيم فراغُوا
فطاشتُ ولا حُمَّ الحمامُ فراغُوا
فغندي عنها راحة وفراعُ^(٢)

فمن ذلك قصيدة ابن جزي الكلبي محمد بن أحمد، وقد اتفقَ معه في تكرار كلمة
القافية في الأبيات الثلاثة الأولى:

لكل بني الدنيا مُرادٌ ومقصد
لأبلغ من علم الشريعة مبلغاً
وفي مثل هذا فلينافس أولو النهى
وإن مُرادِي صِحَّةٌ وبلاغٌ
يكونُ به لي في الجنان بلاغٌ
وحسي من دار الفناء بلاغُ^(٣)

وقصيدة أبي عبد الله محمد بن علي بن يوسف السكوني:

أمن بعد ما لآخ المشيبُ بمفرقي
أميلُ لزورٍ بالغرورِ يُصاغُ

(١) زاد المسافر: ص ٨١.

(٢) بغية الوعاة: ١/ ٥٣٦.

(٣) نفح الطيب: ٥/ ٥١٥.

وَأَرْتَا حُ لِلذَّاتِ وَالشَّيْبُ مَنْذَرٌ
وَمَنْ لَمْ يَمُتْ قَبْلَ الْمَشْيِبِ فَإِنَّهُ
فِيَا رَبِّ وَفَّقْنِي إِلَى مَا يَكُونُ لِي

وقصيدة أبي علي بن سليمان القرطبي:

أَلَا هَلْ إِلَى مَا أَرْضِيهِ بِلَاغٌ
وَقَدْ قَطَعْتُ دُونِي قَوَاطِعُ جَمَّةٌ
وَمَا لِي إِلَّا عَفْوُ رَبِّ وَفَضْلُهُ

وقصيدة أبي البركات بن الحاج:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ لِي مَا أُرْتَجِي
وَكَيْفَ لِمِثْلِي أَنْ يَنَالَ وَسِيلَةٌ
وَكَمْ رَمْتُ دَهْرِي فَتَحَ بَابَ عِبَادَةٍ
فَكَدْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكَيْفَ وَلَيْسَ لِي
لَأَصْبَحْتُ مِنْ قَوْمٍ دَعَاهُمْ إِلَى الرِّضَى
أَبَاغُ تَرَى أَخْرَاهُ مِنْ يَزْدَهِيهِ مِنْ
وَيَضْرِبُ صَفْحًا عَنْ حَقِيقَةِ مَا طَوَتْ
إِذَا مَا بَدَا لِلرَّشْدِ نَهْجُ بَيَانِهِ
فِيَا رَبِّ بَرِّدْ الْعَفْوَ هَبْ لِي إِذَا غَلَّتْ

بِمَا لَيْسَ عَنْهُ لِلْأَنَامِ مَرَاغٌ
يُـرَاغُ يَهْوِلُ بَعْدَهُ وَيُـرَاغُ
بِهِ لِلَّذِي أَرْجُوهُ مِنْكَ بِلَاغٌ^(١)

وَكَيْفَ يُرَى يَوْمًا إِلَيْهِ بِلَاغٌ
أُرَاغُ لَهَا مَهْمَا جَرَتْ وَأُرَاغُ
فَفِيهِ إِلَى مَا أُرْتَجِيهِ بِلَاغٌ^(٢)

مَنْ اللَّهُ فِي يَوْمِ الْجَزَاءِ بِلَاغٌ
لَهَا عَنْ سَبِيلِ الصَّالِحِينَ مَرَاغٌ
يَكُونُ بِهَا فِي الْفَائِزِينَ مَسَاغٌ
الْمُعِينَانِ فِيهَا صَحَّةٌ وَبِلَاغٌ
مَنَادِي الْهُدَى فَاسْتَنْكِرُوهُ فَرَاغُوا
زُخَارِفِ دُنْيَاهُ الدُّنْيَا بِلَاغٌ
فِيْلَهِيهِ زُورٌ قَدْ أَتَتْهُ مُصَاغٌ
يُـرَاغُ بِهِ عَنْ وَحْشَةٍ فُيـرَاغُ
مَنْ الْحَرِّ فِي يَوْمِ الْحِسَابِ دِمَاغٌ

(١) الكتيبة الكامنة: ص ٦١، ونفع الطيب: ٥١٦/٥.

(٢) نفع الطيب: ٤٧٤/٥.

ومن خجلٍ للوجدِ فيه صباغٌ
وُعظت به لو ترعوين بلاغٌ^(١)

فمن حُرّقٍ للنفسِ فيه لواعجٌ
وعظتْكَ نفسي لو أنبتِ، وفي الذي

وهكذا.....



واستناداً إلى أهمية ما حققه هذا النمط من الشعر في الأندلس من ثراءٍ كان من آياته
أن أصبح وعاءً لتجارب إنسانية واجتماعية وفكرية ذات قيمة عالية، فإنَّ بإمكاننا أن نَعُدَّ
رثاء النفس في الشعر غرضاً قائماً برأسه يُضاف إلى أغراض الشعر العربي، وله أن يُضاف
إلى الإنجازات الأخرى التي حققها الأندلسيون في الأدب والشعر.

(١) نفح الطيب: ٤٧٤/٥.

الفصل الثاني

بواعث رثاء النفس في الشعر الأندلسي

لقد كان وراء رثاء الشعراء الأندلسيين لأنفسهم مجموعة من البواعث تضافرت لتجعل من هذا الغرض الشعري ظاهرةً جديرة بالدرس والتحليل، أمام الباحث المتبع في الأقل، وقد وقفنا على هذه البواعث وأمكننا حصرها في ثلاثة اتجاهات تبينت لنا على الوجه الآتي:

الاتجاه الأول: الإحساس بقرب الموت:

وقد بدا لنا هذا الاتجاه ملياً في عدة بواعث:

١- الشيخوخة:

الشيخوخة هي من أكثر البواعث شيوعاً ونغمةً في العصور والأمكنة المختلفة، وقد تعامل معها الناس، فضلاً عن الشعراء، وكأنها معادل موضوعي لانتهاؤ مسيرة الحياة، أو لحلول الموت وشيكاً، ولم يكن الشعراء الأندلسيون على غير هذه الشاكلة، إذ يستوي بنو البشر في مثل هذا الإحساس مهما تفاوتوا في المنزلة والطبقة، أو في الزمان والمكان، أو في الجنس والمعتقد. إنهم عبروا عن متفاوت الأحاسيس، ومتضارب المشاعر، في الحالات والظروف الإنسانية المختلفة التي تشبث بأدنى ما له علاقة بهذا الموضوع.

ومن ذلك إحساسهم بالشيخوخة المؤدية إلى الموت من حيث الزمن، أو مبلغ العمر من السنوات، وقد تفاوتوا فيه غاية التفاوت، إذ قد لا نرى عجباً في أن يرثي الشاعر نفسه بعد إشرافه على العام المائة من عمره، كما هو الحال لدى يحيى الغزال، حيث يقول:

أَلَسْتُ تَرَى أَنَّ الزَّمَانَ طَوَانِي وَبَدَلُ خَلْقِي كُلُّهُ وَبِرَانِي
وَمَالِي لَا أَبْلَى لِتَسْعِينَ حِجَةً وَسَبْعَ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا سِتَانٌ^(١)

أو بعد أن يتجاوز الثمانين قليلاً، كما هو الحال لدى أحمد بن عبد ربه الأندلسي، إذ قال "قبل موته بأحد عشر يوماً"^(٢)، "وهو آخر شعرٍ قاله"^(٣):

(١) ديوانه: ص ١١٢.

(٢) المطرب: ص ١٥٥.

(٣) بغية الملتبس: ص ١٥٠، وينظر كذلك: الوافي بالوفيات: ٨/ ١٣.

كلاني لما بي عاذلي كفاني
طويتُ زماني برهةً وطواني
ومالي لا أبلى لسبعين حجةً
وعشر أئت من بعدها ستان^(١)

أو قد بلغها أو كاد، كما هو الحال لدى ابن أبي عقيل الحريري في قوله:
إن الثمانين وتعدادها
مراحل تُلْذني إلى الآخره
أراعُ إن عددت أيامها
من زلة أو قدم عاثره^(٢)
أو قوله:

إن الثمانين وتعدادها
جذرٌ إليه ينتهي الكاسبُ
عمرٌ خليقٌ بالحجي والنهي
لكنه منقطعٌ ذاهب^(٣)
أو قوله:

وسائل يسألني كم مضى
جزت الثمانين فقلتُ انقضى
حسابُ عمرٍ ليت أيامه
علقتُ منها بجمال الرضى^(٤)

وكما في قول القاضي أبو العباس أحمد بن الغماز البلنسي متسائلاً:
أليس الثمانون قد أقبلتُ
فلم يُبقِ في لذةٍ مَطْمَعاً؟^(٥)

(١) ديوانه: ص...، وينظر: بغية الملتبس: ص ١٥٠، ومطمح الأنفس: ص ٢٧٤، ونفح الطيب: ٥٣/٧.

(٢) الوافي بالوفيات: ٣٢٥/٧.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه: ٣٢٤/٧.

(٥) نفح الطيب: ٣١٦/٤.

وقد أسهم مجموعة من الشعراء في رثاء أنفسهم عندما بلغوا سنَّ السابعة والسبعين، وكلهم يملّون البقاء على قيد الحياة بعد بلوغهم هذا العمر عن طريق التساؤل، منهم مريم بنت أبي يعقوب الفصولي الشلي التي عُمِرَتْ طويلاً كما يقول الحميدي^(١) (ت ٤٨٨هـ)، ولا بد من أنها رثت نفسها قبل أن تُعمر، ورأت أن لا أمل ولا رجاء بعد بلوغ هذا العمر، تقول:

وما ترتجي من بنت سبعين حجةً وسبع كنسج العنكبوت المهلهل؟^(٢)

وأبو بكر بن المنخل الشلي الذي لم يجد غير أن ينتظر الموت الذي لا بد منه ، ويتساءل عن موعد حلوله، في آخر شعرٍ قاله:

مضت لي سبعٌ بعد سبعين حجةً ولي حركاتٌ بعدها وسكونٌ
فيا ليت شعري أين أو كيف أو متى يكون الذي لا بد أن سيكون؟^(٣)

وأبو عمران المارتلي الذي يتهيأ له حلول الموت وشيكاً، ويُخَيِّلُ إليه كيف يُحمَلُ على نعشه، ويُسألُ في قبره:

إلى كم أقولُ ولا أفعلُ وكم ذا أحومُ ولا أنزلُ
وأزجر عيني ولا ترعوي وأنصح نفسي ولا تقبلُ
وكم ذا تُعللُ لي ويحها يعلّ وسوفَ وكم تطلُ
وكم ذا أوْمَلُ طولَ البقاء وأغفلُ والموتُ لا يغفلُ
وفي كل يومٍ يُنادى بنا مُنادي الرحيل ألا فارحلوا

(١) ينظر جذوة المقتبس: ص ٤١٢.

(٢) نفسه، وينظر الشعر النسوي في الأندلس: ص ٦٥.

(٣) زاد المسافر: ص ١٣٠، وفي نفح الطيب: ٤/ ١١٧: ست وسبعون.

أَمِنْ بَعْدِ سَبْعِينَ أَرْجُو الْبَقَاءَ وَسَبْعٍ أَتَتْ بَعْدَهَا تُعْجِلُ؟
كَأَنْ بِي وَشِيكاً إِلَى مَصْرَعِي يُسَاقُ بِنَعَشِي وَلَا أَمَهْلُ
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي بَعْدَ السُّؤَالِ وَطُولِ الْمَقَامِ لِمَا أُنْقَلُ؟^(١)

أما بلوغ السبعين من العمر، أو بعده بقليل، فقد كان حافزاً لكثير من الشعراء الأندلسيين لرثاء أنفسهم، من أولئك أبو عبد الله محمد بن أمية الجياني إذ يرى أنه مقبلٌ على الموت حيث لم يبقَ من الحياة إلا القليل، يقول:

أَيُّ عَذْرِ يَكُونُ لِي أَيُّ عَذْرِ لَا بِنِ سَبْعِينَ مَوْلَعٍ بِالصَّبَابَةِ
وَهُوَ مَاءٌ لَمْ تُبْقِرْ مِنْهُ اللَّيَالِي فِي إِنْءَاءِ الْحَيَاةِ إِلَّا صُبَابَةٌ^(٢)

ومنهم أحمد بن محمد بن عمر التميمي المري المعروف بابن ورد الذي يعبر عن تأكده من دنو الموت في قوله:

عَشْرَ الثَّمَانِينَ وَعَمْرٌ طَوِيلٌ لَمْ يَسْبِقْ لِلصَّحْبَةِ إِلَّا الْقَلِيلُ
لَا تَحْسِبُونِي ثَاوِيّاً فَيْكُمْ فَقَدْ دَنَا الْمَوْتَ وَحَانَ الرَّحِيلُ^(٣)

ومن رثوا أنفسهم عند بلوغهم الستين أو أكثر قليلاً، الفقيه منذر بن سعيد البلوطي الذي انقطع أمله من الحياة الدنيا بعد أن بلغ الثالثة والستين، فقال محدثاً نفسه:

ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ قَدْ جَزَتْهَا فَمَاذَا تَوَمَّلُ أَوْ تَنْتَظِرُ؟
وَحُلٌّ عَلَيْكَ نَذِيرُ الْمَشِيبِ فَمَا تَرَعُوي أَوْ فَمَا تَزْدَجِرُ

(١) تحفة القادِم: ص ١٣٣، والمغرب في حلى المغرب: ١/ ٤٠٧، والغصون اليا نعة: ص ١٣٧.

(٢) بغية الوعاة في طبقات النحاة: ١/ ٥٨.

(٣) تحفة القادِم: ص ٣٣، والوافي بالوفيات: ٨/ ٧٢.

تمرُّ لياليك مَرّاً حيثُ
فلو كنتَ تعقلُ ما ينقضي
فما لكَ لا تستعِدُّ إذا
أترغبُ عن فجأةٍ للمَنونِ

وأنتَ على ما أرى مُستمرٌّ
من العمرِ لا عتضتَ خيراً بشرُّ
لِدارِ المُقامِ ودارِ المَقَرِّ
وتعلمُ أنَ ليسَ منها مفرٌّ؟^(١)

وأحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي وقد ذكره بلوغه الستين بأنه لابدَّ هالكٌ
مُفارقٌ الحياة، فهانَ عليه كلُّ شيءٍ، يقول:

أتني من الأيام ستون حجةً
تذكرتُ أني هالكٌ وابنُ هالكٍ
وما أمسكتُ كفي بثني عناني
فهانتُ عليَّ الأرضُ والثقلانُ^(٢)

ومثله في هذا ابن خفاجة وقد طلبَ من عناصر الطبيعة أن تشاركه رثاءه لنفسه
لِتخففَ عليه وطأة الإحساس بالموت وتوديع الدنيا، حيثَ ليسَ من بعد الستين مِن
أملٍ في الحياة :

ألا ساجلُ دموعي يا غَمامُ
فقد وفَّيْتُها ستينَ حَولاً
وطارخني بشجوك يا حَمَامُ
ونادِني ورائي هلْ أَمَامُ؟^(٣)

ومثلهما الألبيري محدثاً نفسه حيث يقول:

قد بلغتَ الستينَ ويحكُ فاعلمُ
أنَّ ما بعدها عليكَ تلَوُّمٌ^(٤)

(١) مطمح الأنفس: ص ٢٤٩.

(٢) أخبار وتراجم أندلسية: ص ١٠.

(٣) التكملة لكتاب الصلة: ١/ ١٢٥.

(٤) ديوانه: ص ٥٦.

وهكذا فعل القاضي أبو الوليد الباجي، حيث يقول متحدثاً عن عمره الذي يراه قد انقضى أو ضاع بحلول الستين:

وضيَّعته سيِّئاً عاماً أعدّها وما خيرُ عمرٍ إنّما خَيْرُهُ العَدُّ^(١)

ولكننا قد نعجب ممن كان يرى أن بلوغ الأربعين عاماً من العمر كفيلاً بتوديع الحياة ورثاء النفس، ذلك هو عبد الكريم القيسي الأندلسي البسطي حيث يقول:

مرور الأربعين أطارَ نومي وأجرى فوقَ صفح الخدِّ دمعي
وعلمي بالرحيل غداً وتركني مِن أهلي مَن غدا بصري وسمعي^(٢)

بل إنَّ منهم رثى نفسه عند بلوغه الثلاثين من عمره، ومن هؤلاء أبو العباس الأقلشبي بقوله:

ثلاثون عاماً قد تولَّتْ كأنها حُلُومٌ تقضَّتْ أو بروقٌ خواطفُ
وجاء المشيبُ المُنذرُ المرءُ أنه إذا رحلتْ عنه الشبيبة تالفُ^(٣)

أما ابن سُرّاقة الشاطبي، فقد ذهب إلى أبعد من ذلك عندما رثى نفسه وهو في سنِّ الخامسة والعشرين، وكان يظنُّ أنه لن يعيش أطول من ثلاثين عاماً، فرثى نفسه قبل خمس سنواتٍ مما كان يظنُّ، ولكنه عاش بعد رثائه لنفسه خمسةً وأربعين عاماً أخرى، وكان قد بلغ السبعين من العمر، قال:

وقد مرَّ لي خمسٌ وعشرون حجةً ولم أرضَ فيها عيشتي فمتى أرضى؟
وأعلمُ أني، والثلاثون مُدتي، حَرِّمَ غاني اللهو أوسعها رَفَضاً^(٤)

(١) الغنية: ص ١٥٤.

(٢) ديوانه: ص ٤١١، وينظر: البسطي آخر شعراء الأندلس: ص ٤٠.

(٣) التكملة لكتاب الصلة: ٣٢٥/١.

(٤) نفح الطيب: ٦٤/٢، وتاريخ الأدب العربي (عمر فروخ): ٢٣٦/٦، وتراجم مغربية من مصادر مشرقية: ص ١٢٤.

ومن الشعراء من يشير إلى الشيخوخة دون أن يلمع إلى مقدار ما بلغه من العمر، وقد تفاوتوا أيضاً في التعبير عن ذلك، ومن أولئك محمد بن عبد الله المرسى السلمي الذي رأى أنه قد بلغ الكبر ولا بد من قدوم الموت، حيث يقول:

قالوا محمد قد كبرت وقد أتى داعي المنون وما اهتمت يزاد^(١)

ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر الإشبيلي الذي رأى في النظر إلى المرأة متلمساً لبلوغ هدفه من التعبير عن الشيخوخة، وأن لا سبيل إلى البقاء على قيد الحياة:

إنني نظرتُ إلى المرأة إذ جُلِيتُ فأنكرتُ مقلتاي كل ما رأيتُ
رأيتُ فيها شيئاً لستُ أعرفُهُ وكنتُ أعهدُهُ مِن قبل ذاك فتى
فقلتُ أين الذي مثواه كان هنا متى ترحلَ عن هذا المكان متى؟
فاستجھلتني وقالتُ لي وما نطقْتُ قد كان ذاك وهذا بعد ذاك أتى
هَوْنٌ عليكَ فهذا لا بقاء له أما ترى العشبَ يفنى بعدما نَبَّأ؟^(٢)

ومنهم القاضي أبو العباس أحمد بن الغماز البلسي الذي يرى في طول حياته، وإن لم يذكر مقدار ما بلغته من السنين، مبرراً كافياً لتوديع الحياة واستقبال ربه بالاستغفار والدعاء، فهو يقول وكان ذلك يوم وفاته فعلاً:

أدعوك يا رب مضطراً على ثقة بما وعدتُ كما المضطر يدعوك
داركُ بعفوك عبداً لم يزل أبداً في كل حال من الأحوال يرجوك
طالت حياتي ولما أتخذ عملاً إلا محبّة أقوام أحبوك^(٣)

(١) معجم الأدباء: ٢١٢/١٨، ويغية الوعاة: ١/١٤٤.

(٢) معجم الأدباء: ٢١٨/١٨، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء: ٣/١١٤.

(٣) نفح الطيب: ٤/٣٤٠.

إنَّ الشيخوخة- الموت لدى الشعراء الأندلسيين لم تكن ، في أغلب الأحوال، حقيقةً من الحقائق أو واقعاً يعيشونه حقاً، بل كانت إحساساً مجرداً وحسب، أو إحساساً كاذباً حتى، وقد نقلوا هذا الإحساس إلى مستوى الواقع، وألبسوه ثوبه، وتعاملوا وإياه على وفق هذا الثوب الجديد. فابن سراقه الشاطبي الذي رثى نفسه عند بلوغه الخامسة والعشرين لم يفارق الحياة إلا بعد بلوغه السبعين، وأبو العباس الإقليشي الذي رثى نفسه في الثلاثين عاش حتى نيفَ إلى الستين، وابن خفاجة الذي رثى نفسه في الستين عاش بعد ذلك اثنين وعشرين عاماً، وهكذا...

إن الرثاء المبكر للنفس يكمن وراءه الوازع الديني لدى الشعراء الأندلسيين المسلمين، فقد جاء في سنن ابن ماجة^(١) أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال " أعمار أُمّتي ما بين السّتين إلى السبعين وأقلّهم من يجوز ذلك "، ولهذا السبب، ربما، نجد أنّ أغلب نصوص رثاء النفس في الشعر الأندلسي المتعلقة بالشيخوخة تُنصَبُ على هذه الأعمار، كما مرّ.

وقد لا نجنب الصواب إذا قلنا إنّ هؤلاء الشعراء يؤمنون، مثل أقرانهم من المسلمين، بأن هناك علاقة وثيقة بين قصر عُمر المسلم وعمق إيمانه، ولذلك يكثر، أيضاً، رثاء النفس قبل بلوغ الشعراء الستين من العمر بكثير في الشعر الأندلسي، كما رأينا وكما سنرى، وكأن الشاعر المسلم يريدُ مفارقة الحياة قبل أن يحدث فيها ما يعكّر صفو إيمانه. وذلك إيماناً له ما يؤيده في العقيدة الإسلامية وفي أحاديث الرسول الكريم، ومن ذلك ما جاء في الحديث من أنه (ص) قال لابن عمر " كُنْ في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ وعُدَّ نفسك في أهل القبور "^(٢)، ولذلك فإنّ على المسلم أن يتوقع الموت في أية ساعة، وعليه أن يموتَ مؤمناً لكي يفوزَ بما وعدَّ الله سبحانه وتعالى به عباده المؤمنين الصالحين، ومن لا يطمَعُ بما وعدَّ وهر خيرٌ وأبقى؟.

(١) كتاب الزهد: الحديث ٤٢٢٦.

(٢) سنن الترمذي: الحديث ٢٢٥٥.

٢- الشيب:

والشيبُ هو غير الشيخوخة من حيث أن إحساس الشاعر باقتراب الموت غير مُتأتٍ من إحساسه بطول العمر، وإنما مما يراه في شعره من ابيضاضٍ في اللَّمَّة أو شعر الرأس عموماً وإن كان هو في ربيع العمر، وهي نظرة غير موضوعية، بالطبع، للموت والحياة وفيها شيء غير قليل من التعميم والخلط، إذ كان الناس، وربما ما يزالون، يرون في الشيب نذيراً للموت، والواقع أن الشيب من علامات فقد الشباب أو بعضه وليس فقد الحياة، فالشاعر علي بن رَجَا بن مرجى لم يبلغ من العمر غير خمسة وأربعين عاماً إلا أنه، مع ذلك، أحسَّ بدنو الموت لظهور الشيب في مفرق رأسه:

كيف أصبو وأربعون وخمسُ رَقُمْتُ بالشيب مفرقَ رأسي
كل داء له دواء وداء الشيبِ والموت مالهُ مِن آسٍ^(١)

وشاركه الشاعر الزاهد أحمد بن الإقليشي هذا الإحساس نفسه عند بلوغه الثلاثين:
ثلاثون عاماً قد تولتُ كأنها حُلومٌ تقضتُ أو بروقٌ خواطف^(٢)

الشاعر محمد بن علي بن أحلى مع أنه لم يبلغها، ومع ذلك شعر بأنه لن يطيب له عيشٌ في هذه الدنيا التي لن يرجع إليها مرةً أخرى:

خليليّ قد ضاقت عليّ مذاهبي وكففتُ نفسي عن جميع مطالبي
وضاقت جفون العين عن عبراتها لأمرٍ يراه السحرُ ضربةً لازبٍ
وشبتُ ولم أبلغ ثلاثين حجةً لحجة جبارٍ على الخلقِ غالبٍ
دعاني وشجوي والأسى وبلايلي ولا تعدلاني في الدموع السواكبِ
ألثدُ بالدنيا وأرنو لحسنها ولستُ إليها بعد موتي بأيّ^(٣)

(١) جذوة المقتبس: ص ٣١٤، بغية الملتبس: ص ٤٢٣.

(٢) نفح الطيب: ٦٠٠/٢.

(٣) الحلة السيرة: ٣١٦-٣١٧.

وربما كان بعض الشعراء الأندلسيين شيوخاً بالفعل، و لكنهم في رثائهم لأنفسهم لا ينظرون إلا إلى الشيب وحده بوصفه معادلاً موضوعياً للموت ويحاولون إقامة الأدلة على ذلك ويستجلبون البراهين المنطقية له، فهذا ابن عبد ربه يخاطب نفسه بعد أن حلّ الشيب برأسه نادباً حياته وكأن لا انتظار في الحياة بعده:

يا مَنْ تلهى وشيبُ الرأسِ يندبُهُ ماذا الذي بعدَ شيبِ الرأسِ تنتظرُ
لو لم يكنْ لكَ غيرُ الموتِ موعظةً لكانَ فيه عَن اللّذاتِ مُزدَجَرُ^(١)

وإلى هذا المعنى ذهب البلفيقي بقوله:

وهَبْنِي أَعِشْ هَلْ لِي إِذَا شَابَ مَفْرَقِي ووَلَّى شَبَابِي هَلْ يُبَاحُ التَّسَوُّفُ؟^(٢)

أما معادلة الشيب-الموت فقد كُصِّ عليها كثيرٌ من الشعراء الأندلسيين، منهم ابن الناظر الغرناطي الذي يرى في الشيب دليلاً على الموت ولذلك فهو راغب عن الدنيا مؤملاً رحمة من الله عند اللقاء:

رَغِبْتُ عَنِ الدُّنْيَا لِعَلَّمِي أَنَّهَا مَحَلُّ حَيَاةِ الْمَرْءِ فِيهِ بِلَاغُ
وَقَدْ لَاحَ فِي فَوْدِي شَيْبٌ عَلَى الرَّدَى دَلِيلٌ وَفِيهِ مَا أُرِدْتُ بِلَاغُ
وَأُمِلْتُ مِنْ مَوْلَايَ نَظْرَةَ رَحْمَةٍ يَكُونُ بِهَا مَنِي إِلَيْهِ بِلَاغُ^(٣)

وأبو بكر الكتندي الغرناطي الذي يُعَادِلُ بين سَجْعِ الْحَمَامِ وبياضِ لونه وبين بُكَائِهِ وشيب رأسه الذي يعني قُرب الموت:

لِأَمْرِ مَا بَكَيْتُ وَهَاجَ شَوْقِي وَقَدْ سَجَعْتُ عَلَى الْأَيْكِ الْحَمَامُ
لِأَنَّ بَيَاضَهَا كِبَاضَ شَيْبِي فَمَعْنَى سَجْعِهَا: قَرَبُ الْحَمَامِ^(٤)

(١) المطرب: ص ١٥٤.

(٢) شعر البلفيقي: ص ٦٠.

(٣) بغية الوعاة: ١/ ٥٣٥.

(٤) زاد المسافر: ص ٨٢، وأدباء مالقة: ص ٨٧.

وأبو إسحاق الألبيري الذي لا يرى التقليل من شأن الشيب وإن كان قليلاً، بل يرى فيه إمارَةً على التأهب للموت:

بَصُرْتُ بِشَيْبَةٍ وَخَطَّتْ نَصِيلِي
وَلَا يَهْنُ الْقَلِيلُ عَلَيْكَ مِنْهَا
فَقُلْتُ لَهُ تَاهَبْ لِلرَّحِيلِ
فَمَا فِي الشَّيْبِ وَيَحْكُ مِنْ قَلِيلٍ! ^(١)

ويؤكد هذا المعنى في مناسبة أخرى فيقول:

تُغَاذِلُنِي الْمَيِّتَةُ مِنْ قَرِيبٍ
وَتَنْشُرُ لِي كِتَاباً فِيهِ طَيِّبِي
هِيَ الْأَدْوَارُ وَالْأَجَالُ تَأْتِي
وَمَا آسَى عَلَى الدُّنْيَا وَلَكِنْ
فِيَا لَهْفِي عَلَى طَوْلِ اغْتِرَارِي
إِذَا أَنَا لَمْ أَكُ نَفْسِي وَأَبْكِي
فَمَنْ هَذَا الَّذِي بَعْدِي سَيِّكِي
وَتَلَحْظُنِي مُلَاحِظَةُ الرَّقِيبِ
يَخْطُ الدَّهْرُ أَسْطُرُهُ مَشِيبِي
فَتَنْزِلُ بِأَطْبَابِ والطَّبِيبِ
عَلَى مَا قَدَرَكْتُ مِنَ الذُّنُوبِ
وَيَا وَيْحِي مِنَ الْيَوْمِ الْعَصِيبِ
عَلَى حُوبِي يَتَهَتَانِ سَكُوبِ
عَلَيْهَا مِنْ بَعِيدٍ أَوْ قَرِيبٍ؟ ^(٢)

وكذلك ابن لؤلؤة السكوني حيث يقرر أن الشيب منذرٌ بالموت لا محالة، فهو لهذا السبب لا يجد مبرراً للاغترار بما في الدنيا من ملذات:

أَمِنْ بَعْدِ مَا لَاحَ الْمَشِيبُ بِمَفْرَقِي
وَأَرْتَاخُ لِلذَّاتِ وَالشَّيْبُ مُنْذَرُ
أَمِيلُ لَزُورٍ بِالْغُرُورِ يُصَاغُ
بِمَا لَيْسَ عَنْهُ لِلْأَنَامِ مَرَاغُ؟ ^(٣)

(١) ديوانه: ص ١٠٥.

(٢) ديوانه: ص ٣٦.

(٣) نفح الطيب: ٥١٦/٥.

والى مثل هذا ذهب أبو بكر ابن الحكيم الرندي حيث يقول:

ولما رأيتُ الشيبَ حلَّ بمفرقي نذيراً بترحال الشباب المفارقِ
رجعتُ إلى نفسي فقلتُ لها انظري إلى ما أرى، هذا ابتداءُ الحقائقِ^(١)

ويؤيدهُ في ذلك سلطان بلنسية مروان بن عبد العزيز في قوله:

ولما رأيتُ الشيبَ أيقنتُ أنه نذيرٌ لجسمي بانهدامِ بنائه
إذا أبيضُ مُخَضَّرُ النباتِ فَإِنَّهُ دليلٌ على استحصادِهِ وفنائِهِ^(٢)

وحُميد الأنصاري القرطبي في مثل ذلك:

ولما رأيتُ الشيبَ بَيِّنَ صُبْحِهِ وليلَ شبابي قد مضى لسبيله
أقمتُ على نفسي فناءَ دليلها فَصَرْتُ بوجهِ سُعْرَضٍ عن دليلِهِ^(٣)

ومنذر بن سعيد البلوطي حيثُ يُحدِّثُ نفسه:

كم تصابى وقد علاكَ المشيبُ وتَعَامَى عُمُداً وَأَنْتَ اللَّييبُ؟
كيفَ تلهو وقد أَتَاكَ نَذِيرٌ أَنْ سِيَأْتِيَ الحِمَامُ مِنْكَ قَرِيبُ؟
يا سفيهاً قد حَانَ مِنْهُ رَحِيلٌ بعدَ ذاكَ الرَّحِيلِ يَوْمَ عَصِيبُ
إِنَّ للموتِ سَكْرَةً فَارْتَقِبْهَا لَا يُدَاوِي إِذَا أَتَتْكَ طَيْبُ^(٤)

ومثله ابن الجياب الغرناطي:

رويداً فَإِنَّ الموتَ أَسْرَعُ وَافِدٍ على عمركَ الفاني رَكائِبُهُ حَطًّا

(١) نفح الطيب: ٤٩٨/٥.

(٢) لمطرب: ص ٨٠.

(٣) نفح الطيب: ١٨٩/٦.

(٤) نفح الطيب: ٣٧٥/١.

فإِذْ ذَاكَ لَا تَسْطِيعُ إِدْرَاكَ مَا مَضَى
بِحَالٍ، وَلَا قَبْضاً تُطِيقُ وَلَا بَسْطاً
تَاهَبُ فَقَدْ وَافَى مَشِيبُكَ مُنْذِراً
وَهَا هُوَ فِي فَوْدَيْكَ أَحْرَفُهُ خَطًّا^(١)

ويؤكد البسطي هذا المعنى فيقول:

وشَابَ عِذَارِي وَاسْتَحَالَ سَوَادُهُ
وبالموتِ لاشكَّ الْمَشِيبُ يُقَاوِدُ^(٢)

بل إنَّ ابنَ حمديس يساوي تماماً بين الشيب والموت:

لَعَمْرُكَ مَا الشَّيْبُ إِمَّا بَدَا
بِفَوْدَيْكَ إِلَّا السَّرْدَى أَوْ أَبْوَهُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّكَ بَيْنَ الشَّبَابِ
كَمَنْ مَاتَ أَوْ غَابَ مَنْ شَبَّوهُ^(٣)

على أنَّ الشيب لم يكن دائماً باعثاً من بواعث رثاء النفس في الشعر الأندلسي، فقد يكون باعثاً من بواعث الاعتاظ والانتباه إلى ما يجب على المرء أن يفعله في آخر عمره تائباً ومستغفراً قبل أن يودع الموت ويستقبل الآخرة ويواجه ربه، وهو مما يدخل في الاتجاه الديني حيثُ الزهد المحض والوعظ والإرشاد، أو من بواعث حب الحياة والنيل منها أكثر مما كان في الوسع وهو مما له علاقة بالاتجاه الدنيوي ومبدأ اللذة، وكلا الباعثين مما لا يدخل في غرض موضوعنا هذا، ما لم يكونا سبباً مباشراً لِرثاء الشاعر نفسه حيثُ شعوره بحلول الموت وانطفاء الحياة، كما سيتبين بعد قليل.

٣- المرض والعاهة:

كان المرضُ من أكثر دواعي رثاء النفس دوراناً في الشعر الأندلسي، وهو ذو علاقة وثيقة بالباعث السابق، غير أنه يمكن أن يكون مستقلاً عنه أيضاً، لاسيما إذا كان الشاعر

(١) نفح الطيب: ٤٤٠/٥.

(٢) ديوان عبد الكريم القيسي: ص ٤٧٣، والبسطي آخر شعراء الأندلس: ص ٤١.

(٣) ديوانه: ص ٥١٩.

مريضاً وحسب ولم يكن شيخاً، أو لم يُعانِ الشيب، كما يمكن أن يقترب منه جداً إذا عانى الشاعر المرض مع أحد هذين. وعلى أية حال فإن الأندلسيين، كما يبدو -في الغالب- يرون في المرض رديفاً للموت، وهذا في الأقل ما دلّت عليه أشعارهم في هذا الغرض، وقد يصدق إلى حد كبير قول بعض قدمائهم:

سئمتُ الحياةَ على حبِّها وحقُّ لذي السُّقمِ أن يَسأما
فلا عيشَ إلا لذي صحّةٍ تكون له للثقى سلماً^(١)

ومن أشهر من عانوا المرض ورثوا أنفسهم بقوة من الشعراء الأندلسيين أبو عامر بن شهيد، فله في ذلك عدة قصائد، من ذلك قوله وقد أوهن مرضُ جسمه وأثخنه بالآلام ومنعه احتمال الحركة، حتى فكّر في الانتحار لشدة وطأتها عليه، ولكنه اكتفى بتدبّر نفسه والنواح عليها:

أنوح على نفسي وأندبُ بُبْلَها إذا أنا في الضراء أزمعتُ قتلها
رضيتُ قضاءَ الله في كل حالةٍ عليّ وأحكاماً تيقنتُ عدْلُها
أظُلُّ قعيدَ الدارِ تجنُّبني العصا على ضَعْفِ ساقِ أوهنِ السُّقمِ رِجلُها
فَمَنْ مُبلِغُ الفتيانِ أنْ أخاهمُ أخو فتكةٍ شنعاءٍ ما كان شكلُها
عليكم سلامٌ من فتى عضّه الردى ولم ينسَ عينا أثبتت فيه بُبْلُها
يُبِينُ وكفُّ الموتِ تَخْلَعُ نفسُهُ وداخلُها حُبُّ يهوونُ ثكلُها^(٢)

ومنهم أبو جعفر بن اللمائي الذي عانى كثيراً في مرض النسمة وهو من أمراض الصدر، ولم يجد منه بُراً ولا أملاً في البرء، طمعاً في الحياة، فلم يجد إليها سبيلاً فرثى نفسه في قوله:

(١) نفح الطيب: ٣٤٣/٤ بدون نسبة.

(٢) ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله: ص ١١٠، والذخيرة: ٢٠٢/١.

عَظُمَ البلاءُ فلا طبيبٌ يُرَجَى
منهُ الشفاءُ، ولا دواءٌ يَنجَعُ
لم يبقَ شيءٌ لم أعالِجْها به
طَمَعَ الحياة، وأينَ مَنْ لا يطمعُ؟
«وإذا المنيّةُ أنشبتْ أظفارها
أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنفَعُ»^(١)

وفي قوله وقد عادَهُ بعضُ أصحابه وجَعَلَ يروِّحُ لَهُ بِمِروحةٍ، واصفاً ذلك وهو في
يأسٍ من الحياة:

رَوَّحَنِي عَائِدِي فَقُلْتُ لَهُ:
مَهْ، لا تُزِدْنِي عَلَى الَّذِي أَجَدُ
أَمَا تَرَى النَّارَ وَهِيَ خَامِدَةٌ
عِنْدَ هبوبِ الرِّيحِ تَتَقَدُّ؟^(٢)

ولابن الجنان الأنصاري تجربة ابن اللمائي نفسه مع مرضه الذي توفي فيه حيثُ
يقول:

جَهَلَ الطَّيِّبُ شكايتي، وشكايتي
أَنَّ الطَّيِّبَ هُوَ الَّذِي هُوَ مُمَرِّضِي
فَإِنْ ارْتَضَى بُرِّي تَدَارَكَ فَضْلُهُ،
وإن ارْتَضَى سَقَمِي رَضِيَتْ بِمَا رَضِي
ما لي اعْتِراضٌ بِالَّذِي يَقْضِي بِهِ
لَكِنْ لِرَحْمَتِهِ جَعَلْتُ تَعَرُّضِي^(٣)

أما أبو العباس أحمد بن علي الكناني الملقب باللص فقد محا الشعورُ بوشوك الموت
النومَ من عينيه، بسبب اشتداد مرضه:

وقائِلَةٌ وَالضُّنَى شامِلي
عِلامٌ سَهَرَتْ مَلَمَ تَرَقَّدِ
وقد ذابَ جِسمُكَ فَوْقَ الْفِراشِ
حَتَّى خَفِيَتْ عَلَى الْعُودِ؟
فَقُلْتُ وَكَيْفَ أَرَى نائِماً
وَرامِي المَنيّةِ بِالْمَرْصَدِ؟^(٤)

(١) تاريخ الأدب العربي (فروخ): ٦٠٦/٥.

(٢) نفسه.

(٣) تاريخ الأدب العربي (فروخ): ١٩٧/٦.

(٤) التكملة لكتاب الصلة: ٧٣/١.

ويبلغ المرض من أبي بكر بن جُزي مبلغه الذي ينذر معه بالخطر والتسليم لقدر الموت، ولكنه مؤمن بهذا القدر، صابرٌ من أجله:

إِنَّ يَأْخُذُ السُّقْمُ مِنْ جِسْمِي مَاخِذُهُ	وأصبح القومُ من أمري على خَطَرٍ
فَإِنْ قَلِي بِحَمْدِ اللَّهِ مَرْتَبُ	بالصبر والشكر والتسليم للقدرِ
فَالْمَرءُ فِي قَبْضَةِ الْأَقْدَارِ مَصْرَعُهُ	للبرءِ والسُّقْمِ أو للنفعِ والضررِ ^(١)

ولم يترك المرض والضعف للشاعر حبيب بن أحمد الشطجيري غير أن يفوض أمره إلى الله ويتوجه إليه وكأنه يودع الدنيا حيث يقول:

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا قَضَى	فكل ما يقضيه فيه الرضى
قَدْ كُنْتُ ذَا أَيْدٍ وَذَا قُوَّةٍ	فاليومَ لا أَسْطِيعُ أَنْ أَنْهَضَا
فَوَضْتُ أَمْرِي لِلَّذِي لَمْ يُضَعْ	مَنْ أَحْسَنَ الظَّنَّ وَمَنْ فَوَّضَا ^(٢)

وما كان لدى هؤلاء من صبرٍ على بلوى المرض وآلامه لم يكن لدى الشاعر ابن معاوية اللخمي (محمد بن عيسى بن مهذب)، فهو يشعر بأن الوقت يتثاقل في مضيه حتى لكأنه لا يتحرك، وأن عذابه في مرضه يطول تبعاً لذلك، فأخذ يدعو ربّه ليسَ من أجل الاستغفار والتقرب له، وإنما من أجل أن يُقَصِّرَ من أيام عمره - أيام عذاباته مع هذا المرض، حتى آمنَ بأنَّ الله مستجيبٌ لدعائه:

نَهَارِي نَهَارَانِ لَا تَسْأَلُوا	وشهري مُقِيمٌ فَمَا يَرَحُلُ
دَعَوْتُ الْإِلَاهَ لِكَشْفِ الرَّدَى	فَقَالَ: بِحَقِّ أَنَا أَفْعَلُ ^(٣)

(١) نفح الطيب: ٥/ ٥٣١.

(٢) جذوة المقتبس: ص ١٩٩.

(٣) التكملة لكتاب الصلة: ١/ ٣٢٥.

وكان جملةً من الشعراء الأندلسيين يعانون من أمراض الشيخوخة من ضعف في الجسم ووهنٍ في القوى، فيصفون ما يعتورهم من مشاعر وأحاسيس باضمحلال الحياة واقتراب الموت، فهذا الشيخ أبو بكر بن مغاور يقول وقد وهنت قواه، فلم يكن يستطيع المشي إلاّ اعتماداً على العصا:

قال لي يهزأ من لم	يتوقّع من ملامه
إذ رأى كفيّ دأباً	بعضاها مُستهامه
أنت والله صحيح	سوف تبقى للقيامه
قلت دعني من محال	قد شكا الشيخ السقامه
كيف يُرجى لي بقاء	وحداري بدعامه؟ ^(١)

والى هذا المعنى ذهبت مريم بنت أبي يعقوب الشلي حيث تقول متحدثة عن نفسها:

وما يُرتجى من بنت سبعين حجة	وسبع كنسج العنكبوت المهلهل
تدب ديب الطفل تسعى إلى العصا	وتمشي بها مَشْيَ الأسير المكبل ^(٢)
ورق جلدي ورق عظمي	وأشبهت لمتي الثغاما

أما ابن النشا الوادي أشي فقد شكا خليطاً من أمراض الشيخوخة، من وهنٍ في القوى، وقلة نوم، وضعف بصرٍ وسمع، وصعوبة في القيام والقعود، وكل ذلك يدعوهُ إلى التيقن بقرب الموت، والحيلولة في القبر طويلاً:

وقلّ نومي فليت أنسي	بُذلتُ من عيشي الحماما
---------------------	------------------------

(١) زاد المسافر: ص ٧٩، وأديب الأندلس أبو بحر التجبي: ص ٣٠٤.

(٢) بغية الملتبس: ص ٥٤٤، ينظر الشعر النسوي في الأندلس. ص ٦٤.

ولست أرجو لها دواما
 قد خالط الجسم والعظاما
 ومسمعي لا يعي كلاما
 أطيق مَشْيَا ولا قياما
 مررت عليه سبعون عاما
 أطيل في قعره المقاما^(١)

فليس لي في الحياة خير
 فكيف ألهو بها وسقمي
 وناظري ما يُحقّ مرأى
 وقوتي قد وهت فما إن
 وليس ذا مُنكِرٍ على مَنْ
 وعن قريبٍ أحلُّ قبرا

أما العمى فإنه يتساوى، في كثيرٍ من الأحيان، والموت، لدى معظم الناس، ولا أقول جميعهم، ومنهم الشعراء الأندلسيون، وهذا ما توصلَ إليه أيضاً علماء التحليل النفسي الذين "يقررون إنه في مستوى اللاشعور يكون فقدان العين مكافئاً للموت"^(٢)، وهكذا كان الأمر بالنسبة إلى أبي المَحْشَى عاصم بن زيد، حيثُ كان قد فقد بَصْرَه بعد أن سمل الخليفة هشام بن عبد الرحمن عينيه على أثر بيتٍ قاله في حَوَلِه، وكان هشام أحولَ، فأحسَّ أبو المَحْشَى عندما فقد بصره وكأنه فقد الحياة بأسرها، إذ ليس العمى مما يُرجى له علاج، وليس هو بِمُحْتَمَلٍ كما تُحتملُ بقية الآلام في الجسم، بل هو الموتُ بعينه ولاسيما العمى بعدَ الإبصار، وانتَهزَ تعليقَ زوجته على ما أصابه في هذا، وتجرّحَ لها فرصة لِرثاء نفسه:

أَنْ قَضَى اللهُ قَضَاءً فَمَضَى
 مَشْيُهُ فِي الْأَرْضِ لَمْ يَسْ بِالْعَصَى
 وَهِيَ حَرَّى، بَلَغْتَ مَنِّي الْمَدَى
 مَا مِنَ الْأَدْوَاءِ دَاءٌ كَالْعَمَى

خَضَعْتُ أُمُّ بَنَاتِي لِلْعَدَى
 وَرَأَتْ أَعْمَى ضَرِيرًا إِيَّامَا
 فَاسْتَكَانَتْ ثُمَّ قَالَتْ قَوْلَةً
 فَفَوَّادِي قَرَحَ مِنْ قَوْلِهَا

(١) بغية الوعاة: ١ / ٤١٧.

(٢) شعر المكفوفين في العصر العباسي: ص ١٣٥.

وَإِذَا نَالَ الْعَمَى ذَا بَصَرٍ كَانَ حَيًّا مِثْلَ مَيِّتٍ قَدْ ثَوَى
وَكَأَنَّ النَّاعِمَ الْمَسْرُورَ لَمْ يَكُ مَسْرُورًا إِذَا لَاحَ الرَّدَى^(١)

٤- الاحتضار:

لعل الاحتضار هو من أقسى التجارب التي يمر بها المرء في حياته، وأكثرها حرجاً له، ومع ذلك نرى كثيراً من الشعراء الأندلسيين لا يُفوّتون هذا الحدث بدون أن يسجلوه بشعرهم، ويؤطّروه بمشاعرهم وأفكارهم التي تنم غالباً عن مواقفهم من الموت والحياة، ومن الدين والدنيا. إنهم ينظمون الشعر ساعة الرحيل عن الدنيا بما فيها، وكثير من هؤلاء تركوا لنا آخر شعرٍ نظموه في حياتهم، أو آخر كلامٍ نطقوا به، وهذه قضية ينظر إليها النقد بعينٍ خاصة، لما لها من أهمية غير قليلة في جوانب مختلفة مما يتعلق بتحليل النصوص الشعرية.

ومن سجلوا هذه التجربة فرثوا أنفسهم بجرارة ابن شهيد الأندلسي، فقد ترك لنا عدة قصائد وهو يعاني سكرات الموت، ولكن آخر قصيدة نظمها وسجل فيها آخر ساعات حياته هي قصيدته التي يقول فيها مودعاً إخوانه:

أَسْتَدُوعُ اللَّهَ إِخْوَانِي وَعَشْرَتَهُم وَكُلَّ خِرْقٍ إِلَى الْعِلْيَاءِ سَبَّاقٍ
وَفَتِيَّةٍ كَنَجُومِ الْقَذْفِ نِيرَهُم يَهْدِي، وَصَائِبُهُمْ يُوْدِي بِإِحْرَاقٍ
وَكُوكِباً لِي مِنْهُمْ كَانَ مَغْرَبُهُ قَلْبِي، وَمَشْرِقُهُ مَا بَيْنَ أَطْوَاقِي
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مَا أَفَارِقُهُ إِلَّا فِي الصَّدْرِ مِنِّي حَرٌّ مُشْتَاقٍ
كُنَا أَلْيَفَيْنِ خَانَ الدَّهْرِ أَلْفَتْنَا وَأَيُّ حُرٍّ عَلَى صَرْفِ الرَّدَى بَاقِي^(٢)

(١) تاريخ الأدب العربي (فروخ): ٨٨/٥.

(٢) ديوانه: ص ١٠٤.

ومنهم أبو عبد الله محمد بن يوسف الأنصاري الشاطبي الذي " لما حضر أجله، وقد أمرَ خادمه أن ينظف له بيته، وأن يغلق عليه الباب ويفتقده بعد زمانٍ، ففعلَ ذلك، فلما دخل عليه وجده ميتاً، وقد كتبَ في رُقعة:

حانَ الرحيلُ فودّع الدار التي ما كانَ ساكنها بها بمُخلِّدٍ
واضرعُ إلى الملكِ الجوادِ وقلْ لَهُ عبدٌ ببابِ الجودِ أصبحَ يَجْتدي
لَمْ يَرْضَ إِلَّا اللَّهَ معبوداً وما ديناً سوى دينِ النبيِّ مُحَمَّدٍ ^(١)

وله في الغرض نفسه:

أقولَ لنفسي حينَ قابلها الردى فراغتُ فراراً من يُسرى إلى يُمنى
قفي تَحْملي بعضَ الذي تكرهينه فقد طالما اعتدتِ الفرارَ إلى الأهني ^(٢)

ومنهم أبو الصلت أُمّية بن عبد العزيز " عندما أشرف على الموت ":

سكتُك يا دارَ الفناءِ مُصدّقاً بأنّي إلى دارِ البقاءِ أصيرُ
وأعظم ما في الأمرِ أنّي صائرٌ إلى عادلٍ في الحكمِ ليسَ يَجورُ
فيا ليتَ شعري كيفَ ألقاهُ بعدها وزادي قليلٌ والذنوبُ كثيرُ؟
فإنَّ ألكَ مجزياً بذني فإنّي يحسّرُ عذابَ المذنبينَ جديرُ
وإنَّ يكُ عَفْوٌ - ثمَّ - عني ورحمةٌ فَشَمَّ نعيمٌ دائرٌ وسرور ^(٣)

ومنهم ابن الغماز البنسي الذي قال " في اليوم الذي مات فيه ":

أدعوكَ يا ربَّ مضطراً على ثقةٍ بما وعدتَ كما المضطرُّ يدعوكا

(١) نفح الطيب: ٣٧٤/٢. والأبيات منسوبة في بغية الوعاة ١/ ٤٧٥ إلى أبي بكر بن الصائغ.

(٢) وفيات الأعيان: ٤٣١/٤. والبيتان منسوبان في وفيات الأعيان ٤/ ٤٣١ إلى أبي بكر بن الصائغ.

(٣) ديوانه: ص ٨٧.

دارك بعفوك عبداً لم يزل أبداً
طالت حياتي ولما اتخذت عملاً
في كل حال من الأحوال يرجوكا
إلا محبة أقوام أحبوكا^(١)

ومنهم عبد الله بن عيسى الشلي الأنصاري الخزرجي الذي أنشد "لما أتاه الموت":
الحمد لله ثم الحمد لله
ماذا يرى المرء ذو العينين من عمر
الحمد لله ثم الحمد لله
ماذا عن الموت من ساء ومن لاهي
عند الخروج من الدنيا إلى الله^(٢)

ومنهم أبو العباس بن جهور الذي قال:
أأرجو بالحياة وقد نأيتُم
تَقْضَى النَّحْبُ وانقطع الكلام
ومنهم مات على أثر ذلك^(٣).

وأبو بكر بن مغاور الذي قال "وهو يجود بنفسه":
أيها الواقفُ اعتباراً بقبري
استمع فيهِ قولَ عظمي الرميم
أودعوني بطنَ الضريح وخافوا
من ذنوب كلومها ياديemi
ودعوني بما اكتسبتُ رهيناً
غَلِقَ الرهن عندَ مولى كريم^(٤)

وأبو عبد الله محمد بن ذمام وقد حاول أن يُخَفِّفَ عن نفسه وطأة الموت يتذكر أصحابه وغيرهم من الناس وقد أدركهم الموت من قبل، وأنه ليس استثناءً من ذلك، في قوله "عند موته":

(١) نفح الطيب: ٤/٣٤٠.

(٢) بغية الوعاة: ٢/٥١.

(٣) جذوة المقتبس: ص ٤٠٣، وبغية الملتبس: ص ٥٣٠.

(٤) نفح الطيب: ٣/٣٣١.

كيف أرجو من المنون خلاصاً
وأرى الناس يُنقلون سراعاً
وأرى مَنْ صَحِيحٌ صارَ دَفيناً؟
كلَّ يومٍ إليهم مُردِّفيناً^(١)

ومنهم المرفّهون من أمثال المعتصم بن صمادح الذي قال عند وفاته، وقد ملَّ
الاستمتاع بكثرة النعم في حياته :

تَمَتُّتُ بالنعماءِ حتّى مَلِلْتُها
فيا عَجَباً، لَمّا قَضَيْتُ قضاءها
وقد أَضَجَرْتُ عَيْنِي مِمّا سَمَّيْتُها!
ومُلِّيتُها عمري تُصَرِّمَ وقْتُها^(٢)

ومنهم المحرومون من مُتَعِ الحياة ولذاتها حتّى بَعَثَهم الموت، من أمثال أبي إسحاق
إبراهيم بن علي الخولاني الذي قال "عندما أيقنَ بالموت" أسفاً على ما مضى من حياته
وقد خَلَّتْ مما يهوى ويريد:

عَصِيْتُ هوى نفسي صغيراً فعندما
أطعتُ الهوى عكسَ القضيّةِ ليَسُنِي
رَمَتْنِي الليالي بالمشيبِ وبالكِبَرِ
خُلِقْتُ كبيراً وانتقلتُ إلى الصغرِ^(٣)

٥- العقوبة:

تَعَرَّضَ جملةٌ صالحَةٌ من الشعراء الأندلسيين إلى عقوباتٍ من لدُنِ الحاكمين،
كانتْ غالباً ما تُشعِرُهُم بقرب الموت في لحظةٍ من لحظات الجبروت المطلق الذي "يتمتع"
به أولئك الحاكمون، أو في ساعةٍ من ساعات غضبهم في ظل ظرفٍ من الظروف. ومن
هؤلاء الشعراء مَنْ يستطيعُ الفرارَ من هذا القدر، ومع ذلك يبقى مُهَدِّداً بتنفيذ العقوبة،
ومنهم مَنْ يَنتظرُها في السجن تحت الأرض أو فوقها، ومنهم مَنْ يقع تحت طائلة الأسر.

(١) أدباء مالقة: ص ٩١.

(٢) تاريخ الأدب العربي (فروخ): ٦٦٩/٥.

(٣) زاد المسافر: ص ١٣٥.

إنَّ شعور هؤلاء الشعراء بقرب نهاية حياتهم بهذا الشكل المأساوي كان باعثاً قوياً لرؤية الموت وشيكاً، ولوصف هذا الشعور وصفاً صادقاً ودقيقاً وقوياً، فهو شعورٌ مُفَعَّم بالحرمان من الحياة التي لم يَهَبْهَا المُعَاقِبِينَ لِلْمُعَاقِبِينَ، ولهذا السبب يتشبَّثُ الشعراءُ بها أقوى ما يمكنُ من التشبُّث، ويحاولونَ درءَ الموتِ، على هذه الشاكلة، بأية وسيلة، فمرةً بالاستعطاف والاعتذار، ومرةً ثانيةً بالتوسُّط والاستشفاع، ومرةً ثالثةً بالهرب بعيداً عن يد الحاكم، فينفعُ ذلك أحياناً و يُخَفِّقُ أحياناً أخرى، وفي الحالتين جميعاً يبقى شعرهم نابضاً حياً، ومنهم مَنْ تأخذه الكبرياءُ والعزَّةُ بالنفس وهو أسير فيخلو شعره من التوسُّل والاستعطاف والاعتذار، مهما كان الأسرُ قاسياً.

ومن الشعراء الذين عانوا هذه التجربة القاسية أبو بكر بن الجنان الشاطبي، حيث "حُصِرَ بقصبة شاطبة وأيقنَ بالموت وكتبَ بالفحم على حائط الموضع الذي كان فيه قصيداً امتحى منه بعضه فلم يبقَ إلَّا هذا:

ألا درى الصيِّدُ من قومي الصناديدُ	أنِّي أسيرٌ بدار الذلِّ مَصْفُودُ
لا أبسطُ السَّخَطَ إلَّا ظلُّ يقبضُه	كَيْلُ كَمَا التَفَّتِ الحَيَّاتُ مَعْقُودُ
وقد تألَّبَ أقوامٌ لِسفكِ دمي	لا يعرفُ الفضلُ مأواهم ولا الجودُ
ثلاثةٌ من بني حُرٍّ ولا سعدوا	وواحدٌ من بني حوراءٍ مجحودُ

وماتَ في معتقله رحمه الله" (١).

ومن عانوا من مرارة الفرار من بطش السلطان، أملاً في النجاة من عقوبة الموت، أبو جعفر بن سعيد على يد السيِّد أبي سعيد ابن عبد المؤمن الذي استوزَّره، فطلبَ منه أبو جعفر أن يُعْفِيَهُ مِنَ الوزارَةِ فلم يُعْفِهِ، حتى قال هذين البيتين من جملة قصيدة:

فقلْ لِحرِيصٍ أن يراني مُقَيِّداً	يُخْدِمَتِهِ لَا يُجْعَلُ البَاؤُ فِي القَفْصِ
وما كنتُ إلَّا طوع نفسي فهل أَرَى	مُطِيعاً لِمَنْ عَنْ شَأْوٍ فُخْرِي قد نَقَصُ؟

وفيهما هجاء واضح للسيد وخط من قدره، فما كان منه إلا أن عزله أسوأ عزل^(١). ثم اشتدَّ عداؤه له بسبب حفصة الشاعرة حيث كان أبو جعفر يهواها فاتصلت بالسيد "ووجد حسَّاده السبيل إلى إغراء السيد به، فكان ما ثمِّي به عنه، أن قال لحفصة يوماً: وما هذا الغرام الشديدُ به، يعني السيد، وكان شديد الأدمة، وأنا أقدر أن أشتري لك من الغرض أسوداً خيراً منه عشرين ديناراً، فجعل السيد يتوسَّد له المهالك، وأبو جعفر يتحفَّظ كلَّ التحفُّظ"^(٢)، وهو يعلم أن لا مفرَّ من الموت على يديه إذا ظفر به، حيث لم يَهْتَدِ إلى رضاه ولا إلى الحرب الآمن منه، فأحسَّ باليأس من الحياة وانحصرت أمنيَّته في أن ينأى عن الحياة بأسرها في محلٍّ مُنْزَوٍ مِنَ الْأَرْضِ لا دنيا فيه غير الإفلات من حكم السيد وسلطته وجبروته، ومن عقوبته، وتلك كانت أمنيَّات لا تملكُ صدىً من الواقع، فضاحت به الأرض، فقال وهو في حاله هذه راثياً نفسه:

مَنْ يَشْتَرِي مَنِّي الْحَيَاةَ وَطَيِّهَا	وَوَزَارَتِي وَتَأْدُبِي وَتَهْذُوبِي
بِمَحَلٍّ رَاعٍ فِي دُرَى مَلْمُومَةٍ	زُوتٍ عَنِ الدُّنْيَا بِأَقْصَى مَرْتَبٍ
لَا حُكْمَ يَأْخُذُهُ بِهَا إِلَّا لِمَنْ	يَعْفُو وَيَرُوفُ دَائِماً بِالْمُذْنِبِ
فَلَقَدْ سَمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ مَعَ امْرِئٍ	مَتَغَضِّبٍ، مَتَغَلِّبٍ، مُتَرْتَبٍ
الْمَوْتُ يَلْحَظُنِي إِذَا لَاحَظْتُهُ	وَيَقُومُ فِي فِكْرِي أَوْ أَنْ تَجُبِّي
لَا أَهْتَدِي مَعَ طَوْلٍ مَا حَاوَلْتُهُ	لِرِضَاهُ فِي الدُّنْيَا وَلَا لِلْمَهْرَبِ ^(٣)

وكان أبو جعفر صادق الشاعر في رثائه لنفسه، وكانت نفسه صادقة فيما تُحدثه فيه، فقد حدث ما خشيه من عقوبة الموت، إذ "وضع السيد عليه العيون في كلِّ جهة، فقبض عليه بمالقة، وطولع بأمره فأمرَ بقتله صبراً"^(٤).

(١) أنظر نفع الطيب: ١٨١/٤.

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة: ١/٢٢٤-٥.

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة: ١/٢٢٥.

(٤) الإحاطة في أخبار غرناطة: ١/٢٢٦.

ومثل ذلك ما تكبَّده أبو بكر الداني، فقد "كان بينه وبين الوزير أبي القاسم زمام اتلاف، ومعاطاة سلاف،... فلما تغير له ناصر الدولة وتنكَّر، ورأى من قعود أبي القاسم عنه ما أنكر، هَبَّ مِنْ غفلته، واحتالَ في تفلُّته، فلاذَّ بالفرار، وعادَ ببني حماد بحكم الاضطرار، وجعلَ يستنزلهُ مَنْ هناك ويستعطفه، ويداريه ويستلطفه، لِيَمُنَّ بإعادته، وصرفه إلى عادته" ^(١)، غيرَ أنَّ أياً من ذلك لم ينفع، ولم يبقَ غير اليأس والشعور بتنفيذ العقوبة إن عاجلاً أم آجلاً يُقضَّان مضجعه، ولنْ ينفع بعدُ، خداعُ النفس بالأمل الكاذب:

أقولُ تحيةً وهي الوداعُ	خداعاً لي وما يغني الخداعُ
أعللُ بالمني قلباً شعاعاً	وهل يتعللُ القلبُ الشعاعُ؟
وأتركُ جيرةً جاروا وأشدو:	أضاعوني وأي فتى أضاعوا
إذا لم يُرغَ لي أدبٌ وبأسٌ	فلا طال الحسامُ ولا اليراعُ
لقد باعتني الأيامُ بخساً	وعهدي بالذخائر لا تُباعُ
أجفَّتني فلم ينبت ربيعٌ	وحطَّتني فلم يثبت يفاعُ
ومكَّنت العدا مني فعائتُ	بلحمني ضعفَ ما عاثَ السباعُ ^(٢)

وأبو بكر الداني هنا يودِّعُ أهله وأصحابه، وكأنه يودِّعُ الحياة التي خسرها وباعته بأبخس الأثمان من حيثُ كان يظنُّ أن موهبته وبأسه كفيلاً ببردِّ الأذى عنه، وحفظِ حياته وأمنه.

ومن ذاقوا مرارة هذه التجربة العالمُ النحوي اللغوي علي بن إسماعيل بن سيدة الذي "كانَ منقطعاً للأمير أبي الجيش، مجاهد بن عبد الله العامري ثم حدثتْ له نبوة بعد وفاته في أيام إقبال الدولة بن الموفق خافه فيها وهربَ إلى بعض أعماله المجاورة، وبقيَ بها

(١) الذخيرة: ٤/ ٤٤٢.

(٢) الذخيرة: ٤/ ٤٤٣.

مدة^(١)، وفي أثناء ذلك كتب إلى إقبال الدولة يستعطفه بالشعر، مُحاولاً أن يشتري حياته
بكرامته وكبريائه، وعظيم منزلته العلمية، بعد أن شعر بأن لا فائدة من وراء الحرب، وأن
عقوبة الموت مُحْدِقةٌ به لا محالة:

ألا هل إلى تقبيل راحتك اليمنى	سبيل، فإن الأمن في ذاك واليُمنا؟
ضحيتُ فهل في برد ظلك نومةٌ	لذي كبدٍ حرى وذو مُقلةٍ وسنى؟
فتنضى همومٌ طلّحتها خطوبها	فلا غارباً يُبقين منه ولا مئنا
غريبٌ نأى أهلوهُ عنه وشفهُ	هواهم فأمسى لا يقرُّ ولا يهنا
فيا ملك الأملاكِ إني مُحَوِّمٌ	على الوردِ لا عنه أذاذٌ ولا أدنى

وما في هذه الأبيات من دُلّ وهوانٍ واستسلامٍ يُفسّره ما يتلوها من أبيات:

تحققتُ مكروهاً فأقبلتُ شاكياً	لعمري أماذونٌ لعبدك أن يُعنى؟
وإنّ تتأكد في دمي لك نيةٌ	يسفكُ فيني لا أحبُّ له حقنا
دمٌ كونهُ مكرماتك والذي	يكونُ لا عتبٌ عليه إذا أفنى
إذا ما غدا من حرّ سيفك بارداً	فقدماً غدا من برِّدِ نعماكم سُخنا

ففيها يبدو ابن سيدة متأكداً على وجه التحقيق من نوايا "السلطان"، ويتضح ذلك
جلياً في عباراته: "تحققتُ مكروهاً" و"في دمي لك نيةٌ" و"حرّ سيفك"، حتى يصرّح
بأنه مستعدٌّ لهذه النية-عقوبة الموت في قوله عن دمه المسفوك: "فإني لا أحبُّ له حقنا"،
لاسيما وأنّ هذا الدم هو بما كونه هذا الحاكم، فمن حقه، ولا عتب عليه، إذا ما استردّه
وأفناه، ويكاد يقرر ما هو متوقعٌ، وكأنه قد وقع فعلاً، أي الموتُ على يده، فيبدي له ما

(١) بغية الملتبس: ص ٤١٨، وانظر تاريخ أئمة اللغة: ص ١٤٨، ومطمح الأنفس: ٢٩١-٢، ونفح
الطيب: ٢٧/٤.

يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ نَتِيجَةُ لَتَنْفِيزِ هَذِهِ الْعَقُوبَةِ، مِنْ أَنَّهُ سَيَقْرَعُ سَنَ النَّدَمِ طَوَالَ حَيَاتِهِ بَعْدَ سَاعَةٍ
وَاحِدَةٍ مِنَ التَّشْفِيِّ هِيَ سَاعَةُ تَنْفِيزِ الْعَقُوبَةِ فِيهِ:

وَهَلْ هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ ثُمَّ بَعْدَهَا سَتَقْرَعُ مَا عُمِّرْتَ مِنْ نَدَمٍ سَيِّئًا

ثُمَّ يَحَاوِلُ أَنْ يَخَفِّفَ عَنْ نَفْسِهِ وَطَاةَ هَذَا الْمَصَابِ الْجَلِيلِ، وَيُقِلِّلُ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ مِنْ
أَهْمِيَةِ قَتْلِهِ فِي عَيْنِي قَاتِلِهِ، حَيْثُ لَنْ يُغَادِرَ حَيَاةً لَذِيذَةً يُؤَسِّفُ عَلَيْهَا، وَلَنْ تُدْرَفَ دُمُوعُ
حَارَةً مِنْ أَجْلِهِ، وَلَنْ يَحْصُلَ قَاتِلُهُ عَلَى خَطِيرٍ إِذَا مَا تَمَّ إِعْدَامُهُ:

وَمَا لِي مِنْ دَهْرِي حَيَاةً أَلَدُّهَا فَتَعْنَدُهَا نَعْمَى عَلَيَّ وَتَمْتَنَّا
وَلِلَّهِ دَمْعٌ مَا أَقْلُ اشْتِيَاقِهِ إِذَا فِي دَمِي أَمْسَى سَنَائِكَ مُسْتَنَّا

ثُمَّ يَرْجِعُ فَيُغْرِي قَاتِلَهُ، عَلَى اعْتِبَارِ مَا سَيَكُونُ، بِبَعْضِ مِنْ آيَاتِ لَعْلَهَا تَكُونُ سَبَبًا
فِي اسْتِجْلَابِ رِضَا عَنْهُ:

إِذَا قَتَلْتَ أَرْضَتِكَ مَتَا فَهَاتِهَا حَبِيبٌ إِلَيْنَا مَا رَضِيتَ بِهِ عَنَّا
وَهَذَا مَا حَصَلَ حَقًّا، إِذْ " حَصَلَ الرِّضَا عَنْهُ عِنْدَ وَصُولِهَا إِلَيْهِ " (١)

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ اسْتِسْلَامِ ابْنِ سَيِّدِهِ لِلْمَوْتِ غَيْرِ أَنَّهُ لَا يَبِيدُو مَقْتَنَاعًا بِهِ، إِذْ هُوَ صَادِرٌ
مِنْ مَخْلُوقٍ، وَإِنْ كَانَ سُلْطَانًا، يُعَزِّزُ رَأْيَنَا هَذَا خُلُوقَ قَصِيدَتِهِ هَذِهِ مِنْ أَيِّ إِشَارَةٍ إِلَى مَوْقِفِهِ
الِدِينِيِّ مِنَ الْمَوْتِ، شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ غَيْرِهِ مِنَ الشُّعْرَاءِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، بَلْ إِنَّ
جَبْرُوتَ السُّلْطَانِ أَنْسَاهُ جَبْرُوتَ الْخَالِقِ، فَوُصِفَ الْأَوَّلُ بِـ "مَلِكِ الْأَمْلاَكِ" وَنَسِيَ الثَّانِي
الْمَالِكِ الْحَقِيقِي، هَذَا فَضْلًا عَمَّا اصْطَبَغَتْ بِهِ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ مِنْ ارْتِبَالٍ فِي الْمَشَاعِرِ،
وَتَنَاقُضٍ فِي التَّعْبِيرِ عَنْهَا، كَمَا مَرَّ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي إِطَارٍ مِنْ قُوَّةِ النِّظْمِ، وَجُودَةِ السِّبْكِ،
وَحَرَارَةِ الْعَاطِفَةِ فِي كُلِّ مَقْطَعٍ مِنْ مَقَاطِعِهَا، وَهُوَ مَا يُوَكِّدُ مَدَى تَمَسُّكِهَا بِالْحَيَاةِ وَتَشْبِثِهَا بِهَا،

(١) أئمة علماء اللغة: ص ١٤٨، وانظر: بغية الملتبس: ص ٤١٩.

ويكشفُ عن ذلك أيضاً أنها "قصيدة طويلة"^(١)، وطول القصيدة يدلُّ، في حالة كهذه، على أهمية قضية الحياة لدى الشاعر. وعلى أية حال فإن ما وصل إلينا منها كافٍ للدلالة على ما يهمنا مما كان في نفسه من الشعور بقرب الموت عقوبةً له من لدن "السلطان"، وما يتصل بذلك.

أما السجون فقد شهدت قصائد كثيرةً في رثاء النفس من لدن أولئك الشعراء الذين انتظروا عقوبة الموت حتى تجلّت أمام أعينهم حقيقة لا غبارَ على تنفيذها، أو تجلّى الموت قبل أن تتم. فمن هؤلاء الشعراء أبو زكريا يحيى بن هذيل الذي نظم في سجنه قصيدة طويلة أيضاً وصفَ في مقدمتها الطويلة ظروف السجن وزملاءه من المسجونين بفائضٍ من المرارة والجزع، حتى توصّل إلى هدفه، وهو اليأس من الحياة واستقبال الموت، فهو يتمنى من الدهر أن يُجيره بسهمٍ مصيبٍ قاتلٍ للخلاص مما هو فيه من عذابٍ لا آخرَ له، فكل شيءٍ من الحرمان في هذا السجن يُذكرُهُ بكل شيءٍ من العطاء خارجَهُ:

أيا دهرُ إني قد سئمتُ تهْدُفي	أجرني فإن السهمَ منك مصيبُ
إذا خفقَ البرقُ الطروقُ أجابهُ	فؤادي ودمعُ المقلتينِ سَكوبُ
وإن طلعَ الكفّ الخضيبُ بسحرةٍ	فدمعي بجَناءِ الدماءِ خضيبُ
تُذكرني الأسحارُ داراً ألقُها	فيشتدُّ حزني والحمامُ طروبُ ^(٢)

وحيث لا أمل في أن يحيا بعدُ، فإن نزوعه إلى تمّني الحياة فقط يجعله يشعر بالموت:
إذا علقتُ نفسي بـ "ليت" وربما تكادُ تفيضُ أو تكادُ تذوبُ
وفي نهاية المطاف لا يجد سوى أن ينظر في ما سيؤول إليه بعدَ الموت، فإذا كان فوزاً بالجنة التي يتمناها كل مسلم، فإن هذا الفوز يستحقُّ منه الصبر على ما يعاني، ويستحقُّ منه التضرُّعُ إلى ربه في أن تكون تلك هي العاقبة:

(١) تاريخ أئمة اللغة: ص ١٤٨.

(٢) نفح الطيب: ٤٩٣/٥ - ٤٩٤.

دعوتك ربي والدعاء ضراعة
لئن كان عقيب الصبر فوزاً وغبطةً
وأنت تناجي بالدعاء فتجيب
فإني على الصبر الجميل دروب

وهو صبر عانه أيضاً أبو عبد الله محمد بن مسعود الغساني البجاني في تجربة مماثلة
عندما سجنه المنصور، فقال في سجنه:

دعوت لما عيل صبري فهل
مولاي مولاي ألا عطفة
يسمع دعواي المليك الحليم
تذهب عني بالعذاب الأليم
إن كنت أضمرت الذي زخرفوا
فعنده نزاعة للشوى
عني فدعني للقدير الرحيم
وعنده الفردوس ذات النعيم

إلا أنه يبدو أكثر اطمئناناً لرحمة ربه، وأكثر استسلاماً له، ولديه شعور عميق بالظلم
الواقع عليه، وهو مبعث الاطمئنان ذاك، الاطمئنان الذي جعله يذكر الفردوس وكأنه
واثق من الفوز بها إذا وافاه الأجل.

والمنصور نفسه كان وراء طائفة من أجمل قصائد رثاء النفس في الشعر الأندلسي مما
نظمه الشاعر المفلح أبو عمر هارون بن يوسف الرمادي، إذ وضعه في السجن بعد أن
"شاعت عنه أشعار في دولة الخلافة وأهلها، سدّد إليهم صائبات بُبلها، وسقاهم كؤوس
تَهْلها، أوغرت عليه الصدور، ونفرت عليه المنايا ولكن لم يساعدها المقدور، فسجنه
الخليفة دهرًا، وأسلكه من النكبة وعرًا"^(١).

وقد كان الرمادي في رثائه لنفسه وهو في السجن مختلف الأحاسيس، دقيقاً في
وصفها في الحالات المختلفة، وقد كانت تتفاوت بين الأمل في النجاة قوياً مرةً، وضعيفاً
مرةً ثانيةً، ثم يصل إلى اليأس التام حيث لا أمل يراود أحاسيسه مرةً ثالثةً أخيرةً، وفي
الحالات الثلاث يقف دنو الموت، أو حصوله فعلاً، على رأس تلك الأحاسيس، وفي
مقدمة توصيفه لها.

(١) مطمح الأنفس: ص ٣١٧.

ففي مطلع قصيدته النافية ينصُّ على كلمة "الأمن" في حالة التمني، والأمن هنا يساوي الحياة، وتمني الأمن هو تمني الحياة، وهو في الوقت نفسه يأْس منها وتصريح بعدم وجودها، ودافع قويُّ إلى التشوق إليها حيثُ كانت:

لَكَ الْأَمْنُ مِنْ شَجْوٍ يَزِيدُ تَشَوُّقِي (١)

وقد كانت تعجُّ بالذكريات الجميلة، ومن تلك الذكريات ما عاشه الشاعر في مدينة الزهراء الباهرة، ولكنه الآن، يخلُقُ منها صورةً مأساويةً تتناسب والحال التي هو عليها، أو ما سوف تقولُ إليه حاله من فقد الحياة، حيثُ يُقامُ عليه مأتمٌ، وتُشَقُّ الفاتناتُ ثيابهنَّ أسفاً على فقده:

فوافوا بنا الزهراء في حال خالع الـ
وحوالي من أهل التأدب مأتم
أثمة لاستيفائهم في التوثق
ولا جُودر إلا بثوبٍ مُمزق

ويقارنُ الرمادي بين حاله قبل السجن حيثُ جمال الحياة ورونقها البهيِّ ومغرياتها الجمَّة، وبعده حيثُ انتفاء كل ذلك، ففي الحال الأولى تتغافل نفسه عن الموت حتى وإن كان له ما لروض الزهراء من جمالٍ أخاذٍ وألَى له ذلك؟، طمعاً في ما في الحياة من تلك المغريات، أما في الحال الثانية فإنها لا تقوى إلا على أن تستجيب له:

فلو أن في عيني الحمام كروضها
ونادى حمامي مُهجتي لتغافلت
وإن كان في ألوانه غير مُشفق
فهلاً أجابت وهو عندي لمُحنق؟

وإذ هو يفقد الصبرَ يحاول أن يستعين بما بقي من دموع عينيه، فلعلَّ في ذلك ما يعينه على الصبر ولو قليلاً:

(١) مطمح الأنفس: ص ٣١٨، ولم ينصَّ المؤلف على عجز البيت.

أَعْيَنِي إِنْ كَانَتْ لِدَمْعِي فَضْلَةٌ تُبَّتْ صَبْرِي سَاعَةً فَتَدْفَقِي

وفيما هو مستغرق في ذكرياته إذ تتجلى أمام عينيه صورة صاحبه وهي تسأله عن
أمل لاجتماع الشمل الذي هو رمز للنجاة من الموت هنا، ولكنه لا يملك جواباً على ما
تسأل، فذلك ظنٌ غير مُحَقَّق، من خلال حوارٍ يتخيَّله بينهما:
وقالت: تظنُّ الدهرَ يجمعُ بيننا؟ فقلتُ لها: مَنْ لي بظنٍّ مُحَقَّقٍ؟

ويعودُ فيعلِّقُ آماله بالزُّجرِ والشفر والأحلام:

ولكنني فيما زجرتُ بِمُقْلَةٍ زجرتُ اجتماعَ الشملِ بعدَ التفرُّقِ
فقد كانت الأشفارُ في مثل بُعْدِنَا فلَمَّا التقتُ بالطيفِ قالتُ سنلتقي^(١)

وإذ هي تبكيه بُكاءَ التكلَّى فإنه يرجوها ألا تفعل ذلك قبل أن يموت فعلاً، ولا شك
عنده في تحقُّق ذلك، وقد استخدمَ كلمة "يوم" للتعبير بها عن الموت، وتكررت هذه
الكلمة مرتين في بيتٍ واحد:

أبأكيةً يوماً ولم يأتِ وقْتُه سيفدُ قبلَ اليومِ دمْعُكَ فارفقي
ومدُّ لم تربني أنتِ في ثوبِ ضائعٍ لعمري لقد حفتُ يعني مُمزَّقِ

وحيثُ يضيقُ به الأمل ويبلغُ بأسُه منتهاه، نراه يرسمُ صورةً نهائيةً لمأساته في قصيدةٍ
أخرى، بعدَ أن تراءى له الموتُ في كل شيءٍ يراه أو يسمعه، فما المطرُ، هذه الظاهرة
الطبيعية، إلا بكاء السحابِ عليه حزناً على موته، وقد استخدمَ كلمة "تذرفُ" لتوائم
معنى البكاء وليس الهُمِّي فقط، وما هُتافُ الحمامِ إلا نواحٌ عليه للسبب نفسه، ولم يكتفِ
الشاعرُ بوظيفة السحاب، بل أسندَ إليه وظيفة غسله بعدَ فقْدِهِ، بينما يستمر الحمامُ بالنواح:
على كَمَدِي تُهمي السحابُ وتذرفُ ومنَ جَزَعِي تبكي الحمامُ وتهتفُ

(١) مطمح الأنفس: ص ٣١٨-٩.

كَأَنَّ السَّحَابَ الْوَكَافَاتُ غَوَاسِلِي وَتِلْكَ عَلَى فَقْدِي نَوَائِحُ هُتَفٌ^(١)

وهكذا يطفحُ شعْرُ الرمادي باللوعة والحزن والأسف، في إطار من قوة النظم، وحرارة العاطفة، على الرغم من قصر المدة التي قضاها في السجن^(٢)، استغراقاً منه في حب الحياة الدنيا، وتعلقه بها، وهو بذلك يذكرنا بقصيدة ابن سيدة مارة الذكر، كما يذكرنا حاله بحال ابن سيدة من حيثُ نجاته من عقوبة الموت فيما بعد، فقد عفا المنصورُ عن الرمادي في سجنه كما عفا إقبالُ الدولة عن ابن سيدة في مهربه من قبل، فكان ذلك لهما بمنزلة الفرج بعد الشدة.

ولم يبكِ السحابُ الرماديَّ وحده، بل لقد بكى جملةً من الشعراء المجيدين مثل النجار الكاتب الذي يضيفُ إلى عناصر الطبيعة عنصراً آخر هو البرق في مشاركته رثاء نفسه بعد أن يتأكَّدَ مَصْرَعُهُ، فيقول من جملة قصيدة طويلة:

فَطَارَ فَوَادُ الْبَرْقِ يَحْكِي جَوَانِحِي	وَأَرْسَلَ عَيْنِيهِ الْحَيَا فَبَكَانِي
بَدَا لِي أَنَّ الدَّهْرَ لَيْسَ مُصْرَدًّا	كَوْوسَ الرَّدَى أَوْ يَشْرَبَ الْمُلَوَّنَ
وَأَبْصَرْتُ مَا بَيْنَ الْمَصَارِعِ مَصْرَعِي	سَرِيعاً رَمَانِي الدَّهْرُ أَوْ مُتَوَانِي ^(٣)

وإذا كان أبو جعفر بن سعيد قد هجا أبا سعيد بن عبد المؤمن فاستطاع أن يهرب من قبضته أول وهلة، فإن أبا مروان عبد الملك بن غصن هجا ابن ذي النون ولكنه لم يستطع الإفلات من قبضته، فأودعه ظلمة السجن حتى يرى في أمره ما يتوقعه الشاعر من عقوبة الموت، أما أبياته في هجاء ابن ذي النون فهي:

تَلَقَّبْتَ بِالْمَأْمُونِ ظَلَمًا، وَإِنِّي لَأَمْنُ كَلْبًا حَيْثُ لَسْتُ مُؤَمَّنَةً

(١) مطمح الأنفس: ص ٣٢٠.

(٢) ذلك ما توصل إليه الدكتور إحسان عباس في كتابه تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة: ص ٩-٢٠٨، وانظر كذلك قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس: ص ١٧٤/٢.

(٣) تحفة القادم: ص ٧٣.

حرامٌ عليه أن يجودَ بِبِشْرِهِ وأما الندى فاندبَ هنالكَ مَدْفَنَهُ
 سطور المخازي دون أبواب قصرِهِ بِحُجَّايِهِ لِلْقاصِدينَ مُعَنَوَكُهُ! ^(١)
 وفي أثناء مكثِهِ في السجنِ كتبَ إلى ابن هودٍ يستشفعه، ويتحدثُ عن أنه مقبورٌ في
 الحياة:

فديتُكَ هل لي منك رُحْمى لعلِّي أفارقُ قبراً في الحياة فأنشُرُ
 وليسَ عقابُ المذنبينَ بِمُنْكَرٍ ولكنْ دوامُ السخطِ والعُتبِ يُنْكَرُ ^(٢)

ويرسم له صورة الموت التي أحاطت به وجعلت منه في قبضة الثرى بعد قبضة ابن
 ذي النون، وهو يرجو منه أن يتدخلَ لدى ابن هودٍ ليعفوَ عنه، فيكونَ إخراجُهُ من
 السجنِ بمثابة ولادةٍ جديدةٍ له، بعد أن يئسَ منها أشدَّ اليأس:

أيا راكبَ الوجناء بُلِّغْ تحيةً أميرَ جُذامٍ من أسيرٍ مُقَيَّدٍ
 ولما دعيتُ الحادثاتُ ولم أجِدْ لها وَزَّراً أَقبلتُ نَحْوَكَ أَغْدي
 ومثلكَ مَنْ يُعْدي على كلِّ حادثٍ رَمَى بِسَهامٍ لِلردى لم تُرْصِدِ
 فعَلَّكَ أَنْ تَخْلُو بِفِكْرِكَ سَاعَةً لِتُنْقِذَنِي مِنْ طَوْلِ هَمٍّ مُجَدِّدٍ
 وها أنا في بَطْنِ الثرى وهو حاملٌ فَيَسِّرْ عَلَى رُقْبَى الشفاعةِ مولدي
 حنانيكَ أَلْفاً بعدَ أَلْفٍ فَإِنِّي جعلْتُكَ بعدَ اللهِ أعْظَمَ مَقْصِدي
 وأنتَ الذي يدري إذا رامَ حاجةً تَضِلُّ بها الآراءُ من حيثُ تهْتدي ^(٣)

"فرقاً له ابن هود، وتحيلاً حتى خَلَّصَهُ بِشفاعَتِهِ، فلما قدمَ عليه أنشده:

(١) نفع الطيب: ٣/ ٣٦٣.

(٢) نفسه: ٣/ ٤٢٤.

(٣) نفع الطيب: ٣/ ٣٦٣.

حياتي موهوبةٌ مِن عَلاكَـا وكيف أرى عادلاً عن دَراكا ١؟" (١)

وفي هذا البيت إقرارٌ من ابن غصن أنَّ الذي فعله ابن هود إنما هو إنقاذٌ لحياته التي لولاه لكانتُ من ضحايا الحاكم.

ومن تعرَّضَ للحبس قاضي القضاة أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن عاصم صاحب كتاب "حداائق الأزاهر"، حيثُ ذكر ولده أبو يحيى ابن عاصم الغرناطي أنه مُنِيَ " في عام أربعة عشرَ وثمانمئة بالاعتقال المطاولِ الأمدِ الذي يقولُ في أثنائه بعدَ مدَّةٍ منه من أبياتٍ" (٢) يصفُ فيها حاله وكأنه ميّتٌ فعلاً:

أودعوني تحتَ الثرى ونسُوني فمُقامي فيه مُقامٌ طويلُ
أنا حيٌّ وحالي حالٌ مَيِّتٍ ليتَ شعري هل للخروج سبيلُ؟

وعبارة "أودعوني تحتَ الثرى" تعبُّراً تاماً عن شعوره بالموت وانتهاء مراسم الدفن، سبب ذلك طول مدة حبسه، واليأس الذي بلغته نفسه من الخلاص من الاعتقال، حتى إنه يتمنَّى زورةً ممن يحب، أو قراءة كتابٍ وهو الفقيه القارئ المثقف، حتَّى ترتاح نفسه شيئاً ويتسلَّى عما ينوبه، ولكن دون جدوى:

راحة النفس زورٌ من خليلٍ أو كتابٌ وأيِّنَ أيِّنَ الخليلُ؟!

ويؤكدُ يأسه في التفكير في احتمال تحقُّق ما يكرهُ وهو رهن الاعتقال ويوطِّن نفسه للصبر على ذلك، ولكنه لا يستبعدُ عاقبة الموت "أو دهنتي الخطوب"، وفي ذلك حسبه الله ونعم الوكيل، وتلك كفاية المسلم المؤمن الذي لا حول له ولا قوة:

إنَّ أرتني الأيامُ غيرَ جميلٍ وأحالتُ حالي فصبرٌ جميلُ
أو دهنتي الخطوبُ فإلهٌ حسي مِن جميعِ الورى ونعم الوكيلُ

(١) نفسه: ٣/ ٣٦٤.

(٢) جنة الرضا: ٢/ ٢٠٣.

ومن الشعراء الأندلسيين من تعرّضَ لعقوبة الاعتقال خارج وطنه الأندلس كأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني الحكيم الذي اعتقله الأفضل خلال إقامته بمصر بسبب سعايات حاسديه وأعدائه، ثمّ فشله في انتشال مركبٍ من الغرق في ماء الإسكندرية بعد تكبيد الدولة مبالغ كبيرة من المال، فكان ذلك السبب المباشر في اعتقاله، فكتبَ إلى الأفضل وهو رهن الاعتقال يستعطفه بعد أن يئس من الخلاص، ويمهد لذلك بذكر ما أصابه من الويل، وقد أصبح كل طعمٍ لديه مرّاً وهو يُعاني من حبسٍ لم يتوقّع أنه سيطول^(١):

إني سُقيْتُ من الخطوب سِلافةً	جعل السقاةُ مزاجها من حنظلٍ
كأسٌ ثملتُ بها فملتُ وإنما	دحضت بها قدمي من الشرف العلي
فاحلب بضبعي منقذي من هوةٍ	أصبحتُ منها في الحضيض الأسفل
وامدُدْ إليَّ يدَ المغيث فكم يدٍ	لك أنقذت من كل خطبٍ معضلٍ ^(٢)

وإذ هو يطلب الإغاثة ومدد يد المنقذ فلأنه أدرك بأن الموتَ مُحققٌ به لا محالة، وبذلك اشتدت بلواه وعظمت مصيبتُه التي ليس لها آخر:

إني دعوتك حين أجحفَ بي الردى	فأغثْ فإنني منه تحت الكلكل
فإليك مفزع كل عانٍ خائفٍ	ولديك فرجة كل بابٍ مُقفَلٍ
قد طالت الشكوى وأقصر وقتها	مؤدبِك كلَّ تصبّرٍ وتجمُلٍ
واشتدت البلوى وأنتَ لرفعها	فأجبْ فإنني قد دعوتُك يا علي
عمرٌ يمرُّ وكربةٌ ما تنقضي	أبدَ الزمان وغمّةٌ لا تنجلي
وزمان سخط ماله من آخرٍ	ورجاء عفو ماله من أوّلٍ

(١) أنظر في ذلك مقدمة ديوانه ص ١٧ وما بعدها.

(٢) ديوانه: ص ١٣٥.

كم ذا التغافل عن وليك وحده
وعلام يهمل أمره ويضيعه
والأمر يخرج دون كل مؤمل
من ليس للصنع الجميل بمهمل
ويختتم قصيدته في الطلب الصريح من ممدوحه أن يخلصه مما هو فيه، فإذا فعل فإنه
سوف يُمطره بقصائد الثناء والمديح:
قم في خلاصي واصطنعني تصطنع
يُثني عليك بما صنعت وربما
رطب اللسان مدير باع المقول
كرم الثناء فذم عرف المبذل

٦- الكوارث الطبيعية:

تعرض نفرٌ من الشعراء الأندلسيين إلى تجربة الموت من خلال كوارث طبيعية
مفاجئة تباغتهم فيعيشونها ويصفونها ويتعرضون إلى ما أصابهم خلالها من ذعرٍ كان كافياً
لإحساسهم بدنو الموت منهم، وهي غالباً ما تكون في بطون السفن وفي أعاريض البحار،
بل إننا لم نعتز، من الكوارث الطبيعية، على غير البحر باعثاً على رثاء النفس، فيما تتبنا
من الشعر الأندلسي.

ومن تلك التجارب تجربة يحيى بن الحكم الغزال، حيث قاسى الهلع من أمواج
البحر، وعاش مواجهةً حقيقيةً مع الموت، ووصف ذلك في حوارٍ أجراه بينه وبين يحيى،
أي بينه وبين نفسه، حيث تعالت الأمواج كأنها الجبال تحت تأثير الرياح التي أخذت تهبُّ
بشدّةٍ من كل اتجاه، حتّى حطمت المركب وما تركب منه من دعائم حديدية:

قال لي يحيى وصرنا
وتولّتنا رياح
بين موج كالجبال
من دبورٍ وشمال
عُرى تلك الجبال^(١)
شقّت القلبين وانبتت

(١) ديوانه: ص ١٠٠.

ولم يتسنَّ له بعدَ ذلك إلا أن يرى الموتَ رؤية العين:

وتمطَّى مَلِكُ المَوتِ	إلينا عن حِيالِ
فأَينما المَوتَ رَأَى	العينَ حالاً بعدَ حالِ
لَمْ يَكُنْ للَقومِ فينا	يا رفيقي رأسُ مالِ!

وهو في ذلك يعبر عن حالة حقيقية من حالات مواجهة بالموت، إذ يتوجَّه المرءُ في مثل هذه الحال إلى مخاطبة نفسه، إن لم يجد مَنْ هو جديرٌ بالمخاطبة، أو مَنْ هو قريبٌ إلى نفسه.

ومن خاض في هذه التجربة وعانها ابن درَّاج القسطلِّي، ووصفها في قصيدته التي مدح بها الخليفة خيران العامري في متوجهه إليه وهو في سرقسطة، عبر البحر، وهو في ذلك ينحو منحى الشعراء الجاهليين في وصف الرحلة إلى الممدوح، وما كان الشاعر قد تكبَّده من مخاطر ومهالك خلالها، ولكن الأمر لدى القسطلِّي يُشاكل الواقع من حيث أن رحلة الشاعر هنا عبرَ البحر في الأندلس، لا عبر الصحراء في الجزيرة العربية، ولهذا السبب فإن ما في قصيدته من توصيفٍ للرحلة يدخل في باب التجديد، ويكتنفه صِدْقٌ فَنِّي واضح، وإن كان الأمرُ في شكله العام يبدو وكأنه إرساء لتقاليد شعرية عريقة، خاصة وأنَّ الشاعر يُشَبِّه أمواجَ البحر بجبلين مشهورين من جبال الجزيرة العربية ولم يشبِّه هذه الأمواج بجبال الأندلس وهي كثيرة تصعب على العدِّ ومنها ما هو مشهور، وهذا ما سنتحدَّثُ عنه في موضع آخر من هذا الكتاب.

وإذ هو يخاطب الخليفة مادحاً فإنه سرعاناً ما يتقل إلى وصف الرحلة ومعاناته خلالها، ففي البيت الثالث من القصيدة يصف لممدوحه السفن التي سارت إليه، وهو في واحدةٍ منها طبعاً، وكيف أنها بدتْ وهي في لجج البحر الهائج وكأنها غربانٌ ذعرها حلول المغرب، فاضطربتْ حركتها في السماء، أما تلك اللجج فإنها ترتفعُ كأنها الجبالُ إذا هبت الرياح:

إليك شَحَنًا الفُلكَ تَهوي كأنها وقد دُعِرتْ من مَغربِ الشمسِ غُربانُ

على لُجَجٍ خُضِرٍ إِذَا هَبَّتِ الصَّبَا تَرَامِي بَيْنَا فِيهَا ثَبِيرٌ وَتَهْلَانُ^(١)

ويسترسل في رسم بقية أجزاء الصورة-المأساة، حيثُ يجزُعُ أهله الذين في معيته، ويبدو أنهم من النسوة فقط، وقد أَسْنَدَ إليهنَّ الرثاء، جزعاً شديداً فتشتعل هواجسُهُنَّ ناراً، ولكنها نارٌ تزيدُ الليلَ ظلاماً، في مثل هذه الحال، فإذا قلَّ فيضُ الماء وهبطت اللجج يجدنَّ مُتَسَعاً من القدرة على البكاء بأعين ملؤها الحزن واليأس من الحياة، وإذا سكنت الرياح وهدأت السفينة يهدأ رَوْعُهُنَّ، ويجدنَّ مُتَسَعاً من الوقتِ لِتَذْكُرَ الأحبة والحنين إليهم، فرمما لن يفوز بلقائهم فيما بعد:

وَفِي طَيِّ أَسْمَالِ الْغَرِيبِ غَرَائِبٌ سَكَنَ شَغَافَ الْقَلْبِ شَيْبٌ وَوِلْدَانُ
يُرَدِّدُنَّ فِي الْأَحْشَاءِ حَرَّ مَصَائِبِ تَزِيدُ ظَلَاماً لَيْلَهَا وَهِيَ نَسِيرَانُ
إِذَا غِيَضَ مَاءُ الْبَحْرِ مِنْهَا مَدَدَتُهُ بَدَمَعَ عَيُونُ تَمْرِيهِنَّ أَشْجَانُ
وَإِنْ سَكَنَتْ عَنْهَا الرِّيحُ جَرَى بِهَا زَفِيرٌ إِلَى ذِكْرِ الْأَحْبَةِ حَنَانُ

ولابدَّ للمرء وهو يُكابِد مثل هذه التجربة القاسية في مواجهة الموت وفي لجة البحر أن يتساءل فيما لو ينجو ويُكْتَبُ له حياةٌ أخرى في الدنيا، أم سيكون البحر قبراً له ومياهُهُ أَكْفَاناً: يقلنَ وموجُ البحرِ والهمُّ والدجى تَمُوجُ بِنَا فِيهَا عَيُونٌ وَأَذَانُ
أَلَا هَلْ إِلَى الدُّنْيَا مَعَادٌ وَهَلْ لَنَا سَوَى الْبَحْرِ قَبْرٌ أَوْ سَوَى الْمَاءِ أَكْفَانُ
ثمَّ يَسْلُمُ عَلَى أَحْبَتِهِ وَأَصْحَابِهِ، كغيره ممن سبقه من الشعراء كما رأينا، وكأنه يودِّعهم توديعاً نهائياً، ويدعو بالسَّقْيِ للدهر-الزمن الذي عاشَ فيه، ثمَّ غَادَرَهُ:

سَلَامٌ عَلَى الْأَحْبَابِ تَسْلِيمٌ يَأْتِسِ وَسَقِيًّا لِدهْرِ كَانَ لِي فِيهِ إِخْوَانُ

هؤلاء الأحبة الذين استخلفوه ليجَّ البحر ليموتَ فيها موتاً مُحَقَّقاً:

هُمُ اسْتَخْلَفُوا الْأَحْبَابَ أَمْوَاجَ لَجَةٍ هِيَ الْمَوْتُ أَوْ فِي الْمَوْتِ عَنْهُمْ سَلَوَانُ^(٢)

وبالجملة لم يكن هذا النوع من رثاء النفس مما كثر القول فيه من قبل الشعراء الأندلسيين.

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٥٧/١، وثبير وتهلان جبلان في الجزيرة.

(٢) الذخيرة: ٥٨/١.

وقد بدا لنا هذا الاتجاه موزعاً على البواعث الآتي ذكرها:

١- الكتابة على القبر:

دأب كثير من الشعراء الأندلسيين على طلب الكتابة على شواهد قبورهم، بعد الموت، نصوصاً شعرية من نظمهم، وقد ينظمون هذه النصوص عند شعورهم بحضور الموت، أو عند يأسهم من الدنيا وزهدهم فيها، وإيمانهم بأنهم مقبلون على الموت في أية ساعة، وأنه لابدٌ مُدركهم، بحسب ما جاء في القرآن الكريم وفي السُّنة النبوية، وهو تقرير حال يحياها الناس على مر الحياة ودورانها.

وهم هنا ينظمون هذه النصوص لتلبي غرضاً من أغراضهم، ومن أجل هذه الأغراض، اتجه الشعراء في رثائهم أنفسهم من خلال الكتابة على القبور أربعة اتجاهات رئيسة، اتجه يتصلون من خلاله بالله ويرجون مغفرته وهم متوجهون إليه، وثان يرجون به دُعاء الناس ممن يمرّون بقبورهم، وثالث يحاولون من خلاله قَطْع دابر السماتة وتشفي الآخرين بهم لأجل أنهم ماتوا، من خلال إقرار حقيقة أنّ دائرة الموت تدور على الجميع، وأنّ أحداً، من الشامتين ومن سواهم، لن ينجو منه ولو بعد حين، ورابع يقصدون به إلى الحكمة والموعظة الحسنة مما له عَلاقة بالموت.

أما الاتجاه الأول فينسلك فيه شعراء كثيرون، منهم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الذي أوصى أن يُكتب على قبره:

سَكْتُكِ يَا دَارَ الْفَنَاءِ مُصَدِّقاً	يَأْتِي إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ أَصِيراً
وَأَعْظَمُ مَا فِي الْأَمْرِ أَنِّي صَائِرٌ	إِلَى عَادِلٍ فِي الْحُكْمِ لَيْسَ يَجُورُ
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ أَلْقَاهُ عِنْدَهَا	وَزَادِي قَلِيلٌ وَالذُّنُوبُ كَثِيرٌ؟
فَإِنْ أَكُ مَجْزِياً بِذَنْبِي فَإِنِّي	بَشَرٌ عِقَابِ الْمَذْنِبِينَ جَدِيرٌ
وَإِنْ يَكُ عَفْوٌ مِنْهُ عَنِّي وَرَحْمَةٌ	فَئِمَّ نَعِيمٌ دَائِمٌ وَسُرُورٌ ^(١)

ويؤكد أبو بكر بن مغاور ثقته وحُسن ظنه برحمة ربه وبكرمه، مُحاولاً بذلك، وقد دهمه الموت وأصبحت عظامه رميماً، أن يُطمئن نفسه وأهله وأصحابه بأنه مقبلٌ على رب كريم يعفو عن ذنوب مَنْ يستغفره:

أيهـا الواقف اعتباراً بقبري	استمع فيه قولَ عظمي الريم
أودعوني بطنَ السرابِ وخافوا	مِن ذنوبِ كلومها بأيدي
قلتُ لا تجزعوا عليَّ فإني	حَسَنُ الظنِّ بالرووف الرحيم
ودعوني بما اكتسبتُ رهيناً	غلقَ الرهن عندَ مولى كريم ^(١)

والى هذا المعنى ذهب أبو الحجاج المنصفي في قوله:

قالت لي النفسُ: أتاكَ الردى	وأنتَ في بحر الخطايا مُقيم
هلاً ادّخرتَ الزادَ قلتُ: اقصري	لا يُحمَلُ الزادُ لدارِ الكريم ^(٢)

أما ابن شهيد فيستذكر أيامَ سروره ولهوه في الدنيا وغفلته عن هذا المصير المحتوم- الموت، ثمَّ يخافُ ألاَّ تشملهُ رحمةُ الله، ولذلك فهو يدعوهُ المغفرة والرحمة ويعترفُ بتقصيره، من خلال هذا الحوار:

يا صاحبي قُمْ فقد أطلنا	أنحُنْ طولَ المدى هجودُ
فقال لي: لنْ نقومَ منها	ما دامَ مِن فوقنا الصعيدُ
تذكرُكم ليلةٌ نعيمنا	في ظلِّها والزمانُ عيدُ
وكم سرورٍ همى علينا	سحابةٌ نيرةٌ تجودُ
كلُّ - كأنْ لم يكنْ - تقضى	وشؤمُهُ حاضرٌ عتيْدُ

(١) نفع الطيب: ٣٤٢/٤.

(٢) نفع الطيب: ٥٩٥/٣.

حَصِّلُهُ كَاتِبٌ حَفِظَ وَضَمَّهُ صَادِقٌ شَهِيدٌ
يَا وَيْلَنَا إِنْ تَنَكَّبْنَا رَحْمَةً مِّنْ بَطْشُهُ شَدِيدٌ
يَا رَبِّ عَفْواً فَأَنْتَ مَوْلَى قَصَرَ فِي شُكْرِكَ الْعَبِيدُ^(١)

ويدخلُ المعتمد بن عباد في رهط هؤلاء الشعراء وفي هذا الاتجاه ، حيث يدعو بالسقيا لقبره من خلال مناجاته، ويعجبُ من أنَّ الموتَ لحقَ به، ثمَّ ضمَّ أشلاءه قبر، وهو مَنْ هوَ حيثُ الحِلْمُ والعِلْمُ والنعمى والكرَمُ والمجد والشجاعة والإقدام والانتقام والعطاء والضياء والتصدُّر، وكأنَّ مَنْ يكونُ بمنزلته لا يجبُ أن يُدرَكَ الموت، فهو الموتُ نفسه، أفليس هو مَنْ يُلحِقُ الموتَ الأحمرَ بالآخرينَ أيامَ مجده؟:

قَبْرَ الْغَرِيبِ سَقَاكَ الرَّائِحُ الْغَادِي حَقًّا ظَفَرْتَ بِأَسْلَاءِ ابْنِ عِبَادٍ
بِالْحِلْمِ، بِالْعِلْمِ، بِالنَّعْمَى إِذَا اتَّصَلْتُ بِالْخَضْبِ إِنْ أَجْدَبُوا، بِالرِّيِّ لِلصَّادِي
بِالطَّاعِنِ، الضَّارِبِ، الرَّامِي إِذَا اقْتَتَلُوا بِالمَوْتِ أَحْمَرٍ، بِالضَّرْغَامَةِ الْعَادِي
بِالدَّهْرِ فِي نَقَمٍ، بِالْبَحْرِ فِي نَعَمٍ بِالبَدْرِ فِي ظُلَمٍ، بِالصَّدْرِ فِي النَّادِي^(٢)

ثم يرجعُ فيتذكَّرُ أنَّ ما حلَّ به هو الموت-الحق، وهو الأجلُ المحتوم الذي جعلَ الجبلَ- ابن عباد يُحْمَلُ على أعوادٍ عي النعش:

نَعَمْ هُوَ النُّعْشُ وَافَانِي بِهِ قَدَرٌ مِّنَ السَّمَاءِ، فَوَافَانِي لِمِيعَادٍ
وَلَمْ أَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ النُّعْشَ أَعْلَمُهُ أَنَّ الْجِبَالَ تَهَادَى فَوْقَ أَعْوَادٍ

ويستمرُّ في مخاطبة هذا النعش راجياً منه أن يرفقَ به وقد اشتملَ عليه وغَيَّبَ كَرَمَهُ، وداعياً له بالسقيا من مطَرٍ طالما أشبههُ، فهو أخوه بالعطاء. وهو لا ينسى الروضَ حتَّى في

(١) ديوانه: ص ٦٧.

(٢) ديوانه: ص ٩٦.

هذا الموقف القاسي، وهو الأديبُ الشاعر صاحب الذوق الرفيع، فيستسقي لِقْبَرِهِ الطَّلَّ
 مِنْ عَيُونِ الْأَزَاهِيرِ التي لم تبخل يوماً بِإِسْعَادِهِ وإِسْعَادِ الْآخَرِينَ، وما أَجْدَرُهُ الْآنَ بِمِثْلِ هَذَا
 الْإِسْعَادِ:

فَاكْ، فَارْفُقْ بِمَا اسْتَوْدَعْتَ مِنْ كَرَمِ	رَوَاكْ كُلُّ قَطُوبِ الْبَرْقِ رَعَادِ
يَبْكِي أَخَاهُ الَّذِي غَيَّبْتَ وَابْلَهُ	تَحْتَ الصَّفِيحِ، يَدْمَعُ رَائِحِ غَادِ
حَتَّى يَجُودَكَ دَمْعُ الطَّلِّ مُنْهَمِراً	مَنْ أَعْيَنَ الزَّهَرَ لَمْ يَخْلُ بِإِسْعَادِ

ويختم خطابه لهذا القبر بالدعاء من الله أَنْ يَسْبَغَ عَلَى دَفِينِهِ، وَيَعْنِي نَفْسَهُ، رَحْمَةً دَائِمَةً
 لَيْسَ لَهَا عَدَدٌ.

ويمثل الاتجاه الثاني أبو إسحاق ابن خفاجة الذي يرجو كل مَنْ يَمُرُّ بِقَبْرِهِ أَنْ يَرِثِي
 وَيَتَأَلَّمَ لِحَالِهِ، وَيَسَلِّمَ عَلَيْهِ وَيَتَرَحَّمْ، وَهُوَ يَطْلُبُ، مِمَّنْ يَعْرِفُهُمْ فِي الْأَقْلِ، أَنْ يُؤَدُّوا وَاجِبَ
 الْوَفَاءِ لَهُ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ:

خَلِيلِي هَلْ مِنْ وَقْفَةٍ بَتَأَلَّمْ	عَلَى جَدَّتِي أَوْ نَظْرَةٍ يَتَرَحَّمْ
خَلِيلِي هَلْ بَعْدَ الرَّدَى مِنْ ثَنِيَّةٍ	وَهَلْ بَعْدَ بَطْنِ الْأَرْضِ دَارُ خَيْمٍ؟
وَإِنَّا حِينَا أَوْ رَدِينَا لِإِخْوَةٍ	فَمَنْ مَرَّبِي مِنْ مُسْلِمٍ فَلْيُسَلِّمْ
وَمَاذَا عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ مُحْيِياً	أَلَا عِمَّ صَبَاحاً أَوْ يَقُولَ أَلَا اسْلَمِي
وَفَاءً لِأَشْلَاءٍ كَرُمْنَ عَلَى الْبَلَى	فَعَاجَ عَلَيْهَا مِنْ رُفَاتٍ وَأَعْظَمَ
يُرَدِّدْنَ طَوَراً أَمَةً الْحُزْنَ عِنْدَهَا	وَيَذَرْنَ طَوَراً دَمْعَةَ الْمُتَرَحَّمِ ^(١)

وإلى هذا المعنى نفسه يذهب ابن الزقاق البُلَنَسِيُّ فِي رِثَائِهِ لِنَفْسِهِ، حَيْثُ يَذْكُرُ تَفْرِيقَ
 الْمَوْتِ لِشَمْلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَإِخْوَانِهِ، وَيَخَاطِبُهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ وَيَقُولُ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ جَمِيعاً لِأَحْقُونِ

(١) تحفة القادم: ص ٢٤-٥.

به، ويؤكد أن عيشهم كان رائعاً صافياً قبل الموت، من خلال أسلوب الاستحلاف، ثم يطلب من كل من يمر بقبره أن يترحم عليه وفاءً له:

وَلِلْمَوْتِ حُكْمٌ نَافِذٌ فِي الْخَلَائِقِ	أَلْإِخْوَانُنَا وَالْمَوْتُ قَدْ حَالَ بَيْنَنَا
وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكُلَّ لَا بُدَّ لِحَقِّي	سَبَقْتُكُمْ لِلْمَوْتِ وَالْعُمُرُ طَيِّئَةٌ
أَلَمْ نَكُ فِي صَفْوٍ مِنَ الْعَيْشِ رَائِقِ	بَعِيشِكُمْ أَوْ بَاضْطِجَاعِي فِي الثَّرَى
وَلَا يَكُ مَنَسِيّاً وَفَاءُ الْأَصَادِقِ ^(١)	فَمَنْ مَرَّ بِي فَلْيَمِضْ بِي مَتْرَحَماً

وقد حرص أبو بكر ابن أبي العافية الكتندي على ألا يموت غريباً دون أن يفوز بالتسليم والترحم عليه من قبل كل من يمر بقبره، بعد أن جدّ في طلب الرحلة متوكلاً على الله:

ذَا اغْتَرَابَ حَطٌّ أَرْحُلُهُ	حَيَّ قَبْرًا بِالْبَقِيعِ حَوَى
طَلَقاً مَا شَاءَ طَوَّلَهُ	جَدُّ فِي تَسْيَارِهِ وَجَرَى
يَدْخُرُ إِلَّا تَوَكُّلُهُ ^(٢)	فَهُوَ قَدْ أَلْقَى عَصَاهُ وَلَمْ

أما الشاعر الغرناطي ابن باق فقد طمع بالأميرين معاً، أعني رجاء غفران الله تعالى، ورجاء دعاء الناس له بذلك، مُعْتَرِفاً بالتقصير في طاعة الله مع صدق إيمانه به وحب رسوله الكريم، ومستشفعاً بأوليائه الصالحين، فقد "أوصى بعد أن يُحْفَرَ قَبْرُهُ بَيْنَ شَيْخِيهِ الْخَطِيبِينَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الطَنْجَالِيِّ وَأَبِي عَثْمَانَ ابْنِ عَيْسَى أَنْ يُدْفَنَ بِهِ، وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَى قَبْرِهِ هَذِهِ الْآيَاتُ":

تَرْحَّمْ عَلَى قَبْرِ ابْنِ بَاقٍ وَحْيِهِ	فَمِنْ حَقِّ مَيِّتِ الْحَيِّ تَسْلِيمٌ حَيِّهِ
---	---

(١) ديوانه: ص ٢٠٥.

(٢) أدباء مالقة: ص ٨٩.

وَقُلْ آمَنَ الرَّحْمَانُ رَوْعَةً خَائِفٍ
 قَدْ اخْتَارَ هَذَا الْقَبْرَ فِي الْأَرْضِ رَاجِعاً
 لَتَفْرِيطِهِ فِي الْوَاجِبَاتِ وَغِيٍّ
 مِنْ اللَّهِ تَخْفِيفاً يَقْدَرُ وَلِيٍّ
 وَيَشْمَلُ بِالْمَعْرُوفِ أَهْلَ نَدِيٍّ
 وَإِنِّي بِفَضْلِ اللَّهِ أَوْثَقُ وَاثِقٍ
 وَحَسْبِي وَإِنْ أَذْنَبْتُ حُبَّ نَبِيٍّ^(١)

أما علي بن أبي جعفر بن همشك فقد عبّر عن معنى طريف مفاده أنه لم يكن يريد قبراً لجسمه الذي لن يبقى بعد الموت، إذ يستحيل تراباً، ولكنه رجا من ورائه دعاء الأبرار له عند المرور به:

لَعَمْرُكَ مَا أَرَدْتُ بَقَاءَ قَبْرِي
 وَلَكِنِّي رَجَوْتُ وَقُوفَ بَرٍّ
 وَجَسَمِي فِيهِ لَيْسَ لَهُ بَقَاءُ
 عَلَى قَبْرِي فَيَنْفَعَنِي الدَّعَاءُ^(٢)

ويحاول الشاعر الشُّلِّي أبو بكر محمد بن إبراهيم العامري النحوي، في ثالث الاتجاهات، أن يدحض سرور أعدائه ومُبغضيه بموته، من خلال إقرار حقيقة أن جميع من في الأرض، وعلى مختلف الأزمنة قد مات قبله، بدءاً بآدم عليه السلام ومحمد (ص) من الأنبياء، ثم الملوك والأعيان من بني البشر العاديين، وأن الجميع، لهذا السبب سيموتون بما فيهم الشامتون أنفسهم - طبعاً-، فعلام السرور إذن؟:

لَنْ نَكْفِدَ الْقَدْرَ السَّابِقُ
 فَقَدْ مَاتَ الْدُّنَا آدَمُ
 وَمَاتَ الْمُلُوكُ وَأَشْيَاغُهُمْ
 فَقُلْ لِلَّذِي سَرَّهُ مَهْلِكِي
 يَمُوتُنِي كَمَا حَكَمَ الْخَالِقُ
 وَمَاتَ مُحَمَّدٌ الصَّادِقُ
 وَلَمْ يَبْقَ مِنْ جَمْعِهِمْ نَاطِقُ
 تَأْهَبُ فَإِنَّكَ بِي لَاحِقُ^(٣)

(١) نفع الطيب: ٦/ ٢٦٥.

(٢) الروض المعطار في خبر الأقطار: ص ٣٤٩.

(٣) تحفة القادم: ص ٢٤.

ويعودُ ابنُ الزقاقِ البُلنسي ليرثيَ نفسه مرةً أخرى، ولكن في هذا الغرض، فیردّ على أعدائه الشامتين بموته كما فعل العامري النحوي، ولكنه يزيدُ عليه تفضيله الموت حيثُ الإقامة لدى الخالقِ سُبْحانه وتعالى، على الحياة حيثُ الإقامة بين الناس:

ألا يا واقفاً بي عندَ قبري	سل الأجدات عن صرف الليالي
وعن حالي فإن عيّت جواباً	فعبثها تُجيبُ عن السؤالِ
لئن شمتَ العدو بنا فمهلاً	سُئِلُ للصفائح كاتقالي
وأيّ شماتة في تركِ دنيا	لذي أملٍ رأى عنها ارتحالي
وكنتُ أقيمُ بين الناس فيها	فسرتُ إلى المهيمَن ذي الجلال ^(١)

ويبدو أن التشفّي بالموت من قبل الخصوم، ويسميهـم الشعراء بـ"الأعداء"، كان مما هو سائد مألوف في أخلاق الأندلسيين، فهذا أحمد بن إبراهيم بن صفوان، وهو شيخ عالم ومؤلفٌ وفقيهٌ ومتدينٌ ومتصوّفٌ ومتفلسفٌ وأديبٌ يَشْفِي بموتِ قاضي بلده أبي عمرو ابن منظور وكانت بينهما "مقاطعة انبرى بها إلى مطالبة بما دعاه إلى التحوّل مضطراً إلى غرناطة"^(٢)، ولم يكظم هذا التشفّي، بل نظم فيه قصيدة يهجوّه فيها وينسبُ إليه الفواحش مما له علاقةٌ بشخصه ويعمله في القضاء، ويتوقّع، بل يتمنّى له الحساب العسير في القبر وفي الآخرة، على وفق الحق الإلهي، لا كما كان هو يراه أيام كان قاضياً، حيث لا رشوة ولا شهادة زورٍ ولا مكر ولا غش ولا خداع:

تردّي ابنُ منظورٍ وحمّ حماه	وأسلمه حامٌ له ونصيرُ
تَبَرَّأ منه أولياء غروره	ولم يَقِهْ بأسَ المَنونِ ظهيرُ

(١) ديوانه: ص ٢٤٧-٨.

(٢) الإحاطة: ٢٣٩/١.

وَأودَعَ بَعْدَ الْأنْسِ مُوحِشَ بَلْقَعٍ فَحَيَّاهُ فِيهَا مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ
 وَلَا رِشْوَةً يُدْلِي الْقَبُولُ رِشَادَهَا فَيُنْسَخَ بِالسَّيْرِ الْمُرِيحِ عَسِيرٌ
 وَلَا شَاهِدٌ تَقْضِي لَهُ عَنْ شَهَادَةٍ تَحْلُلُهَا إِنْكَ يُصَاعُ وَزُورٌ
 وَلَا خُدْعَةٌ تُجْدِي وَلَا مَكْرَ نَافِعٍ وَلَا غَشٌّ مَطْوِيٌّ عَلَيْهِ ضَمِيرٌ
 وَلَكِنَّهُ حَقٌّ يَصُولُ وَبَاطِلٌ يَحُولُ وَمَثْوَى جَنَّةٍ وَسَعِيرٌ^(١)

ثمَّ هو يعترف بأنَّ مصيرَ كلِّ إنسانٍ الموت، وأنَّ الجميع ملاقونَ ربَّ العباد لا محالة، ولكنه يعود فيؤكد أنَّ موتَ الأعداء قَبْلًا، ولو بوقتٍ قصير، يعودُ على القلبِ بسرورٍ غامر، فموتُهم يضمن الأمنَ وعدم الخوف منهم، في الأقل:

وَقَالُوا قِضَاءَ الْمَوْتِ حَتَمٌ عَلَى الْوَرَى يُبْدِيرُ صَغِيرٌ كَاسَهُ وَكَبِيرٌ
 فَلَا تَنْتَسِمُ رِيحُ ارْتِيَاكِ لِفَقْدِهِ فَإِنْكَ عَنْ قِصْدِ السَّبِيلِ تَحُورُ
 فَقُلْتُ بَلَى حُكْمُ الْمَنِيَّةِ شَامِلٌ وَكُلٌّ إِلَى رَبِّ الْعِبَادِ يَصِيرُ
 وَلَكِنْ تَقْدِيمَ الْأَعَادِي إِلَى الرَّدَى نَشَاطٌ يَعُودُ الْقَلْبَ مِنْهُ سُرُورُ
 وَأَمِنْ يَنَامُ الْمَرْءُ فِي بَرْدِ ظِلِّهِ وَلَا حَيَّةٌ لِلْحَقْدِ تَمُّ تَثُورُ

ويحاول الشاعر أن يبرهن على صحة مذهبه هذا من خلال الاستشهاد ببيت شعرٍ

قديم مشهور يتناول هذا المعنى ويضمِّنه قصيدته:

وَحَسْبِي بَيْتٌ قَالَهُ شَاعِرٌ مَضَى غَدَا مِثْلًا فِي الْعَالَمِينَ يَسِيرُ
 "وَإِنْ بَقَاءَ الْمَرْءِ بَعْدَ عَدُوِّهِ وَلَوْ سَاعَةً مِنْ عُمُرِهِ لَكَثِيرُ"

(١) الإحاطة: ٢٣٩/١-٢٤٠.

أما أبو بكر ابن زهر الحفيد الطبيب فيرثي نفسه ويطلب أن يكتب رثاؤه على قبره، وهو يندرج في إطار العظة والحكمة، ضمن الاتجاه الرابع من هذه الاتجاهات، فيعرض على الواقف على قبره مفارقة الموت والحياة، وهي مفارقة تتعلق بكينونته إنساناً يعيش على الأرض حيناً ثم يدفن تحت ترابها، وتعلق بمهنته طبيباً يُداوي مرضاه حذر الموت، ولكنه لا يجد بداً من الموت إن عاجلاً أو آجلاً، بل لقد تصوّر أبو العلاء نفسه قد مات فعلاً، ورأى أن من الحكمة أن يعظ الآخرين بأن الموت قدر لا مفر منه، فليلتفتوا إليه قبل الفوت:

ترحم بفضلِكَ يا واقفاً	وأبصر مكاناً دُفِعنا إليه
ترابُ الضريح على صفحتي	كأنِّي لم أمش يوماً عليه
أداوي الأنعام حذار المنون	فها أنا قد صرت رهناً لدية ^(١)

أما أحمد بن أيوب اللمائي فينصّ على نوع آخر من المفارقة تتعلق بما يمكن للإنسان في حياته من البناء والتشييد، ثم لا يحصل بعد الموت على غير مكان صغير يصفه اللمائي "ما بين الذراع إلى الشبر"، وهو القبر، فما العبرة، إذن، من فخامة البناء وسعة التشييد والدهر غير غافل، وعلى الإنسان ألاّ يُحسن الظنّ به، وألاّ يغفل أيضاً عن الالتفات إلى آخرته قبل أن يفاجئه هذا المصير:

بَنيتُ ولم أسكنُ وحصنتُ جاهداً	فلما أتى المقدورُ صيرهُ قَبري
ولم يكُ حظِّي غيرَ ما أنت مُبصرٌ	يعينيك ما بين الذراع إلى الشبر
فيا زائراً قَبري أو صيكَ جاهداً	عليك يتقوى الله في السرّ والجهر
فلا تُحسنْ بالدهرِ ظناً فإنما	من الحزم ألاّ يُستنامَ إلى الدهرِ ^(٢)

(١) التكملة لكتاب الصلاة: ص ٢٦٨-٩، والنص فيه منسوب إلى أبي العلاء ابن زهر، والواقف بالوفيات: ٤٠/٤، ونفع الطبيب: ٤٣٤/٣، وهناك اختلاف في هذه المصادر في بعض مفردات النص.

(٢) الإحاطة: ٢٤٣/١، وفيه في البيت الثاني: "ولم يكن حظي..."، ولا يستقيم معه الوزن.

ولا أشكُّ في أنَّ حرصَ الشعراء على كتابة نصوص الرثاء بالشعر على قبورهم يُرَدُّ إلى حُبِّهم لذواتهم، واعتزازهم بأنفسهم، وهو اعتزازٌ بالحياة، في آنٍ. إنهم في ذلك يعبرون عن رفضٍ خفيٍّ وغير مباشرٍ لمغادرتها، وبالتالي فهم يعبرون رغبتهم في البقاء على الأرض، وبين الناس، على هذه الصورة بعد أن أصبحوا تحتها في الصورة المعروفة من الزوال والامحاء المادي... إنه رغبةٌ في تحقيق الخلود في هذه الصورة المعنوية... صورة الذكر الحسن، خاصة وإنهم يقدِّرون ما للشعر من أثرٍ سحريٍّ في النفوس، ومن قدرة على البقاء والتداول عبر الأزمنة أكثر مما للنثر في هذين الأمرين، فضلاً عما تقدَّم مِن أسبابٍ أخرى لهذا الحرص.

٢- التوبة والاستغفار:

إنَّ أغلبَ الشعراء الأندلسيين يتجهون إلى إعلان التوبة والاستغفار في رثائهم لأنفسهم، ولا سيما عندما يبلغ بهم العمر مدىً معيناً هو غالباً بعد انقضاء مرحلة الشباب والكهولة، وأحياناً عند ذلك أو قبله، كما رأينا في هذا الفصل، ولهذا السبب وقفنا على مجموعة كبيرة من النصوص الشعرية التي يقفُّ هذا الباعث وراءها، لمجموعة كبيرة من الشعراء.

من هؤلاء الشعراء أبو الوليد بن الفرضي الذي يشعر بملاقاة الله سبحانه وتعالى، ويعترفُ له بخطاياهِ الكثيرة في وجلٍ وخوفٍ شديدين، ويدعوه، ولا أحدَ سواه يستحقُّ الدعاء والرجاء، ألاَّ يخيِّب ظنه في مغفرته يوم الحساب، يوم تُنشرُ الصحف:

أسيرُ الخطايا عندَ بابك واقفٌ	على وجلٍ مما به أنتَ عارفٌ
يخافُ ذنباً لم يغبُ عنكَ غيبُها	ويرجوكَ فيها، فهو راجٍ وخائفٌ
ومَن ذا الذي يرجو سواكَ ويثقي؟	ومالك في فصل القضاء مُخالفٌ
فيا سيدي، لا تُخزني في صحيفتي	إذا نُشرتْ يومَ الحسابِ الصحفُ ^(١)

(١) وفيات الأعيان: ٤٧٩/١، ونفح الطيب: ١٢٩/٢.

بل إنه يرجوه المغفرة قبل ذلك، حيث القبر وظلمته التي لا تُطاق، إذ ليس هنالك
من قريب ولا مؤنس، فما الذي سيحل به إذا لم يفرّ بها؟:

وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما يصدّ ذوو القربى ويجفّو المؤلف
لئن ضاق عني عفوك الواسع الذي أرجي لإسرافي فإنني لتالف

ويصفُ القاضي أبو الوليد ابن الباجي حياته، وكيف قضّاها في لهوٍ وعبثٍ غير آبه
لما وعدَ الله به عباده المؤمنين الصّاحين، ولا لوعيدِهِ لأولئك الضّالين عن طريق الهداية
والرشاد، حتى إذا ما بلغ من العمر عتياً رجَعَ فأسفَ على ما اقترفه من ذلك الغيّ أشدَّ
الأسف، وقد زهدَ في الدنيا بعد أن تنكّرتَ له، وقد فات الأوان، وكان قد أمكنه الزهدُ
من قبل فلم يفعلْ، وهو في ذلك كله يخاطب ربه سبحانه وتعالى في تمهيدٍ منه لطلب
المغفرة:

إلهي قد أفنيتُ عمري بطلالةٍ ولم يثنني عنها وعيدٌ ولا وعدٌ
وضيئته ستسن عاماً أعدّها وما خير عمرٍ إنما خيره العُدُ
وقدّمتُ إخواني وأهلي فأصبحوا تضمُّهم أرضٌ ويسترهم لحدٌ
وجاء نذير الشيب لو كنتُ سامعاً لوعظٍ نذيرٍ ليس من سمّعه بُدُ
تلبّستُ بالدنيا فلما تنكّرتُ تميتُ زهداً حين لا يمكنُ الزهدُ
وتابعتُ نفسي في هواها وغيّها وأعرضتُ عن رشدي وقد أمكنَ الرشدُ
وأجهدتها في نيلِ دنيا فلم أرحُ وكم أسفٍ قد جرّه ذلك الجهدُ
ولم آتِ ما قدّمته عن جهالةٍ فيمكنني عُذرٌ ولا يمكنُ الجحدُ^(١)

(١) الغنية: ص ١٥٤.

وهو يشعر الآن أنَّ الموت يُراوده، ولذلك فهو لا يملك من الوقت مُسعاً ليفعل ما يمكنه به أن يتقرب إلى الله، ويفوز بالجنة عاقبة المتقين، ولا مخلص له من نار الجحيم، ولم يبقَ بين يديه إلا أن يطلب العفو والمغفرة منه وهو الغفور الرحيم، ويبادر إلى الإعداد للآخرة في ما بقي له من الزمن الذي هو ساعة واحدة ليس غير:

وها أنا من ورد الحمام على مدى	أراقب أن أمسي لديه وأن أغدو
وقد فاتني الإعداد بالعمل الذي	به كان يرجى القرب والفوز والخلد
وبُعدي عن نار الجحيم وحرها	وأنى لمثلي عن لظى حرها بعد
ولم يبق لي إلا رجائي فضل من	له الملك والإحسان والجود والحمد
يُزحزح بالإيمان عني جهنماً	ويوردها من ديثه الكفر والجحد

ويتعرض ابن الباجي هو أيضاً إلى قضية السماتة ويعدها ضرباً من الحقد:

ولا يشمتني بي كافراً كان حقه	عليّ لتوحيد فما صدق الحقد
------------------------------	---------------------------

وواضح ما طفح به هذا النص من معانٍ دينية إسلامية لجأ إليها أيضاً أبو إسحاق القباب المؤدب وهو يُلاقى ربه ويودّع الحياة:

يا أكرم الكرماء يا من لم يزل	يولي الجميل ويستر العصيانا
إنَّ الكريم متى ألمَّ بداره	ضيف قراه البر والإحسانا
وأحل دارك مذنباً متدماً	فجعل قراي العفو والغفرانا
إني جعلتُ إلى علاك وسيلتي	وشفيعي التوحيد والقرآنا
أعلى ظنوني أن عفوك شامل	أهل الذنوب فلم تزل رحماناً ^(١)

(١) أخبار وتراجم أندلسية: ص ١٠٤.

أما أبو الحسن المرادي فقد استسلمَ لِقدره وهو يُواجه رَبَّهُ، على يقينٍ من أنه لن يفوز بعاقبة المتقين، فقد اقترفَ المعاصي وهو عالمٌ بها وبمدي قُبْحها، وما ذاك إلا سوء تدبيرٍ منه، ولذلك فإنَّ حسابَه عند الله سيكون عسيراً، والحُكْمُ موْكولٌ به، إن شاء أنعمَ عليه برحمته، وإن شاء عَذَّبَه وجعله في أقبح صورة:

يَقْضِي بِأَنِّيَ مَحْمُولٌ عَلَى قَدَرٍ	عِلْمِي يَقْبَحُ الْمَعَاصِي حِينَ أَوْثَرَهَا
مَا كُنْتُ أَطْرَحُهَا فِي لُجَّةِ الْغُرَرِ	لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ نَفْسِي أَوْ أَوْدُبَهَا
فَلَمْ أَشَارِكْهُ فِي نَفْعِي وَلَا ضَرَرِي	وَكُنْ فِي عِلْمِ رَبِّي أَنْ يُعَذِّبَنِي
أَوْ شَاءَ صَوَّرَنِي فِي أَقْبَحِ الصُّورِ ^(١)	إِنْ شَاءَ نَعَّمَنِي، أَوْ شَاءَ عَذَّبَنِي

ولكنه، مع ذلك، لا يفوته أن يستغفر ربه، طمعاً في عفوه ومغفرته:

يَا رَبَّ عَفْوِكَ عَنْ ذَنْبٍ قَضَيْتَ بِهِ عَذْلًا عَلَيَّ وَهَبْ لِي صَفْحَ مُقْتَدِرٍ

وكذلك هو حال الألبيري وقد شعر بهجمة الموت، وهو مستغرقٌ في الخطايا، فأخذ في لوم نفسه إذ هو لم ينظرْ بعين عقله، فلو كان فعلَ ذلك لما اقترف تلك الخطايا:

وَقَدْ سَلَّ الْحِمَامُ عَلَيَّ نَصْلًا	سَيَقْتُلْنِي وَإِنْ شَاكَتْ سِرَاحِي
وَيَحْمِلُنِي إِلَى الْأَجْدَاثِ صَحِي	إِلَى ضَيْقٍ هُنَاكَ أَوْ انْفِصَاحِ
فَأُجْزَى الْخَيْرِ إِنْ قَدَّمْتُ خَيْرًا	وَشَرًّا إِنْ جُزِيتُ عَلَى اجْتِرَاحِي
وَهَا أَنَا ذَا عَلَى عِلْمِي بِهَذَا	بَطِيءُ الشَّأْوِ فِي سَنَنِ الصَّلَاحِ
وَلِي شَأْوٌ يَمِيدَانِ الْخَطَايَا	بَعِيدٌ لَا يُبَارَى بِالرِّيَاحِ
فَلَوْ أَنِّي نَظَرْتُ بَعِينَ عَقْلِي	إِذْ لَقَطَعْتُ دَهْرِي بِالنِّيَاحِ

(١) التكملة لكتاب الصلة: ٣/ ١٩٣، وأدباء مالقة: ص ٢٢٧، وفيه: أبو بكر المرادي.

ولم أسحبُ ذِيُولِي فِي التَّصَابِي
وكنْتُ اليَوْمَ أَوْباً مُنِيّاً
وَإِذَا مَا كُنْتُ مَكْبُولَ الْخَطَايَا
وَلَمْ أَطْرَبْ بِغَانِيَةِ رَدَاحِ
لَعَلِّي أَنْ تَفُوزَ غَدَاً قِدَاحِي
وَعَانِيَهَا فَمَنْ لِي بِالْبَرَاكِ؟^(١)

ثم يُعلنُ التَّوْبَةَ ويطلبُ المَغْفِرَةَ مِنْ إِلَهٍ لَا يَأْسُ مِنْ رَحْمَتِهِ:

فَهَلْ مِنْ تَوْبَةٍ مِنْهَا نَصُوحٌ
فِيَا لَهْفِي إِذَا جُمِعَ الْبَرَايَا
وَلَوْلَا أَنَّنِي أَرْجُو إِلَهِي
تُطِيرْنِي وَتَاخُذُ لِي سَرَاحِي؟
عَلَى حَرْبِي لَدَيْهِمْ وَاقْتِضَا حِي
وَرَحْمَتُهُ يَنْسُتُ مِنَ الْفَلَاحِ

وَيَتَخَيَّلُ أَبُو الطَّاهِرِ التَّمِيمِي نَفْسَهُ وَحِيداً فِي قَبْرِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ، حَيْثُ لَا ظَهِيرَ لَهُ وَلَا
نَصِيرَ، وَلَيْسَ لَهُ، وَقَدْ أَسْرَفَ فِي خَطَايَاهُ، غَيْرَ رَحْمَةٍ رَبِّهِ وَرِضْوَانِهِ:

هَـأَنَذَا فِي التَّرَابِ وَحْدِي
بِاللَّهِ هَبْ لِي دُعَاءَ صِدْقٍ
أَسْرَفْتُ يَا رَبِّ فِي خَطَايَا
فَأَمُّنْ يَعْفُوْ وَجُدْ يَرْحَمِي
فَلَا ظَهِيرٌ وَلَا نَصِيرٌ
يَسْمُو بِهِ بَاعِي الْقَصِيرُ
أَنْتَ بِهَا عَالِمٌ بَصِيرٌ
إِلَيْكَ يَا رَبِّي الْمَصِيرُ^(٢)

أَمَّا أَبُو الْقَاسِمِ ابْنُ الْأَبْرَشِ فَإِنْ ثَقَّتْهُ الْقَوِيَّةُ بِرَحْمَةِ رَبِّهِ جَعَلَتْهُ لَا يَسْمَعُ إِلَى مُحَاوَلَاتِ
الْآخَرِينَ لَبِثَ الْيَأْسُ فِي نَفْسِهِ مِنْ غَفْرَانِهِ لِذَنْبِهِ مَهْمَا عَظُمَ، فَاللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الْكَفِيلُ بِذَلِكَ:
أَيَاسُونِي لَمَّا تَعَاظَمَ ذَنْبِي
فَذَرُونِي وَمَا تَعَاظَمَ مِنْهُ
أَتَرَاهُمْ هُمْ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ؟
إِنَّمَا يَغْفِرُ الْعَظِيمَ الْعَظِيمُ^(٣)

(١) ديوانه: ص ٤٩-٥٠.

(٢) المطرب: ص ٢٣٣.

(٣) نفح الطيب: ٣١٩/٤.

٣- التفكير بالموت والإعداد له:

ليس من أحدٍ من بني البشر يظنُّ الخلود في الحياة، ولكنَّ ما عند المسلمين من اعتقاد، وما ينصُّ عليه موروثُ دينهم يجعلهم يتفكَّرون بالموت دائماً، ولتقلُّ في مراحل من العمر يكون فيها التفكُّر بالموت مبكراً، أو مبكراً جداً أحياناً، من غير أن تكون هناك علاقة بالشيخوخة أو المرض أو الإحساس بقرب الموت أو غير ذلك. إنها قضية التفكير بالآخرة وما سيكون عاقبةً للمسلم فيها. وبما أنَّ الإنسان معرضٌ للموت في أية ساعة، فإنه مُحتاجٌ إلى أن يُلاقي ربه وهو في حالٍ يرضاها، فيجزيه بما يأمله من النعيم في دار الخلود.

ومن الشعراء الأندلسيين مَنْ قضى شطراً طويلاً من حياته سادراً في الملذَّات واقتراف الذنوب دون أن ينتبه، فإذا انتبه فإنه يحاول أن يستدرك ما فات، ولكنه في الواقع، يشعر وكأنه يموتُ في أية ساعة، ولذلك فإن أغلب الشعراء يستحضرون صورة الحياة الآخرة بما فيها من ثواب وعقاب، وما يتخلل ذلك من إجراءات، وتفيضُ قلوبهم أسىً وخوفاً من عاقبة ما اقترفوا لاسيما وهم غير واثقين من فسحةٍ في العمر باقيةٍ يُصلحون خلالها ما فسدَ قبل أن يلاقوا ربهم.

فهذا جمال الدين ابن الأمانة يفكِّر في موته ويستحضر الحساب ويُسمِّيهِ "فضيحة"، حيث تنكشف صحيفة خطاياها، وذلك ما يستحقُّ منه الأسف والبكاء ولاسيما وقد فقد كل حيلةٍ ووسيلةٍ لدرء ذلك، فوقَ ما تكبَّده من فرقة أهله وأحبابه وابتعاده عن وطنه، وهو ضمن مَنْ عدَّهم المقرري في باب "مَنْ رحلَ من الأندلسيين إلى بلاد المشرق"^(١)، غير أنه يرجو الله الغفران وشفاعة رسوله عليه الصلاة والسلام:

أفكّر في موتي وبعد فضيحتي	فيحزن قلبي من عظيم خطيئتي
وتبكي دماً عيني وحقُّ لها البكا	على سوء أفعالي وقلّة حيلتي
وقد ذابت أكبادي عناءً وحسرةً	على بُعد أوطاني وفقد أحبّتي
فمالي إلا الله أرجوه دائماً	ولا سيما عند اقتراب منيَّتي

(١) نفح الطيب: ٥/٢.

فنسأل ربّي في وفاتي مؤمناً

بجاء رسول الله خير البريّة^(١)

وينتبه إبراهيم بن علي بن هردوس على حاله من الغواية وطول الأمل وضآلة ما بقي من عمره كما يشعر هو، مستخدماً إبهام القطاة تشبيهاً لذلك، وقد آن الأوان ليعدّ العدة للموت، وتكذيب ذلك الأمل، فيحدث نفسه في هذا منادياً باسمه:

إبراهيم إن الموت آتٍ وأنت من الغواية في سبات
رجاؤك مثل ظل الرمح طولاً وعمرُك مثل إبهام القطاة^(٢)

ويزجر أبو عمران المارثلي نفسه، حيث الطمع في الدنيا الغفلة عن الموت والموت لا يغفل، فهو آتٍ وشيكاً، ويتخيّل كأنه قد مات وحُمِلَ على نعشه دون إمهال، ولاسيما وقد بلغ السبعين من العمر، ولكن ماذا سيكون مثواه في الآخرة بعد المكوث في القبر وبعد الحساب؟:

إلى كم أقول ولا أفعل وأزجر نفسي فلا ترعوي
وكم ذا تعلل لي ويحها وكم ذا أوّمل طول البقاء
وفي كل يوم ينادي بنا أمسن بعد سبعين أرجو البقاء
كأن بي وشيكاً إلى مصرعي فيا ليت شعري بعد السؤال
وكم ذا أحوم ولا أنزل؟ وأنصح نفسي فلا تقبل
يعلّ وسوف وكم تمطل وأغفل والموت لا يغفل
منادي الرحيل ألا فارحلوا وسبع أتت بعدها تعجل
يساقُ ينعشي ولا أمهل وطول المقام لِمَا أنقل؟^(٣)

(١) نفح الطيب: ٦٩٥/٢-٦.

(٢) الوافي بالوفيات: ٥٧/٦.

(٣) تحفة القادم: ص ١٣٢-٣.

والى هذا المعنى ذهب الألبيري في قوله:

وقد حانَ ترحالي فقلْ ليَ عاجلاً
أأُتني بخيرٍ أم أقولُ ثمثلاً
غلى أي حالٍ تُنقضي عزماتي؟
كما قالت الخنساءُ في السمرات:
إذا لم يكنْ فيكنْ ظلٌّ ولا جنى
فأبعَدَكُنَّ الله مِن شَجَرَاتِ^(١)

وقد أقضُ التفكيرُ بالموت والإعداد له الشاعرُ ابن حذلم حتى في يوم العيد، على الرغم من إلحاح الناس عليه بأن يُشاركهم الأُنسَ والسُرور به:

يقولون لي: خلَّ عنكَ الأسَى
فقلتُ لهمُ والأسَى غالبٌ
ولدتُ بالسُرورِ فذا يومُ عيدٍ
ووجدني يحيا وشوقي يزيدُ
توعَّدني مالكِي بالفراقِ
فكيفُ أسرُّ وعيدي وعيدُ؟^(٢)

أما ابن حمديس فقد أخذ يسأل نفسه ماذا أعدُّ للموت، وقد تكاثرت ذنوبه، وهناك الملكان في القبر، وهناك يوم الحشر حيث الصراط المستقيم، فكيف إذا زلت قدماه؟، وهناك نار جهنم، فكيف إذا لم تشمله مغفرة الخالق فلم ينج منها؟:

ما الذي أعددتَ للموتِ فقدُ
أذنوباً كاثرتْ عدَّ الحصى؟
قُدِّر الموتُ بلا شكٍّ عليك؟
أي خطبٍ فادحٍ في رقدةٍ
بسَّ ما استكثرتَ من كَسْبِ يديكَ
وصراطٍ لستَ بالناجِي إذا
يُوقظُ الحشرُ إليها مقلتيك؟
وطئتُهُ زلَّةً مِن قدميكِ
فلك الويلُ مِنَ النارِ إذا
مُقلَّةُ الرحمنِ لم تنظُرْ إليك^(٣)

(١) المغرب في حلى المغرب: ١٠١/٢.

(٢) الإفادات والإنشادات: ص ١٥٤، ونفع الطيب: ٣٨٣/٥.

(٣) ديوانه: ص ٣٤٦.

أفليس مما يدعو إلى الخجل ملاقة العبد لربه وهو مطلوبٌ له يدين قديم وإن كان كريماً؟، هذا ما يراه المنصفي في قوله:

قالت لي النفس أذاك الردى وأنت في بحر الخطايا مُقيم
وما أدخرت الزاد قلت أقصري لا يُحمل الزاد لدار الكريم
واخجلتاً منه إذا جئتُهُ والعبد مطلوبٌ يدين قديم^(١)

٤- الزهد في الدنيا:

لجأ الكثير من الشعراء الأندلسيين إلى الزهد في الدنيا، وترك ما فيها من مغريات وهوى وملذات، وقد تتابهم في ساعة من ساعات الزهد والتقشّف مشاعر الخلاص من هذه الدنيا، وهي قصيرة العهد، والانتقال إلى الآخرة، حيث هي دار الخلود، حتى إذا بلغ الزهد في الدنيا غايته كان ذلك مدعاةً لانتفاء الحياة، أما ما يبقى من العمر فهو وقت ضائع، بل هو تكريسٌ للمزيد من كره الحياة والاشمئزاز منها.

فهذا أبو عيسى بن لبّون قد اكتشف حقيقة الدنيا فزهد فيها، وأحقية الموت فأقرّه وآمن بحلوله عاجلاً، فلم يبقَ له في الحياة سوى رمقٍ يمضي به بعده الموت إلى القبر، فيُدفن من دون أن يعرف دافنوه ما سيؤول إليه مصيره في الآخرة، وأنى لهم أن يعرفوا؟:

نفضتُ كفي عن الدنيا وقلتُ لها إليك عني فما في الحق أغتبنُ
من كسر بيتي لي روضٌ ومن كتي جليسُ صدقٍ على الأسرار مؤثمنُ
أدري به ما جرى في الدهر من خبرٍ فعنده الحقُّ مسطورٌ ومختزنُ
وما مضى بي سوى موتي ويدفني قومي وما لهم علمٌ بما دفنوا^(٢)

(١) تحفة القادم: ص ٨٤.

(٢) الحلة السيرة: ١٧١/٢، والمغرب في حلى المغرب: ٣٧٧/٢.

وهذا ابن الناظر القرشي يرى أن الحياة في الدنيا هي حياة محدودة قصيرة المدى، وقد دلت فوق ذلك إمارات على أوان مفارقتها، فهي إن رمت أصابت، والناس إذا حضر الموت لا يستطيعون منه فراراً، فهو لذلك راغب عنها زاهداً فيها، ناظر إلى رحمة ربه ومغفرته وقد فضّل دار البقاء:

رَغِبْتُ عَنْ الدُّنْيَا لِإِلْعَمِي أَنَّهَا	مَحَلُّ حَيَاةِ الْمَرْءِ فِيهِ بِلَاغُ
وَقَدْ لَاحَ فِي فَوْدِي شَيْبٌ عَلَى الرَّدَى	دَلِيلٌ، وَفِيهِ - مَا أَرَدْتُ - بِلَاغُ
وَأُمِلْتُ مِنْ مَوْلَايَ نَظْرَةَ رَحْمَةٍ	يَكُونُ بِهَا مِنِّي إِلَيْهِ بِلَاغُ
فَأَحْظَى إِذَا الْأَبْرَارُ قِيلَ لَهُمْ غَدًا:	هَلُمُّوا إِلَى دَارِ النِّعِيمِ فَرَاغُوا
رَأَيْتُ بَنِيهَا مَا رَمَتْهُمْ سِهَامُهَا	فَطَاشَتْ، وَلَا حُمَّ الْجِمَامُ فَرَاغُوا
فَعُجْتُ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ بِهَمَّتِي	فَعُنْدِي عَنْهَا رَاحَةٌ وَفَرَاغُ ^(١)

أما أبو إسحاق الألبيري فيزهد حتى في بناء بيتٍ والاعتناء به، ويحاول تفنيد هذه الفكرة، فلا معنى عنده لبناء شيء على الأرض ثابتٍ لِمَنْ لا قرارَ له على الأرض ولا ثبوت، بل إن مثواه القبر مهما طال عمره، ومهما بنى من قصور، وليت الناس يسمعون إلى القبر وهو يعظهم، كما سمع هو وأنعظ:

قَالُوا أَلَا تَسْتَجِدُّ بَيْتًا	تَعْجِبُ مِنْ حُسْنِهِ الْبُيُوتُ
فَقُلْتُ مَا ذَلِكُمْ صَوَابٌ	حَفَشُ كَثِيرٌ لِمَنْ يَمُوتُ
لَوْلَا شِتَاءٌ وَلَفْحٌ قَيِظٌ	وَخَوْفٌ لَصٌّ وَحَفِظٌ قُوتُ
وَنَسْوَةٌ يَبْتَغِينَ سِتْرًا	بَنِيَتْ بَنِيَانٌ عَنكِبُوتُ
وَأَيُّ مَعْنَى لِحُسْنٍ مَعْنَى	لَيْسَ لِأَرْبَابِهِ ثُبُوتُ ؟
مَا أَوْعَظَ الْقَبْرَ لَوْ قَبَلْنَا	مَوْعِظَةَ الْنَاطِقِ الصَّمُوتُ
يُوحِي إِلَى مُنْطَطِي الْحَشَايَا	مَالِكٌ عَنْ مُضْجَعِي عَمِيَتْ ^(٢)

(١) بغية الوعاة: ١ / ٥٣٦.

(٢) ديوانه: ص ٧٠.

ويتذكر ابن حمديس مَصْرَعَه، فتهون عليه الحياة بما فيها، ويندم على أنه أطاعها وهامَ بها فيما مضى من عمره، ويُشَبِّهها بالمرأة الخادعة، المُبَغِضَة لِزَوْجِهَا، فقلما تُمَتِّعُه، ولهذا السبب فإن الحرص عليها ضارٌّ، والزهد فيها هو الذي ينفعه، لاسيما وأنَّ الموتَ لا أمانَ له:

بَيْتُكَ فِيهِ مَصْرَعُكَ	وَفِي الضَّرِيحِ مَضْجَعُكَ
غَرَّتْكَ دُنْيَاكَ الَّتِي	لَهَا شَرَابٌ يَخْدَعُكَ
هَمَّتْ بِحُبِّ فَارِكٍ	وَقَلَّمَا تُمَتُّعُكَ
يَضُرُّكَ الْحَرَصُ بِهَا	وَالزَّهْدُ فِيهَا يَنْفَعُكَ
لَا تَأْمَنَنَّ مَنِيَّةً	إِنَّ عَصَاهَا تَقْرَعُكَ ^(١)

وإذا كان الحلول في القبر هو نهاية الحياة، فإنه هو أيضاً بدايةً لحياةٍ أخرى يعدُّها البداية الحقيقية، وليس في مقدوره إلا أن يتذكر ما يمكن أن يجري له في هذه الحياة الأخرى فيما لو بقيَ مستمراً في غيِّه وفي حبه لها، حيثُ أهوال يوم الحساب، والنار التي تلذعه من كل جانب:

مَغْرِبُكَ الْقَبْرُ الَّذِي	يَكُونُ فِيهِ مَطْلَعُكَ
إِنْ فَرَّقَتْكَ تُسْرِبَةٌ	فَاللَّهُ سَوْفَ يَجْمَعُكَ
وَلِلْحَسَابِ مَوْقِفٌ	أَهْوَالُهُ تُرَوِّعُكَ
كَمْ جَرَّ مَا أَشْفَقْتَ مِنْ	لَمْسِكَ مِنْهُ إِصْبَعُكَ
فَكَيْفَ بِالنَّارِ الَّتِي	مِنْ كُلِّ وَجْهِ تَلْذَعُكَ

وعلى هذا النحو من التفكير بالنار عاقبةً للمُذْنِبِينَ بحسب الاعتقاد الإسلامي الحنيف، نجدُ أبا القاسم محمد بن أحمد بن جزى الكلبي يشعر بتعاضم ذنوبه وكثرتها بحيث

(١) ديونه: ص ٣٤٨.

يستعصي من أجلها الحصر، ولهذا السبب فإن مصيره لابد من أن يكون العذاب بالنار الذي أعدت في الآخرة لمثله من المذنبين:

يا رب إن ذنوبي اليوم قد عظمت فما أطيع لها حصراً ولا عدداً^(١)

وإذ هو يتضرع إلى الله سبحانه وتعالى فلائه لا يطيق هذا العذاب، وليس له قبل به من قبل، ولا يصبر عليه:

وليس لي بعذاب النار من قبل ولا أطيع لها صبراً ولا جُلداً

وإذا كان هو على هذه الحال من الضعف فما أحراه بطلب الغفران والتخلص من هذه العاقبة:

فانظر إلى ضعفي ومسكنتي ولا تديقني حرّ الجحيم غداً

وهكذا تدور صورة الحياة الدنيا والآخرة في أذهان هؤلاء الشعراء الذين زهدوا في الأولى بوصفها حياة زائلة فانية، وأنجسوا إلى الأخرى بوصفها حياة خلود، فإما إلى العذاب وإما إلى النعيم، أنجسوا لها بإيمانهم ومعتقداتهم، ينظرون في تعاليم الدين، مسترشدين بالنص القرآني الحكيم وبالسنة النبوية الشريفة.

٥- تمثي الموت - الاستشهاد:

تمثي جملة من الشعراء الأندلسيين الموت خلال رثائهم لأنفسهم تحت ظروف مختلفة، من تلك الظروف الحاجة والفقر، فمما قاله ابن جبير في هذه الحال:

رب إن لم تؤتني سعة فاطر عني فضلة العمر

لا أحب البث في زمن حاجتي فيه إلى البشر

فهم كسر لمن جبر لمنكسر^(٢)

(١) الكتيبة الكامنة: ص ٤٧.

(٢) نفح الطيب: ٤٩٢/٢.

ومما قاله المعتمد بن عباد في هذا السياق يشكو فقره وحاجة بناته إلى ما يلبسه، وعملهنّ خادماً في بيوت الآخرين، بعد الغنى والجاه، فالموتُ أهونُ عليه من ذلك:

أليسَ الموتُ أروحَ مِن حياةٍ	يطولُ على الشقيّ بها الشقاءُ
فَمَنْ يَكُ في هواه لقاءُ حبٍّ	فإنَّ هوايَ من حَتْفِي اللقاءُ
أأرغبُ أن أعيشَ أرى بناتي	عوارِي، قد أضربُ بها الحَفاءُ
خوادمَ بنتٍ مَن قد كان أعلى	مراتبه - إذا أبدو - النداءُ ^(١)

والمعتمد نفسه كان قد تمثّل الموت قبل ذلك، في ساعة من ساعات البذل السخي في معركة المصيرية، وأبدى البطولة الفائقة، حيث لا هيبة للموت ولا أهمية إزاء القضية التي يقاتل من أجلها... من أجل أن يبقى ملكاً، ومن أجل ألاّ تسقط إشيلىة بين يديه وبسببه، لقد قاتل الأعداء دون أن يتدرّع أو أن يحمي جسده بما يحمي الكماة أجسادهم به في العادة ضد الطعنات، ولكن أمنيته في الموت لم تتحقق:

أن يَسْلَبَ القومُ العِدا	مُلْكِي وتسلمني الجُموعُ
فالقلبُ بين ضلوعه	لم تَسلم القلب الضلوعُ
لم أُسَلِّبْ شَرَفَ الطباعِ،	أَيَسْلَبُ الشرفُ الرِفيعُ ؟
قد رمتُ يومَ نزالهم	ألا تُحَصِّلني الدروع
وبرزتُ ليس سوى القميص	عن الحشا شيء دَفوعُ
أَجَلِي تَأخَّرُ لم يكن	يهوأي دُلِّي والخضوعُ
ما سرتُ قطُّ إلى القتالِ	وكانَ من أُملي الرجوعُ ^(٢)

(١) ديوانه: ص ٩٠.

(٢) ديوانه: ص ٨٨-٩.

والمعتمد هنا لم يطلب الشهادة في سبيل الله، وإنما الموت في سبيل الملك، وقد صرّح بأنه يُقاتل العدا ولم يذكر الكفار، وذلك عكس ما فعله الكثير من الشعراء الأندلسيين من أمثال الفقيه أبي بكر بن الحكيم. إنه يتمنى أن ينال الشهادة في سبيل الله في المعركة ضدّ الكفار، لكي تحو ما تقدّم من ذنوبه وما تأخّر، وتُنجيه من النار:

قصدي المؤمل في جهدي وإسراري	ومطلبي من إلهي الواحد الباري
شهادة في سبيل الله خالصة	تمحو ذنوبي وتُنجيني من النار
إنّ المعاصي رجس لا يُطهّرها	إلا الصوارم من أيّمان كُفار ^(١)

وقد تمّنى صاعد الأندلسي أن يكون أوّل المستشهدين في سبيل الإسلام في معركة "جربيرة"، وقد تذكّر بها معركة بدر الخالدة ضدّ الكفار، ولذلك فإن من ينال الشهادة في هذه المعركة فإنه يُعدّ من أوّلئك الأوائل الذين نالوا الشهادة والسعادة:

اليوم عاش الدين وابتدأ الهدى	غضاً وعاد الملك عذب المورد
ووقفت في ثاني حنين وقفة	فرايت صنع الله يؤخذ باليد
من فاته بذر وأدرك عمره	جربير فهو من الرعيل الأسعد
فوددت لو حتم القضاء بأنني	في القوم أوّل طالع مستشهد ^(٢)

أما أبو عمر المالقي فقد ضاق صدره شوقاً إلى حجّ البيت وزيارة قبر المصطفى، مستشفعاً به، وتمنّى أن يكون ذلك حُسن الختام لحياته، بل الخلاص منها، وهو يأسف لأنّه يعيش في بلد بعيد جداً عنهما، بحيث تعذّرت معه سبل الزيارة:

بكيّت بدمع كتوب العقيق	غراماً وشوقاً لَوادي العقيق
------------------------	-----------------------------

(١) نيل الابتهاج بطريرز الدياج: ص ٣٩٩.

(٢) تاريخ الأدب العربي عصر سيادة قرطبة: ص ٩٤.

وبيت عتيق ثوى ترّبه
فلله ترّب كمسكٍ سحيقٍ
بودّي لو سرتُ سيرَ العنيقِ
فأبغني لأعلى رفيقٍ خلاصاً
محمد المصطفى أو عتيق
عداني عنه مكانٌ سحيق
أجوبُ إلى البيتِ نيقاً فنيق
عسى الربُّ أعلى يرى بي رفيق^(١)

ومن تمثّوا الخلاص من الحياة أيضاً أبو الربيع العبدري، لأنه لم يحصل على شيء ذي بال في دنياه، ولا أدرك ما يريد ويتمي:

أخي عوفيتَ والبلوى ضروبُ
تعالَ فخذْ بحظّك من همومي
وبالكِ أخاكِ دنيا قد تولّتْ
وما ألفتُ نفسي في المعالي
فليتَ العيشَ إذ لم يقضَ محضاً
رُزقتُ إذا انقضى منه الخلاص^(٢)
تعمُّ وتارة تأتي اختصاصاً
ودعْ أطلالَ هندٍ والعراصا
ودهرأُ ينهكُ العمرَ انتقاصاً
ولا أدركتُ من ثأرِ قصاصا

وهكذا اختلفت أسبابُ تمّي الموت لدى الشعراء الأندلسيين.

١- الوصية:

لجأ كثيرٌ من الشعراء الأندلسيين إلى إشهار وصاياهم عندما يشعرون يدنو أجلهم، ومن أولئك الشعراء أمية بن عبد العزيز الداني الذي " لما اشتدّ مرضُ موته قال لولده عبد العزيز:

عبد العزيز خليفتي
أنا قد عهدتُ إليك ما
ربُّ السماءِ عليك بعدي
تدريه فاحفظْ فيه عهدي

(١) الوافي بالوفيات: ١٣٢/١٤.

(٢) تحفة القادم: ص ١٨٨.

فلئن عملت به فإنيك لا تزال حليف رُشدي
ولئن نكثت لقد ضللت وقد نصحتك حسب جهدي^(١)

وواضح في وصية الشاعر لولده أنه لا يتعدى حدود الإسلام وحقوقه، ويريد منه أن يلتزم بتعاليمه، ويذكره بوجود الله رقيباً بعده إذا ما تحقق أجله. وإلى هذا ذهب الحافظ أبو عمر بن عبد البر في وصيته لابنه كذلك، ولكن يفصل بعض الأمور التي يراها تقف في الأولوية من تعاليم الإسلام، كالتجافي عن الدنيا وتهوين قدرها وعدم الاعتزاز بها، والارتباط بالدين الحنيف بأقوى رابط، وتقوى الله في السر والعلن، والشكر له دائماً، وترك ما لغير العقلاء من سلوك، واتخاذ سبيل الحق، واستغلال أيام العمر للعمل على ذلك:

تجاف عن الدنيا وهونٍ لقدرها وسارع بتقوى الله سراً وجهرةً
ولا تنس شكر الله في كل نعمةٍ فدع عنك ما لاحظ فيه لعاقلي
وشح بأيام بقين قلائلٍ وعمرٍ ألم تر أن العمر يمضي مؤلياً
نخوض ونلهو غفلةً وجهالةً ثواصلنا فيه الحوادث بالردى
عجبتُ لنفس تبصر الحق بيناً وتسعى لما فيه عليها مضرّة
ووف سبيل الدين بالعروة الوثقى فلا ذمة أقوى هُديت من التقوى
يمنُّ بها فالشكر مستجلبُ الثمى فإن طريق الحق أبلج لا يخفى
قصير لا يدوم ولا يبقى فجدُّه تَبْلَى ومُدَّتْهُ تَفْنَى
ونشرُ أعمالاً وأعمارنا تُطوى وتنتابنا فيه النوائب بالبلوى
لديها وتأبى أن تفارق ما تهوى وقد علمت أن سوف تُجزى بما تسعى

(١) ديوانه: ص ٨٣.

وربِّيَ أَهْلٌ أَنْ يُخَافَ وَأَنْ يُرَجَى
فإنِّي لَا أدري أَكْرَمُ أَمْ أَخْزَى^(١)

ذُنُوبِي أَخْشَاهَا وَلَسْتُ بِأَيْسٍ
وإنْ كَانَ رَبِّي غَافِرًا ذَنْبًا مَن يَشَاءُ

ومنهم مَنْ يُوصِي، عند موته، أحد أصدقائه المقربين بشيء ما بعد موته، فقد أوصى ابن شهيد صديقه ابن حزم بالألّا ينسى تأبينه، وأن يتذكّر صداقته، وأخلاقه الكريمة، وأن يبحث على ذلك الأصدقاء ومَنْ يعرفهم من الأصحاب، بعد موته، فعسى أن يكون له في ذلك راحة وطمأنينة:

قديماً من الدنيا يلمحة بآرق
يداً في مُلَمَّاتي وعند مضايقي
وحسبك زاداً من حبيب مُفَارِقٍ
وتذكّار أيامي وفضل خلائقي
إذا غيّبوني كلّ شهم غرانق
يترجّع شادٍ أو بتطريب طارق
فلا تمنعوها لي علالة زاهق^(٢)

كأنّي وقد حان ارتحالي لم أفز
فمن مبلغ عني ابن حزم وكان لي
عليك سلام الله إني مُفَارِقٌ
فلا تنس تأبيني إذا ما فقدتني
وحرّك له بالله من أهل فننا
عسى هامتي في القبر تسمع بعضه
فلي في ادّكاري بعد موتي راحة

كما أوصى أبو زكريا يحيى بن هذيل صديقه لسان الدين بن الخطيب أن يدفنه، إذا مات، إلى جانب زوجته وكانت توفيت قبله، فقد جاء على لسان لسان الدين قوله: "وفلج المذكور، فلزم منزلي لِمَكان فضله ووجوب حقّه، وقد كانت زوجته توفيت، وصحبه عليها وجد، فلمّا ثقل وقربت وفاته استدعاني وكاد لسانه لا يبين، فأوصاني وقال:

يُخالطُ عظمي في التراب عظامها

إذا مُتْ فادفني حذاء حليتي

(١) نفح الطيب: ٤/ ٢٨-٩.

(٢) ديوانه: ص ١٠١-٢.

ولا تَذْفَنِّي في البقيع فإني
ورثتُ ضريحي كيفما شاء الهوى
لعلَّ إله العرش يجبر صدعتي

أريدُ إلى يوم الحساب التزامها
تكونُ أمامي أو أكونُ أمامها
فيعلي مقامي عنده ومقامها^(١)

أما أبو إسحاق الألبيري فيوصي أصحابه وهو في سكرات الموت، على غرار ما
فعل ابن شهيد في وصيته لابن حزم، طامعاً بالذكر الحسن عند حضورهم جنازته،
والدعاء له، وتناسي هفواته، فإنه روحه يسمعهم، وسيكون مسروراً بذلك:

كأنني بنفسي وهي في السكرات
وقد رُمَّ رحلي واستقلتُ ركاتي
وأقلقتني أني أموتُ مفترطاً
فيا إخوتي مهما شهدتم جنازتي
وجدوا ابتهالاً في الدعاء وأخلصوا
وقولوا جيلاً إن علمتم خلافه
ولا تصفوني بالذي أنا أهله
ولا تتناسوني فقيماً ذكرئكم
وبالرغم فارقتم الأجرة منكم
وإن كنتُ ميتاً بين أيديكم لقي

تعالج أن ترقى إلى اللهوات
وقد أذنتني بالرحيل خداتي
على أنني خلفت بعد لداتي
فقوموا لربي واسألوه نجاتي
لعلَّ إلهي يقبل الدعوات
وأغضوا على ما كان من هفواتي
فأشقى وحلوني بخير صفات
وواصلتكم بالبر طول حياتي
ولما تفارقتكم بكم زفراتي
فروحي حي سامع لنعاتي^(٢)

(١) نفح الطيب: ٤٩٧/٥.

(٢) ديوانه: ص ٥٩-٦٣.

شفاعة الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام هي واحدٌ مما يُتوصَّلُ به إلى رضا الله سبحانه وغفرانه، وقد يستشفع به المسلمون وهم في بُعدٍ عن زيارته، وكان كثيرٌ من الأندلسيين أعدُّوا العدة للحج وزيارة قبر الرسول طالبين شفاعته، فقصدوا المشرق ليفوزوا بذلك، فمنهم مَنْ رجعَ إلى الأندلس، ومنهم من لم يُمهله الموت ليرجع، ومنهم مَنْ أحبَّ المُجاورة، أو البقاء سائحاً في بلاد المشرق فبقي فيها حتى قضى نحبه.

أما الشعراء منهم فسواءً أفاضوا بالقرب من قبر الرسول أم لم يفوزوا فإنهم يجعلون من الاستشفاع به آخر ما يفعلونه في حياتهم، أو يتمنون أن يكون كذلك، فهذا ابن حجاج الغافقي الأشبيلي قد فاز بالوصول إلى القبر المبارك، وبذلك حصل على كل مبتغاه من الدنيا، بل أصبح يستعذب الموت عند هذا الوصول:

لَمْ يَبْقَ لِي سُؤْلٌ وَلَا مَطْلَبٌ	مُذْ صِرْتُ جَاراً لِحَبِيبِ الْحَبِيبِ
لَا أَبْتَغِي شَيْئاً سِوَى قُرْبِهِ	وَهَا أَنَا مِنْهُ قَرِيبٌ قَرِيبٌ
مَنْ غَابَ عَنْ حَضْرَةِ مَحْبُوبِهِ	فَلَسْتُ عَنْ طَيْبَةِ مَنْ يُغِيبُ
لَا تَسْأَلُ الْمَغْبُوطَ عَنْ حَالِهِ	جَارٌ كَرِيمٌ وَمَحَلٌّ خَصِيبٌ
الْعِيشُ وَالْمَوْتُ هُنَا طَيِّبٌ	بِطَيْبَةِ كُلِّ شَيْءٍ يَطِيبُ ^(١)

ويطلبُ ابن فركون الشفاعة بين يَدَيِ قبر الرسول الكريم بقولٍ صريح:

أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْوَةَ نَازِحٍ	لَهُ فِي النَّوَى وَالْقَرَبِ فِكْرٌ مُقَسَّمٌ
يَرَاكَ بِمَكْنُونِ الضَّمِيرِ فَقَلْبُهُ	عَلَيْكَ وَمَا حَلَّ الْمَنَازِلَ يَقْدُمُ
أَنَا الْمَذْنِبُ الْجَانِي وَأَنْتَ شَفِيعُهُ	وَمِثْلُكَ مَنْ يُرْجَى وَمِثْلِي يُرْحَمُ

(١) نفح الطيب: ٤٤/٢.

فما لي إذا لاقيتُ ربِّي وسيلةً

سوى أنني أرجو وأني مُسلمٌ

وما ضاقَ عفوَ الله عن مذنِبٍ وإنْ

تعاضَمَ منه الذنبُ فالعفوُ أعظمُ^(١)

أما لسان الدين ابن الخطيب فيتشوّق إلى هذه الزيارة، لاسيما وقد أحسَّ بانقضاء العمر، وأصبحت تراوده فكرة الرحلة إلى المشرق وتحقيق هذه الأمنية، ويتساءل فيما لو يستطيع ذلك:

إلى كم أراني في البطالة قانعاً

وعمري قد ولى، ووزري قد عدا

تقضّى زماني في لعلّ وفي عسى

فلا عزيمة تمضي ولا لوعة تهدا

حسامُ جبانٍ كلما شيمَ نصله

تراجعَ بعد العزمِ والتزمَ الغمدا

ألا ليت شعري هل أراني ناهداً

أقودُ القلاصَ البُدنَ والضامرَ النُهدا

رضيعَ لبانِ الصدقِ فوقَ شِمْلَةٍ

مُضَمَّرَةٍ وَسَدْتُ من كورها مَهْدَا

فثهدي بأشواقِي السراةِ إذا سرت

وئحدي بأشعاري الركابُ إذا تُحْدَى

إلى أنْ أخطُ الرُحْلَ في تُركِ الذي

نُضْوَعُ نَدّاً ما رأينا له نِداً

وأطفئُ في تلكِ المواردِ غلّتي

وأحسبُ قرباً مهجّةً شكتِ البُعْدَا^(٢)

وعلى نهج الشعراء المهتمين بعناصر الطبيعة يتأثّر أبو الحجاج المنتشافي بسجع الحمام، وكأنه بكاءً على مفارقة حبيب، ولكنه يرى أنّ البكاء عليه أولى وأحقّ، إذ انقضى عمره وهو في سكر التصابي:

سَجَعَ الحمامُ بشوقِ ترجيعِ الهوى

فأثارَ شَجْوَ مشوقِهِ بِمَشْوَقه

وبكتُ هديلاً راعها تفريقُهُ

ويحسُّ أنْ يكسي أخو تفريقِهِ

(١) ديوانه: ص ٣٢٤.

(٢) نفع الطيب: ٤٥٤/٦.

وبُكاء أمثالي أحقُّ لأني
وغفلتُ في زمن الشباب المنقضي
وبدا المشيبُ وفيه زجر ذوي النهي
حسي ندامةً آسفٍ مما جنى

لم أقضِ للمولى أكيدَ حقوقه
أقبحُ ينسخ بروره يعقوبه
لو كنتُ مزدجراً لثيم بروقه
يصلُ النشيجَ لوزره بشهيقه^(١)

ثمَّ يتوصلُ إلى مدح الرسول وطلب شفاعته وهو يسترسلُ في البكاء على عمره
الضائع:

ومعي رجاءٌ توسِّلُ أعددتهُ
حي ومدحي أحمد الهادي الذي
أسمى الورى في منصبٍ ومنصبٍ

ذخراً لصدمات الزمانِ وضيقه
فورُ الأنامِ يصحُّ في تصديقه
من هاشمٍ زاكي النجار عريقه

ويسترسلُ في ذكر معجزات النبي عليه الصلاة والسلام، ثمَّ يتطرق إلى غايته من
الاستشفاع به، إذ هو يإزاء ملاقة ربه سبحانه وتعالى، خاصةً وقد جدَّ الدهرُ بتمزيق
عمره، على طريق المناجاة:

يا خيرةَ الإرسال عند إلهه
علَّقتُ آمالي بجاهك عُدةً
وعَلَّقتُ من حبل اعتمادي عمدةً
ولئن غدوتُ أخيدَ ذنبي إني
وكسادُ سوقِي مذ لجأتُ لبابكم
ويجنُّ قلبي وهو في تغريبه

يا محرز العلى على مخلوقه
والقصدُ ليس يخيَّبُ في تعليقهِ
لتمسُّكي بقويِّهِ ووثيقهِ
أرجو بقصدك أن أرى كطليقه
يقضي حصولَ نفوذِهِ ونفوقهِ
لمزارهِ لرباك في تشريقهِ

(١) نفح الطيب: ٦/ ١٤٠.

حادٍ حداً بجماله وينوقه
ومرور دهمري جدّ في تمزيقه

وتزيد لوعته متى حثّ السرى
وأرى قشيبَ العمر أمسى بالياً

وهو يخشى أن يُدركه الموت قبل أن يحظى بزيارة قبره (ص)، ويُمرّج خدّه بثرته،
يفقد بذلك أمانةً عزيزةً عليه:

بنفوذ سهم منيّي ومُروقه
بلغت ركابي للجمى وعقيقه
كالمسك في أرج شذا منشوقه

وأخاف أن أقضي ولم أقضِ المني
فمتى أحطُ على الورى رخلي وقد
وأمرّج الخدين في ثرب غداً

وقد أسهمت القصائد المولديات التي شاع نظمها في الأندلس في مناسبة ذكرى مولد
النبي محمد عليه الصلاة والسلام والاحتفال بذلك في كل عام في هذا الاتجاه^(١)، وكذلك
مدح الرسول الكريم في غير هذه المناسبة، كما فعل أبو الحسن علي بن الجياب
الغرناطي، إذ رثى نفسه في مقدمة قصيدة في هذا الغرض. يقول مخاطباً نفسه:

وأمنأ وقد ساورت يا حيّة رقطاً؟
وسرك أن الموت في سيره أبطأ؟
على عمرك الفاني ركائبه خطاً
بحالٍ، ولا قبضاً تُطيق ولا بسطاً
وها هو في فوديك أحرفه خطاً
له القلم الأعلى يخط به وخطاً
سفينة هذا العمر قاربت الشطاً
خبطت بها في كل مهلكة خطاً

أهزلاً وقد جدت بك اللمة الشمطاً
أغرّك طول العمر في غير طائل
رويداً فإن الموت أسرع وافدٍ
فإذ ذاك لا تستطيع إدراك ما مضى
تأهب فقد وافى مشيبك مُندراً
فوافقت منه كاتب السرّ وأشيأ
معنى كتاب فكّه "احذر" فهذه
وإن طالما خاضت به اللجج التي

(١) أنظر في ذلك على سبيل المثال ميلادية لسان الدين بن الخطيب في نفع الطيب: ٤٤٩/٦-٤٥١.

وما زلت في أمواجهما متقلِّباً
فقد أوشكتُ تلقيك في قعرِ حفرةٍ
ولست على علمٍ بما أنتَ بعدها
وأعجبُ شيءٍ منكُ دعواك في التَّهْيِ
قسطتَ عن الحقِّ المبينِ جهالةً
وطاوعتَ شيطاناً تُجيبُ إذا دعا
تنأى عن الأخرى، وقد قربتُ مدىً
وتمنحها حبّاً وفرطَ صبايةٍ
فها أنتَ تهوى وصلها وهي فاركُ
صراطُ هُدىٍ نكبتَ عنه عَمَايَة

فآوَنَة رُفْعاً وآوَنَة حُطّاً
تشدُّ عليكِ الجانبينِ بها ضغطاً
ملاقٍ، أرضواناً من الله أن سخطاً
وهذا الهوى المردى على العقلِ قد غطّى
وقد خالفتك النفسُ فادعتِ القسطة
وتقبلُ إنْ أغوى، وتأخذُ إنْ أعطى
تدائى من الدنيا، وقد أزمعتُ شحطاً
وما منحتُ إلا القتادةَ والخرطاً
وتأملُ قرباً من جِماها وقد شطاً
ودارُ ردىٍ أوعيتَ في سُحتها سرطاً^(١)

ثمَّ يتوصَّلُ من هذه المقدمة إلى مدح الرسول الكريم (ص):

فما لكَ إلاَّ السَّيِّدُ الشَّافِعُ الَّذِي
دليلٌ إلى الرحمنِ، فانهجُ سبيلَه
محِبَّتُه شرطُ القَبُولِ، فمَن خالتُ

لَهُ فَضْلُ جَاءَ كُلُّ مَا يَرْتَجِي يُعْطَى
فَمَن حَادَ عَنْ نَهْجِ الدَّلِيلِ فَقَدْ أَخْطَا
صَحِيفَتُهُ مِنْهَا فَقَدْ فَقَدَ الشَّرْطَا

القصيدة...

(١) نفح الطيب: ٥/ ٤٤٠-١.

وهناك بواعثٌ على رثاء النفس لا علاقة لها بغير الدنيا وتجارب الشعراء الشخصية في حيواتهم الخاصة، وهي كما يأتي:

١- الحُب - حُب الآخر:

كان أبو بكر الزبيدي في صحبة الحكم المستنصر، وكان قد استدعاه، فلما اشتاق الزبيدي إلى امرأةٍ كان يحبها حباً جماً تُدعى "سَلَمَى"، استأذن الحكم المستنصر في الرجوع إلى أشبيلية، حيثُ مسكنهما ومثواهما، فلم يأذن له، فجزعَ جزعاً شديداً، وشعر بأن الموتَ عليه أهونُ من ذلك، وأما بقاؤه بعد ذلك حياً فلم يكن إلا كالصبر على الموت، فقال يُخاطبها مُحاولاً أن يهونَ عليها هذا القدر، ولكنه، في الواقع، كان يحاول التهوين على نفسه، وكيف يكون التهوين مع قوله: "وكلُّ وصلٍ إلى انقطاع"؟:

وَيَحْكُ يَا سَلَمُ لَا تُرَاعِي	لَا بُدَّ لِلْبَيْنِ مِنْ زَمَاعٍ
لَا تَحْسِبِيْنِي صَابِرَةً إِلَّا	كَصَبْرِ مَيْتٍ عَلَى النِّزَاعِ
مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ عَذَابٍ	أَشَدَّ مِنْ وَقْفَةِ الْوَدَاعِ
مَا بَيْنَهَا وَالْحِمَامِ فَرَقٌ	لَوْ لَا الْمَنَاحَاتِ وَالنَّوَاعِي
إِنْ يَفْتَرِقُ شَمْلُنَا وَشَيْكاً	مَنْ بَعْدِ مَا كَانَ ذَا اجْتِمَاعِ
فَكُلُّ شَمْلٍ إِلَى افْتِرَاقٍ	وَكُلُّ شُعْبٍ إِلَى انْفِصَادِ
وَكُلُّ قُرْبٍ إِلَى بَعَادٍ	وَكُلُّ وَصْلٍ إِلَى انْقِطَاعٍ ^(١)

ومما يُعدُّ في مصارع العشاق قصة حُبِّ أحمد بن كليب النحوي، وهو شاعرٌ مشهور، لـ "أسلم بن أحمد بن سعيد قاضي الجماعة، وقد اشتدَّ كلفُهُ به، وفارقَ صبرَهُ، واشتهرتْ حالُهُ حتَّى اختفى أسلم، وتركَ الخروجَ مِنْ منزله" ^(٢).

(١) بغية الملتبس: ص ٦٧، والمغرب في حلى المغرب: ٢٥٦/١، ونفح الطيب: ٧/٤، و٧/٤٠.

(٢) بغية الرعاة: ٣٥٤/١.

قال الضَّبِّي في كتابه "بغية الملتبس" ^(١) عن أحمد بن كليب النحوي: "أديب شاعر مشهور الشعر ولاسيما في أسلم، ولم يزل به الإفراط في حبه حتَّى أدَّاهُ ذلك إلى موته، وخبرُهُ في ذلك طريف، أخبرَ أبو محمد علي بن أحمد قال: نا أبو عبد الله المذحجي قال: كنتُ أختلفُ في النحو إلى أبي عبد الله محمد بن خطاب النحوي في جماعة، وكان معنا عنده أسلمُ بن أحمد بن سعيد قاضي الجماعة أسلم بن عبد العزيز صاحب المُرَني، والربيع قال محمد بن الحسن: وكان من أجمل مَنْ رَأَتْهُ العيون، وكان يجيءُ معنا إلى أحمد بن كليب وكان من أهل الأدب البارِع والشعر الرائِق، فاشتدَّ كَلْفُهُ بِأَسْلَمَ وفارقَ صبرَه، وصرَّفَ فيه القول مستتراً بذلك إلى أَنْ فَشَتْ أشعارُهُ فيه، وجرتُ على الألسنة، وتُوشِدَتْ في المحافل، فلِعَهْدِي يَعْرِسُ في بعض الشوارع بقرطبة والنكوري الزاير قاعد في وسط الحفل، وفي رأسه قلنسوة وشي، وعليه ثوب خزّ عبيدي، وفرسه بالحليّة المحلّة وغلَامُهُ يُمسِكُه، وكان فيما مضى يزمر لعبد الرحمن الناصر وهو يزمر في البوق يقول أحمد بن كليب في أسلم، وهو:

وأَسْلَمْنِي في هـِـوَاهُ	أَسْلَمُ هَذَا الرِّشَا
غَزَالَ لَهُ مُقْلَةٌ	يَصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَا
وَشَى بَيْنَنَا حَاسِدٌ	سُيْسَأَلُ عَمَّا وَشَى
وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَرْتَشَى	عَلَى الْوَصْلِ رُوحِي ارْتَشَى

وَمُغْنٌ مُحْسِنٌ يسأله فيها، فلما بلغَ هذا المبلغ انقطعَ أسلمُ عن جميع مجالس الطلب، وَلَزِمَ بَيْتَهُ والجلوس على بابهِ، فكانَ أحمد بن كليب لا شُغْلَ لَهُ إِلَّا المرور على باب دار أسلم سائراً ومُقْبِلاً نهارَه كُلَّهُ، فانقطعَ أسلمُ عن الجلوس على باب داره... قال محمد بن الحسن: وأخبرني أبو عبد الله محمد بن خطاب شيخنا قال: فَعُدُّهُ فوجدتهُ بأسوأ حال فقلتُ له: وَلِمَ لَا تَتَدَاوَى؟ فقال: دوائِي معروف، وأما الأطباء فلا حيلة لهم في البُتَّة.

فقلتُ له: وما دواؤك؟ قال: نظرةٌ من أسلم، ولو سَعَيْتَ في أنْ يزورني لأعظمَ اللهَ أجركَ
بذلك، وكان هو والله أيضاً يُؤَجِّرُ.

قال: فرحمته، وتقطَّعتُ نفسي له، ونهضتُ إلى أسلم، فاستأذنتُ عليه فأذن لي،
وتلقَّاني بما أَحِبُّ، فقلتُ له: لي حاجةٌ، قال: وما هي؟ قلتُ: قد علمتَ ما جمعك مع
أحمد ابن كليب من ذمام الطلب عندي، فقال: نعم! ولكن تعلم أنه برَّح بي، وشهر
اسمي، وأذاني. فقلتُ: كل ذلك يُغْتَفَرُ في مثل الحال التي هو فيها، والرجلُ يموت.
فتفضَّلْ بعيادتي، فقال: والله ما أقدر على ذلك فلا تُكَلِّفني هذا، فقلتُ له: لا بدَّ، فليسَ
عليك في ذلك شيء، وإنما هي عيادة مريض. قال: ولم أزلْ به حتى أجاب، فقلتُ: فقمُ
الآن! فقال لي: لستُ والله أفعل ولكن غداً، فقلتُ له: ولا خُلْفُ؟، قال: نعم.

قال فانصرفتُ إلى أحمد بن كليب وأخبرتهُ بوعده بعد تأيِّبه، فسُرَّ بذلك، وارتاحتُ
نفسه. قال: فلما كان من الغد بكرتُ إلى أسلم، وقلتُ له: الوعد، فوجِمَ، وقال: والله لقد
تحملني على خُطَّةٍ صعبةٍ عليَّ، وما أدري كيف أُطيقُ ذلك، قال: فقلتُ له: لا بدَّ من أنْ
تفي بوعديك لي. قال: فأخذ رداءه ونهَضَ معي راجلاً، فلما أتينا منزل أحمد بن كليب،
وكان يسكنُ في آخر دربٍ طويلٍ. وتوسَّطَ الدربَ، وقَفَ واحمرُّ وخَجِلَ وقال لي: الساعةَ
والله أموتُ وما أقدرُ أنْ أنقلَ قدمي، ولا أستطيعُ أنْ أعرضَ هذا على نفسي، فقلتُ: لا
تفعل بعد أنْ بلغتَ المنزلَ وتنصرف؟! فقال: لا سبيلَ، والله، إلى ذلك البتَّة. قال: ورجعَ
هارباً، فاتبعتهُ فأخذتُ بردائه فتماذى وتمزَّقَ الرداءُ، وبقيتُ قطعةً منه في يدي لِشِدَّةِ
إمساكي له، ومضى ولم أدركه، فرجعتُ ودخلتُ إلى أحمد بن كليب، وقد كان غلامه
دخلَ عليه إذ رأنا من أول الدرب، مُبَشِّراً، فلما رآني دوَّهَ وجهه وقال: وأين أبو
الحسن؟، فأخبرتهُ بالقصة فاستحالَ من وقته، واختلطَ، وجعلَ يقولُ ويتكلَّمُ بكلامٍ لا
يعقلُ منه أكثرُ من التراجع، فاستبشعتُ الحالَ، وجعلتُ أترجَّعُ وقمتُ، فثابَ إليه ذهنه
وقال لي: يا عبد الله!، قلتُ: نعم!، فقال: اسمعُ مِنِّي واحفظُ عني، ثم أنشأ يقول:

أَسْلَمُ يَا رَاحَةَ الْعَلِيلِ	رَفِقاً عَلَى الْهَائِمِ النَّحِيلِ
وَصَلُّكَ أَشْهَى إِلَى فُؤَادِي	مِنْ رَحْمَةِ الْخَالِقِ الْجَلِيلِ

قال: فقلتُ له: اتَّقِ اللهَ، ما هذه الكبيرة؟!، فقال لي: قدَّ كان. قال: فخرجتُ عنه فوالله ما توسَّطتُ الدربَ حتَّى سمعتُ الصُّراخَ عليه وقد فارقَ الدنيا^(١).

وقد ذكرنا هذه القصة لَتكون دلالةً على أنَّ موتَ أحمد بن كليب مِن أجل معشوقه أسلم كان موتاً حقيقياً، وأنَّ رثاءَهُ لِنفسه لم يكن، تبعاً لذلك، رثاءً بلاغياً وحسب.

٢- حُبُّ الحياة:

إنَّ حُبَّ الحياة كان باعثاً قوياً، لدى كثيرٍ من الشعراء الأندلسيين، لِرثاء أنفسهم، حيثُ يشعرون، في بعض حالاتِ تمرُّبهم، بأنهم يجب ألاَّ يموتوا فيفارقوا الحياة بما فيها من ملذَّاتٍ ومسرَّاتٍ ومُتَّع، مهما كان تحصيلهم منها. يقول أبو الحسن بن الفضل الأريولي:

فوا أسفاً أتدركني المنايا ولم أبلُغْ مِنَ الدنيا مُرادِي؟
وما هوَ غير أنْ أدعى وحسي حيا الإخوان أو حرب الأعادي^(٢)

فهو لا يريد أن يُصدِّق أنَّ الحياةَ إلى زوال، بلْ يتمنَّى ألاَّ يُدركه الموتُ، فإنَّ ذلك يستحقُّ الأسفَ منه حقاً، فلولا ه لا ستمرَّ يستمتع بمسرَّات الحياة وملذَّاتها. ويتفقُ أبو عامر بن يَتَّى الشاطبي معه تماماً في تمَنِّي عدم الموت، دوام الحياة في دورة تشبه اكتمال القمر ثم نقصانه فاكتماله مرةً أخرى وهكذا دائماً، ولكنه يؤكِّد في الوقتِ نفسه أن لا سبيلَ إلى الخلود، فيقول:

ما أحسنَ العيشَ أو أنَّ الفتى أبداً كالبدْرِ يرجو تماماً بعدَ نقصانِ
إذ لا سبيلَ إلى تخليدِ مائرةٍ إذ لا سبيلَ إلى تخليدِ جثمانِ^(٣)

(١) أنظر في هذه القصة كذلك: مصارع العشاق: ١/٢٩٧-٣٠٠، و معجم الأدباء: ٤/١١٥، والبداية والنهاية: ١٢/٣٨.

(٢) زاد المسافر: ص ٢٥٥، وأدباء مالقة: ص ٣٣٠.

(٣) نفح الطيب: ٣/٥٩٦.

وإذا هو لم يتحدث إلا عن نفسه فإن أبا عبد الله الحشني (محمد بن عبد السلام بن ثعلبة) قد وجه الحديث، وهو يعاني سكرات الموت، إلى الآخر ينصحه بأن يتزوّد من تلك الملذّات قبل أن يهجم عليه الموت:

فحوّل منّي النفسَ بينَ تراقي	بلَى، وكأنّ الموتَ قد قضّى مضجعي
ودار غرورٍ آذنتُ بفراقِ	أخي إنّما الدنيا محلّةٌ فُرقةٌ
وتلتفّ ساقٌ للنشور يساق ^(١)	تزوّد أخي من قبل أن تسكن الثرى

ولكنّ هذه النصائح لم يقبلها كلّ الشعراء الأندلسيين، فهذا حُميد الأنصاري الذي شعر بالموت فأعرض عن الدنيا ولكنّ صاحبتَه نصحتَه بأن لا يبكي الحياة قبل وقوع الموت، وأن يستمتع بما فيها من ملذّاتٍ حقّ الاستمتاع، ولكنّه رأى أنّ ذلك إغراء لا سبيل إلى الانتصاح به:

ولما رأيتُ الشيبَ بينَ صُبْحِهِ	وليلَ شبّابي قد مضى لِسِيلِهِ
أقمتُ على نفسي فناءً دليلها	فضرتُ بوجهٍ مُعرضٍ عن دليله
وقالت: "تمتّع من زمانك ساعةً	ولا تبكينّ الهولَ قبلَ نزوله
وبادرْ إلى لذاتِ ذاتِكَ واغتنمْ	طلوعَ مُحَيّا البدرِ قبلَ أَفْوله
وغرّتْ وما برّتْ، ولكنّ أجبتُها	"وكم ناصح لي ما أصختُ لِقِيلِهِ" ^(٢)

وما فعله الأنصاري من ترك النصيح في الإقبال على الحياة ومفاتها، رفضه كثيرون ممن يرون أنّ في الحياة بقيةً يجب أن تُستهدف، وأنّ لديهم أمانٍ لم تتحقّق بعد، وما أحراهم بتحقيقها إن استطاعوا. ومن أولئك الشعر محيي الدين بن سُرّاقة الذي يُمنّي نفسه كثيراً من الآمال، حتّى أنّ العمرَ ينقضي دون انقضائها:

إلى كمّ أمّني النَّفسَ ما لا تنالُه فيذهبُ عمري والأمانِي لا تُقضى^(٣)

(١) جذوة المقتبس: ص ٦٩، وبغية الملتبس: ص ١٠٣-٤.

(٢) تاريخ الأدب العربي (فروخ): ١٨٩/٦ (عن الذيل والتكملة ١/١٣٨-١٤٣).

(٣) فوات الوفيات: ٣/ ٢٤٥، ونفع الطيب: ٢/ ٦٤.

أما أبو الحجاج البلوي فيشكُّ في تحقُّق آماله في الحياة قبل أن يَأْزِفَ الموت، مع حرصه الشديد على ذلك سواء أكان في ذلك خيرٌ أم شرٌّ:

أَوْمَلُ أَمَالاً وَلَسْتُ بِعَارِفٍ أَبْلُغُهَا أَمْ يَبْلُغُ الْمَوْتُ قَبْلَهَا
وَلِلْمَرءِ نَفْسٌ لَا تَزَالُ بِحِرْصِهَا تَمْنَى وَتَهْوَى أَنْ تُبْلَغَ سُؤْلَهَا
وَلَيْسَتْ تُبَالِي مِنْ سَفَاهَةٍ رَأَيْهَا أَكَانَ عَلَيْهَا ذَلِكَ الْأَمْرُ أَمْ لَهَا^(١)

وَمَنْ يَقْرَأَ رِثَاءَ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ طَاهِرٍ لِنَفْسِهِ "وَقَدْ نِيفَ عَلَى التَّسْعِينَ"^(٢)، لَا يَجِدُ عَجَباً فِي حِرْصِ سِوَاهُ عَلَى الْحَيَاةِ، وَالتَّشَبُّثِ بِهَا. قَالَ ابْنُ طَاهِرٍ عِنْدَمَا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ:
هَذَا الَّذِي خَفْتُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا إِلَى اللَّهِ رَاجِعُونَ^(٣)

٣- الغربة:

شَدَّ كَثِيرٌ مِنَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ الرِّحَالَ صَوْبَ الْمَشْرِقِ لِأَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ تَتَرَاوَحُ بَيْنَ طَلَبِ الْحَجِّ، وَطَلَبِ الْعِلْمِ، وَطَلَبِ الرِّزْقِ، وَطَلَبِ السِّيَاحَةِ، وَطَلَبِ الْأَمْنِ، وَنَوَازِعِ شَخْصِيَّةٍ أُخْرَى. وَهَمٌ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ يُوَاجِهُونَ أَنْوَاعاً مُخْتَلِفَةً مِنَ الْمَصَاعِبِ وَالْمَتَاعِبِ وَالْمَكَايِدَاتِ، قَالَ أَبُو يَحْيَى بْنُ عَاصِمٍ الْغُرْنَاطِيُّ: (كَانَ الْإِبْتِلَاءُ بِمَا يُلْقَى فِي السَّفَرِ وَالْإِغْتِرَابُ مِنْ أَحْوَالٍ شَدِيدَةٍ، وَمَشَاقِّ عَظِيمَةٍ، وَمَتَاعِبٍ فَادِحَةٍ، وَلَوَاحِقٍ غَائِظَةٍ، حَتَّى قِيلَ: "السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ"، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْمُسَافِرُ وَمَتَاعُهُ عَلَى قَلْتٍ إِلَّا مَا وَقَى اللَّهُ"، الْقَلْتُ: الْهَلَكَةُ^(٤)، وَلِهَذَا السَّبَبُ قُرْنُ أَمْرِ الْغِيَابِ وَالسَّفَرِ بِأَمْرِ الْمَوْتِ، قَالَ ابْنُ رَشِيقٍ الْقَيْرَوَانِيُّ: "لَيْسَ بَيْنَ الْغَائِبِ وَالْمَيِّتِ إِلَّا رَجَاءُ الْأُوبَةِ"^(٥).

(١) أدباء مالقة: ص ٤٠٦.

(٢) فلاتد العقيان: ص ١٤٧.

(٣) نفسه.

(٤) جنة الرضا: ١٤٣/٢.

(٥) نفسه.

وقد عبّر غير قليل من الشعراء الأندلسيين عن الغربة بشكلٍ ما، غير أنّ البعض الآخر رثى نفسه من خلالها، وهذا ما يهمنا هنا. من أولئك الشعراء حسان بن أبي عبدة، إذ هاج به الشوق وهو في حال السفر والاغتراب، وأصبح كلُّ شيء يُذكره بأهله ووطنه:

سقى بلداً أهلي به وأقاربي	غوادٍ بأثقال الحيا وروائح
وهبت عليهم بالعشي وبالضحى	نواسم من برد الظلال فوائح
تذكرتهم والنأي قد حال دونهم	ولم أنس لكن أوقد القلب لافح
ومما شجاني هاتف فوق أيكة	ينوح ولم أعلم بما هو نائح

فقلتُ ائذْ يكفيكَ آلي نازحٌ وأنّ الذي أهواه عني نازحٌ^(١)

بل لقد أخذت تساوره الظنون بالموت قبل أن تطفأ أرجله تراب الوطن مرةً أخرى، وقبل أن يلقي صبيته الذي هم في انتظاره وليس لهم سواه:

ولي صبيةٌ مثل الفراخ بقفرة	مضى حاضنها فاطحتها الطوائح
إذا عصفت ريح أقامت رؤوسها	فلم تلقها إلاّ طيور بوارح
فمن لصغار بعد فقد أبيهم	سوى سانح في الدهر لو عن سانح

أما ابن خفاجة فهو يستشعر الغربة بعمقٍ شديد عندما تعصف به الذكريات وتختزل له حياته الماضية في معاهد لهوه وصباه في جزيرة شُقر في صورة متحركة واحدة، وهو يعاني من البعد عنها، والتشوق إليها، وتنسل أجزاء هذه الصورة عن جزيرة جميلة ذات نهريْن وملتقى لهما، وعلى شطآنها يُسمع غناء الطيور حيث الأشجار والظلال الوارفة، ويميّزها مرج أخاذ وكنيسة تطل على الشاطئ، وهي تكاد تأخذ العقول بجمالها حيث يحلو

(١) بغية الملتبس: ص ٢٧١.

التسلّي والمرح والتشّي في ثناياها رواحاً ومحيئاً، في الأماسي والصباحات كما تتشّي
غصونها الخضراء، ويطيب العيش:

بين شُقرٍ ومُلتقى نُهرِها	حيثُ أَلقتُ بنا الأمانى عَصاها
ويُغني المِكرَّاء في شاطئها	يستخفُّ التُّهى فحلَّت حُبَّها
عِشَّةٌ أَقبلتُ يُشهى جَنّاها	وارفَ ظَلُّها لذيدَ كَراها
لعبتُ بالعقول إلا قليلاً	بين تأويبها وبين سُراها ^(١)
فانتينا مع الغصون غُصوناً	مَرحاً في بطاحها ورُياها

ولكنّ هذه الصورة الزاهية سرعان ما فقدت وهجها ورونقها، وأصبحت ذكرياتٍ
مجردة، ليس لها إلاّ الذهن مأوى:

ثمّ ولّت كأنها لم تكذُ	تلبثُ إلاّ عَشيَّةً أو ضُحاها
فاندب المَرَجَ فالكنيسةَ	فالشطّ وقُلْ آوِ يا مُعيدَ هواها

وما هذا الوصف الذي يُقدِّمه الشاعر إلاّ تمهيدٌ ينوي من خلاله الولوج إلى بيت
قصيده، وهو التعبير عن شعوره بالغربة والفراق الأزلي:

آوِ من غُربةٍ تُرقرقُ بُؤاً	آوِ من رحلةٍ تطولُ نواها
آوِ من فُرقةٍ لِغَيرِ تلاقٍ	آوِ مِن دارٍ لا يُجيبُ صَداها

ولكنّ أيّ غُربةٍ يتحدّثُ عنها الشاعر وأيّ فُرقة، وأيّ رحلة؟، إنها غُربة النفس في
هذا العالم، وفُرقة الشاعر بالحياة "لغير تلاقٍ"، والرحلة عنها إلى الحياة الآخرة "رحلة
تطول نواها"، وإذا كان الشاعر مهووساً بالطبيعة، فهل يمكنُ أن يكون المطرُ إلاّ بُكاء
على هذه الحياة الفانية، ومن الأجدر أن تبكيها عيناه إذا كان مِن وراء ذلك رَجاء:

(١) ديوانه: ص ٣٦٤-٥.

لست أدري ومدمع المزن رطبٌ أبكأها صاباة أم سقاها؟
فتعالي يا عينُ نبكِ عليها من حياةٍ إن كان يُغني بكأها

وما ذاك إلا لأن حياة الشاعر أصبحت في مأزق التلاشي والانهاء، مع أنه مازال يتمناها، ويتعلقُ بها قلبه بأقوى الأسباب:

وشبابٍ قد فات إلا تناسيه ونفسٍ لم يبق إلا شجاها
ما لعيني تبكي عليها وقلبي يتمنى سواده لو فداها؟

وهكذا يصبح شعور ابن خفاجة بالغربة عن معاهد صباه معادلاً موضوعياً لشعوره بالغربة عن الحياة، ويكون مدخلاً لشعور الشاعر بتوديعها وشيكا الوداع الأخير.

٤- الفخر:

رأى بعض الشعراء الأندلسيين في أنفسهم شيئاً غير قليلٍ من عزّة النفس والإباء والتحصيل، فحاولوا أن يفخروا بما لديهم من هذا على وفق تجاربهم وظروفهم الخاصة، فقد افتخر سعيد بن عبد ربه بأن كبرياءه لن تسمح له بأن يطلب رزقاً من مخلوق مهما كانت منزلته، " وكان جميل المذهب منقطعاً عن الملوك " ^(١)، لاسيما وقد وهبه الله كثيراً من العلوم والمواهب:

أمن بعد غوصي في علوم الحقائق وطول انبساطي في مواهب خالقي
وفي حين إشرافي على ملكوته أرى طالباً رزقاً إلى غير خالقي؟ ^(٢)

ثم إنه يرى أن عمر الإنسان يمضي مسرعاً، بل لقد مضى عمره هو وأشرف على الموت الذي لا مفر منه:

(١) عيون الأنبياء في طبقات الأطباء: ١/ ٤٩٠.

(٢) نفسه.

وأيامُ عمر المرء مُتعةٌ ساعةٌ تبيءُ حثيثاً مثلَ لمحةِ بارقِ
وقد آذنتُ نفسي بتقويضِ رحلها وأسرعَ في سوقي إلى الموتِ سائقي
ولاني وإنْ أوغلتُ أو سرتُ هارباً من الموتِ في الآفاقِ فالموتُ لاحقي

وهذا الشعورُ نفسه نجدهُ منتشرًا كثيراً في شعر ابن الحدّاد الوادي آشي، ومن ذلك الكثير ما وردَ معه ذكر الموت، وهو يفخر بما لديه من تبرزٍ في العلوم والفنون، ويرى أنَّ ذلك سيَجعله خالداً على مدى الدهر بعدَ موته المُحقَّق:

إلى الموتِ رُجعي بعدَ حينٍ فإنْ أُمْتُ فقد خُلدتُ خُلدَ الزمانِ مناقي
وذكرني في الآفاقِ طارَ كائهُ بكلِّ لسانٍ طيّبٍ عذراءِ كاعِبِ
ففي أيِّ عِلْمٍ لم تُبرِّزْ سوابقي ؟ وفي أيِّ فنٍّ لم تُبرِّزْ كتائي ؟^(١)

٥- الوصف:

كانَ الوصفُ، على اختلاف أنواعه، باعثاً لمجموعةٍ من الشعراء لثناء أنفسهم، وذلك من خلال المقارنة والتشبيه والتذكير، فقد ذُكرتُ شمعةٌ، وهي تحترق وتذوب، ابن هانيء الأندلسي بحاله الذي يُشبهها من حيثُ جملةُ أمورٍ تتضح من خلال النص:

لقد أشبهتني شمعةٌ في صبايةٍ وفي هَولٍ ما ألقى وما أتوقَّعُ
نحولٌ وحُزنٌ في فناءٍ ووَحدةٍ وتسهيّدُ عَيْنٍ واصفرارٍ وأدمعُ^(٢)

كما أوحى حَمَامٌ لابن حمديس أنَّ يُشَبَّهه بنار جهنّم، فقفزتُ إلى ذاكرته صورة تلك النار وكأنها تُنقَدُ في عظامه، فكان ذلك مما دفعه إلى الاستغفار:

وحَمَامٍ سوءٍ وخيمٍ الهواء قليلٍ المياهِ كثيرٍ الزحامِ

(١) مطمح الأنفس: ص ٣٣٧، ونفح الطيب: ٤٩/٤.

(٢) ديوانه: ص ٢١٠.

فَمَا لِلْقِيَامِ قَعُودٌ بِهِ	وَلَا لِلْقَعُودِ بِهِ مِنْ قِيَامٍ
حَنِائاً لَهُ قَانَصَاتٌ لِنَفْسِي	وَقَطْرَائُهُ صَائِبَاتُ السَّهَامِ
ذَكَرْتُ بِهِ النَّارَ حَتَّى لَقِدْتُ	تَخَيَّلْتُ إِيقَادَهَا فِي عِظَامِي
فِيَا رَبِّ عَفْوِكَ عَنْ مُذْنِبٍ	يَخَافُ لِقَاءَكَ بَعْدَ الْحِمَامِ ^(١)

أما وصف الطبيعة فإنَّ للشعراء الأندلسيين الباعَ الطُّولى فيه، ولم يكن رثاء النفس استثناءً من ذلك، حيثُ وجدوا في عناصر الطبيعة ما يعاضد مشاعرهم وحالاتهم التي هم فيها، حتى تلك التي تتصلُّ بالأسف والحزن على مفارقة الحياة. وهم هنا ينظرون إلى عناصر الطبيعة المتحركة خاصةً، فيعقدون التشبيهات والمقارنات المناسبة لذلك.

يسمُعُ الألبيري حمامةً تُصَوِّتُ فيرى في ذاك التصويتِ بُكاءً منها على مُصابٍ، فيسألها عما أصابها وأطالت بُكاءَها من أجله، ومهما يكنُ من أمرٍ فإنه يشعر بأنَّ ما فيه أضعاف ما فيها من الأسى، فهو يبكي ما تعاضد من ذنوبه، ويطلب من أجل ذلك رحمةَ ربه الذي هو مُلاقٍه، وهي تبكي فراقَ مؤنسها، ولذلك فالأمر، في نهاية المطاف، شتآن بينهما:

أَحَامَةُ الْيَدَا أَطْلَتْ بُكَاءُ	فَبِحُسْنِ صَوْتِكَ مَا الَّذِي أَبْكَاءُ؟
إِنْ كَانَ حَقًّا مَا ظَنَنْتُ فَإِنْ بِي	فَوْقَ الَّذِي بَلَكَ مِنْ شَدِيدِ جَوَاكُ
إِنِّي أَظُنُّكَ قَدْ دُهِيتَ بِفُرْقَةٍ	مِنْ مُؤْنَسٍ لَكَ فَارْتَمَضْتَ لِذَلِكَ
لَكِنْ مَا أَشْكُوهُ مِنْ فَرْطِ الْجَوَى	يَخْلَافُ مَا تَجْدِينَ مِنْ شَكْوَاكُ!
أَنَا إِنَّمَا أَبْكِي الذُّنُوبَ وَأَسْرَهَا	وَمُنَايَ فِي الشُّكُوى مَنَالُ فَكََاكِي
وَإِذَا بَكَيْتُ سَأَلْتُ رَبِّي رَحْمَةً	وَتَجَاوَزًا، فُبُكَايَ غَيْرُ بُكَاءِكُ! ^(٢)

(١) ديوانه: ص ٥٥٩-٥٦٠.

(٢) ديوانه: ص ٣٨-٩.

وكان المعتمد بن عبّاد قد أسهم في هذا الاتجاه أيضاً، ففي إحدى قصائده بعد محتته، ينظر إلى سرب القطا، ويحاول أن يعقد مقارنةً بين خالیهما، حيثُ سرب القطا حرّاً طليقاً، وهو مكبّلٌ في الأسر، ويحنُّ إلى أيام كان فيها مثل حال الحمام الآن:

سوارح، لا سجنٌ يعوق ولا كَبَلٌ	بكيتُ إلى سرب القطا إذ مررتُ بي
ولكن حنيناً أن شكلي لها شَكْلٌ	ولم تك - والله المعيد - حَسادةٌ
وجيعٌ، ولا عينا يبيكيهما تُكَلُّ	فأسرحُ، لا شملي صديقٌ، ولا الحشا
ولا ذاقَ منها البُعدَ مِن أهلها أهلٌ	هنيئاً لها أن لم يُفَرِّقْ جَميعُها
إذا اهتزَّ بابُ السجنِ أو صلصلَ القفلُ	وأن لم تبتْ مثلي تطيرُ قلوبُها
وصفتُ الذي في حيلةِ الخلقِ مِن قبلُ	وما ذاك مما يعتريني، وإلّا

وهو يشعر أن حياته لا تستوي مع هذه الحال، إنما الموتُ أهونٌ وأسهلُ عليه من ذلك، ويشبّه القيودَ في ساقيه بالحِجَالِ التي تلبسها النساءُ في سيقانهنَّ، وهُنَّ مَنْ يُحبِبْنَ العيشَ معها وليسَ هو، فضلاً عن أنه لا يستطيع في حاله هذه أن يوفّرَ الحمايةَ لعائلته وبناته، أفليسَ هذا ما يستحقُّ معه أن يتمنّى الموتَ ؟:

سواي يُحبُّ العيشَ في ساقِهِ حِجْلٌ	لِنفسي إلى لُقيَا الحِمامِ تشوُّقٌ
فإنّ فراخي خائها الماءُ والظلُّ ^(١)	ألا عَصَمَ الله القطا في فراخِها

أما ابن خفاجة فله القِدْحُ المُعلّى في وصف الطبيعة، ولم يَفْتَهُ - طبعاً - أن يُخاطب عناصر الطبيعة في أشدِّ حالاتِ توهُّجِ الذهني ومعاناته الحيويّة، فعندما بلغ الستين من عمره وأحسَّ يقرب نهاية حياته لجأ إليها محاولاً أن يُشركها فيما هو فيه من الحسرة والألم والبكاء على عمره الذي ضاع بضيايع شبابه، ولم يعد يملك غير الذكريات:

(١) ديوانه: ص ١١٠-١١١.

وطارخني بشجوك يا حَمَامُ
ونادني ورائي هل أَمَامُ ؟
هناك ومن مراضعي المَدَامُ
فَيُنْكِرُنَا وَيَعْرِفُنَا الظَّلَامُ

ألا ساجلٌ دُموعي يا غَمَامُ
فقد وفَّيْتُهَا سَتِينَ حَوْلًا
وكنْتُ وَمِنْ لُبَانَاتِي لُبَيْنِي
يُطَالِعُنَا الصَّبَاحُ بِبَطْنِ حُزْوَى

ولدى ابن خفاجة ميلٌ إلى معرفة ما سيحصل بعد موته، ولا سيما مع عناصر متعته المحببة في الحياة، فيذكر البشام، وهو شجرٌ طيب الرائحة كانت له معه ذكريات تعزُّ على النسيان، ليدلُّ به على بقية العناصر التي ذكرها قبل قليل، وهو يودِّع الحياة-الشباب::

وكانَ ليَ البشامُ مَراحَ أنسي
فماذا بَعَدْنَا فَعَلَ البشامُ ؟
فيا شرخَ الشبابِ ألا لِقَاءَ
يُبَلُّ بِهِ عَلَى يَأْسٍ أَوَامُ ؟!
ويا ظلَّ الشبابِ وكنْتُ تُنْدَى
على أَفْيَاءٍ سَرَحَتْكَ السَّلامُ!^(١)

ولابدُّ من التعرُّيج على قصيدته الشهيرة في وصف الجبل التي يتعرض من خلالها إلى فلسفة الحياة والموت، فقد اتخذ من هذا الوصف ذريعة لثناء نفسه. وابن خفاجة، كما أرى، لم يكن يقصد وصف الجبل وصفاً مجرداً كما اعتاد الشعراء أن يصفوا عناصر الطبيعة، بل لقد اتخذ من الجبل معادلاً موضوعياً لشخصه، فلم يكن الجبل سوى ابن خفاجة نفسه!، فهو في لحظة من لحظات التأمل والركون إلى النفس جعل يحدث نفسه، يحدث ابن خفاجة- الجبل، فيماذا حَدَّثَ وماذا قال ؟:

وقالَ: إلى كم كنتُ ملجأً فاتكُ
وموطنَ أَوَّاءٍ تَبَلَّلَ تائبُ
وكم مرَّ مِن مدلجٍ ومؤوبٍ
وقالَ يظلي مِن مطيٍّ وراكبِ
ولاظم مِن نُكَبِ الرماحِ معاطفي
وزاحمَ مِن خُضرِ البحارِ غواربي؟

(١) ديوانه: ص ٦٤-٦٥.

لقد حدث ابنُ خفاجة-الجليلُ عما مرَّ به من تجارب مع الآخرين في مختلف الحالات الإنسانية، وهو يتطلَّع إلى نهايةٍ لما كان يحدث، ولاسيما أنَّ أولئك "الآخرين"، وهم أصحابه ومريدوه، قد غيَّبهم الموت، فما عسى أن يفعل سوى أن يذرف الدموعَ حزناً على فراقهم الأبديّ:

فما كان إلاَّ أن طوَّتهم يدُ الردى وطارت بهم ريحُ النوى والنوائبِ
فما خفَّكُ أيكي غير رجفة أضلعٍ ولا نُوحُ وُرقي غير صرخة نادبِ
وما غيَّضَ السلوانُ دمعِي، وإنَّما نزفتُ دموعي في فراق الأصاحبِ

وبعدَ أن لم يبقَ له صاحبٌ، فإنه يشعر بأنَّه لابدَّ لاحقاً بهم جميعاً، فليس من المنطق في شيء أن يغادر الجميعُ الحياةَ ويبقى هو على حالٍ من الترقُّبِ والملل:

فحتَّى متى أبقيَ ويضعنُ صاحبٌ أودَّعُ منه راحلاً غيرَ آيبٍ؟
وحتَّى متى أرعى الكواكبَ ساهراً فمِنْ طالعٍ أخرى الليالي وغاربٍ؟

وما دامَ الأمرُ متعلِّقاً بالإحساس بمُغادرة الدنيا بعدَ أولئك الأصحاب، فإنَّ طلبَ الرحمة من الله سبحانه وتعالى يكونُ وغايةً ولزماً:

فرُحماك يا مَولاي دعوةً ضارعٍ يَمدُّ إلى دُسماك راحةً راغبِ

وأخيراً استطاع الجبل- ابن خفاجة أن يُقنِعَ الشطرَ الثاني منه، بالوعظِ وسردِ التجارب الشخصية والجدلِ المنطقي، أنَّ الحياةَ على الأرض هي موزَّعةٌ على مَنْ يُقيمُ منهم فيها، ومَنْ يُغادرها، فاقتنَعَ واطمأنتَ نفسه:

فأسمعني من وعظه كلَّ عِبرةٍ يترجمُها عنه لسانُ التجاربِ
فسلِّ يما أبكى، وسرِّ بما شجى وكان على ليلِ السرى خيرَ صاحبِ
وقلتُ ومن نكبتُ عنه لطيَّةٍ سلامٌ فإنَّا من مُقيمٍ وذاهبٍ! ^(١)

(١) ديوانه: ص ٢١٦-٧.

وهكذا استغلَّ ابن خفاجة الطبيعة استغلالاً رائعاً في التعبير عن تجاربه في الحياة، وآخرها تجربة الموت، وحقاً "استطاع في هذه القصيدة أن يُناجي الطبيعة على نسقٍ جديد لم يعهده الشعر العربي القديم" ^(١).

٦- الإخوانيات:

رسَّخ أبو عامر بن شهيد تقليدَ رثاء النفس من خلال مخاطبة أصدقائه المقربين بالشعر، وهم شعراء كذلك، فاستدعى ذلك هزّ مشاعرهم والجواب على ما بدر منه شعراً، وكان قد "أنشأ في قرطبة علاقات إخوانية طيبة" ^(٢)، و"اكتسب ودّ العديد من رجال العلم والأدب" ^(٣) فيها.

قال ابن بسّام في كتابه "الذخيرة" ^(٤): "ونقلتُ من خطِّ الفقيه أبي محمد عليّ بن حزم الشافعي قال: كتب إليّ أبو عامر بن شهيد في علّته التي اعتلّها بهذه الأبيات:

ولمّا رأيتُ العيشَ ولّى برأسه	وأيقنتُ أنّ الموتَ لاشكّ لاحقي
تمنيتُ أني ساكنٌ في غيابةٍ	بأعلى مهبّ الريح في رأسٍ شاهقٍ
أذُرُ سقيط الحبِّ في فضل عيشةٍ	وحيداً وحسبي الماءُ نبيّ المفالقِ
خليليّ من ذاق المنيّةَ مرةً	فقد ذقّتها خمسينَ قولةً صادقِ
كأنّي وقد حانَ ارتحالي لم أفرز	قديماً من الدنيا يلمحّةً بارقِ
فمّن مبلّغ عني ابن حزم وكان لي	يداً في ملّمّاتي وعند مَضايقي
عليك سلام الله إني مفارق	وحسبك زاداً من حبيبٍ مفارقِ

(١) في الأدب الأندلسي: ص ١٠٨.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة: ص ٢٨٣.

(٣) ملامح الشعر الأندلسي: ص ١١١.

(٤) ٢٠٢/١

فلا تنسَ تأبيني إذا ما فقدتني
فلي في اذكاري بعد موتي راحة

وتذكر أيامي وفضل خلائقي
فلا تمنعونيها غلالة زاهق

فما كان من صديقه ابن حزم إلا أن أجابه بهذه الأبيات:

أبا عامر ناديت خيلاً مُصافياً
وَأَلْفَيْتَ قَلْباً مُخْلِصاً لَكَ مُمَحْضاً
شَدَائِدُ يَجْلُوها الإِلاهْ يَلْطِفُه
وَرَبُّ أَسِيرٍ فِي يَدِ الدَّهْرِ مُطْلَقُ
سَفِينَةُ نُوحٍ لَمْ تُضَيَّقْ بِحُلُولِها
فَإِنْ تُنْجُ قَلْتُ الْحَمْدُ لِلَّهِ مُخْلِصاً

يُفَدِّيكَ مِنْ دَهْمِ الْخُطُوبِ الطَّوَارِقِ
بِوَدِّكَ مَوْصُولَ الْعُرَى وَالْعَلَائِقِ
فَلا تَأْسَ إِنَّ الدَّهْرَ جُمُ الْمُضَايِقِ
وَمِنْطَلِقُ وَالدَّهْرُ أَسْوَاقُ سَائِقِ
وَضَاقَ بِهِمْ رَحْبُ الْفِلا الْمُتَضَايِقِ
فَمِنْ أَعْظَمِ التُّعْمَى بَقَاءُ الْمَصَادِقِ^(١)

ولم يكتفِ ابن شهيد بالكتابة إلى ابن حزم في هذا الموضوع، وإنما كتبَ إلى غيره من الأصدقاء، ومن سَمَّاهم في قصائده هذه شخصاً اسمه "عمرو"، قال يُخاطبه:

أَقْرِ السَّلَامَ عَلَى الْأَصْحَابِ أَجْمَعِهِمْ
وَقُلْ لَهُ: يَا أَعَزَّ النَّاسِ كُلَّهُمْ
اللَّهُ جَارُكَ مِنْ ذِي مَنَعَةٍ ظَفَرَتْ
مَا كَانَ حَبْكَ إِلَّا صَوْبَ غَادِيَةٍ
إِنْ شَاءَ صَرَفُ الرَّدَى تَقْدِيمَ أَطْوَعِنَا
وَإِنْ أَحَبَّ الشَّرَى جَسَماً لِيَاكَلُهُ
عَشْنَا أَلْفِينَ فِي بَرٍّ أَلْهَوَى زَمْنًا

وَحُصَّ عَمراً بِأَزْكَى نُورٍ تَسْلِيمِ
شَخْصاً عَلَيَّ وَأَوْلَاهُمْ بِتَكْرِيمِ
مِنْهُ اللَّيَالِي بِعِلْقٍ غَيْرِ مَذْمُومِ
طَيِّباً وَحَاشَا لِحَبِّي فَيْكَ مِنْ لُومِ
فَقَدْ رَضَيْتُ - حَمَاكَ اللَّهُ - تَقْدِيمِي
أَسْمَحُ بِجَسَمِي لَهُ يَفْدِيكَ تَعْظِيمِي
حَتَّى رَقَا يَنْوَانَا طَائِرُ الشُّومِ

(١) نفسه: ٢٠٣/١.

فَشَتَّتْ لُوبُ الْأَيَّامِ أَلْفَتَنَا

قَسْرًا وَلَمْ يُغْنِهَا ظَنِّي وَتَنْجِيمِي^(١)

وَكُتِبَ إِلَى شَخْصٍ آخَرَ وَصَفَهُ بِالْكُوكَبِ وَلَمْ يُسَمِّهِ:

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ إِخْوَانِي وَعَشْرَتَهُمْ
وَفَتِيَّةَ كَنْجُومِ الْقَذْفِ نَيْرُهُمْ
وَكُوكِبًا لِي مِنْهُمْ كَانَ مَغْرِبُهُ
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مَا أَفَارِقُهُ
كُنَّا أَلْيَفَيْنِ خَانَ الدَّهْرِ أَلْفَتَنَا
فَإِنْ أَعَشْ فَلْعَلَّ الدَّهْرَ يَجْمَعُنَا
لَا ضَاعَ اللَّهُ إِلَّا مَنْ يُضَيِّعُهُ
قَدْ كَانَ بَرْدِي إِذَا مَا مَسَّنِي كَلْفُ
حَتَّى رَمَتْنَا صُرُوفُ الدَّهْرِ عَنْ كَثْبِ
إِنِّي لِأَرْمُقُهُ وَالْمَوْتُ يَضْغَطُنِي

وَكُلَّ خَرَقٍ إِلَى الْعُلَيَاءِ سَبَّاقِ
يَهْدِي، وَصَائِبُهُمْ يُوْدِي بِإِحْرَاقِ
قَلْبِي، وَمَشْرِقُهُ مَا بَيْنَ أَطْوَاقِي
إِلَّا وَفِي الصَّدْرِ مَنِّي حُرٌّ مُشْتَاقِ
وَأَيُّ حُرٍّ عَلَى صَرْفِ الرَّدَى بَاقِ؟
وَإِنْ أُمْتُ فَسَيَسْقِيهِ كَذَا السَّاقِي
وَمَنْ تَخْلُقَ فِيهِ غَيْرَ أَخْلَاقِي
لَا يَثْلُمُ الْحَبَّ أَدَابِي وَأَخْلَاقِي
فَفَرَّقْتَنَا، وَهَلْ مِنْ صَرْفِهِ وَاقِي؟
فَأَقْتَضِي فَرْجَةً مُرْتَدًّا أَرْمَاقِي^(٢)

غير أننا لم نعثر على ردود على قصائده الأخرى التي وجهها إلى أصدقائه وإخوانه غير أبيات ابن حزم المذكورة، فلعلهم لم يكونوا شعراء، أو لم يردوا عليه بالشعر، أو أن ردودهم الشعرية قد ضاعت مع ما ضاع، وما أكثر ما ضاع، وهذا ما أرجحه، كما أرجح أن يكون قد كتب قصائد أخرى على هذا النهج، وفي هذا الموضوع ولكنها لم تصل إلينا، كما لم يصل إلينا ديوان له مجموع في وقته وبعد وفاته، كما يحق لشاعر مثله.

(١) ديوانه: ص ١٢١.

(٢) ديوانه: ص ١٠٤.

وقد التزم ابن شهيد بقواعد الشعر الإخواني في إخوانياته، من حيث توجيه الخطاب إلى شخص بعينه، فيناديه بضميره، أو يذكر اسمه، ويعبر له عن مشاعر شخصية، كما التزم ابن حزم بها من حيث التطرق إلى موضوع إخوانية ابن شهيد نفسه، ومن حيث النظم على القافية والوزن أنفسهما، في الإخوانية التي ردّها.

٧- التذييل والإجازة:

كان للتذييلات والإجازات الشعرية إسهام في إضافة نصوص جديدة أخرى إلى ما وصل إلينا في هذا الغرض، ففي باب التذييل ما ذكره ابن خيس المألقي في كتابه "أدباء مالقة" في ترجمة محمد بن عبد الله الأنصاري المعروف بالبلنسي، قال^(١): "وحدثني رحمه الله - أبو عمرو بن سالم، قال: حدثني الأديب أبو عبد الله البلنسي المذكور قال: كنت بقرطبة مع القاضي ابن الصفار، فسقطت له سيّته، فأنشد:

وفي كل يوم يفقد المرء بعضه ولا بُدَّ أن الكلّ منه سيذهب^(٢)

قال: فارتجلت:

وفي كل يوم ستزيد منيتي دنواً وغيري راحلٌ ومودّع
أشيعُ أيامي وألهو بغيرها كأنّ التي ولّت إليّ سترجعُ

وذكر ابن حيّان الأندلسي في كتابه "المقتبس في تاريخ الأندلس"^(٣) في ترجمته لموسى بن محمد بن حدير حكايته في مجلس الأمير عبد الله بن محمد، قال: "شهد مجلس مذاكرة الأمير عبد الله بن محمد يوماً من ذلك، وهو حافلٌ بأهل الأدب والمعرفة وقد أفاضوا فيما كانوا يفيضون فيه من أبواب المذاكرة حتّى مرّ ذكر الشيب وذمه وكان الأمير

(١) ص ١٠١-٢.

(٢) أظنّ أنّ الأصل: سترمّع بدلاً من: ستهب، لضرورة التذييل ارتجالاً.

(٣) ص ٥٥.

عبد الله شديد الكُره له، فقال لجلسائه: أي شيء ترونه في ذمّ الشيب أبلغ؟، فلم يحضر لأحد شيء إلا موسى بن محمد فقال: أحسن ما قيل عندي قول الأول:

أقول لضيف الشيب إذ حلّ مفريقي نصيبك مني جفوة وقطوب
حرام علينا أن تنالك عندنا كرامة برّ أو يمسك طيب

فاستحسنها الأمير وقال: أكتبها لنا يا موسى، وزدنا إن كانت فيها عندك زيادة، فقال له: والله يا سيدي ما عندي فيها مزيد، وتباطأ الوصف بإحضار الدرج والدواة إلى موسى، وموسى مُطرق إلى أن تأتأ له القول في الزيادة التي استمطرها منه الأمير، فقال: قد جاءني، يا سيدي، بسعدك، بعض الذي أردته، واندفع فوصل البيتين:

فيا شرّ ضيف حلّ بي وحلوله يخبرني أن الممات قريب
وأنّ جديدي كلّ يوم إلى يلى وأني من ثوب الشباب سليب
فما طيب عيش المرء إلا شبابه وليس إذا ما بان عنه يطيب
سأقريك يا ضيف المشيب قري القلى فمالك عندي في سواء نصيب
وأبكي على ما قد مضى من شببي بكاء محب قد جفاه جيب
مضى مُسلماً هفي عليه مدى المدى فليس إلى يوم التنادي يؤوب^(١)
فسرّ الأمير عبد الله بما أتاه من موسى وأثنى على قريحته.

وجاء في "نفح الطيب"^(٢) للمقري ذكر قول بعض قدماء الأندلس:

سئمت الحياة على حبها وحقّ لذي السقم أن يسأما
فلا عيش إلا لذي صحّة تكون له للثقى سلماً

(١) في الأصل: سأقريك، ويؤوب.

(٢) ٣٤٣/٤.

فذيَّله آخرُ منهم فقال:

ولا داءَ إلا لمن لم يزل
فلست تُعالج جرح الهوى
يُقاربُ في دينه مائماً
هُديتَ بمثل الثقي مرهماً

ومن طريف التذييلات ما ذيَّله ابن النشا الوادي أشي لبيتٍ شعرٍ سمعه من هاتفٍ
أنشده له في المنام قبل موته، والبيت هو:

يا لهفَ قلبي على شبابي
كنتُ أليفاً فُعدتُ لاما

فذيَّله بقوله:

وقد ذهبَ الأطيَّانِ مِنِّي
ورقٌ جلدي ورقٌ عظمي
وقلَّ نومي فليتْ أني
فليس لي في الحياة خيرٌ
فكيفَ أهو بها وسُقمي
وناظري ما يحقُّ مرأى
وقوتي قد وهتُ فما إنْ
يُبدلُ مَنْ عاش من قوامٍ
وليس ذا منكراً على مَنْ
وعن قريبٍ أحلُّ قبراً
فبُلِّغُوا مَنْ لقيتموه
وانصرفتُ لذتي انصراما
وأشبهتُ لُمتي الثغاما
بُذلتُ من عيشتي الحماما
ولستُ أرجو له دواما
قد خالطَ الجسم والعظاما
ومسمعي ما يعي كلاما
أطيقُ مشياً ولا قياما
حنأً ومن صحة سقاما
مرّتْ عليه سبعون عاماً
أطيل في قعره المَقاماً
بُعدي يا أخوتي السلاماً^(١)

(١) بغية الوعاة: ٤١٧/١.

أما الإجازات فمنها إجازة ابن مرج الكحل لقول رجلٍ " الحمدُ لله على كل حال " ،
فقليل له: هذا موزونٌ فأجزه، فأجازه ولكنه رثى نفسه من خلال ذلك:

الحمدُ لله على كلِّ حالٍ	بحالٍ حلٍّ وبحالٍ ارتحالٍ
بدأننا عن قُدرةٍ أوَّلًا	ثمَّ يُعيدُ البدءَ بعدَ استحالٍ
أرواحُنا دِينٌ لآجالنا	وملِكُ الموتِ عليها مُحالٍ
يقتادنا الموتُ وأعمارنا	كأنها العيسُ ونحنُ الرحالُ
يا تاركاً أوزارَه بَعْدَه	باقيةٌ لم تستحلِّ واستحالُ
إننا إلى الله وإِنا إليه	نُعامِلُ الله بهذا المحالِ
هل ينفعُ النفسَ على ضعفها	مِحالها عندَ شديدِ المحالِ
لا تتحلَّ غيرِ التَّقَى خطَّةً	فإنَّ تقوى الله خيرُ انتحالٍ ^(١)
واستغفر الله على ما مضى	وجددَ التوبةَ في كلِّ حالٍ
واذكرْ إذا حلتَ فكمْ نادمٍ	لم يُغْنِهِ مِنْ ندمٍ حينَ حالٍ
قرَّتْ عيونٌ شاهداتٌ لها	بنورٍ مَنْ تشهدُ فيه اكتحالٍ ^(٢)

ومن ذلك ما أورده ابن الأبار في كتابه "تحفة القادم"^(٣) في ترجمة أبي بكر بن ولاد حيث "كان لابن ولاد هذا حفيدٌ صغير يتعلَّم في الكتاب فتغدى معه يوماً وقد خَبَرَ منه بُبلاً وفطنةً، فسأله إجازةً قوله:

أكلنا الخُبْزَ مصبوغاً بزيتٍ

(١) في الأصل: غير انتحال.

(٢) ابن مرج الكحل سيرته وشعره: ص ١٣٣، وشعر ابن مرج الكحل-جمع وتوثيق وتقديم مصطفى

الغديري-مجلة كلية الآداب-وجدة-العدد الخامس-١٩٩٥.

(٣) ص ٣٧.

فقال الصبي:

غذاءً نافعاً في وسط بيت

فقال ابن ولاد:

فلو شيء يردُّ الميت حياً

فقال الصبي:

لكانَ الخبزُ يُحيي كلَّ ميتٍ

٨- موت الآخر - الاعتبار:

كان الإسهامُ في جنازةٍ، أو في مراسم دفنٍ، أو رؤية ميتٍ، أو مجرد السماع بميتٍ باعثاً قوياً لكثير من الشعراء على رثاء أنفسهم، وكأنَّ ذلك تذكيرٌ لهم بالموت، أو هو باعثٌ على شعورهم بأنهم في الأثر من ذلك الميت، ويدخل ذلك في باب الاعتبار.

كان يحيى بن حكم الغزال يسكن إلى جانب مقابر الرض والنهر بقرطبة، فأثار مشاعره إحدى مراسم الدفن في تلك المقابر، وهو في حالٍ خاصةٍ من حالاته، فنظم هذه القصيدة التي يصفُ فيها حاله ومسكنه بالقرب من تلك المقابر، وكيف أن الذي يدخل فيها من الموتى، على مرأىٍ منه، لا يعود، وكيف أن عليه أن يتفكَّر، فلا بد من أنه يوماً سيكون بينهم:

أيا لاهياً في القصر قربَ المقابر	يرى كلَّ يومٍ وارداً غيرَ صادرٍ
كأنك قد أيقنتَ أن لستَ صائراً	غداً بينهم في بعض تلك الحفائرِ
تراهم فيلهو بالشرابِ وبعض ما	تلذُّ به من نقرِ تلك المزاهرِ
وما أنتَ بالمغبون عقلاً ولا حجي	ولا بقليل العلم عندَ التخاييرِ
وفي ذاك ما أغناكَ عن كلِّ واعظٍ	شفيقٍ، وما أغناكَ عن كلِّ زاجرٍ
وكم نعمةٍ يعصي بها العبدُ ربَّه	وبلوى عدُّته عن ركوب الكبائرِ

سترحلُ عن هذا وإنك قادمٌ وما أنتَ في شكٍّ على غير عاذرٍ^(١)

وعندما مات صديقٌ للألبيري أسهمَ في دفنه فاتتابه شعور بأنه لاحقٌ به، لاسيما هو لم يكن الأول من بين أصحابه الذين يودعهم لهذا السبب، وقد تجسّد لديه هذا الشعور في هذه الأبيات:

وأعلمُ أنني بعدَهم غيرُ خالدٍ	تمرُّ لبداتي واحداً بعدَ واحدٍ
كأنني بعيدٌ منهم غيرُ شاهدٍ	وأحملُ موتاهم وأشهدُ دفنَهم
كمستيقظٍ يرنو بمقلّةٍ راقدٍ ^(٢)	فها أنا في علمي بهم وجهالتي

والشيءُ نفسه حدثَ مع ابن أبي زمين، فقال:

ونحنُ في غفلةٍ عما يُرادُ بنا	الموتُ في كل حينٍ تنشرُ الكفنا
وإنْ توشّحتْ من أثوابها الحسنَا	لا تظمئنُ إلى الدنيا وبهجتها
أين الذين همُ كانوا لنا سكنا	أين الأحبةُ والجيران؟ ما فعلوا
فصيرتهم لأطباق الثرى رُهنا	سقامُ الموتِ كأساً غير صافيةٍ
بالمكرماتِ وترثي البرَّ والمننا	يكي المنازل منهم كلٌّ منسجمٍ
أنْ لا يظنَّ على معلوّةٍ حسنا ^(٣)	حسبُ الحِمام لو أبقاهم وأمهلهم

قال ابن بسّام في كتابه "الذخيرة"^(٤) عن ابن شهيد وهو في أثناء مرضه قبل موته أنه لما نُعي إليه أبو جعفر اللمائي قال قصيدته التي منها:

(١) ديوانه: ص ٨١-٢.

(٢) ديوانه: ص ١١٨، ونفح الطيب: ١١٣/٤.

(٣) نفح الطيب: ٥٥٤/٣.

(٤) ٢٠٣/١.

أهدى اللمائي من أزهار فكرته	نشرأ فقال الدجى: مرّ اللمائي
فقل مات فقال الليل قارب ذا	فانهل من مقلتي نوء سِماكي
وبت فرداً أناجي مقلتي شغفاً	كأنني في ثقب الدار جني
لا عشت إن مت لي يا واحدي أبداً	وموتنا واحداً لا شك مرثي
إن الكريم إذا ما مات صاحبه	أودى به الوجد والكل الطبعي
إني إلى الله من عقبى بليت بها	جرى بها الحكم والأمر الإلهي

وعندما نعي أبو عامر ابن شهيد نفسه إلى أبي الحسن عبد الرحمن بن راشد الراشدي قال:

لَمَّا نَعَى النَّاعِي أَبَا عَامِرٍ أَيْقَنْتُ أَنِّي لَسْتُ بِالصَّابِرِ^(١)

وأنشد محمد بن سعد بن لب بن حسن بن بقي في إثر مواراة جنازة:

كم أرى مُدِينَ لَهْوٍ وَدَعَا	لَسْتُ أَخْلُو سَاعَةً مِنْ تَبَعِهِ
كَانَ لِي عُذْرٌ لَدَى عَصْرِ الصَّبَا	وَأَنَا آمِلٌ فِي الْعُمَرِ سَعَةٍ
أَوْ مَا يُوقِظُنَا مِنْ حَالِنَا	أَلْفَ لَقْبِهِ قَدْ شِيعَهُ ^(٢)
فَدَعُونِي سَاعَةً أَبْكِي عَلَى	عُمُرٍ أَمْسَيْتُ مِمَّنْ ضَيَّعَهُ ^(٣)

ومما يجري في هذا الجرى ما رواه المقرئ في كتابه "نفح الطيب"^(٤) قال: "خرج الوزير أبو بكر ابن عمّار والوزير أبو الوليد ابن زيدون ومعهما الوزير ابن خلدون من

(١) بغية الملتبس: ص ٧٧، ونفح الطيب: ٢٦٣/٣.

(٢) هذا العجز مختل الوزن.

(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج: ص ٤٦١.

(٤) ٤-٢٤٢/٣.

أشبيلية إلى منظرية لبني عباد بموضع يُقال له الفنت تحفٌ بها مروجٌ مشرقة الأنوار،
متنسمة الأنجاد والأغوار، متبسمة عن ثغور الثوار، في زمان ربيع سقت الأرض السحب
فيه بوسميها ووليها، وجلتها في زاهر ملبسها وباهر حليها، وأرداف الربى قد تأزرت
بالأرز الخضر من نباتها، وأجساد الجداول قد نظمت الثوار قلائده حول لباتها، ومجامر الزهر
تعطر النسائم عند هباتها، وهناك من البهار ما يُزري على مدهن النضار، ومن النرجس
الريان ما يهزأ بنواعس الأجفان، وقد نوا الانفراد للهو والطرب، والتنزه في روضي
النبات والأدب، وبعثوا صاحباً لهم يُسمى خليفة وهو قوام لذتهم، ونظام مسرتهم،
ليأتيهم ينبذ يذهبون الهم يذهبه في لجين زجاجة، ويرمونه منه بما يقضي
بتحريكه للهرب عن القلوب وإزعاجه، وجلسوا لانتظاره، وترقب عوده على
آثاره، فلما بصروا به مقبلاً من أول الفج بادروا إلى لقائه، وسارعوا إلى نحوه
وتلقائه، واتفق أن فارساً من الجند ركض فرسه فصدمه ووطئ عليه فهشم أعظمه
وأجرى دمه، وكسر قمعل النبذ الذي كان معه، وفرق من شملهم ما كان الدهر قد
جمعه، ومضى على غلوائه راكضاً حتى خفي عن العين، خائفاً من متعلق به يحين بتعلقه
الحين، وحين وصل الوزراء إليه، تأسفوا عليه، وأفاضوا في ذكر الزمان وعدوانه،
والخطب وألوانه، ودخوله بطوام المضرات، على تمام المسرات، وتكديره الأوقات
المنعمات، بالآفات المؤلمات، فقال ابن زيدون:

ألهو والحتوف بنا مطيفة ونأمن والمنون لنا مخيفة ؟

فقال ابن خلدون:

وفي يوم وما أدراك يوم مضى قمعالنا ومضى خليفة

فقال ابن عمّار:

هُمَا فَحَارَتَا رَاحَ وَرُوح تَكْسَرَتَا فَأَشَقَّافٌ وَجِيفَةٌ

٩- رثاء الآخر- الفقد:

كان فقد الأحباب والأقرباء والأصدقاء ممن لهم مكانة خاصة في نفوس بعض الشعراء باعثاً قوياً للإحساس بالنهاية الحقيقية للحياة، التي هي نهاية السرور وانطفاء جذوة الأمل وذبول زهرة الأماني، ونراهم، لهذا السبب، يعبرون عن هذا الفقد بلوعةٍ وأسىٍ شديدين، من خلال قصائد الرثاء التي ينظمونها، حتى تستحيل هذه القصائد التي تندرج في غرض رثاء الآخر إلى رثاء للنفس، لما تتضمنه من قوّة في العاطفة، وصدق في الأحاسيس والمشاعر، وما تتضمنه كذلك من عباراتٍ صريحةٍ في ذلك، وهذا هو الذي يجعلنا نخصّصها بالذكر والدرس دون سواها من قصائد رثاء الآخر. إنها قصائد تتقطّر منها سيولٌ من الآهات الملتهية، وتطفح بحزن الفاقد، ولوعة الفقد الذي هو غالباً فقدٌ للذات أيضاً.

ولعلنا لا نجدُ فقداً أعظم في إيلامٍ من فقد الأبناء، وهو شيءٌ يؤكّده الشاعر ابن عبد ربه وهو أبٌ فقدَ اثنين من أبنائه:

واكِيداً قد تقطعتْ كَيْدِي وحرّقتها لَواعِجُ الكَمَدِ
ما ماتَ حيٌّ لِمَيِّتٍ أَسْفَا أعذرُ من والدٍ على وَلَدٍ

وما أكثر ما يفقد الآباء الشعراء العرب، فضلاً عن الأندلسيين، أبناءهم ويسجلون هذا الفقد في قصائدهم، فكيف رثى الشعراء الأندلسيون أنفسهم من خلال رثائهم لأبنائهم؟

نُحيط بابن عبد ربه ذكرى وفاة أحد ولديه وهو أبو بكرٍ ويُسمّى يحيى، ولكنَّ أساه يتجدد وكأنَّ فقدَه حدثَ تَوّاً، ولذلك فهو دائم البكاء فاقد الصبر ولاسيما أنَّ اللقاء به متعذّرٌ بعدُ، وأخيراً فهو يتمنى لو يتوسّد القبرَ بدلاً منه:

بليتْ عظامُكَ والأسى يتجدّد والصبرُ ينفدُ والبُكا لا ينفدُ
يا غائباً لا يُرتجى لإيابه ولقائِهِ دون القيامةِ مَوْعدُ

ما كان أحسنَ مَلْحَداً ضُمَّتُهُ لو كانَ ضَمَّ أبالكَ ذاكَ المَلْحَداً

وعندما فقدَ أبو الوليد الباجي ابنه محمداً أُصيبَ بالفجاءة، فقد كان يظنُّ أنه سيموت بعده، وما دام ماتَ ولده فإنه لاحقٌ به، وخلال ذلك أخذتُ تتضاعف أحزانه، وأصبح يرى خياله ويسمع صوته في كل مكان، بل يراه في كل قبر:

فلقد علمتُ بأنني بك لاحقٌ من بعد ظني أني متقدِّمٌ
لله ذكرٌ لا يزال بخاطري متصرِّفٌ في صبره متحكِّمٌ
فإذا نظرتُ فشخصه مُتَخَيِّلٌ وإذا أصحّتُ فصورته مُتَوَهِّمٌ
وبكلِّ أرضٍ لي من أجلك لوعةٌ وبكلِّ قبرٍ وقفةٌ وتلومٌ^(١)

وقد رثى ابن حمديس نفسه قبل أن يرثي ابنته في قصيدة طويلة تفيضُ أسىً ولوعةً وشجناً يصف فيها الموت وكأنه شخص يراه، ويحسُّ به في حركة يديه ورجليه، أما نفسه الذي يصعدُ وينزلُ شهيقاً وزفيراً فما هو من أجل نفسٍ باقية، خاصة وقد بلغ الثمانين من عمره:

أرى الموتَ في عيني تَخَيِّلَ شخصه ولي عُمُرٌ في مثله يَتَّقِي مثلي
وكادتُ يدٌ منه تشدُّ على يدي ورجلٌ له بالقرب تمشي على رجلي
وفي مدٍّ أنفاسي لديّ وجزرها بقاءً لِنَفْسٍ غيرِ مُتَّصِلِ الجبلِ
ثمانون عاماً عشتها ووجدتها تهدمُ ما تبني وتخفُّضُ مَنْ تُعلي

وبعد ستة أبياتٍ يدخلُ في ذكر مُصابه بابتته التي خطفها الموتُ غدرًا، بعد أن أحسنَ صونها وتربيتها على التَّقَى، وزوَّجها رجلاً كريماً ما أخَلَّتْ بعشرته شيئاً، راجعاً مرةً أخرى إلى ذكر الموت، ولكن رجوعه هذه المرة من أجلها:

(١) قلائد العقيان: ص ٤٦١، والذخيرة: ٥٩/٢، ونفع الطيب: ٧٥/٢.

رجعتُ إلى ذكر الحمام فإنه
وكم لقوة من قلة النيقِ حطُّها
وقسورة أفضى إلى نزاعِ روحه
فما للردى من منهلٍ لا تُسيغُهُ
فيا غرسةً للأجرِ كنتُ نقلْتُها
وأنكحْتُها مِن بعلٍ صدقِ حمدُهُ

له زَمَنٌ ملآنٌ بالغدرِ والخُللِ
إلى حيثُ تُفنيها الذبابةُ بالأكلِ
وشقَّ إليها بينَ أنيابه العُصْلُ
وواردهُ يغنى عن العلِّ بالثَّهلِ
إلى كَفَيْ صَوْنِي وأحفْتُها ظَلِّي
كريمًا فلمْ تَذمُّ معاشرَةَ البَعْلِ^(١)

ويسترسلُ في بُكائيته هذه بينَ مُتذكِّرٍ لما كان من خبر موته الذي بلغها فناحتُ وأقامتْ مأتماً من أجله، ولم يتحقق موته، ومن خبر موتها الذي تناهى إليه، وكيف دبَّ الموتُ فيها، ونواحه من أجلها حقيقةً، وبينَ مناجاتها والتعبير لها عما حصلَ له من مصابٍ فيها، وما تركته وراءها من أطفالٍ صغارٍ كأفراخ الحمامة وقد صيدتُ من قبل نسر، وبين الدعاء لها والاستسقاء لقبورها^(٢).

وعلى نحو ما فعل ابن حمديس من تقديم رثائه لنفسه وهو يرثي أبنته، فعلَ ابن الجياب الغرناطي في خلال رثائه لولدِهِ أبي القاسم، في قصيدةٍ طويلةٍ أيضاً، منذ البيت الأول، مقررًا أنَّ فراقه الأبدي قد حصلَ فعلاً، ولذلك فإنَّ من اللازم أن يموتَ أسيٌّ عليه، ومن اللازم عليه أن يلومَ نفسه، وقد فعل، إذا لم يمُتْ، فقد كان أبو القاسم بمثابة روحه وقد أودعها القبر، فما معنى أن يعيشَ بعده؟:

هو البينُ حتماً، لا لعلَّ ولا عسى
وما لِفؤادي لم يَدُبْ منه حسرةٌ
وما ليجفوني لا تفيضُ مورِّداً

فما بالُ نفسي لم تُفيضْ عنده أسيٌّ؟
فَقَباً لهذا القلبِ سرعانَ ما قَسَا !
مِن الدمعِ يهمي تارةً ومورساً؟

(١) في الديوان: من بعد صدق.

(٢) أنظر ديوانه: ٣٦٤-٣٦٧.

وما لِّلسَّانِي مُفَصِّحاً بِخَطَابِهِ

وما كان لو أوفى بعهد لينبسا؟

أَمِنْ بَعْدَ مَا أودَعْتُ رُوحِي فِي الثَّرَى

ووسَّدتُ مِنِّي فَلَذَّةَ الْقَلْبِ مَرَمَسَا

وهو بعد أن ودَّع ابنه أبا القاسم الوداع الأخير لم في الحياة ما يؤملها فيها، ويستوي عنده الموت والحياة، ولهذا السبب أصبحت دُنياه قبراً لا يجد فيه غير الخواء والإفلاس من كل شيء:

وبعد فراقِ ابني أبي القاسم الذي

كساني ثوبَ التُّكْلِ لا كان مَلْبَسَا

أؤمِّل في الدنيا حياةً وأرتضي

مَقِيلًا لَدَى أبنائها ومُعَرَّسَا

فأهاً وللمفجوع فيها استراحةً

و لا بدَّ للمصدور أن يتنفَّسَا

على عُمُرٍ أفنيتُ فيه بضاعتي

فأسلَمَني لِلقَبْرِ حيرانَ مُفْلِسَا

وتستمرُّ القصيدةُ على نحوٍ تتفطَّر من أجله القلوب، من اللوعة المريعة والحزن البالغ، ومُناجاة لابنه، ووصفٍ لما خلقه له من ضروب القهر والمعاناة^(١).

ومثل هذه اللوعة والمشاعر الفياضة بالأسى والحزن المرير يتقدَّمُها رثاء النفس، لا نجدُها في رثاء الأبناء لأبائهم إلا نادراً. ومن قصائد رثاء النفس في رثاء الآباء قصيدة ابن مطروح التجيي التي يبدأها بتوجيه الخطاب إليه بهدوءٍ واستسلامٍ يسيطر عليه الطابع الديني المطمئن لقضاء الله ومشيتته وقدره، في إطارٍ من الإيمان بأنَّ الأرواح دينٌ للدائن حقُّ استرداده متى يشاء، متحدِّثاً بضمير الجماعة:

دَعَاكَ فَلَبَّتْ دَاعِي الْبَلَا

وفارقتَ أَهْلَكَ لا عَنْ قَلِي

رَمْتُكَ وَسَهْمَ الرَّدَى صَائِبٌ

شَعُوبٌ فَمَا أَخْطَأْتُ مَقْتَلَا

تَقَاضَاكَ مِنَّا الْغَرِيمُ الَّذِي

أَبَى قَدَرُ اللَّهِ أَنْ يَمْطُلَا

أَيَا ضَاعَنَا هَدَنَّا فَقَدُّهُ

جَمِيعاً أَلَمْ يَأْنِ لَأَنْ نُقْفُلَا؟

(١) أنظر القصيدة في نفح الطيب: ٤٣٨/٥-٤٤٠.

ثمَّ ينتقل إلى الحديث بضميره هو فيُبدِي ما أثاره فيه فقدُ أبيه من الحنينِ والذهول
ساعةً ذكره:

أَحْنُ إِلَى مَوْرِدٍ أَمَّه وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَوْرِدًا سَلَسَلَا
وَأَذْهَلُ مَهْمَا دَعَوْا بِاسْمِهِ وَحُقَّ لِمِثْلِي أَنْ يَذْهَلَا

وأخيراً يتوصل إلى رثاء نفسه والتعبير عن مأساته في فقد أبيه، ويضع لها المبرر الذي
يراه لازماً، من حيث أن أباه كان أصلاً له، وبانهدام أصله لابد من أن ينهدم هو وشيكاً،
وهذا هو الذي هوّن عليه فقدّه:

وهُوّنَ وَجْدِي عَلَى فَقْدِهِ لِحَاقِي بِهِ بَعْدُ مُسْتَعِجِلَا
إِذَا جَفَّ مِنْ شَجَرٍ أَصْلُهُ فَلَا بَدَّ لِلْفَرْعِ أَنْ يَذْبُلَا^(١)

وابن مطروح في قصيدته هذه يبدو منظّم الأفكار، واعياً لما يفعل، فقد أحكم فيها
التسلسل العاطفي، وأودعها المنطق، وغلفها بالإيمان والاستسلام للحدث، ولم يكن حزنه
كافياً للإخلال في ذلك، وهذا ما بدّد حرارة العاطفة فيها.

ولا يصدق هذا في قصيدة ابن الزقاق البلسني في رثاء أخيه "حسن" وقد ذكر
اسمه في القصيدة كما يذكر الآباء أسماء أبنائهم خلال رثائهم لهم، فقد افتتحها بمطلع
قوي، وضمّنها كلّ حارٍّ وصادقٍ وهائجٍ من العواطف، وبقيت حتى آخر بيت فيها على
مستوى واحدٍ من اللوعة والحزن والإحساس بفداحة الفقد.

يعبر ابن الزقاق عن مُصابه بفقد أخيه وكيفَ أفقده الإحساس بالحياة وما فيها من
ملذّات على الدوام، في القسم الأول من القصيدة:

مُصَابِكُ مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ سَرْمَدُ وَيَوْمُكَ لَا يُنْسِيهِ يَوْمٌ وَلَا غَدُ
تَكَلُّتُكَ تَكُلَ الْمَشْرِفِيُّ غُرُوبَهُ وَبِالْغَرْبِ يَسْطُو الْمَشْرِفِيُّ الْمُهَنْدُ

(١) الوافي بالوفيات: ٥٥٤/١٧.

فرحتَ كَمَنْ راحَتَ بنانُ يمينِهِ
وقد كنتَ كالعذبِ الزلالِ إذا صفا
ولا راقني سهلُ البلادِ وحَزَنُها
أُقابِلُ منها كلَّ حُسنٍ وبهجةٍ

عن اليدِ فاعتَلَّتْ لِفِرْقَتِها اليدُ
فلَمْ يصفُ لي مُدَّ غِبتِ يومٍ ولا غدُ
ولو أنَّ ما يَخْضِرُ منها زبرجدُ
كما قابِلَ الشمسِ المنيرةَ أرمَدُ

ويسترسلُ على هذا النحو من توصيف مُصابهِ والسلام على قبرهِ والاستسقاء له، حتى يصل إلى رثاء نفسه من خلال نفاذ صبرهِ وتجلُّدِهِ، ثمَّ شعورهِ بوشكٍ موته على أثرهِ، فلم يعد يعنيه من الحياة شيءٌ بعدَهُ، ولا تستطيع أن تعوِّضَ عنه شيءٌ حتَّى الخلود فيها، ناصباً على اسمه:

على "حَسَنٍ" أفني دموعي حَسرةً
سأبكيه ما حجَّ الحُجيجُ وما دعا
يقولونَ عاثتْ في أخيك يدُ البلى
لئن نُفِدتْ آيامُهُ إنَّ لوعتي
أفكَّرُ في نأيِ اللقاءِ وبُعْدِهِ
ويُخبرني وشكُّ الردى بلحاقِهِ
وما زهرةُ الدنيا تَفي بذهابِهِ

ومن بعضِ ما أفني: العزا والتجلُّدُ
هديلاً على الأيكِ الحَمامُ المُغرَّدُ
فواحرَّ قلبي مِن أسى يَتجدَّدُ
على قِدامِ الأيامِ ما ليسَ تَنفَدُ
وأعلمُ أنَّ الصبرَ أنْأى وأبْعَدُ
فأرتاحُ لليومِ [الذي فيه أُلْحَدُ]^(١)
ولو قيلَ: أبشِرْ أنتَ فيها مُخلِّدُ

وهكذا يستمرُّ تدفُّقُ أحاسيسِ ابنِ الزقاقِ البُلنسي الطافحة بالآلم والحسرة والحزن على مدى ثمانية وعشرين بيتاً أخرى تالية، دونَ أن تُفتر.

وتُنافسُ هذه القصيدةُ في قوة النظم وحرارة العاطفة وصدقها وغرضها قصيدة مقدم بن معافى المالقي التي يرثي بها أخواً له يُكنى أبا مروان ويرثي نفسه منذ البيت الأول، وهي طويلة^(٢) يقول في أولِّها:

(١) ما بين المعقوفين من عندنا تقديرًا.

(٢) أنظر أدباء مالقة: ص ١٩٧-٨.

عليك أبا مروان يوم النوى كدتُ
أموتُ ولو أنسي أموتُ تروختُ

حتى يقول:

مُصابُ أبي مروان أفنى تجلدي
فصبري مقطوعُ الحبالِ مُنبتُ
تجرّعُ كأسَ الموتِ دوني ليتَّه
يؤخرُ عن ذاك المقام وقد متُ
به كنتُ ألتذُّ الحياةَ وإن غدا
صريعُ المنايا ما أبالي متى متُ
فقدتُ بفقدِي شخصه كل راحةٍ
وكلُّ سرورٍ يومَ ودّعٍ ودّعتُ
وعوّضتُ من أنسي به الحزنَ والأسى
ومن جمع شملِي بالتفرّقِ عوّضتُ
سأبكي عليه ما بقيتُ وإن أمتُ
سيبكيه من بعدي الرثاءُ الذي قلتُ

وقصيدة أبي بكر بن رُحيم الطويلة^(١) أيضاً التي يرثي بها ثلاثةً من إخوانه تُحطِّفهم
الموتُ على التوالي هم: أبو العباس ورحيم ويحيى، ويرثي نفسه من خلال ذلك قائلاً:
لذلك سلَّ البرقُ صفحةً نُصليهِ
وصلصلَ صوتُ الرعدِ خوفاً على فقدي
ألم يأنِ للأيام أن تقضيَ النوى
وتبكي كما يبكي الغمامُ على بُعدي؟
طوى الترابُ أنجاداً يُتدمرُ دارها
فيا ليتَ شعري أينَ يُحفرُ لي لِحدي؟

ويقربُ من مثل هذه الأحاسيس، وهذا المستوى من قوة النظم وحرارة العاطفة،
عبد الله بن أبي عاصم القيسي في قصيدته التي رثى بها خاله، ومطلعها:

هو الخطبُ هل عجّت به قيسُ غيلانِ
نشيج الحجاج استقبلوا شيعَ نَعمانِ

(١) انظر قلائد العقيان: ص ٣٠٤-٣٠٥.

وقد رثى في آخرها نفسه، حيثُ كان يشعرُ بأنَّ روحَهُ يسكنُ في قبرِ خاله، وإنَّ لم يكنْ جُثمانُهُ كذلك، ومع ذلك فهو متأكَّدٌ من أنه لاحقٌ بخاله، غير لاثبٍ في الحياة، وقد كان يظنُّ من قبلُ أنَّ الحياة هي الجئة على الأرض، قال:

ولكنني أغشاهُ بالروح زائراً وإنَّ لم يَزُرْهُ مُدَّ خبا الحدِّ جثماني
وإني بهِ عمَّا قريبٍ للاحقُّ وظنِّي أنَّ الدار جئةٌ رضوانِ

وهي قصيدةٌ طويلةٌ أيضاً بلغت الخمسين بيتاً^(١)، قالَ عنها أبو الوليد إسماعيل بن الأحرر: "هي قصيدةٌ بارعة" ^(٢).

أما رثاء الزوجات فيبدو باعثاً قوياً لِرثاء النفس في الشعر الأندلسي، فقد صدرَ الشعراءُ فيه عن عاطفةٍ قويةٍ ومشاعرٍ حبٍّ صادقة، وعن ألمٍ مُمضٍ، وحسرةٍ ولوعةٍ جبارتين لِفقدِهِنَّ، فجاءت قصائدهم تنبضُ بالحرارة، وقوة النظم، وسيولة القريحة، وجودة السبك، وطول النَّفسِ الشعري، وقد رأينا أنَّ نختارَ ثلاثة نماذج من النصوص الشعرية، لتدلَّ على جملة ما قيلَ في هذا الغرض.

فعلى مدى سِتِّين بيتاً رثى أبو إسحاق الألبيري^(٣) زوجته في مُقدمتها، ثمَّ عرَّجَ على رثاء نفسه. أحاطَ الألبيري قبرَ زوجته بمعاني التعطُّرِ بالتُّقى والتعفُّفِ والإعراقِ والطهارة، وهي صفاتها، وهذه الصفاتُ تُثَمُّ عن القبر وتدلُّ عليه كالعرفِ العاطر، أما هو فمصدوعٌ بموتها صدعاً لا جابرَ له، وهو مع ذلك يشعر وكأنها مازالت على قيد الحياة، يُوفِّيها حقوقها، ويُوَفِّي بعهودها أبدَ الدهر، إذ لم يرَ منها إلاَّ أكرمَ عشرةٍ وأبرَّ مُعاشِر:

عُجَّ بالمطيِّ على اليبابِ الغامرِ وارْبَعُ على قبرٍ تضمَّنَ ناظري

(١) أنظر نثر فرائد الجمال: ص ٣١٤-٣١٨.

(٢) نفسه: ص ٣١٤.

(٣) ديوانه: ص ٩٠-٩٤.

فستستينُ مكانه بضجيعة
فلکم تضمّن من تُقى وتُعْفِ
واقِر السلام عليه من ذي لوعة
فَعَسَاهُ يَسمحُ لي بوصلٍ في الكرى
فأعللُ القلب العليلَ بطيفه
إنّي لأستحيه وهو مُعَيَّبُ
أرعى أذمتّه وأحفظُ عهدَه
إن كانَ يَدثُرُ جسمه في رمسه
قطع الزمانَ معي بأكرمِ عِشْرَةٍ

وينمُّ منع إليك عَرفُ العاطرِ
وكریم أعراقٍ وعِرضٍ طاهرِ
صَدَعَتْهُ صدعاً ماله من جابرِ
مُتعاهداً لي بالخيال الزائرِ
علّي أوافيه ولستُ بغادرِ
في لَحْدِهِ فكأنه كالحاضرِ
عندي فما يجري سواه بخاطري
فهوأيّ فيه الدهرَ ليس يداثرِ
لَهْفِي عليه مِن أبرّ مُعاشِرِ

ثمَّ يتميُّ لو انه ماتَ يومَ ماتت زوجته، فلو كانَ فعلَ ذلكَ لكان مُنصِفاً، وهو معَ ذلكَ لا يرتجي دوامَ العيش وقد أصبحَ شيخاً بلغَ السَّتينَ من العمر، بل يرتجي أن يلقى ربه في المعاد وقد وفّى ما يذمتّه من حقوقه، لاسيما وقد أصابَ من الحياة كفايته من الحاجات المادية والمعنوية، ولم يبقَ إلّا التلاقي في سباق الآخرة، وهناك يُخَبَّرُ الإيمان الحقُّ، ويُرَى مَنْ هو بالجنة والمغفرة أولى:

ولو انني أنصفتهُ في ودّه
وشققتُ في خِلْبِ الفؤادِ ضريحه
مَنْ جاوزَ السَّتينَ لم يَجمُلْ بهِ
بل شغلُهُ في زاده لِمَعادِهِ
ولقد أصبتُ من المطاعم حاجتي
وأنا لعمرِكَ مُكرِّمٌ في جيرتي

لَقُضِيَتْ يومَ قَضَى ولم أستأخر!
وسقيتهُ أبداً بماء محاجري
شُغلٌ يَجمُلُ والربابِ وغادرِ
فالزادُ آكَدُ شُغلٍ كُلِّ مُسافرِ
ومن الملابس فوقَ ما هو ساتري
ومُعْظَمُ ومُجَلِّ بعشائري

وغداً يَمِيدانِ السِّبَاقِ سَنَلْتَقِي
والويلُ كلَّ الويلِ لي إنْ لم يَكُنْ

فَيُرَى الثَّقِيلُ مِنَ الخَفِيفِ الضَّامِرِ
مولايَ في تلكَ الشَّدائِدِ ناصري!

وعلى نحو ما صنع الألبيري في رثاء زوجته، صنع لسان الدين بن الخطيب في رثائه لزوجته التي تُوفيت وهو يُعاني من مرارة الغربة والنكبة في مدينة سلا، وقد نسب إليها في مقدمة قصيدته جملةً أوصافٍ معنوية، قال^(١): "طرقني ما كدَّرَ شُرْبِي ونَعَّصَ عَيْشِي من وفاة أم الولد عن أصاغر زُغَبِ الحواصل بين ذكرانٍ وإناثٍ في بلد الغربة وتحت سرادق الوحشة، ودون أذيال النكبة، فجَلَّتْ عليها حسرتي واشتدَّ جزعي، إذ كانت واحدة نساء زمانها جزالةً وصبراً ومكارم أخلاقٍ، حازت بذلك الشهرة حيثُ حَلَّتْ في القطرين، فدَفَنَتْها بالبستان المتصل بالدار بمدينة سلا، ووقفتُ على قبرها الحبسَ المغلَّ لِمَتَوَلَّى القراءة دائماً عليها، وصدرَ عني مما كُتِبَ على ضريحها وقد أغرى به التنويه والاحتفال:

رَوَّعَ بَالِي وَهَاجَ بَلْبَالِي
ذخيرتي حين خائني زميني
حفرتُ في داري الضريحَ لها
وغبِطَةُ نُورِهِمُ المَقَامَ معي
سَقَى الحيا قَبْرَكَ الغريبَ ولا
قد كنتَ مالي لما اقتضى زميني
أما وقد غابَ في ترابِ سلا
والله حزني لا كانَ بعدُ على

وسامني التُّكَلَّ بعدَ إقبالِ
وعُدَّتْني في اشتدادِ أهْوَالِ
تَعُلُّاً بِالْمُحَالِ في الحَالِ
وكيفَ لي بعدَها بِإِمهَالِ
زالَ مناخاً لِكُلِّ هَظْأَلِ
ذهبَ مالي وكنْتَ آمالي
وجهُكَ عَنِّي فلستُ بالسالي
ذلكَ الشَّبابَ الجَدِيدَ البالي

(١) نفاضة الجراب في علالة الاغتراب: ص ٢٠٥.

وبعدَ هذا الرثاء الهادئ لزوجته ينتقل ابن الخطيب إلى رثاء نفسه في إطار من مناجاتها على وجهٍ من أوجه الشوق إليها، وإلى اللحاق بها والسكن لديها، مقررًا أنَّ ذلك سيكون عمّا قريب، ولذلك يطلبُ منها انتظاره في قبرها:

فانتظريني فالشوقُ يُقلِّقني ويقتضي سرعتي وإعجالي
ومَهْدي لي لديك مضجعاً فعن قريبٍ يكونُ ترحالي

وتنمُّ هذه القصيدة، بما فيها من برودٍ وهدوء، عن نفسية ابن الخطيب الهادئة المطمئنة إلى قدرها المحتوم، حتَّى ليُخيَّل إلى القارئ أنها قصيدة تقليدية تخلو من حرارة العاطفة، وصدِّقُ المشاعر، وما ذاك إلاَّ لأنَّ ابن الخطيب كان في منتهى اليأس وانقطاع الأمل، وربما كان موتُ زوجته هو فقدان آخر ما يملك في الدنيا، بعد أن اهتزَّت به، وزلزلت كيانه، وفقدَ كلَّ ما كان يرجوه منها، وأصبح يشعر في هذه المرحلة، وهو السياسي المحنَّك، والأديب الخبير، أنَّ ما يستقبلُ من الزمان هو أسوأ مما مضى منه، وأنَّ مجده إلى زوالٍ نهائيٍّ.

هذا فضلاً عن أنَّ عُمَرَ ابن الخطيب، وقد تقدَّم، ووضعَه ووضع زوجته الاجتماعي والمعنوي لم تكن لتسمح له بما سمحت لابن حمديس، إذ انتشل موج البحر زوجته "جوهرة" من أمام عينيه، بعد أن عطَّب المركبُ الذي كانا فيه معاً لمغادرة الأندلس إلى إفريقية، وكانت، على ما يبدو من قصيدته التي رثاها بها^(١)، صغيرة العمر، فائقة الجمال، وهذا ما جعله يبدأ رثاءه لها بما يُشبه الغزل، بلُ جعلَ هذا لونا تلوَّنت به مُعظمُ أجزاء القصيدة، وهو غزلٌ مشحونٌ بالأسى واللوعة والحزن، تدفَّقت فيه المشاعرُ حارةً صادقةً.

وكلُّ وصفٍ أو تشبيه فيه لزوجته ممتزجٌ بآهةٍ وسيلٍ من الدموع، وعلى هذا النحو امتزجت، كذلك، براعةُ ابن حمديس الفنية في إحكام نسيج القصيدة وبنائها، بالآمه

(١) ديوانه: ص ٢١٢-٣.

المُضْمَنَة، وحزنه الشديد على فقده لها، فجاءت القصيدة وكأنها لوحة فائقة القدرة على التجسيد، دقيقة التعبير بالألوان المتناسقة على الرغم من كثرتها وتداخلها وتضاربها.

ولعل الإطالة في التغزل بالزوجة المريثة وإبراز محاسنها ومفاتها الجسدية وكأنها حية ترصدها العيون، ليس أمراً شائعاً في الشعر العربي على النحو الذي طرقة ابن حمديس، أو هو ليس بالأمر المستساغ في مثل هذه المواقف، مواقف الحزن والفجعة، وقد أراد ابن حمديس بذلك تعظيم مُصابه بموتها، فكما يُظنُّ أنها لم تُخلف له أبناء، وصغرها لم يترك له كثير ذكريات، مع قصر مدة الزواج بها، فلم يبرز أمام عينيهِ وهو يرثيها غير صفاتها المادية وشيء قليل من صفاتها المعنوية اكتفى بالإشارة إليها:

أيا رشاقة غصن البانِ ما هَصَرَكَ ؟	ويا تألَّفَ نظمَ الشملِ مَنْ نُشَرَكَ ؟
ويا شؤوني، وشأني كُلُّهُ حَزَنٌ	فُضِّي يواقيتَ دمعي واحبسي دُرَّكَ !
ما خلتُ قلبي وتبريحي يُقَلِّبُهُ	إلاَّ جناحَ قطاةٍ في اعتقالِ شَرَكِ
لا صَبَرَ عنكَ وكيفَ الصَبْرُ عنكَ وقد	طَوَاكَ عن عيني المَوْجُ الذي نُشَرَكَ ؟
هلاً، وروضةُ ذاكَ الحُسْنِ ناضرةً،	لا تلحظُ العينُ فيها ذابلاً زَهَرَكَ
أما لكِ البحرُ ذو التَّيارِ مِنْ حَسَدٍ	لَمَّا دَرَى الدُّرُّ مِنْهُ حاسداً تُعَرَّكَ !
وقعتُ في الدمعِ إذْ أُغْرِقتِ في لُججِ	قد كانَ يغمرُنِي مِنْهُ الذي غَمَرَكَ
أيُّ الثلاثةِ أبكي فَقْدَهُ يَدِمُ	عميمَ خُلُقِكَ أَمْ معنَاكَ أَمْ صِغَرَكَ ؟

ويتجلى في هذه الأبيات رثاؤه لِرشاقة غُصن البانِ، وروضة الحُسْنِ الناضرة، وذات الثغر الدرِّي، الصغيرة ذات المعاني الباهرة، ولم يكتفِ بكل هذه الأوصاف المادية حتى استرسل في إضافة أوصافٍ أُخرى خلال مناجاته للبحرِ وعتيهِ إِيَّاه، فهو يفترضُ أنَّ تفتير مقلتها كان يجب أن يسحر البحرَ فيشغله عن ابتلاعها، كما أنَّ على حلاوة ريقها أن تُخَفِّفَ من حِدَّةِ مائه الأجاج، أمَّا بعد أن كُشفَ وجهُها البدر، وقد فارقت الحياة جِسْمَها فلا بدَّ له من الحزن الدائم:

أَقُولُ لِلْبَحْرِ إِذْ أَغَشِيَتْهُ نَظْرِي
هَلَّا كَفَفْتَ أَجَاجاً مِنْكَ عَنْ أَشْرِ
هَلَّا نَظَرْتَ إِلَى تَفْتِيرِ مُقْلَتِهَا
يَا وَجْهَ جَوْهَرَةِ الْمُحْجُوبِ عَنْ بَصْرِي
يَا جِسْمَهَا كَيْفَ أَخْلَوْ مِنْ جَوَى حَزَنِي
مَا كَدَّرَ الْعَيْشَ إِلَّا شُرْبُهَا كَدَّرَكَ
مِنْ ثَغْرِ لِمَاءٍ لَوْلَا ضَعْفُهَا أَسْرَكَ!
إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْهُ كَيْفَ مَا سَحَرَكَ!
مَنْ ذَا يَقِيكَ كَسُوفاً قَدْ عَلَا قَمَرَكَ؟
وَأَنْتَ خَالٍ مِنَ الرُّوحِ الَّذِي عَمَرَكَ؟

أَفَلَا يَسْتَحِقُّ فَقْدُهُ لِكُلِّ هَذِهِ الصِّفَاتِ فِي "جَوْهَرَتِهِ" أَنْ يَرِثِي نَفْسَهُ فِي مُوَاجَهَةِ
الْمَوْتِ؟، لَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ حَقّاً، فَقَدْ رَأَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْعَيْبِ أَنْ يَفْتَنِيَ مِنْ أَجْلِهَا، أَوْ عَلَى
إِثْرِهَا، فَقَدْ كَانَ يَرَى فِيهَا شِبَابَهُ الَّذِي لَا عَوْضَ عَنْهُ، وَيَفْقِدُهُ فَقَدْ هُوَ حَيَاتُهُ كُلُّهَا:
مِنْ أَيْنَ يَقْبَحُ أَنْ أَفْنَى عَلَيْكَ أَسَى
وَالْحُسْنُ فِي كُلِّ فَنٍ يَقْتَضِي أَتْرَكَ؟!
كُنْتَ الشَّبِيبَةَ إِذْ وَلَّيْتُ وَلَا عِوَضَ
مِنْهَا وَلَوْ رَبِحَ الدُّنْيَا الَّذِي خَسِرَكَ!

وَفِي آخِرِ الْأَمْرِ فَإِنَّ الشَّاعِرَ لَمْ يَكُنْ رَاغِباً فِي الْبَقَاءِ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ بَعْدَهَا، وَلَكِنْ عُمَرَهُ
قَصَرَ عُمَرُهَا عَلَى عَكْسِ مَا كَانَ يَهْوَى:
وَمَا نَجَوْتُ بِنَفْسٍ عَنْكَ رَاغِبَةً
وَإِنَّمَا مَدُّ عُمُرِي قَاصِراً عُمَرَكَ!
وَهُوَ الْمَعْنَى نَفْسُهُ الَّذِي أَكَّدَهُ الْأَعْمَى التُّطِيلِي فِي رِثَائِهِ لِزَوْجَتِهِ، وَلَكِنَّهُ أَضَافَ إِلَيْهِ
حُسْنَ تَعْلِيلِهِ لِبَقَائِهِ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ بَعْدَهَا، إِذْ قَالَ:
وَلَا تَعْذِلْنِي إِنْ أَقَمْتُ فَرَبّاً
تَأَخَّرَ بِي سَعْيِي وَأَثْقَلَنِي وَزْرِي!^(١)

وَفِي خَتَامِ كَلَامِنَا عَلَى بَوَاعِثِ رِثَاءِ النَّفْسِ فِي الشَّعْرِ الْأَنْدَلُسِيِّ لَا بَدَأَ لَنَا مِنْ أَنْ نَشِيرَ
إِلَى أَنَّ هُنَاكَ بَاعِثَيْنِ آخَرَيْنِ، وَلَكِنَّهُمَا يَنْدَرِجَانِ فِي جُمْلَةِ الْبَوَاعِثِ الْآخَرَى، فَأَمَّا الْبَاعِثُ

(١) ديوانه: ص ٧٠.

الأول فهو الباعثُ الذاتي، وأقصدُ به أن هناك دافعاً شخصياً محضاً يدفعُ الشاعرَ إلى رثاء نفسه، وهذا الباعث هو الذي جعل رعيلاً من الشعراء يرثون أنفسهم، بينما امتنع الآخرون، وما أكثرهم، عن رثاء أنفسهم.

وأما الباعثُ الثاني فهو التقليد، وأعني به أن كثيراً من الشعراء الأندلسيين رثوا أنفسهم من باب تقليد شعراء سبقوهم، أو أنهم أرادوا أن يُسهموا في هذا الغرض كما كان لغيرهم إسهامٌ فيه، نظراً لشيوع النظم فيه، أو قبول الناس له.

وهذان الباعثان لا يختصّان بهذا الغرض الشعري دون سواه، كما أرى، ولكنهما يشملان كلَّ الأغراض الشعرية بنسبٍ متفاوتةٍ تُحدِّدُها عواملٌ مختلفة كثيرة ليس هذا مكان الخوض فيها.

كما لا بُدَّ من الإشارة إلى أن بواعث رثاء النفس في الشعر الأندلسي قد بلغت من الكثرة حدّاً سمح للشاعر الأندلسي أن يرثي نفسه أكثرَ من مرةٍ أحياناً، وربما عدة مرات، وذلك بحسب ظروفه وتجاربه الخاصة، والحالات التي يمر بها في مراحل حياته كما مرَّ بنا في هذا الفصل، فمرةً يزهّد في الدنيا ويملّها، ومرةً ثانيةً يتعرّضُ لعقوبة السلطان، ومرةً ثالثةً يوصي بالكتابة على قبره، ورابعةً يحتضر، وهكذا، وهو في ذلك كَمَن يحرصُ على تسجيل أهم حوادث حياته حتى آخر لحظةٍ منها.

الفصل الثالث

الرثاء السياسي

يتناول هذا الفصل دراسة النصوص الشعرية المتعلقة بغرض رثاء النفس مما صدر عن طائفة مختارة من عليّة القوم من رجال سياسة وقيادة ونفوذ وتأثير في الأندلس، في الحقب المختلفة. ولهذا السبب فإن هذا الفصل يُعنى بالظروف السياسية التي أَلَمَّتْ بهؤلاء الرجال الشعراء (السلطين)، وبظروف رثائهم لأنفسهم شعراً، وقد اشتمل البحث على أهم ما أمكن أن يشكّل هذه الظاهرة من شعراء ومن نصوص شعرية، وأن يرسم لها صورة شاملة ودقيقة قائمة على الترتيب الزمني.

١- هاشم بن عبد العزيز يرثي نفسه

كان هاشم بن عبد العزيز "خاصاً بالأمر محمد بن عبد الرحمن: يؤثره بالوزارة، ويرشحه مع بنيه -ومفرداً- للقيادة والإمارة، وولاه كورة جيان، وعلى يده بُنيت أبدة وأكثرُ معاقلها المنيعه، وهو أحد رجالات الموالى المروانية بالأندلس"^(١)، ولما تولّى المنذرُ بعد أبيه ولّاه الحجابة، ولكنه سرعان ما قتله "شراً قتلةً، بعد السجن والعذاب"^(٢)، حيث "وثب عليه، وسجنه وأثقله بالحديد، وذكره ما أسلفه من ذنوبه الموبقة، ثم أخرجه، وأتى به إلى دار عظيمة كان قد شيّدها، وقصرَ عليها جميع أمانيه، وضربَ عنقه فيها، وفنك في أولاده وخلفيه أشدّ الفتك، وشفى غيظه الكامن"^(٣).

ذكر ابن الأبار في كتابه "الحلة السراء"^(٤) "أنّ المنذر بن محمد استخلف يوم الأحد لثلاث خلون من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين، بعد وفاة أبيه بأربع ليالٍ، إذ كان غازياً بناحية رية، فأعدّ السير ودخل القصر يوم الأحد وصلى على أبيه ... ولما قدّم المنذر نزل في السطح وقعد للبيعة في ثياب سفره، وربما اتكأ على فراشه لما كان أخذه من النصب وألم السفر لطيفه المراحل. فلما دخل الناس قام هاشم

(١) الحلة السراء: ١/١٣٧.

(٢) المغرب في حلى المغرب: ٩٤/٢.

(٣) نفسه: ١-٥٣.

(٤) ١/١٣٨.

وبيده كتاب البيعة فافتتح قراءته، فلما بلغ إلى ذكر الإمام محمد خنقته العبرة، فلم ين كلامه. ثم استدرك أمره ورجع من أول الكتاب، حتى إذا انتهى إلى الموضوع الذي انتهى إليه أولاً أخذه أيضاً الحصر، فلحظه المنذر لحظة منكراً، رآها منه هاشم فمضى في قراءة الكتاب حتى أكمله. فلم يشك كل من رأى تلك اللحظة أنه قاتله".

ولم تذكر المصادر الأسباب الحقيقية لحقد المنذر بن محمد عليه، غير أن ابن سعيد الأندلسي في كتابه "المغرب في حلى المغرب" ^(١) ينص على أنه "عظم قدره يقرطبة عند سلطان الأندلس محمد بن عبد الرحمن، حتى صيره أخص وزرائه وأسند إليه أمور بلاده وعساكره، وكان تياهاً مُعجباً كثير الاعتماد على ما يُحَقِّدُ به قلوب العباد، حتى ملأ الصدور من بغضه. وقدمه محمد على جيش توجه به إلى غرب الأندلس، فهزِمَ، وحصل في الأسر، واضطربت الأندلس بسوء تدبيره، ثم فداه السلطان، وعاد إلى مكانه"، فلعل عظيم ما حصل عليه هاشم بن عبد العزيز من السلطة والقدر في عهد محمد بن عبد الرحمن، مع سوء في أخلاقه وفي تدبيره كان مما أوغر صدر المنذر عليه، فضلاً عما ذكره ابن الأبار من أنه "لما وُضع نعش الإمام محمد على قبره، ألقى هاشم رداءه وقلنسوته ودخل القبر وبكى بكاءً شديداً، ثم قال متمثلاً وهو يقبر:

أعزّي يا محمدُ عنك نفسي معاد الله والمنن الجسام
فهلاً مات قومٌ لم يموتوا ودوِّعَ عنك لي كأس الحمام

فكان ذلك مما أوقد عليه موجدة المنذر، والبيتان لأبي نواس الحسن بن هانئ يقولهما في محمد الأمين حين قُتل ^(٢)، فلعل ذهن المنذر انصرف عند عبارة "قومٌ لم يموتوا" فظن أنه يقصده بها.

ولكن الغريب في الأمر حقاً أن يرفع المنذر من قدره ويُعلي من شأنه حتى يوليه الحجابة، فيصبح الرجل الثاني في السلطة والدولة، ثم يفتك به وينكبه، فلعل الأمر غير

(١) ٩٤/٢.

(٢) الحلة السيرة: ١٣٨/١.

ما يبرره بعض من يترجمون له بقولهم: " لأشياء حقدَها عليه في خلافة أبيه محمد، إذ كان يُخرجه معه قائداً للجيش وبعد ذلك" ^(١)، ولعلّه لا يخلو من حسدٍ وغيره، فضلاً عن أمورٍ أخرى تستحقُّ هذه العقوبة.

وقد بدأت قصة نكبته عندما " أقبلَ صاحبُ الرسائل مستحثاً له، فخرجَ هاشم ... وكان تحته فرسٌ رائعٌ أشقر، فلما أتى عند باب الجنان ^(٢) كبا الفرسُ بهاشم فاستقلَّ به ووقفَ وقد امتقعَ لونه ساعة، ثم تقدَّم ودخل... فلم ينفضَ أهلُ موكبِهِ حتَّى خرجَ راجلاً مكبلاً" ^(٣) وأودعَ في الحبس، وانتهت هذه القصة يومَ تمَّ قتله على يد المُنذر حيث " غطيتُ جثتهُ ورأسه بثوب، وبُعث به إلى أهله" ^(٤). وكان ذلك في العام ٢٧٣ هـ، ولا شكَّ في أنه كان يتوقَّع هذا المصير منذ أن قبضَ عليه، كما توقَّعه أهلُ قرطبة جميعاً، حيث لم تخلُ دارٌ بها من بُكاءٍ عليه حينئذٍ ^(٥). ولهذا لا بدَّ من أن يكون قد رثى نفسه بغير ما وصل إلينا من القصائد والمقطعات وهو ما يزالُ في حبسه.

أما ما وصلَ إلينا من رثائه لنفسه فهو بائيتهُ التي خاطبَ فيها زوجته "عاج" ^(٦)، يعتذرُ فيها عن عدم قدرته على زيارتها وقد حُبسَ في المُطبق وهو سجن تحت الأرض في قرطبة كأنه القبر، وقد أغلقَ عليه بابٌ بإحكامٍ شديد، ويتوقَّعُ أنها تعجَّبتُ مما حلَّ به من نكبةٍ مريرة، ويبرر لها ما حدثَ بأنَّ ليسَ مع ما يفعله الدهرُ بمقدرات الناس وأقدارهم ما يُتعجَّبُ منه:

وإني عداني أن أزوركُ مطبقٌ	وبابٌ منيعٌ بالحديد مُضَبَّبٌ
فإن تعجبي يا "عاجُ" مما أصابني	ففي ريب هذا الدهرِ ما يتعجَّبُ

(١) الحلة السيرة: ١٣٩/١.

(٢) وهو من أبواب قصر الإمارة الخلفية المفضية إلى حدائق القصر.

(٣) الحلة السيرة: ١٣٩/١.

(٤) نفسه: ١٤٠/١.

(٥) أنظر: الحلة السيرة: ١٣٩/١.

(٦) أنظر الحلة السيرة: ١٤٠/١-١.

كما يشكو لها حاله في الحبس، ويندمُ على أنه لم يحسب حساب هذه العاقبة، وقد كان قادراً على أن يتفادها قبل أن تقع، فكان من نتائج ذلك أن وقع ما كان يحذره ويخشاه:

وفي النفس أشياء أبیتُ يغمُّها كأني على جمر الغضى أثقلُّبُ
تركتُ رشاد الأمر إذ كنتُ قادراً عليه فلاقيتُ الذي كنتُ أرهَبُ

ويحذرُ به وهو يخاطبُ امرأته أن يفخر بنفسه و أن يبدو أمامها شجاعاً قديراً على تلقي ما يأتي به القدر، فليس الفرارُ من صفات الشجعان، وليس هو إلا ذلٌّ وهوان:

وكم قائلٍ قال: انجُ ويحك سالماً ففي الأرض عنهم مُستراذٌ ومذهبُ
فقلتُ له إنَّ الفرارَ مذلَّةٌ ونفسي على الأسواءِ أحلى وأطيبُ

ثم ينتقلُ الى بيت قصيدته وهو التيقنُ بجلول عقوبة الموت به، والإقرار بأن لا مهرب من قضاء الله وقدره، ولكنه في الوقت نفسه يحذّرُ المتشكِّين بموته من أن سرورهم به لا يدوم، فلن يطول الزمن قبل أن يُدركهم الموت أيضاً:

سأرضى بحكم الله فيما ينوبني وما من قضاء الله للمرءٍ مهربُ
فمنَّ يكُ مسروراً بحالي فأئنه سينهلُ في كاسي وشيكاً ويشربُ

ومهما يكنُ من أمر فإنَّ الحاجب هاشم بن عبد العزيز " اجتمعتُ فيه خصال لم تجتمع في سواه من أهل زمانه، إلى ما كان عليه من البأس والجود والفروسية والكتابة والبيان والبلاغة وقرض الأشعار البديعة، إلى ما له من القديم والبيت والسابقة"، كما يقول ابن الأبار^(١).

(١) الحلة السيرة: ١/١٣٧.

٢- سعيد بن جودي يرثي نفسه

هو أبو عثمان سعيد بن سليمان بن جودي السعدي، أمير أندلسي ثائر، يُعدُّ من أدباء الملوك. نصَّبته العرب لإمارتها في العام ٢٧٧هـ، و"كان شجاعاً وفارساً مُحَرِّباً، قد تصرفَ مع فروسيته في فنون العلم، وتحقَّق بضروب الأدب، فاغتدَّى أدبياً نحريراً، وشاعراً محسناً، تُعدُّ عشرُ خصالٍ تفرَّدَ بها في زمانه لا يُدفع عنها: الجودُ، والشجاعة، والفروسية، والجمال، والشعر، والخطابة، والشدة، والطعن، والضرب، والرماية" (١).

ذكر ابن الأبار في كتابه "الحلة السيرة" (٢) "أنَّ الأمير عبد الله بن محمد أسجَلَ له على كورة ألبيرة، لما ظهرت العرب على حاضرتها. فاتصلَ قيامُهُ بأمر العرب، إلى أن قُتِلَ غيلةً بأيدي بعض أصحابه في ذي القعدة من سنة أربع وثمانين ومائتين"، وقد "ذَلَّت العربُ بعد مقتل سعيد بن جودي واضطربَ أمرها وانكسرت شوكتها وهانت على محاديه المولدين المناضلين لهم بحاضرة ألبيرة" (٣).

تعرَّضَ سعيد بن جودي للأسر على يد عمر بن حفصون "رأس الفتنة بالأندلس ومُضرم نارها وركنُ العصبية للعجم والمولدين" (٤)، وقد نظمَ خلال هذا الأسر قصيدةً رثى بها نفسه رثاءً يختلط بالفخر بنفسه وشجاعته، وبالأمل بالنجاة الذي جعله مفتتحاً لهذه القصيدة، من خلال التحلِّي بالصبر على هذا الخطب العسير، فهو ما يحتاج إليه الأحرار في مثله:

خليلي صبراً، راحةُ الحرِّ بالصبرِ
ولا شيءَ مثلُ الصبرِ في الكربِ للحرِّ
فكم من أسيرٍ كان في القيدِ موثقاً
فأطلقهُ الرحمنُ مِن حَلَقِ الأسْرِ (٥)

(١) الحلة السيرة: ١/ ١٥٥.

(٢) ١/ ١٥٦.

(٣) المقتبس في تاريخ الأندلس: ص ١٤٢.

(٤) الحلة السيرة: ١/ ١٥٩.

(٥) المقتبس في تاريخ الأندلس: ص ١٤٩.

ثُمَّ يَتَوَصَّلُ مِنْ ذَلِكَ إِلَى الْفَخْرِ بِنَفْسِهِ، وَيَقُولُ بَأْنَهُ لَمْ يُؤْخَذَ لِلْأَسْرِ بَعْدَ مَقَاتَلَةٍ
وَدُخُولٍ فِي حَرْبٍ وَاشْتِبَاكٍ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ نَتِيجَةَ خِيَانَةٍ وَغَدْرٍ، وَلَوْ كَانَ يَخْشَى الْوُقُوعَ فِي
الْأَسْرِ غَدْرًا لَكَانَ احْتِاطًا بِمَا يَكْفُلُ لَهُ وَقَايَتَهُ مِنْهُ، وَذَلِكَ شَيْءٌ يَسِيرٌ، وَلَكِنَّهُ يُعَدُّ نَفْسَهُ
لِشَيْءٍ أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ، فَهُوَ الْبَطْلُ وَالْفَارِسُ الْمَقْدَامُ فِي الْمَوَاقِفِ الشَّدِيدَةِ، كَمَا يَعْلَمُ الْجَمِيعُ
ذَلِكَ:

وَلَوْ كُنْتُ أَخْشَى بَعْضَ مَا قَدْ أَصَابَنِي حَمَتْنِي أَطْرَافُ الرُّدَيْنِيَةِ السُّمُرِ
فَقَدْ عَلِمَ الْفَتِيَانُ أَنِّي كَمِئِهَا وَفَارَسُهَا الْمَقْدَامُ فِي سَاعَةِ الدُّعْرِ

وَعَلَى الرَّغْمِ مِمَّا فِي نَفْسِ هَذَا الْأَمِيرِ الْعَرَبِيِّ الثَّائِرِ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ، كَمَا هُوَ
بَادٍ بَوُضُوحٍ فِي قَصِيدَتِهِ، وَكَمَا هُوَ فِي الْوَاقِعِ، إِلَّا أَنَّ يَأْسَهُ مِنَ الْحَيَاةِ وَشَعُورِهِ بِالضِّيَاعِ
وَبُوشَكِ الْمَوْتِ سَرِيعًا كَانَ بَادِيًا بِجَلَاءٍ أَيْضًا، وَيَبْدُو أَنَّ هَذَا الشُّعُورَ لَدَيْهِ وَهُوَ تَحْتَ وَطْأَةِ
الْأَسْرِ هَكَذَا كَانَ شَدِيدًا جَدًّا، بِحَيْثُ أَخَذَتْ فِكْرَةَ الْمَوْتِ مُعَاقِبًا مِنْ قَبْلِ الْأَسْرِ تُرَاوِدُهُ
بِالْحَاجِ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الْأَيَّامِ، فَيُودِّعُ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ: وَالذَّيَّةَ الْفَاقِدِينَ لَهُ وَزَوْجَتَهُ
الْمُصَابَةَ، وَيَعِدُّهُمْ بِاللِّقَاءِ فِي الْآخِرَةِ، وَيَخْصُّ زَوْجَتَهُ بِاعْتِزَالٍ عَمَّا أَصَابَهَا بِسَبَبِ أَسْرِهِ مِنْ
الْهَمِّ وَالْحُزْنِ، وَيَقُولُ لَهَا بَأْنَهُ سَيَلْقَى رَبَّهُ بِهَذَا الْهَمِّ الَّذِي هُوَ أَشَدُّ عَلَيْهِ مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ:

فِيَا طَاعِنًا أَبْلِغْ سَلَامِي تَحِيَّةً إِلَى وَالِدَيَّ الْهَائِمَيْنِ لَدَى ذِكْرِي
وَأَدِّ إِلَى عَرْسِي السَّلَامَ وَقُلْ لَهَا: عَلَيْكَ تَحِيَّاتِي إِلَى مَوْقِفِ الْحَشْرِ
بِهَمِّكَ أَلْقَى خَالِقِي يَوْمَ مَوْقِفِي وَكَرْبُكَ أَقْضَى لِي مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ

وَهُوَ لَا يَدْرِي بِأَيِّ وَسِيلَةٍ سَيَمُوتُ وَكَيْفَ سَيَكُونُ قَبْرُهُ، وَيَبْدُو أَنَّهُ كَانَ مَتَوَقِّعًا أَنَّ
يُمَزَّقَ جَسَدُهُ إِرْبًا فَلَا يَبْقَى مِنْهُ مَا يَسْتَحِقُّ الدَّفْنَ، وَفِي هَذِهِ الْحَالِ سَيَكُونُ غَدَاءً لِلنَّسُورِ،
وَلِذَلِكَ فَهُوَ يُهَوِّنُ هَذَا الْأَمْرَ وَيَدَّعِي أَنَّ فِيهِ مَا يُعْلِي مِنْ شَأْنِ الْأَبْطَالِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيَكُونُ
مَدْعَاةً لِسُودْدِهِمْ:

وإن لم يكن قبراً فأحسن موطئاً من القبر للفتيان حوصلة النسر

لكن فتى الفتیان الثائر هذا ینجو من هذا الأسر وما كان یُحتملُ أن یُصاحبه من عقوبة الموت، ولكنه لا ینجو من الموت غيلةً بعد ذلك، كما مرّ، بسبب أبياتٍ "من الشعر قالها في غمص الأئمة من بني مروان. منها، قال لعبد الله:

یا بني مروان جِدُّوا فی الهَرَبِ نَجَمَ الثائرُ من وادي القصبِ
یا بني مروان خَلُّوا مُلْكَنَا إنما المُلْكُ لأبناء العَرَبِ"^(١)

وواضحٌ ما في هذا النصّ من انتقاصٍ للأمرء المروانيين، وتهديدٍ لهم من قبله شخصياً بأن تطالهم ثورته، فلم يُمهله ليرثي نفسه مرةً أخرى!.

٣- الأمير عبد الله يرثي نفسه

وليّ الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأندلس بعد أخيه المنذر في العام ٢٧٥هـ ودامت خلافته خمساً وعشرين سنةً شهدت خلالها الأندلس أحلك أيامها، حيثُ الفتن والاستبداد بالمناطق والإمارات، ونشوء الدول المناوئة لحكم الأمويين في الأندلس، فضلاً عن محاولات التآمر عليه ولاسيما من لدن أخوته، وقد قتل نفراً منهم، "وفي أيامه اضطربت نار لفتنة بالأندلس فتنعّص عليه مُلكه"^(٢).

وفي لجج هذه الظروف السياسية المضطربة والمؤلمة عاش أمير الأندلس الشاعر المطبوع لحظاتٍ أحسّ فيها بالموت يراوده ويقترب منه، فحاول تسجيل هذه اللحظات من خلال عدسته الشعرية الحساسة في نصين شعريين، يخاطب في الأول منهما نفسه ويلومها، إذ يرى أنه قد تغافل عن الموت بالأمل في طول الحياة، حتى وكأنه قد مات فعلاً، وهو في حاجةٍ إلى النجاة التي لا يبلغها الغافلون، ثم إنه لا دوام لما يتمنى المرء في حياته:

(١) الحلة السراء: ١٥٦/١.

(٢) الحلة السراء: ١٢٠/١.

يَا مَنْ يُرَاوِغُهُ الْأَجَلُ	حَتَّامٌ يُلْهِيكُ الْأَمَلَ؟
حَتَّامٌ لَا تَخْشَى الرَّدَى	وَكَأَنَّهُ بِكَ قَدْ نَزَلَ
أَغْفَلْتَ عَنْ طَلِبِ النِّجَاةِ	وَلَا نَجَاةَ لِمَنْ غَفَلَ؟
هِيَهَاتَ يَشْغَلُكَ الرَّجَاءُ	وَلَا يَدُومُ لَكَ الشُّغْلُ
فَكَأَنَّ يَوْمَكَ لَمْ يَكُنْ	وَكَأَنَّ نَعِيكَ قَدْ نَزَلَ ^(١)

أما النصّ الثاني فيحمل ملامح اليأس الشديد من الحياة والزهد فيها لدى الأمير، فبعد أن يقرَّ بحتمية فناء الدنيا وضرورة التخلّي عن شيءٍ سرعان ما يصير إلى فناء، يتخيّل نفسه وكأنه مات وحُمِلَ على النعش وقد شمله البلى والفناء في الدنيا، فلم يبقَ لديه إلاّ النواح والبكاء على نفسه:

أَرَى الدُّنْيَا تُصِيرُ إِلَى فَنَاءٍ	وَمَا فِيهَا لِشَيْءٍ مِنْ بَقَاءٍ
فَبَادِرْ بِالْإِنَابَةِ غَيْرَ لَاؤٍ	عَلَى شَيْءٍ يَصِيرُ إِلَى فَنَاءٍ
كَأَنَّكَ قَدْ حُمِلْتَ عَلَى سَرِيرٍ	وَصَارَ جَدِيدُ حُسْنِكَ لِلْبَلَاءِ
فَنَفْسُكَ، فَابْكِيهَا أَوْ نُحْ عَلَيْهَا	فَرُبَّمَا رُحِمْتَ عَلَى الْبُكَاءِ ^(٢)

ونحن لا نعلم بالضبط متى نظم الأمير عبد الله هذين النصين، وأرجّح أن يكون قد نظمهما قبيل وفاته وقد تجاوز عمره السبعين واقترب من السنة الخامسة والعشرين من حكمه. والنصان ينمان عن روح فياضٍ بنفحاتٍ من الإيمان والتدين، وهما مما كان يطبع شخصيته.

(١) الحلة السيرة: ١/١٢٢، والبيان المغرب: ١/١٥٢.

(٢) الحلة السيرة: ١/١٢٢، والبيان المغرب: ٢/١٥٥.

٤- الحاجب المصحفي يرثي نفسه

كان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي أحد رجال دولة الناصر خليفة الأندلس (ت ٣٥٠هـ)، إذ كان والياً على جزيرة ميورقة، ثم استوزرته الخليفة الحكم المستنصر بعده. وبعد أن تولّى هشام الخلافة بعد أبيه الحكم رفع من شأن المصحفي، وفاءً لأبيه، فأُسندَ إليه الحجابة في العام ٣٦٦هـ. ولما حاول المنصور بن أبي عامر الاستبداد بالحكم في الأندلس وقد نال حظوةً من لدن أم هشام بن الحكم ووكالتها، وتمّ له ذلك، وكان هشام حينئذٍ صغير السن لم يتجاوز التاسعة من عمره، "مكرّ بأهل الدولة، وضرب بين رجالها، وقتل بعضاً ببعض.... كل ذلك عن أمر هشام وخطّه وتوقيعه، حتى استأصلهم وفرّق جموعهم، وأول ما بدأ بالصقالبة الخصيان الخُدّام بالقصر، فحمل الحاجب المصحفي على نكبتهم، فنكبهم وأخرجهم من القصر، وكانوا ثمانمائة أو يزيدون، ثمّ أصهر إلى غالب مولى الحكم، وبالغ في خدمته والتنصّح له، واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا أثره من الدولة"^(١)، وحسبه في المطبق، أيضاً، " إلى أن تكوّرت شمسُه، وفاضت بين أثناء المَحَنِ نفسه"^(٢) وكان ذلك في العام ٣٧٢هـ.

ومن طريف ما يُذكر في قصة الحاجب المصحفي ما نقله أبو نصر الفتح بن خاقان^(٣) عن محمد بن إسماعيل كاتب المنصور قوله " رأيته يُساقُ إلى مجلس الوزراء للمُحاسبة راجلاً فأقبل يدرم، وجوارحه باللواعج تضطرم، وواثق الضاغظ ينهره، والزَمْعُ والبُهرُ قد هاضاه، وقصراً خطاه، فسمعتُه يقول: رفقاً بي فستدرك ما تحبُّ وتشتيه، وترى ما كنتَ تترجيه، ويا ليت أن الموت يبيع فأغلى الله سَومَه، حتى يَرِدَهُ مَنْ قد أطال الله حَومَه، ثم قال:

(١) نفح الطيب: ١/٣٩٦-٧.

(٢) مطمح الأنفس: ص ١٥٦.

(٣) مطمح الأنفس: ص ١٦٣-٤.

لا تَأْمَنَنَّ مِنَ الزَّمَانِ تَقْلُباً إِنَّ الزَّمَانَ بِأَهْلِهِ يَتَقَلَّبُ
ولقد أراني والليوثُ تهابني وأخافني مِن بعد ذاك الثعلبُ
حَسْبُ الكَرِيمِ مَذْلَّةٌ ومَهَانَةٌ أَلَّا يَزَالِ إِلَى لَئِيمٍ يُطَالَبُ^(١)

فلما بلغَ المجلسَ جلسَ في آخره دونَ أنْ يُسَلِّمَ على أحد، أو يومئِ إليه بعينٍ أو يد، فلما أخذَ مجلسَه تسرَّعَ إليه الوزير محمد بن حفص بن جابر فعثَّفه واستجفاه، وأنكرَ عليه تركَ السلام وجفاه"، ولكنَّ الوزير أبو الوليد محمد بن جهور ردَّ على محمد بن حفص مُبرراً تصرفَ الحاجب المصحفي فقال: "أسأتَ إلى الحاجب، وأوجبتَ عليه غير الواجب، أو ما علمتَ أنَّ منكوبَ السلطان لا يُسَلِّمُ على أوليائه، لأنه إنْ فعل الزَمَهُم الردَّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها"، فَإِنْ فَعَلُوا أَطَافَ بِهِمْ مِنْ إِنْكَارِ السُّلْطَانِ مَا يُخْشَى وَيُخَافُ، لَأنَّه تَأْنِيسٌ لِمَنْ أَوْحَشَ، وَتَأْمِينٌ لِمَنْ أَخَافَ، وَإِنْ تَرَكُوا الرَّدَّ أَسْخَطُوا اللَّهَ فَصَارَ الْإِمْسَاكُ أَحْسَنَ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يُخْفَى عَلَى أَبِي الْحَسَنِ،^(٢) فَانْكَسَرَ مُحَمَّدُ بْنُ حَفْصٍ، وَخَجَلَ مِمَّا أَتَى بِهِ مِنَ النَقْصِ"^(٣).

وذكرَ ابن بَسَامِ الشَّنْتَرِينِي^(٤)، بِشَأْنِ إِيْدَاعِهِ الْحَبْسِ، عَنْ ابْنِ حِيَانِ قَوْلَهُ: "لَمَّا أُمِرَ بِضَمِّهِ إِلَى الْمَطْبَقِ بِالزَّهْرَاءِ وَدُعِيَ أَهْلُهُ وَوَلَدُهُ وَدَاعَ الْفَرْقَةِ، وَقَالَ: لَسْتُ تَرُونِي بَعْدَهَا حَيًّا، فَقَدْ أَتَى وَقْتُ إِجَابَةِ الدَّعْوَةِ وَأَنَا أَرْتَقِبُهُ مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً. وَذَلِكَ أَنِّي أَسْرَفْتُ عَلَى فَلَانٍ -- رَجُلٍ سُجِّنَ بَعْدَهُ النَّاصِرُ- وَمَا أَطْلَقَهُ إِلَّا بِرُؤْيَا، قِيلَ لِي: أَطْلُقْ فَلَانًا فَقَدْ أُجِيبَتْ فِيكَ دَعْوَتُهُ، فَأَطْلَقْتُهُ وَأَحْضَرْتُهُ وَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: نَعَمْ، دَعَوْتُ عَلَى مَنْ شَارَكَ فِي أَمْرِي أَنْ يُنِيتَهُ اللَّهُ فِي أَضْيَاقِ السَّجُونِ. فَعَلِمْتُ أَنَّهَا قَدْ أُجِيبَتْ، وَنَدِمْتُ بِحَيْثُ لَا تُغْنِي النَّدَامَةُ. فَأَطْلَقْتُ الرَّجُلَ.

(١) النساء: ٨٦.

(٢) يعني الحاجب المصحفي.

(٣) مطمح الأنفس: ص ١٦٥-٦٠.

(٤) الذخيرة: ٤/ ٤٢.

قالوا: فما لبث^(١) في محبسه إلا قليلاً وأُخرج ميتاً، فسُلِّمَ إلى أهله في أقبح صورة.

وكان في نفس المصحفي في مدة حبسه، مع ذلك، بارقة من أمل في النجاة من عقوبة الموت التي كان متأكداً من وقوعها بعد حين على يد المنصور بن أبي عامر، حُباً منه في الحياة وطمعاً بها، ولذلك بعث إليه بقصائد الاستعطاف والتوسُّل درءاً للموت، ومن ذلك قوله:

عفا الله عنك ألا رحمة	تجوّد يعفوك إن أبعدا
لئن جلّ ذنبٌ ولم أعتمدْهُ	فأنتَ أجلُّ وأعلى يدا
ألم ترَ عبداً عدا طوره	ومولى عفا ورشيداً هدى
ومفسد أمرٍ تلافيته	فعاد فأصلح ما أفسدا
أقْلني أقالك مَنْ لم يزلْ	يَقِيكَ ويصرفُ عنك الردى ^(٢)

ويتجلى في البيت الأخير من هذه المقطوعة إيمانه القاطع بموته على يد المنصور، ولذلك تشبَّث بالدعوة له يصرف الردى عنه مقابل صرف عقوبة الموت عنه، وهو يعلم علم اليقين بتحقيقها.

ويلجأ المصحفي أحياناً وهو في قبره المؤقت-المطبق إلى التعلُّق بذكرى ماضيه السعيد، شأنه في هذا شأن الذين مرُّوا بتجربته من ذوي الشأن من الشعراء، كما مرَّ في الفصل الثاني من هذا الكتاب، تخفيفاً من هول النكبة وشدة مرارتها:

تأملتُ صرفَ الحادثات فلم أزلْ	أراها توفيّ عندَ موعدها الحُرّاً
فلله أيامٌ مضتْ بسبيلها	فإني لا أنسى لها أبداً ذُكْرا
تجافَتْ بها عنّا الحوادثُ بُرْهةً	وأبدتْ لنا منها الطلاقَةَ والبشرا

(١) يعني المصحفي.

(٢) مطمح الأنفس: ص ١٦٠.

ليالٍ لم يدرِ الزمانُ مكانها
وما هذه الأيامُ إلاَّ سحائبٌ
ولا نظرتُ منها حوادثه شَزرا
على كلِّ أرضٍ تُمطرُ الخيرَ والشرًّا^(١)

ويُصِفُ، بدهشةٍ، ما أصابه من الذلِّ والمهانة بعدَ العزِّ والكرامة، وذلك عنده مما
يُفضي إلى زوال الحياة بعدَ زوال السلطان، ولكنه يتمنى مع ذلك أن يكون هذا الزوال
بشيءٍ من الكرامة:

صبرتُ على الأيامِ حتَّى تولَّتِ
فواعجباً للقلبِ كيفَ اعترافُهُ
وألزمتُ نفسي صبرَها فاستمرتِ
وللنفسِ بعدَ العزِّ كيفَ استدلَّتِ
وما النفسُ إلاَّ حيثُ يجعلها الفتى
فإن طمعتْ تاقَتْ وإلاَّ تسَلَّتِ
وكانتُ على الأيامِ نفسي عزيزةً
فلَمَّا رأتُ صبري على الذلِّ ذَلَّتِ
فقلتُ لها يا نفسُ مُوتِي كريمةً
فقد كانت الدنيا لنا ثمَّ ولَّتِ^(٢)

ولم يبلغ الحاجب المصحفي الغاية القصوى من اليأس من الحياة إلاَّ بعدَ أن كتبَ إلى
المنصور يستعطفه:

هَبْنِي أَسأتُ فأينَ الفضلُ والكرمُ
يا خيرَ مَنْ مُدَّتْ الأيدي إليه أما
إذْ قادني نحوكَ الإذعانُ والندمُ
بألغتَ في السخطِ فاصفحْ صفحَ مقتدرٍ
تُرثي لِشيخٍ نعاه عندكَ القلمُ؟
إنَّ الملوكَ إذا ما استرحوا رَحِموا^(٣)

فما كانَ من المنصور إلاَّ أن أجابه بقصيدةٍ من نظم عبد الملك الجزيري، منها:

(١) مطمح الأنفس: ص ١٦١.

(٢) نفح الطيب: ٦٠٤/١.

(٣) الذخيرة: ٤٣/٤.

الآن يا جاهلاً زلت بك القدم
أغريت بي ملكاً لولا تثبته
ندمت إذ لم تفز منّا بطائلة
فياأس من العيش إذ قد صيرت في طبق
نفسي إذا جمحت ليست براجعة
تبغي التكرم لمّا فائك الكرم
ما جاز لي عنده نطق ولا كلم
وقلما ينفع الإذعان والندم
إنّ الملوك إذا ما استنقموا نقموا
ولو تشفع فيك العرب والعجم^(١)

وعند ذاك لم يجد المصحفي أيّ مبررٍ للتشبّث بالحياة، أو ببارقة من الأمل في البقاء على قيدها، ولهذا السبب رثى نفسه بأسلوب هاديّ رزين يتناغم مع استسلامه لقضائه وقدره، وكأنه يُسلم روحه رويداً، فلا يخشى بعد ذلك أيّ خطرٍ يطرأ:

لي مودة لا بدّ أبلغها
لو قابلتني الأسد ضارية
فإذا انقضت أيامها مُت
والموت لم يدن لما خفت

وهو يرغب في أن تكون تجربته هذه عبرة لمن يعتبر:

فانظر إليّ وكن على حذر
فيمثل حالك أمسٍ قد كنت^(٢)

وهذا ما فحدث فعلاً، فقد أمر المنصور به "فَجُعِلَ في تابوتٍ وأُحْرِقَ بالنار حتّى مات"^(٣).

وقد ارتكب المصحفي في مخاطبته المنصور في هذه القطعة خطأين، أولهما بحق المنصور عندما قال له "هَبْنِي أَسَاتُ" وكأنه لم يُسأ، وفي ذلك إشارة إلى أن المنصور ظلمه، وهذا مما لا يُخاطب به الملوك وذوو السلطان، وثانيهما بحقه هو نفسه عندما

(١) نفسه، ونفح الطيب: ٤٠٨/١.

(٢) الذخيرة: ٤٣/٤-٤٤، ونفح الطيب: ٦٠٣/١.

(٣) الحلة السراء: ٢٦٦/١.

وصف المنصور بأنه "خير مَنْ مُدَّتْ الأيدي إليه"، وكان قد وصفه يومَ محاسبته بـ"اللئيم" كما مرَّ، فعَبَّرَ عما لم يكن في قرارة نفسه وفي مكنون ضميره بإزاء المنصور.

نقلَ أبو نصر الفتح بن خاقان قول محمد بن إسماعيل بشأن موت الحاجب المصحفي وتسليم جثته ما نصُّه: "سرتُ بأمره لتسليم جسد جعفر إلى أهله وولده، وليس عليه شيء يواريه، غير كساء خَلَقَ لبعض البوابين، فدعا له محمد بن مسلمة يغاسل، فغسله -والله- على فردة بابٍ اقْتُطِعَ من جانب الدار، وأنا أعتبر من تصرُّف الأقدار، وخرجنا بنعشه إلى قبره، وما معنا سوى إمام مسجده المستدعى للصلاة عليه، وما تجاسر أحد منا للنظر إليه، وإنَّ لي في شأنه لخبراً ما سمعَ بمثله طالبٌ وعظ، ولا وقع في سمعٍ ولا تُصوِّرَ في لحظ، وقفتُ له في طريقه من قصره، أيَّامَ نهيه وأمره، أروم أن أناوله قصَّة، كانتْ به مُختَصَّة، فوالله ما تمكَّنتُ من الدنوِّ منه يحيلةً لكثافة موكبه، وكثرة مَنْ حفَّ به، وأخذ الناس السكك عليه وأفواه الطرق داعين، وجارين بين يديه ساعين، حتى ناولتُ قصَّتي بعض كتَّابه الذين نصبهم جناحي موكبه لأخذ القصص، فانصرفتُ وفي نفسي ما فيها من الشَّرِّ بحاله والعُصِّص، فلم تطل المدَّة حتَّى غَضِبَ عليه المنصور واعتقله..." (١)

٥- عبد الله بن عبد العزيز يرثي نفسه

هو أبو بكر عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن أمية بن الحَكَم الرَبْضي الملقَّب بالحجر. "أمرُهُ هشام المؤيد في بعض الأوقات، وسدَّ به الثغر، وفوَّضَ إليه أمر طُلَيْطَلَة وقلَّده إياها مع خطَّة الوزارة" (٢)، أيَّامَ استبداد المنصور بن أبي عامر بالسلطة، ولكنه اتَّهم بالإسهام في مؤامرة ضدَّ المنصور مع ابنه عبد الله ومع آخرين، وعندما لم تنجح المؤامرة فرَّ هو ولجأ إلى "برموندو" الثاني ملك ليون، كما فرَّ الآخرون، ولكنَّ المنصور ظفَّرَ بعبد الله بن عبد العزيز بعد أن أجبر برموندو على تسليمه له، ونكبَّه، إذ أمر بالطواف به على جملٍ وهو مقبَّد وحبسَه في المطبق.

(١) مطمح الأنفس: ص ١٦٠.

(٢) الحلة السراء: ١/ ٢١٦.

وليس عبد الله بن عبد العزيز مستثنى من الشعور بنهايته عند حلوله في المطبق معاقباً من قبل السلطان، وقد عبرَ عن هذا الشعور بوضوح في قصيدتين، أولاهما قصيدته التي يُخاطب فيها المنصور، ويُبدى في قسمها الأول أسفه لعدم إحكامه الفرار من رهبة الموت الذي ينتظره على يد المنصور عقوبةً له على الخيانة، وسوء تدبيره في ذلك، وكأنَّ ما تمَّ قد تمَّ بأمر الله^(١) :

(١) نسب ابن الأثير (الكامل في التاريخ ٤٦/٨) والمقري (نفع الطيب: ٦٥٩/٢) الخمسة الأبيات الأولى من هذه القصيدة إلى أبي ركة الوليد بن هشام من ولد المؤيد هشام بن الحكم الأموي عندما وقع في قبضة الحاكم بأمر الله حاكم مصر بعد معارك دارت بين عساكر الحاكم وعساكر الوليد وكان قد استقلَّ ببرقة وما جاورها وخطبَ له بالخلافة بعد أن هرب من بطش المنصور بن أبي عامر الذي أخذ يلاحق مَنْ يمتُّ إلى المؤيد هشام بن الحكم بصلة القرابة خشية الاستيلاء على الحكم من بعده بعد أن أخفاه واستقلَّ هو بحكم الأندلس، فقصد الوليد مصر، وقد طيف به على جبلٍ بعد انكسار عساكره والقبض عليه في حكاية مشابهة لحكاية عبد الله بن عبد العزيز هذا كما يرويها ابن الأثير، فيما عدا بعض التفاصيل، منها النهاية المأساوية لحياة الوليد، حيث أُلْسَ طرطوراً وجُعِلَ خلفه قرْدٌ يصفعه، ثم حُمِلَ إلى ظاهر القاهرة ليُقتل ويُصلب ولكنه ثَوَّفَ قبل وصوله، ففُطِعَ رأسه وصُلِب. وفي نسبة الأبيات إلى الوليد هذا من قبيل الوهم والخلط كما أرى، وقد يكون سبب هذا الوهم والخلط تشابه الحكايتين وحدثهما في وقتين متقاربين جداً وحقبة زمنية واحدة، وقد تصدَّق نسبة القطعة النثرية الصغيرة التي بعثها الوليد إلى الحاكم بأمر الله إليه في رقعةٍ رُعم أنها كانت مقدمة للأبيات وهي: "يا مولانا الذنوب عظيمة وأعظمُ منها عفوك، والدماء حرام ما لم يُحلَّلها سخطك، وقد أحسنتُ وأسأتُ وما ظلمتُ إلَّا نفسي، وسوء عملي أوبقني"، كما ينص عليها ابن الأثير. إنَّ ابن الأثير لم يذكر سوى خمسة أبياتٍ من القصيدة، ثم أن أبا ركة لم يكن لديه الوقت والظرف ليكتب هذه القصيدة ويرسلها إلى الحاكم المصري مع رسالة نثر، وفضلاً عن ذلك إيراد ابن الأبار لجواب المنصور بن أبي عامر على هذه القصيدة وإشارته للفرار الذي اقترفه ابن عبد العزيز ولم يلجأ إليه أبو ركة، وقد ذكرته في المتن في آخر الكلام على عبد الله بن عبد العزيز، وابن الأبار أندلسي وهو أقرب إلى المصادر الأندلسية الموثوق بها من ابن الأثير وأقرب إلى أحداث الأندلس زماناً، ولذلك كله رجحتُ رواية ابن الأبار وأهملتُ رواية ابن الأثير، ولم أجعل ابن ركة من بين الأندلسيين الذين رثوا أنفسهم شعراً من أصحاب السلطان.

فررتُ فلم يُغنِ الفرارُ، ومَنْ يَكُنْ
ووالله ما كان الفرارُ لِحالَةٍ
ولو أني وُفِّقْتُ للرشدِ لم يَكُنْ
مع الله لا يُعْجزُهُ في الأرضِ هاربُ
سوى حذر الموت الذي أنا راهبُ
ولكنْ أَمْرُ الله لا بَدْءُ غالبُ

ويصفُ في القسم الثاني من القصيدة حاله وقد اقتيدَ إلى المنصور، ووقعَ في قبضته،
وهنا لا بدُّ من أن يكون خبر الموت حقيقةً لاشكَّ في وقوعها، خاصةً وقد أجمعَ كل الناس
على أن المنصور قاتله لا محالة، وذلك نتيجة طبيعية لمثل هذه الحالات:

وقد قاذني جرًّا إليك يرُمُّني
وأجمعَ كلُّ الناس أُنكَّ قاتلي
وما هو غير الانتقام فتشتفي
كما اجترَّ مَيْتًا في رُحى الحربِ سالبُ
وربَّتَ ظنُّ رُبُّهُ غيرُ كاذبٍ
وتركك منه واجباً غير واجبٍ

ولا يفوته، شأنه في ذلك شأن مَنْ في مثل حاله، أن يطلبَ العفو تشبُّثاً منه ولو بأملٍ
كاذب، طلباً مشفوعاً بكيلٍ من المديح الذي هو في نفسه أكذبُ من هذا الأمل، وجعلَ
ذلك في القسم الثالث من القصيدة فكان أطول الأقسام لأهميته لديه:

ولا فَعَفَوْ يَرْضِي اللهُ فِعْأَهُ
ولا نفسَ إلاّ دون نفسك، فليكنْ
فما خابَ مِنْ جدواك -مُدْ كُنْتَ- سائلُ
وقد منحتُ كَفَّاكَ ما يُعْجزُ الوري
وإنْ حُمَّ تأخيرَ لنفسي فليكنْ
فما زالَ سَبَّاقاً إلى كلِّ خَصْلَةٍ
فلا انفكَّ لي مولى ألوذ بعِزُّهُ
ويجزيكُ منه فوقَ ما أنتَ طالبُ
على قدرها قدرُ الذي أنتَ واهِبُ
ولا رُدُّ دونَ المُبتَغى عنك راغِبُ
وعمَّتْ عمومَ الغيثِ منك المواهبُ
لِمُتْلِفِها من حاجبِ الملكِ حاجِبُ
يسيرُ بها في الأرضِ ماشٍ وراكِبُ
فيصرفُ عني الخطبَ والدهرُ عاتبُ

وثاني القصيدتين قصيدته التي خاطبَ فيها المظفر عبد الملك ابن المنصور طالباً شفاعته لدى أبيه، وفيها يأسٌ شديدٌ من البقاء حياً، واستشعارٌ بالموت وهو يُشخّنه ويُحيط به من كل جانب، وقد أكد ذلك بقوة في ثلاث عبارات، ففي البيت الثاني "أُخِثُّهُ المَنُون"، وفي البيت الخامس "هو الدفين"، وفي البيت السادس "الموتُ لي مستبين"، أما البيت الأول فلا بدّ من أن يكون من حصة المستشفّع به وحده:

ألا أيها الحاجب المُرْتَجَى	وأكرم مَنْ كان أو مَنْ يكونُ
دعوتُكَ دعوة مُستصرخٍ	أحاطتْ به وأُخِثُّهُ المَنُونُ
فإن لم تُغثني فَمَنْ ذا الذي	يلوذُ به الخائفُ المُستكينُ؟
جمعتَ النقي والعلى والنهي	فمالٌ مُذالٌ وعِرضٌ مَصُونُ
وتفريجُ غَمٍّ عَنْ حَائِنٍ	يعودُ به الحيّ وهو الدفينُ
فقلْ لي: لَعاً مِنْ عِثَارِ لِهْ	أُناديكَ والموتُ لي مُستبينُ
وإنْ جَلَّ ذَنِي فَأَنْتَ الْجَلِيلُ	وهلْ لَكَ فِيمَنْ عَلَيْهَا قَرِينُ؟

والقصيدتان تطفحان بمعاني اليأس من الحياة ورناءٍ للنفس بقوةٍ ومرارةٍ شديدين. ومن حسن حظّ عبد الله بن عبد العزيز أن أبطأ المنصور في تنفيذ عقوبة الموت في حقّه، أو نسيه، فبقيَ في حبسه في المطبق حتى مات المنصور، ولما ولي بعده ابنه المظفر بن عبد الملك الحجابة لهشام، "أطلقه، واستحلّه لأبيه، وخلع عليه وولّاه الوزارة وخُصَّ به، فلم تطلْ حياته، وتوفي غازياً مع عبد الملك غزاته الأولى سنة ثلاث وتسعين بمدينة لاردة"^(١)، وكان "أحد رجالات المروانية، عقلاً وشهامةً وأدباً وغزارةً عِلْمٍ وإمتاعٍ حديثٍ وطيبٍ مُجالسةً"^(٢).

(١) الحلة السيرة: ٢١٩/١-٢٢٠.

(٢) الحلة السيرة: ٢١٧/١.

وصفَ ابن الأبار جانباً من يوم القبض على عبد الله بن عبد العزيز، فقال: (لَمَّا أَسْلَمَهُ برمند ملكُ الجلالقة مُضطراً إلى ثقات المنصور وطِيفَ به، كَانَ قُدَامَهُ مَنْ يُنَادِي: "هذا عبد الله بن عبد العزيز، المُفَارِقُ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، النَّازِعُ إِلَى عَدُوِّهِمْ، الْمُظَاهِرُ لَهُ عَلَيْهِمْ !"، فَكَانَ هُوَ يَرُدُّ عَلَيْهِ وَيَقُولُ: " كَذِبْتَ! بَلْ نَفْسٌ خَافَتْ فَفَرَّتْ تَبْغِي الْأَمْنَ مِنْ غَيْرِ شِرْكٍ وَلَا رَدَّةً ")^(١).

٦- عبد الملك الجزيري يرثي نفسه

هو أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري الخولاني. كان واحداً من وزراء الدولة العامرية، وشاعراً مبرزاً من شعرائها وأحد المعدودين من كتّابها. كان المنصور بن أبي عامر يُعجبُ بشعره، حتى أنه " أنهضه يومئذٍ للشرطة "^(٢) بعد استحسانه لأبياتٍ قالها، ثم ولّاه ديوان (وزارة) الإنشاء، وكان قد " سَجَّهَ فِي مُطَبَّقِ الزَاهِرَةِ مَدَّةً، فَاسْتَعْطَفَهُ مِنَ الرِّسَائِلِ وَالْأَشْعَارِ بِمَا أَثْمَرَ تَسْرِيجِهِ... فَسُرَّ الْمَنْصُورُ بِذَلِكَ، وَأَعَادَهُ إِلَى حَالِهِ، وَأَطْلَقَ لَهُ مَا اعْتَقَلَ مِنْ مَالِهِ "^(٣).

وبقي أبو مروان الجزيري في الوزارة إلى عهد ابنه المظفر، ويبدو أنَّ الأيامَ عبستُ في وجهه لهذا العهد، إذ تورَّطَ في مؤامرةٍ ضدَّ عيسى بن القطاع وهو أكبر وزراء المظفر مع فتاه الصقلي طرفة، فغضبَ عليه المظفر واعتقله، مرّةً أخرى، في برجٍ عالٍ بطرطوشة^(٤)، ولكنه لم يخرج من معتقله هذه المرّة إلاّ ميتاً، وكان ذلك في العام ٣٩٤هـ.

قال صاحب المطمح^(٥) يصفُ معتقله: "... فَحُطُّ عَنْ الرُّتْبِ، وَحُمِلَ إِلَى طَرطُوشَةٍ عَلَى الْقَتَبِ، فَبَقِيَ هُنَاكَ مُعْتَقِلاً فِي بُرْجٍ مِنْ أَبْرَاجِهَا نَائِي الْمُنْتَهَى، كَأَنَّمَا يُنَاجِي السُّهَاءَ، قَدْ

(١) الحلة السيرة: ١/ ٢٢٠.

(٢) المغرب في حلى المغرب: ١/ ٣٢٢.

(٣) إعتاب الكتاب: ص ١٩٦.

(٤) وهم الدكتور حسين مؤنس فذكر أن المظفر اعتقلَ أبا مروان الجزيري في "نفس المطبق الذي مات فيه جعفر المصحفي"، أنظر الحلة السيرة: ١/ ٢٦٦، الهامش ذا الرقم ٣.

(٥) ص ١٧٧-٨.

بعدَ ساكنه عن الأنيس فَعُدَّ من النجم بمنزلة الجليس، تمرَّ الطيور دونه ولا تجوزه، ويُرى منه الثرى، ولا يكاد يحوزه، فبقيَ فيه دهرًا لا يرتقي إليه راق، ولا يرجى لبثه راق، إلى أن أُخرجَ منه إلى ثراه واستراح مما عراه، فمن بديع ما قاله، قوله يصف المعقل الذي اعتُقل:

يأوي إليه كلُّ أعور ناعٍ وتهبُّ فيه كلُّ ريح صرصرٍ
ويكادُ مَنْ يرقى إليه مرةً من عمره يشكو انقطاع الأبهـر^(١)

وقد رثى الجزيري نفسه خلال معتقله في بُرجه العالي، بعد أن بلغَ منه اليأس من النجاة غايته القصوى، حيثُ تحوَّلَ أمرُه من القوة والشدة إلى الضعف وسهولة الانكسار، ومن الصبر إلى اليأس، وقد عدمَ اللقاء بمن يحب أو بأيُّ من الناس، ثم قد جفاه النومُ جُملةً، وما حياته سوى صحيفة نُشرت، فلم يعدْ له رجاءٌ فيها البتَّة:

شحطَ المزارُ فلا مزارَ، ونافرتُ عيني الهجوعَ فلا خيالَ يعترني
أزرى بصبري وهو مشدودُ القوى وألأن عودي وهو صُلبُ المكسرِ
وطوى سروري كُلهُ وتلذذي بالعيشِ طيِّ صحيفةً لم تُنشرِ^(١)

وقال صاحب الذخيرة^(٢) في وصف قتله: "كتبَ عيسى الوزير إلى مفرج العامري وإلى عبد الملك بن مسلمة، وكانا من أعداء ابن الجزيري، وحرَّضهما على إبادته، فأدخلَ عليه في مُطبقه^(٣) قومٌ من السودان وخَنَقوه، وأُشيعَ موته، وأُخرجَ ميتاً بعد أيام، وأسلمَ إلى أهله ولا أثرَ به"، وقال^(٤): "أخبرني خلف بن حسين قال: سألتُ الذي تولَّى قتلَ ابن الجزيري في محبسه فجعلَ يصفُ لي سهولة ما عاناه منه لِقضافته وضعفِ أسره

(١) مطمح الأنفس: ص ١٨٠، ونفع الطيب: ١/ ٥٨٨.

(٢) ٣٣-٣٢/٤.

(٣) هذا وهم لم يتنبَّه المحقق عليه، فالجزيري لم يحبس في المطبق بقرطبة، والصواب ما ذكرناه آنفاً.

(٤) الذخيرة: ٣٣/٤.

ويقول: ما كان الشقيّ إلّا كالفرّوج في يدي، دققتُ رقبتهُ بركبتي فما زاد أنْ نفخَ في وجهي. فعجبتُ من جهل هذا الأسود".

ولاشكَّ في أنَّ حبسه في مكان شاهقٍ لا يكاد يصل إليه أحد كان من أهمِّ الأسباب في عدم تحصيلنا على مجمل ما نظَّمه في هذا الحبس الغريب، ومن ذلك باقي رثائياته لنفسه، فلا يُعقل إلّا يكون قد كتب أكثر مما بلَّغنا، وهو " فارس نثرٍ ونظام " كما وصفه ابن بسام^(١).

٧- مروان الطليق يرثي نفسه

هو أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر، من أمراء بني أمية. لم يتمتع بالحياة كما تمتع بها أمثاله من الأمراء الأندلسيين، إذ "سُجنَ وهو ابن ست عشرة سنة، ومكثَ في السجن ست عشرة سنة، وعاشَ بعدَ إطلاقه ستَّ عشرة سنة، وهذا من نادر الاتفاق. ومات قريباً من سنة أربعمائة"^(٢).

وقد ذكرت المصادر المتوفرة لدينا أن سبب سجنه هو أنه " كان يتعشَّقُ جاريةً، كان أبوه قد ربَّاهَا معه، وذكرها له، ثمَّ بدا له فاستأثَّرَ بها، وأنه اشتدَّتْ غيْرتهُ لذلك، فانتضى سيفاً، وانتَهَزَ فُرْصةً في بعض خَلْوات أبيه معها، فقتلَه، وعُثِرَ على ذلك، فسُجِنَ. وذلك في أيام المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر. ثم أُطْلِقَ بعدَ ذلك فَلَقِبَ الطليقَ لذلك "^(٣).

كان مروان الطليق "أديباً شاعراً مُكثِراً وأكثر شعره في السجن"^(٤)، وهو "في بني أمية كابن المعتز في بني العباس، ملاحَة شعرٍ وحُسن تشبيه"^(٥)، ولاشكَّ في أن السجن

(١) أنظر الذخيرة: ٣٢/٤.

(٢) الحلة السيرة: ٢٢١/١، والمغرب في حلى المغرب: ١٩١/١. وقد رجَّح الدكتور إحسان عباس سنة ٣٩٦ تاريخاً لوفاته (أنظر تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ص ٢٢٤).

(٣) المغرب في حلى المغرب: ١٩١/١. وانظر: بغية الملتبس: ص ٤٦٢، والحلة السيرة: ١-٢٢٠.

(٤) بغية الملتبس: ص ٤٦٢.

(٥) نفسه.

عمق تجربته الشعرية باعتبار المعاناة التي تكبدها فيه، وطول الفسحة التي وفرها له، وهو مما يحتاجه أي مبدع للتفكير والتأمل. والغريب أن المصادر لم تذكر له إلا القليل من أشعاره، مع ما تذكر عنه من الإكثار مع الإجادة في النظم، أما عدم العثور على ديوان يضم شعره مجموعاً، فذلك مما لا يتعجب له مع ما نعرف من ضياع الكثير من الدواوين، فضلاً عن المصادر الأخرى.

ومهما يكن من أمر، فقد وفر لنا ابن الأثير^(١) قطعة من شعره مؤلفة من أربعة أبيات، نظمها وهو في معتقله، ويبدو فيها حكيماً عاقلاً، ذا فلسفة في الحياة والموت، غذّاها بشيء غير قليل من الحزن وذكر الموت والفناء، وهو يبشر الدهر بالبلى والفناء، لأنه هو الذي ناكده وقاده إلى هذا المصير:

الأإن دهرأ هادماً كل ما نبني سيلي كما يئلي، ويفنى كما يفني

أما الحياة فيستحيل على المرء أن يفوز بملذّاتها دون أن يصيبه شيء من مرارتها:
وما الفوز في الدنيا هو الفوز، إنما يفوز الفتى بالربح فيها مع العُبن

وأمام كل نعيم فيها يوجد بؤس، وقد ترتفع درجة هذا البؤس إلى الموت، جزاء ما تجني يد المرء:

يُجازى ببؤسٍ عن لذيذٍ نعيمها ويجني الردى مما غدت كفه تجني

ويلتفت إلى غاية الحزن في النفس الإنسانية، وكأنه يشير إلى نفسه هو، ويقرر أن لا بدّ لهذا الحزن من نهاية حتى وإن كانت النفس يائسة من هذه النهاية:

ولاشك أن الحزن يجري لغاية ولكن نفس المرء سيئة الظن

ويبدو واضحاً أن الأمير الشاعر هنا يعزّي نفسه بالخلاص مما هو فيه، لاسيما وقد سُجن في عهد المنصور بن أبي عامر شديد البطش والبأس والقوة. وتتناغم هذه القطعة

(١) الحلة السراء: ٢٢١/١.

الشعرية مع حالته التي يعيشها بين جدران السجن، وتشي بامتلاء نفسه بالشعور بالموت والانتها، ويبدو أنه نظمها بعد أن أمضى مدةً غير يسيرة في معتقله المظلم.

ولا شك في أن الطليق قد نظم غير قصيدة يرثي بها نفسه قبل أن يُطلق، ولا سيما في الأيام الأخيرة من اعتقاله، واقترابه من سن الاكتهال، ولكننا لم نعثر له على غير ما ذكرنا من ذلك.

٨- أبو عامر بن شهيد يرثي نفسه

هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأندلسي القرطبي، من كبار الأندلسيين أدباً وعلماً. عاش في مرحلتين من مراحل التاريخ الأندلسي المهمة، هما حكم العامرين وحكم ملوك الطوائف، فعاصر ماجريات التاريخ السياسي الهادئ مرةً والمضطرب مراتٍ في قرطبة كلها حتى وفاته، إذ لم يُغادرها إلى مدينة أخرى لفرط ولعه بمدينته، على الرغم مما لقي فيها من مضايقات ومحن، ولا سيما في أيام الفتنة البربرية "الكبرى"، وأسهم شيئاً في الحياة السياسية.

عاش أبو عامر بن شهيد في بيت وزارة ورئاسة، ولم يُستثنَ هو من هذا المنصب السياسي الرفيع، فقد بلغه في عهد عبد الملك المظفر قبل الفتنة في قرطبة وزوال الدولة العامرية، ثم بلغه في عهد المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الأموي، بعدها. وفي غضون هاتين المرحلتين من التاريخ نُكِبَ ابن شهيد وأودع السجن أيام توثقت علاقته بالحموديين، بسبب ما تعرض له من تُهم بالفسق والفساد والفجور، فضلاً عن آرائه في البربر^(١)، وهذه الأخيرة وحدها تكفي الحاكم مسوِّغاً لسفك دمه. فأما الذي اتهمه وسعى به فهم حُسادُهُ، وأما الخليفة الذي نُكِبَهُ واعتقله فهو المعتلي بالله يحيى بن علي بن حمود، الذي بُويعَ بقرطبة سنة ٤١٢هـ.

قال الفتح بن خاقان^(٢) في أمر اعتقاله: "ودبت إليه أيام العلويين عقارب، برئت بها من أباعد وأقارب، واجهته بها صرف قطوب، وانبرت إليه منها خطوب، كبا لها جنبه عن

(١) أنظر ديوانه: ص ٣١.

(٢) مطمح الأنفس: ص ١٩٨.

المضجع، وبقي بها يأرق ولا يهجع، إلى أن علقته من الاعتقال حباله، وعقلته في عقالٍ
أذهب ماله، فأقام مرتهنا، ولقي وهنا".

في الحبس شعر أبو عامر بن شهيد بما شعر به أقرانه ممن ذاقوا مرارة الاعتقال، فهو
لم يستبعد أي عقوبة محتملة، بما في ذلك الموت إما في السجن أو إعداماً على يد الحاكم،
ولم يفتنه أن يسجل شعوره هذا في صفحة من صفحات شعره، إذ كتب قصيدته الدالية
التي بعثها إلى المعتلي يعتذر منه ويستعطفه، ولكنه يبدأها في وصف حاله في معتقله، ولعله
فعل ذلك من أجل أن يستدر عطفه، فهاهو في موضع قريب من الهوان، بعيد عن مسرح
حياته، أصبح مجيداً للشكوى لفرط ما به من الحزن، دفعه إلى هذا المصير عدوٌ حاسدٌ
لأمثاله من أبناء الكرام، مع أن ما صدر منه لا يتعدى المزاح، فطوّقت عظام الأمور
صدره، على أن غيره متنعم بمباهج الملك:

قريبٌ بمحتلّ الهوان بعيدٌ	يجودٌ ويشكو حُزنُهُ فيجيدُ
نعى ضرةً عند الإمام فنالهُ	عدوٌ لأبناء الكرام حَسودُ
وما ضرةٌ إلا مُزاحٌ ورقّةٌ	تنته سَفِيّةُ الذكر وهو رشيدُ
جنى ما جنى في قبة الملك غيره	وطوّق منه بالعظيمة جيّد ^(١)

وليس لديه غير الشعر يضمّنه معاني الحب والغرام فيطير بين الناس الذين
يستحسنونه لحسن معانيه عندهم فيكون ذلك مدعاةً لنظم المزيد منه، دون أن يكون نابعاً
من تجربة شخصية، وليس له أساس من الواقع، ولذلك فالشاعر سعيدٌ بشعره الماجن
على وجه الحقيقة لشهرته وذيوعه، شقي بما يتضمّنه من المعاني على وجه المجاز والتخيّل،
وهو، على أية حال، ليس أول العشاق العقلاء الذين أزرّت أعينُ الحسانِ وخذودُهُنَّ
بعقولهم فهاموا بها، ونظم الشعراء منهم في ذلك الأشعار، فهل ينبغي معاقبة جميع
أولئك؟، وإلا فلماذا أنا هو المُعاقَبُ من أجل ذلك؟.

(١) ديوانه: ص ٦٣.

بعد هذه المقدمة التي يبدو فيها مُخبراً عن حاله، ومفتداً مزاعم حُسادِهِ، يعودُ فيعلُّ ما حلَّ به مما ذكره في مطلع القصيدة، فهو يعيش تحت وطأة الفراق لأهله وأحبائه وما اعتادَ في حياته، وما يُصاحب ذلك من شجورٍ واشتياقٍ، فضلاً عن الذلِّ والهوان:

فراقٌ وشجورٌ واشتياقٌ وذِلَّةٌ وجَبَّارٌ حَفَّاطٌ عليَّ عَتِيدٌ

ويُخبرُ أهله وذويه وأصحابه بأن ما يعيشُ فيه وحيداً، منذ فارقهم، إنما هو مكان منعزل سَمَاهُ "دار الظالمين"، وهو المعتقل، وكأنه يستنجد بهم، أو يودّعهم وكأن لا أمل في اللقاء ثانية وقد حلَّ في هذه الدار، لاسيما وأن مواصفاتها لا تُشي بالنجاة، فكيف يمكنُ له أن ينجو في دارٍ يقومُ ويقعد فيها على جمر الموت، فما تحتويه في جنباتها من أفاعٍ تروح وتجيء، ويُسمع لحركتها على الأرض ترجيعٌ كترجيع الصدى هو كافٍ للموت في أية لحظة:

فَمَنْ مُبْلَغُ الْفَتْيَانِ أَنْسَى بَعْدَهُمْ مُقِيمٌ بِدَارِ الظَّالِمِينَ وَحِيدٌ
مُقِيمٌ بِدَارٍ سَاكِنُهَا مِنَ الْأَذَى قِيَامٌ عَلَى جَمْرِ الْحِمَامِ قُعُودٌ
وَيُسْمَعُ لِلْحِجَّانِ فِي جَنْبَاتِهَا بَسِيطٌ كَتَرْجِيعِ الصَّدَى وَنَشِيدٌ

وفي قوله "فمن مبلغ الفتیان" تذكيرٌ بقول عبید الله بن الحر الجعفي عندما سجنه مصعب بن الزبير في جملة أبيات:

فَمَنْ مُبْلَغُ الْفَتْيَانِ أَنَّ أَخَاهُمْ أَتَى دَوْنَهُ بَابٌ شَدِيدٌ وَحَاجِيَةٌ^(١)

ولعلَّه يُلَمِّحُ هنا إلى معنى بيته:

وما كان ذا من عظم جرمٍ جرمته ولكن سعى الساعي بما هو كاذبة

وزادَ في أن استخدمَ الإيقاع الشعري نفسه، ليكون في ذلك مقارنة مساواة بين الحالين والموقفين.

(١) الكامل في التاريخ (الشياني): ٨١/٤.

وقد استخدم ابن شهيد العبارة نفسها وهو يرثي نفسه في أيامه الأخيرة، أو يلفظ أنفاسه الأخيرة، بل استعار الشطر الأول كله من بيت الجعفي المذكور:

فَمَنْ مَبْلَغُ الْفَتِيَانِ أَنْ أَحَاهُمْ أَخَوْ فَتَكَةَ شَنْعَاءَ مَا كَانَ شِكْلُهَا
عليكم سلامٌ من فتى عَضُّهُ الردى ولم ينسَ عِيناً أَثْبَتَ فِيهِ نَبْلَهَا
يُبِينُ وَكَفُّ الْمَوْتِ يَخْلَعُ نَفْسَهُ وداخلُهَا حُبٌّ يَهْوُونَ تَكْلَهَا^(١)

ويستمر ابن شهيد في رسم صورة هذه الدار-السجن وما تُوجيه له أحياناً، فإنه ما إن يسمع اهتزاز باب السجن حتى يتبادر إلى ذهنه أن السجن سيقوده إلى الإعدام على يد الخليفة الذي ينعته بالإمام، وليس إلى العفو عنه ونوله الحرية، فالإمام ساخط عليه سخطاً يلزمه الشعور به ملازمة القيد للسجين، ويبدو أنه يائس من عفو:

وما اهتزَّ بابُ السجنِ إِلَّا تَفْطَرْتُ قلوبٌ لنا خوفَ الردى وكبودُ
ولستُ بذى قَيدٍ يَرُّ وإِنَّمَا على اللَّحْظِ من سخطِ الإمامِ قيودُ

وينتقل بإحساسه المُرهِف إلى الحَمَامِ الصادح، فيتناهى إليه وكأنه نوحٌ وبكاء على حبيبٍ مفارق، ويُخاطبه محاولاً أن يعقد مقارنةً بين حاله هو وحال هذا الحَمَامِ، فيصف هذا الحبيب بأن سلطاناً شديداً هو الذي منعه من لقاء محبه، كما أن سلطاناً شديداً منع الشاعر من لقاء مَنْ يحب، وكلاهما وحيدان، ولذلك فقد أخذ كلُّ منهما يبكي الآخر، وهو مُتَقَدِّ شَوْقاً لِمَنْ يُحِبُّ:

وَقَلْتُ لِصَدَّاحِ الْحَمَامِ وَقَدْ بَكَى على القصرِ إلفاً والدموعُ تَجُودُ
أَلَا أَيُّهَا الْبَاكِي عَلَى مَنْ تُحِبُّهُ كلانا مُعْنَى بِالْخِلَاءِ فَرِيدُ
وَهَلْ أَنْتَ دَانٍ مِنْ مُحَبٍّ نَأَى بِهِ عن الإلفِ سُلْطَانٌ عَلَيْهِ شَدِيدُ

(١) ديوانه: ص ١١٠.

فصْفَقَ من ريشِ الجناحين واقفاً على القرب حَتَّى ما عليه مزيدُ
وما زال يبكيه وأبكيه جاهداً وللشوقِ من دون الضلوعِ وقودُ

وفي قوله عن الحمامِ " قد بكى على القصر "، ولم يقل " على السجن " إشارة إلى أن المعتقلَ كان جزءاً من أبنية قصر الخليفة، مُلحقاً به، وربما يكون في ذلك معنى التشديد في العقوبة، لكون المُعاقَب (بفتح القاف) قريباً من يد المُعاقَب (بكسرها) تحت نظره.

وبهذا يكون ابن شهيد مثل غيره من شعراء الأندلس الذين يُشركون عناصر الطبيعة المتحركة في رثائهم لأنفسهم، بل إنّه تجاوزَ ذلك إلى إشراك العناصر الجامدة وتحريكها في هذا الرثاء، إذ إنه أشركَ جُدران السجن وبابه الحديديَّ وشَحْصَها، فصارت الجدران تبكي من طول ما أخذه الشجو مع الحمام، كما أخذَ مصراعا الباب الحديديَّان يجهشان بالبكاء:

إلى أن بكى الجُدران من طولِ شجوننا وأجهشَ بابُ جانباهُ حديدُ

إنَّ تشخيص العناصر الجامدة من قبل ابن شهيد في رثائه لنفسه، على هذا النحو، يؤكّد جسامته ما بلغه من الخوف والحزن اليأس.

ومن هنا ينتقل الشاعر إلى مدح الخليفة:

أطاعتُ أميرَ المؤمنينَ كَتائبُ تُصَرِّفُ في الأموالِ كيفَ تُريدُ
فَلِلشَّمْسِ عنها بالنهارِ تأخُّرُ ولِلبدرِ عنها بالظلامِ صُدودُ

ولم يتجاوزْ مدحُه هذين البيتين حتى يعود للحديث عن نفسه، ليتخلَّصَ منه إلى الممدوح مرةً أخرى بشكلٍ غير مباشر عبرَ حِكْمَةٍ يُبديها، وحوارٍ يصطنعُه لِيُحسنَ منه التخلُّص، وليؤكِّدَ جهْلَه بمصيره، وهو مما يُفضي به إلى اليأس:

ألا إنها الأيامُ تلعبُ بالفتى تُحوسُّ تَهَادَى تارةً وسُعودُ

وما كنتُ ذا أيدٍ فأذعنُ ذا قوًى
وراضتُ صِيعابي سطوةً علويةً
تقولُ التي من كفِّها كفٌّ مركبي
فقلتُ لها: أمري إلى مَنْ سَمَتُ بِهِ
إلى المعتلي عاليتُ همِّي طالباً
همامٌ أراه جُوده سُبُلَ العلا
نفى الدَّمَّ عنه أنْ طيَّ بروده
تُؤدِّي إلينا أنه سبِطُ أحمدٍ
من الدهر مُبدٍ صَرفُهُ ومُعيدُ
لها بارقٌ نحو الندى ورُعودُ
أقربُك دانٍ أم نَواكٍ بعيدُ؟
إلى المجدِ آباءٌ له وجدودُ
لِكرِّته إنَّ الكريمَ يَعُودُ
وعَلَمُهُ الإحسانُ كيفَ يَسُودُ
عفافٌ على سنِّ الشبابِ وجودُ
مَخايلُ فيه لِلهُدى وشُهودُ

ثمَّ يُوجِّهُ الكلامَ إلى الممدوح مباشرةً يستعطفه، وما يهْمُنَا من كلامه هذا بيتان، يعبرُ في الأول منهما عن انهياره ونفاد قُدرته على الصبر، وأنَّ مصائبه قد تجاوزت العدَّ، ويعبرُ في ثانيهما عن حاجته القصوى لهواء الحرية والخلاص، متسائلاً عما إذا سيتحقَّق شيء من ذلك على يديه أم لا:

حنانيك إنَّ الماء قد بلغَ الزُّبى
ظمِئتُ إلى صافي الهواء وطلَّقِهِ
وأنحتُ رزايا ما هُنَّ عديدُ
فهلْ لي يوماً في رضاكَ ورودُ؟

ويُملهه الحظُّ فيعفو عنه المعتلي ويُخلي سبيله، ليستنشِق الهواء الطلق حتى يرثي نفسه مرةً، بل مرّاتٍ أخرى، عند اعتلاله بالفالج في الأشهر الأخيرة من وفاته في العام ٤٢٥هـ، كما مرَّ بنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

آل عباد يرثون أنفسهم

لفت انتباهي أنَّ بني عباد خلال حُكمهم مرّوا بتجارب تكاد تكون واحدة، وكانَ التاريخ يُعيد نفسه في شخوصهم، فمن يكون مُعاقباً - يكسر القاف - في الأمس يكون

مُعاقباً - يفتحها - اليوم، وهم جميعاً عانوا الحالين جميعاً في حياتهم، باستثناء مؤسس دولتهم القاضي أبي القاسم الذي لم يُعان، بطبيعة الحال، إلا الحال الأولى، إذ لم يسبقه حاكمٌ قبله، فنجا من الحساب والعقاب على ما اقترفه من هناتٍ وأخطاء. وبما أنهم شكّلوا سلسلةً مترابطةً ترابطاً وثيقاً، من هذه الناحية، بل شكّلوا ظاهرةً صاحبها غريبُ الاتفاق، وطريفُ الترتيب، فقد رأيتُ أن أجمعهم تحت عنوانٍ واحد، وفي تسلسلٍ متتابع.

٩- المعتضد بالله يرثي نفسه

هو أبو عمر عباد بن محمد بن إسماعيل اللخمي، صاحب إشبيلية في عهد ملوك الطوائف. كان يقود جيش أبيه القاضي أبي القاسم في قتاله لبني الأفطس وغيرهم، ثم ولي الحكم بعد أبيه، وتسمّى مثله بالحاجب، " واستطاع أن يفرض نفسه كطاغية يُطاع ويُحترم عن خوفٍ على المستوى الداخلي والخارجي " ^(١). وشأنه شأن غيره من الملوك والحكام " كانت سياسته تستهدف إبادة كل من كان خطراً على سياسته " ^(٢).

عندما غضب القاضي أبو القاسم على ابنه عباد هذا ضاقت الأرض به بما رحبت، ولم يعد يرى للحياة طعماً أو مسوّغاً، وهو قد عرف، لاشك، من قبل أن الملوك لا يصدّهم عن قتل أبنائهم إذا أذنبوا أيُّ شيء، لاسيما إذا تعلّق الأمر بالحكم والسلطة، ليس هو الذي قتل ابنه إسماعيل بيديه لأنه رفض قيادة الجيش الإشبيلي في الهجوم على قرطبة سنة ٤٥٠ هـ ١؟، ولم يجد، آنذاك، غير الشعر يرقق به مشاعر أبيه، فأرسل إليه بائيته ^(٣) التي بدأها بالمفارقة بين محض طاعته لأبيه وعدم حصوله على غير اللوم والتقريع ثواباً على تلك الطاعة:

أطعُكَ في سرِّي وجهرِي جاهداً
فلمْ يَكْ لي إلا الملام ثوابُ

(١) التاريخ السياسي والاجتماعي لأشبيلية في عهد الطوائف: ص ٥٦.

(٢) نفسه.

(٣) الحلة السيرة: ٤٦/٢-٧.

وأعملتُ جهدي في رضاك مشمراً
ومن دون أن أفضى إليه حجابُ

وعندما لم ينجح في استحصال رضا أبيه انطفأ وهجُ الدنيا في عينيه، ولم يعد مقامه فيها سائغاً، ثم فقد صبره، فوق ذلك، على هذه الحال التي لم تحمل إليه غير قسوته ومحاسبته له، ففرَّ منه فوزاً بالنجاة مما كان يخشاة من مفارقة الحياة على يديه:

ولما كَبَا جَدِّي إليكَ ولم يسُغْ
لنفسي على سوء المقام شرابُ
وقلَّ اصطباري حينَ لا ليَ عندكم
مِن العَطْفِ إلَّا قسوةٌ وعتابُ

ولم يكنْ في شيءٍ من قدراته الشخصية أن يعصي لأبيه أمر المثل أمامه، فأسرعَ إلى إجابته كأنه محمولٌ على جناح طائر العقاب:

فررتُ بنفسي أبتغي فرجةً لها
على أنْ حلَو العيش دونك صابُ
وما هزني إلَّا رسولك داعياً
فقلتُ: أميرُ المؤمنين مُجابُ
فجئتُ أغدُ السيرَ حتَّى كأنما
يطيرُ بسرجي في الفلاة عَقابُ

وقد كانَ يحسبُ أنْ فراره من أبيه هو آخر عهده ببقائه، وما ذاك إلَّا الموتُ في ذاته، فلا حياة له إلَّا بالقرب من أبيه راضياً عنه، إذ هو غير قادرٍ في الواقع، على الإفلات من قبضته مهما بالغَ في التخفي:

وما كنتُ بعدَ البينِ إلَّا موطناً
بعزمي على أنْ لا يكونَ إيابُ
ولكنك الدنيا عليَّ حبيبةٌ
فما عنك لي إلَّا إليكَ ذهابُ

ويمضي عباد، المعتضد بالله فيما بعد، في وصف حاله المتأرجحة بين اليأس من الحياة والتوسل بأبيه والمبالغة في امتداحه من أجل الفوز بها، فيتحقِّقُ له ذلك مِن بعد، ويمتدُّ به العمر، ويقوم بالحكم بعد موت أبيه.

ومِنَ طَرِيفٍ مَا رُوِيَ فِي عَن قِضَاءِ أَيَّامِ حُكْمِهِ، أَنَّ اسْتَدْعَى الصَّقْلِيَّ الْمُغْنِيَّ، وَكَانَ
قَدْ قَدَّمَ عَهْدَهُ بِهِ، فَأَجْلَسَهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَغْنِيَ فَعَنَّا خَمْسَةَ أَبَاتٍ أَوَّلُهَا:

نُطْوِي اللَّيَالِي عِلْمًا أَنْ سَتُطْوِينَا فَشَغَشَعِيهَا بِمَاءِ الْمُزْنِ وَاسْقِينَا

فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ تَطَيَّرَ وَاسْتَشْعَرَ زَوَالَ مُلْكِهِ وَانْقِرَاضَ أَيَّامِهِ، فَمَاتَ بَعْدَ خَمْسَةِ أَيَّامٍ
وَهُوَ عَدَدُ الْأَبْيَاتِ الْخَمْسَةِ الَّتِي غَنَّا عَنْهَا الْغْنِيَّ (١).

١٠- الْمُعْتَمِدُ بْنُ عَبَادٍ يَرِثِي نَفْسَهُ

هُوَ أَبُو الْقَاسِمِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبَادٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ إِسْمَاعِيلَ اللَّخْمِيَّ. تَوَلَّى الْمُعْتَمِدُ الْحُكْمَ
بَعْدَ أَبِيهِ الْمُعْتَصِدِ عِنْدَمَا تَوَفَّى فِي الْعَامِ ٤٦١هـ، وَقَدْ عَرَّكَ الْحَيَاةَ السِّيَاسِيَّةَ وَالْعَسْكَرِيَّةَ
وَالْأَدَبِيَّةَ يَغْمُقُ فَكَانَ أَدِيبًا وَشَاعِرًا مَبْرُزًا، قَالَ ابْنُ بَسَّامٍ (٢) فِي حَقِّهِ " وَكَانَ مَعَ اشْتِغَالِهِ
بِالْحَرْبِ، وَسَعَةِ مَجَالِهِ بَيْنَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ، وَعَلَى أَنَّ أَبَاهُ عَبَادًا مَا انْفَكَّ يُدِيرُ عَلَيْهِ
الرَّحَى، وَيَقْرَعُ إِلَيْهِ كُلَّمَا قَرَعَتْ عَصَا عَصَا، حَتَّى صَارَ أَسْوَةً لِنَجُومِ لَيْلِهَا، وَجَلَسًا لِمَتُونِ
خَيْلِهَا... فَقَدْ كَانَ مَتَمَسِّكًا مِنَ الْأَدَبِ بِسَبَبِ، وَضَارِبًا فِي الْعِلْمِ بِسَهْمٍ، وَلَهُ شَعْرٌ كَمَا
انْشَقَّ الْكَمَامُ عَنِ الزَّهْرِ، لَوْ صَدَّرَ مِثْلُهُ عَمَّنْ جَعَلَ الشَّعْرَ صِنَاعَةً، وَاتَّخَذَهُ يَصَاعَةً، لَكَانَ
رَائِعًا مَعْجَبًا، وَنَادِرًا مُسْتَعْرَبًا، فَمَا ظَنُّكَ بِرَجُلٍ لَا يَجِدُ إِلَّا رَائِيًا، وَلَا يُجِيبُ إِلَّا عَابِثًا، وَهُوَ
مَعَ ذَلِكَ يَرْمِي فِيصِيبُ، وَيَهْمِي فَيَصُوبُ، وَشَعْرُهُ يُوضِحُ مَا شَرَحَ وَيَعْبِرُ عَمَّا ذَكَرَ...
وَالْعَجَبُ مِنَ الْمُعْتَمِدِ أَنَّهُ مَرَى سَحَابَهُ فِي كُلِّتَا حَالَيْهِ فَصَابَ، وَدَعَا خَاطِرَهُ فَأَجَابَ، وَلَا
تَرَاجَعُ لَهُ مِنْ طَبْعٍ، وَلَا بَعْدَ الْخَلْعِ، بَلْ يَوْمُهُ فِي هَذَا الشَّأْنِ دَهْرٌ، وَحَسْبَتْهُ فِي هَذَا الدِّيْوَانِ
عَشْرٌ، فَإِنْ أَجَادَ فَمَا أَوْلَى، وَإِنْ قَصُرَ فَعُذْرُهُ أَوْضَحُ وَأَجْلَى "

وَقَدْ رَأَى الْمُعْتَمِدُ نَفْسَهُ بِشَعْرِهِ فِي مَرَحَلَتَيْنِ مُتَبَاعِدَتَيْنِ مِنْ مَرَاحِلِ حَيَاتِهِ، الْأُولَى فِي
حَيَاةِ أَبِيهِ الْمُعْتَصِدِ مَمْلُوكًا عِنْدَمَا كَانَ قَائِدًا لِجِيُوشِهِ، ثُمَّ رَأَى نَفْسَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مُلْكًا عِنْدَ

(١) أَنْظِرِ الْحُلَّةَ السَّيْرَاءَ: ٥٣/٢-٥٤.

(٢) الذَّخِيرَةُ: ٢١-٢٢.

زوال ملكه على يد المرابطين، أما الرثاء الأول فكانَ عندما هُزِمَ وهو يقودُ جيشَ أبيه للاستيلاء على مالقة وأُفْلِتَ من يديه زمامها، فما كانَ من أبيه إلا أن غضبَ عليه، ففرَّ المعتمد، ولم يكنْ قد تسمَّى بهذا اللقب آنذاك، ولجأ إلى رُنْدَة، وهناك أحسَّ بالخطر الشديد من أبيه المعتضد، وغاية ما بلغه المعتمد من هذا الإحساس هو قتل أبيه له، وما الذي يمنعه من ذلك وقد كان قد قتلَ أخاه إسماعيل من قبلُ؟، بل لقد حاول أن ينكَلَّ به هو من قبلُ عندما عرفَ مقدارَ ما بلغه حبُّ اعتماد الرميكية في قلب ابنه " أول ما اشتراها، فتوجَّه إليه عازماً على عقابه ومعتقداً التكنيلَ به، والمعتمد إذ ذاك يشلبُ عاملُ له، وقد ولدتُ منه أكبر أولاده سراج الدولة عبّاداً. فأمرها أن تتلقاه به لتعطفه رؤيته عليها، فكان ذلك كذلك، ورقَّ له المعتضدُ وفترَ عزمه على الإيقاع به" ^(١).

عندما تيقنَ بالموتِ على يد أبيه رثى المعتمدُ نفسه رثاءً مزججه، كما فعل غيره، بالمغالة في المديح، فما بعد فقدَ الروح من فقد، في رائية طويلة بلغت أبياتها أربعين بيتاً ^(٢)، ومن اللافت للقارئ الناقد أنه لم يبدأها بمديح أبيه، بل بالحديث عما يؤرِّقه من التفكير بالموت الذي يتتطره على يده، ولم يشرْ إليه إلا بعد البيت السادس من القصيدة، وهذا ما دلَّ على بلوغه من اليأس أقصاه، وعلى ضعف أمله في النجاة، على الرغم من كثرة أبيات المديح في أبيه، ولذلك جعلَ من الاعتذار قضية ثانية، ولذلك فهو تأخيرٌ بسببِ نفسي غير متعمد، وإلا ما كانَ عليه تأخير ذكر أبيه على ذكر نفسه في موضع الاعتذار وهو الأمير بن الأمير حفيد الأمير، وهو أعرفُ من سواء بأصول المخاطبة في حضرة الملوك. ثم هو يتذبذبُ بين ذكر أبيه وبين مواساته لنفسه على غير نسق، على مدى القصيدة، ولهذا دلالة واضحة على مدى اضطرابه النفسي وخوفه الشديد.

ومهما يكنُ من أمر، فإنَّ المعتمد بدأ رائيته بمخاطبة نفسه محاولاً تهدئتها، وتخفيف حدة الخوف من عقوبة الموت على يد أبيه المعتضد:

(١) الخلة السيرة: ٧٠-٧١.

(٢) أنظر ديوانه: ص ٣٦-٤٠.

سَكُنْ فؤادَكَ لا تذهبْ بِكَ الْفِكْرُ ماذا يُعيدُ عَلَيْكَ الْبَثُ وَالْحَدْرُ ؟
وازجرْ جفونَكَ، لا ترضِ الْبِكَاءَ لها واصبرْ، فقد كنتَ عِنْدَ الْخَطْبِ تصطبِرُ

فهو يُحاولُ أَنْ يكونَ شجاعاً وأنْ يُبعدَ عنْ بَالِهَ فِكْرَةَ الموتِ، ويدعو جفونَه إلى أَنْ
تكفَّ عن الْبِكَاءِ استناداً إلى ورودِ تلكِ الْفِكْرَةِ، وإلى التَّحَلِّيِ بالصَّبْرِ، ولكِنَّ سرعانَ ما
يُقرُّ بِتَوَقُّعِ الموتِ، في الْبَيْتِ التَّالِيِ، واستسلامه له، مستخدماً كَلِمَةَ "القدر" للتعبيرِ عن
الموتِ، وكَلِمَةَ "الوطر" للتعبيرِ عن الْحَيَاةِ:
وإنْ يَكُنْ قَدَرٌ قد عاقَ عن وَطَرٍ فلا مَرَدٌ لِمَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ

فإذا انتقلَ إلى مَدِيحِ أبيه جعلَ مِنْهُ أَسَدًا وفارساً يفتَرِسُ الْفِرْسَانَ، ويطلبُ مِنْهُ، بل
يَتَمَنَّى ألا يَكُونَ هو أيضاً فَرِيسَةً له، وألاً يبطشَ به كما يبطشُ بِالْأبطالِ، فهو ابْنُه الَّذِي
هو بِمِثَابَةِ نابه وظفره، وصَوْنُهُ أَوْلَى مِنْ إِهْلَاكِهِ:

يا ضيغماً يَقتُلُ الْفِرْسَانَ مَفتَرساً لا تُوهِنَنِي، فَإِنِّي النَّابُ وَالظُّفْرُ
وفارساً تحذرُ الْأبطالُ صولته صُنْ عَبْدَكَ الْقَيْنُ فهو الصَّارِمُ الذَّكْرُ

بلْ إنه وصلَ إلى أعلى مَراحِلِ الْيَأْسِ مِنْ الْحَيَاةِ الَّتِي هي مَرَحِلَةُ الْجَزَعِ، ويذكرُ
الإِمَارَاتِ على ذَلِكَ، حتَّى لم يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الموتِ إِلَّا بَقِيَّةُ أَمَلٍ بِالْعَفْوِ عَنْهُ:

فَالنَّفْسُ جازِعَةٌ، وَالْعَيْنُ دَامِعَةٌ والصوتُ مَنْخَفِضٌ، وَالطَّرْفُ مَنْكَسِرٌ
وَحُلْتُ لَوْنًا، وما بِالْجِسْمِ مِنْ سَقَمٍ وَثَبْتُ رَأْسًا وَلَمْ يَبْلُغْنِي الْكِبَرُ
وَمُتْ إِلَّا دَمَاءٌ فِي، يُمَسِّكُهُ أَنِّي عَهْدُكَ تَعَفُّو حِينَ تَقْتَدِرُ

ويعادِلُ الْمُعْتَمِدُ بَيْنَ رِضَا أَبِيهِ الَّذِي يَعِيشُ على أَمَلِهِ وَيَسْعَى مِنْ أَجَلِهِ وَبَيْنَ الموتِ،
فإذا أَخْفَقَ سَعْيُهُ وَعَدِمَ رِضاهُ فَجِعَ بِالْموتِ، ولم يَبْقَ لِلْعُمُرِ مِنْ فُسْحَةٍ:

رضاك راحة نفسي لا فُجِعتُ بها فهو العتادُ الذي للدَّهرِ يُدْخِرُ
هو المدامُ التي أسلو بها فإذا عَدِمَتْها عَـبِثَتْ في قلبي الفِكرُ
وإنما أنا ساعٍ في رضاك، فإن أخفقتُ فيه، فلا يُفْسَحُ لي العُمْرُ !

ولكنَّ سعيه يُكَلِّلُ بالنجاح ويفوز بفسحةٍ طويلةٍ من العمر يقفُ فيها من ابنه
الراضي والرشيد موقفَ أبيه منه في موضع التقصير والزلل، كما سيأتي بعد قليل.

وأما الرثاء الثاني لنفسه فقد كان رثاءً ذا جوانبَ مختلفةٍ، مرَّ جانبٌ منها في الفصل
الثاني من هذا الكتاب، وكان جانباً بعيداً عن السياسة غرضاً، وإن كانت السياسةُ له
سبباً، وما يهمنا في هذا الفصل هو دراسة الجانب السياسي في هذا الرثاء الذي كان زوال
المُلك والسلطان هو السبب الرئيس الذي دفعَ المعتمد إلى رثاء نفسه، إذ أنَّ المُلك هو

المعادل الموضوعي للحياة، ليس لدى المعتمد وحده، وإنما لدى جميع الملوك والأمراء
وذوي السلطة في الأندلس، فإذا زال المُلك لم يَعُدْ للحياة أيُّ معنى، ولو أُتِيحَ الانتحار
مادياً أو دينياً لما تأخَّرَ عنه أحدٌ منهم.

تعرَّضَ المعتمد إلى تهديدات خارجية قاهرة اضطرَّ معها إلى الاستعانة بالمرابطين في
المغرب مرتين، حسمت المرة الثانية منهما الوضعَ نهائياً في إشبيلية معقل المعتمد، إذ رأى
المرابطون عدم أهلية المعتمد للحكم، لعدم قدرته على الهيمنة على البلاد، وعدم قدرته
على صدِّ الهجمات الخارجية، والوقوف بوجه تهديدات الفونسو السادس، فاتجهتْ
جيوشهم بإمرة يوسف بن تاشفين، ليسَ إلى نجدة هذه المرة وإنما القضاء على مُلكه
وسلطته، فأفزعتْ إشبيلية، وحاصرته وأجبرته على الاستسلام " وحُمِلَ مقيداً، مع
أهله، على سفينة، وأدخلَ على ابن تاشفين، في مراكش، فأمرَ بإرساله ومَن معه إلى
أغمات، وهي بلدةٌ صغيرة وراء مراكش... وبقي في أغمات إلى أن مات ^(١)، وكان ذلك
في العام ٤٨٨هـ.

(١) الأعلام: ١٨١/٦.

وقد رثى المعتمد نفسه في هذه المرحلة بعددٍ من القصائد، فضلاً عن قصائد الزهد والحكمة التي لم تجد إلى شاعريته طريقاً إلاّ بعد أن امْتَحِنَ وأُذِلَّ على أيدي المرابطين، وبعد أن يئس من حياة الدعة والرفاه، أو من حياة السلطة. وأهمُّ رثائياته لِنَفْسِهِ المتعلقة بسلطانه رائيته^(١) التي مطلعها:

غريبٌ بأرضِ المَغْرِبِينَ أسيرُ سبيكي عليه منبرٌ وسريرُ

وقد بدأ برثاء نفسه منذ المطلع، كما يبدو واضحاً، ويتضح في هذا المطلع موازنته بين الابتعاد عن السلطة وبين الموت موازنةً تعادُل، فهو هنا ليس أكثر من أسير، ولكن منبره وسريره وهما رمز سلطته، مع ذلك، يبيّكانه وكأنه قد غادر الحياة، ثم يبيّكه بعد ذلك السيوفُ والرماح في ساحات المعارك وتندبُهُ، وكذلك الزاهي والزاهر وهما من مُزَيِّنَات قصور إشبيلية، ومرتاديه وعرفُ أزاهيره:

وتندبُهُ البيضُ الصوارمُ والقنا وينهلُ دمعُ بينهنَّ غزيرُ
سبيكيه في زاهيه والزاهر الندى وطلّابه، والعرفُ ثم نكيرُ

ثم يحاول أن يُعزِّي نفسه من خلال تذكُّر التجارب السابقة المُشابهة لِتَجْرِبَتِهِ في الحكم، وفي الحياة، ويردُّ على مَنْ يتعجَّبُ مما حلَّ به وبدولته وشأنه بأنَّ رأيه فاسدٌ، فمتى دام أمرٌ للصالحين في الدهور السابقة؟، إنَّ أمر انقراض دولته أمرٌ مسبوقٌ إليه، فلا عجب مما حلَّ به:

إذا قيلَ في أغماتٍ قد ماتَ جوْدُهُ فما يُرتجى للجُودِ بعدُ نُشورُ
مَضَى زمنٌ والمُلكُ مُستأْنَسٌ بهِ وأصبحَ عنه اليومَ وهو نُفورُ
يرأي من الدهرِ المضلِّلِ فاسدٌ متى صلحت للصالحين دُهورُ؟

ويشبه نفسه بني ماء السماء وهم ملوك الحيرة وما يليها من جهات العراق قبل الإسلام، وينصُّ على الإذلال الذي تعرَّضَ له، وما ذاك بالأمر الهين:

أذلَّ بني ماء السماء زمأنهم ودلَّ بني ماء السماء كثيرُ

ولا ينسى أن يستشعرَ العظمة، وإن فقدتْ محتواها الآن، ولكنه لا يستسهلُ فقْدَها، ولذلك فهو يُشركَ عناصر الطبيعة في رثائه لنفسه، فليسَ مطرُ السماء الغزير إلا دموعها بُكاءً على فقْدِهِ:

فما ماؤها إلا بُكاءٌ عليهم يفيضُ على الأكباد منه بُحورُ

ثمَّ يلجأ إلى ماضيه السعيد، كما فعلَ غيره ممن لهم ماضٍ سعيد في مثل هذا الموقف، فيستذكرُ ما كان من هذا الماضي وما تحصَّلَ فيه من سعادات، ويتلذَّذُ بذكر بعض المواضع والمواقف الأثيرة لديه في حالاتٍ متنوعة مما كان هذا الماضي مشتملاً عليه، ليُخفِّفَ عن نفسه وطأة التفكير بمحنة الزوال من الملك-الحياة، وليكون ذلك تعويضاً، أو بعضَ تعويضٍ عن الحرمان على المستوى النفسي، حتى إنه يُمنِّي نفسه بنوال شيءٍ من تلك السعادات بالرجوع إلى ذلك الماضي مع أنه يعلم أن النجوم أقرب إليه من ذلك:

فيا ليت شعري هل أبيتُ ليلةً	أمامي وخلفي روضةً وغديرُ
بمُنْبَتِ الزيتون موروثِ العلا	تُغْنِي قِيَانٌ أو ترنُّ طيورُ
بزاهرها السامي الذرا جاده الحيا	تُشيرُ الثُّريا نَحْوَنَا وتُشيرُ
ويلحظنا الزاهي وسعدُ سُعودِهِ	غورين والصَّبُّ المَحَبُّ غيورُ
نراه عسيراً أم يسيراً مَنَالُهُ	ألا كلُّ ما شاء الإلهُ يسيرُ !

وفي ختام رثائه لنفسه يرسمُ صورةً مأساوية شديدة القتامة لِخاتمته، حيثُ يُقرِّرُ أن موته الحقيقي كان في إشبيلييه -ويُسمِّيها باسمها البلاغي التشبيهي "جَمْص" - عندما فقدَ

سلطانه، وهناك تبعثر قبره وقبور أهله جميعاً، وقد صدقَ حَدْسُهُ في قضية "تبعثر القبور"، إذ اشتملت أشبيليه على بعض من قبور أهله بينما تفرقت قبور الباقيين منهم في المغرب.

ومن طريف ما روي بشأن زوال مُلكه أنَّ شخصاً " رأى في منامه أنَّ رجلاً صعد منبرَ جامع قرطبة واستقبل الناس يُشدهم:

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا عِيْسَهُمْ فِي دُرَى مَجْدِهِمْ حِينَ بَسَقَ
سَكَتَ الدَّهْرُ زَمَاناً عَنْهُمْ ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دَمَآ حِينَ نَطَقَ

فلما سمع المعتمد ذلك أيقنَ أنه نَعِيَ لِمُلْكِهِ، وإعلامٌ بما انتثرَ مِنْ سِلْكِهِ" ^(١). أما بشأن موته فقد ذكر المقرئ ^(٢) (من الغريب النادر أنه يُودِي في جنازته " الصلاة على الغريب " بعدَ عَظَمِ سُلْطَانِهِ، وسعة أوطانه، وكثرة صقالبته وحُبشانه، وعَظَمِ أمره وشانه، فتباركَ مَنْ لَهُ العِزَّةُ والبقاء والدوام ").

١١- الراضي بن المعتمد يرثي نفسه

هو أبو خالد يزيد بن محمد بن عباد، أصغر أولاد المعتمد، ولأه أبوه الجزيرة الخضراء، وكانَ " من أهل العلم والآدب، كَلِيفاً بالمُطالعة والدراسة،... وهو شاعر بني عباد بعدَ أبيه، على أنه أقوى عارضةً منه، وأبوه أَلُفَّ طَبْعاً وأَرْقُ صُنْعاً " ^(٣).

ويبدو أنَّ صرامة أبيه المعتمد كصرامة مَنْ سبقه من ملوك بني عباد في مواضع الزل، وأنَّ قَتَلَ ذِي الزَّلَّةِ في الحُكْمِ هو من أقوى الخيارات لديهم، وقد مرَّ بنا جانبٌ من ذلك مع المعتضد أمام أبيه القاضي أبي القاسم، ومع المعتمد أمام أبيه المعتضد، ويتكرَّرُ هنا مع الراضي أمام أبيه المعتمد، كما إنَّ الشَّعْرَ كانَ من أقوى وسائل النجاة من عقوبة الموت

(١) الحلة السيرة: ٢/٦٣-٤.

(٢) نفح الطيب: ٤/٢٥٩.

(٣) الحلة السيرة: ص ٧١.

لدى هؤلاء جميعاً، وأكبر دليل على هذا أن إسماعيل بن المعتضد لم يتخذ الشعر سبيلاً له يُخاطبُ به أباه ويطلبَ عفوَه من خلاله، كما فعل أخوه المعتمد، فلم ينبُجْ من هذه العقوبة.

وقد تعرَّضَ الراضي إلى سخطٍ طويل الأمد من لدن أبيه المعتمد سمحَ لقرينته الشعرية أن تجودَ بقصائد كثيرةٍ يستعطفُ بها، وهذا ما جعلَ ابن الأبار يقول^(١): " وجلَّ شعره في استعطافِ أبيه المعتمد لِطولِ موجدته عليه، والاعتذار في كلِّ حينٍ إليه ". وقد تراوحتْ مشاعرُه بين الأمل بالنجاة من قبضة أبيه والتنكيل به وقتله، وبين اليأس التام من ذلك، لاسيما عندما لا يجدُ أيَّ استجابةٍ من لديه، فيكون ذلك الباعث المباشر على رثاء نفسه.

ومن تلك القصائد قصيدتان تجلّى بهما يأسُه من النجاة من عقوبة الموت، ولذلك ذكرها بوضوح فيهما. ففي القصيدة الأولى^(٢) يُعزّي الراضي نفسه منذ مطلعها ويُعلّقها بخيطٍ من أملٍ ضعيفٍ مغلفٍ بسورةٍ من الحكمة، ودعوةٍ إلى التحلّي بالصبر:

سجّيةُ ذي الدنيا عداوةُ ذي الفضلِ	ورؤمك نقلَ الطبع من أعظم الجهلِ
فصبراً على ضيقاتها فلعلّها	تُفرّجَ يوماً، والعُقودُ إلى حلّ

ويستخدمُ كلمة " التُّكل " للدلالة على الموت، وهو يحاول أن يستبعد التفكير به، فلا حياة مع تفكير كهذا:

ولا تُضمِرَنَّ التُّكلَ إن كنتَ ذا حِجَا	فليسَ لبيّاً من يبيتُ على تُكلِ
--	---------------------------------

(١) الحلة السراء: ٧٣/٢.

(٢) الحلة السراء: ٧٣/٢.

ويعترفُ بقسوة أبيه خلالَ شكواه إليه، ويصفُ، في تشبيه رائع، هذه الشكوى بأنها كشكوى الجريح إلى السيف الذي جرح به، فماذا عساه أن يجني غيرَ المزيد من الجراح وربما القتل:

سأشكو إلى مُشكي فؤادي بِعُتْبِهِ ومن عَجَبٍ شكوى الجريح إلى النُّصلِ

ويرجو أباه أن يحقنَ دمه، فطالما حقنَ الملوكُ قبله دماء الآخرين في حين أن سفكها أشهى لديهم من العسل، وهنا يتجلّى إيمانه بما ينتظره من مصيرٍ على يد أبيه:

 وكم حقنَ الأملاكُ قبلكَ مِن دَمٍ وكانَ لديهمُ سَفْكُهُ كَجَنَى الثَّحْلِ

ويُبدي الراضي أشدَّ الجَزَعِ في قصيدته الثانية التي يُخاطبُ فيها أباه ويعجبُ من أنه لم يفزْ منه برضا إلى الآن، على أن سخطَ أبيه هو الموتُ بعَيْنِهِ (حزَّ بالمدى):

مالي حُرمتُ رضاكَ لي، وهو الذي قد كنتُ أَرهبُ من زمانٍ أنكدَا؟

 إني وحقُّكَ واجدٌ بينَ الحشا مِن أجلِ سخطِكَ مثلَ حَزِّ بالمدى!

وهو أخيراً بينَ حالين، حال الرضا حيثُ الحياة، وحال الغضبِ حيثُ الموت (فقد بانَ الردى):

إن كانَ لي ذنبٌ فَعَفْوُكَ واسعٌ أو إن يَكُنْ بُغْضٌ فَقَدْ بانَ الردى

ثمَّ يحاولُ - يائساً - أن يستدرَّ عطفَ أبيه فيصورُ له المُفارقة بين أن يكونَ على هذه الحال المهينة المُطلَّة على مصيرٍ فاجع، وبين أن يكونَ محسوداً على ما هو فيه من رفاه وودعةٍ وسيادةٍ كأبناء الملوك:

قد كانَ مِن حَقِّي لَعَمْرِكَ أن أَرى مِن بينِ أبناءِ الملوكِ مُحَسِّدا

وقد نفّعه هذا الفيضُ الشاعري إذ عفا أبوه عنه ولم يقتله، بل أرجع إليه قدره السابق وملّكه رُندة، ولكنّ جيشَ المرابطين هو الذي قتله، إذ " استُنزِلَ الراضي من رُندة عند خلع أبيه، وبعدَ مخاطبته إياه بذلك على عهدٍ أخفرت وموائق نُقضت، فقتلَ صبراً في رمضان سنة أربع وثمانين وأربعمائة" ^(١)، وهو تاريخ سقوط الدولة العبادية.

١٢- ابن زيدون يرثي نفسه

هو ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي. كان وزيراً في دولة ابن جهور في قرطبة وسفيراً بينه وبين باقي الأندلس، ثم ولاّه المعتضد في إشبيلية وزارته وفوضَ إليه أمرَ مملكته، إلى أن تُوفيَ في أيام المعتمد ابنه في العام ٤٦٣هـ.

وكان سببُ انخلاءه عن دولة ابن جهور وانقطاعه إلى دولة المعتضد هو أن الأول اتهمه بالميل إلى الثاني، وربما كان السبب هو اتّهامه بمؤامرة لاسترجاع الحكم الأموي في الأندلس، وفي كلّ الأحوال كان للدسائس والوشايات فعلها المؤثر. وقبل أن يلجأ ابن زيدون إلى المعتضد ويتولّى إدارة دولته دارت عليه دائرة العقوبة، فأودعه ابن جهور في غيابة سجنه. وقد أطال ابن جهور مدة حبس ابن زيدون، وحسنّا فعل، فلولا ذلك ما أبدعت عبقرية ابن زيدون وشاعريته الفذة هذه الباقة من أعذب القصائد وأجملها في غرض الاستعطاف ورتاء النفس مما اشتمل على مختلف المشاعر الإنسانية ومتلونّ الأحاسيس.

وكان ابن زيدون يشعر بالزمن شعوراً عميقاً، وزمنٌ كالذي مرّ به وهو يعاني الحبس لتقيل حقاً، يكاد يستشعر كلّ دقيقة من دقائقه، وكل ساعة من ساعاته فضلاً عن الأيام والسنين، وهاهو يعدّ ما مرّ من زمنٍ في غيابة السجن:

(١) الحلة السراء: ٧١/٢.

مِثْنٌ مِنَ الْأَيَّامِ خَمْسٌ قَطَعْتُهَا. أَسِيرًا، وَإِنْ لَمْ يَبْدُ شَدٌّ وَلَا قَمْطٌ^(١)
أَفْصَبٌ مِثْنٌ خَمْسًا مِنَ الْأَيَّامِ؟ نَاهِيكَ مِنْ عَذَابِ الْيَمِّ^(٢)

تراوحت قصائده الاستعطافية بين الاستعطاف المجرد، والتبرير لما حدث من أمر اتهمه وملاساته، والإشارة إلى الحسد والوشاية اللذين نالا منه الكثير وأتجها إلى شخصه بسبب رفعة قدره وسمو أدبه وعلو ثقافته فضلاً عما أحيط به هو من مناصب عالية ومكانة رفيعة في الدولة، طمعاً في أن يُخَفَّفَ من شدة غضب ابن جهور عليه وحملِهِ على العفو عنه، وبين اليأس واليأس الشديد من هذا العفو، بل من الحياة مع طول مُدَّة الحبس، فكان هذا هو السبب المباشر لراثته لنفسه.

ومن القصائد التي عبّرت عن تفكير ابن زيدون بالموت من غير يأسٍ شديد من الحياة قصيدته التي يقول في مطلعها:

مَا جَالَ بَعْدَكَ لَحْظِي فِي سَنَا الْقَمَرِ إِلَّا ذَكَرْتُكَ ذَكَرَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ^(٣)

وقد استرسل ابن زيدون طويلاً في هذه القصيدة في وصف مشاعره وما يضره بإزاء مختلف الأمور مما يخالج نفسه، فجاءت ممزوجةً بالغزل منذ المطلع الأول، والذكرى والفخر والردّ على الشامتين والشكوى والاعتذار وتبرير ما حدث والاستشفاع وهو آخر ما عرّج عليه في القصيدة التي جعل منها هذا التنوع طويلاً بلغت سبعة وخمسين بيتاً، وهي أطول قصائده الاعتذارية. وغاية ما حاول ابن زيدون أن يُبرِّره هو الحال المريرة التي هو عليها وتعلُّقه بين الموت والحياة، بين اعترافه بأفول نجمه وتوَلُّ الأقدار والرزايا منه

(١) ديوانه ورسائله: ص ٢٨٩.

(٢) نفسه: ص ٢٨٢.

(٣) ديوانه ورسائله: ص ٢٥٠. وفي سرح العيون: ص ١٨ يفتح كاف "بعدك" و "ذكرتك"، وهو من أوهام المحقق.

على حين غرة وانطواء عمره الغضّ وانعدام الأمل في عودة ما كان كما كان، وبين تعلّق
أمله بالنجاة من مصير يُزَمُّعُ ابن جهور أن يدفعه إليه:

لا لَهْوُ أَيَّامِهِ الْخَالِي بِمُرْتَجِعِ	ولا نَعِيمُ لَيَالِيهِ بِمُنْتَظَرِ !
مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ عَنْ حَالِي فَشَاهِدُهَا	مَحْضُ الْعِيَانِ الَّذِي يُنْيِي عَنْ الْخَبَرِ
لَمْ تَطْوِرْ بُرْدَ شَبَابِي كِبَرَةً، وَأَرَى	بَرْقَ الْمَشِيبِ اعْتَلَى فِي عَارِضِ الشَّعَرِ
قَبْلَ الثَّلَاثِينَ، إِذْ عَهْدُ الصَّبَا كَثَبُ	وَلِلشَّيْبَةِ غُصْنٌ غَيْرُ مُهْتَصِرِ
هَا إِنَّهَا لَوْعَةٌ فِي الصَّدْرِ قَادِحَةٌ	نَارَ الْأَسَى، وَمَشْيِي طَائِرُ الشَّرَرِ
يَا لَلرَّزَايَا ! لَقَدْ شَافَهُتُ مِنْهَلَهَا	غَمْرًا، فَمَا أَشْرَبُ الْمَكْرُوهَ بِالْغَمَرِ
حَوَادِثُ اسْتَعْرِضْتَنِي، مَا نَذَرْتُ بِهَا	غَرَارَةً ثُمَّ نَالْتَنِي عَلَى غِرَرِ

ثمَّ يفخر بنفسه من خلال إقراره أنَّ ما حصلَ له إنما بسبب ما نالَه من سؤدد وما
توشَّحَ به من مجد، وهو يردُّ بذلك على الشامتين الواشين به:

لا يُهْنِي الشَّامِتَ الْمُرْتَاخَ خَاطِرُهُ	أَتِي مُعْنَى الْأَمَانِي ضَائِعُ الْأَثَرِ
هَلِ الرِّيحُ يَنْجُمُ الْأَرْضَ عَاصِفَةً؟	أَمْ الْكَسُوفُ لِغَيْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؟
إِنْ طَالَ فِي السِّجْنِ إِيدَاعِي فَلَا عَجَبٌ	قَدْ يُودَعُ الْجَفْنُ حَدَّ الصَّارِمِ الدَّكْرِ

ويشيرُ إلى حاله بين عفو الحاكم-الحياة وإلا فالقَدَر-الموت:

وإِنْ يُكَبِّطُ أَبَا الْحَزْمِ الرِّضَى قَدَرٌ	عَنْ كَشْفِ ضُرِّيِّ فَلَإِ عَتَبٌ عَلَى الْقَدَرِ
فَاشْفَعْ أَكُنْ مِثْلَ مَطْوَرٍ بِلَدَّتِهِ	جَذْلَانِ بِالْوَطَنِ الْمَأْلُوفِ وَالْوَطَرِ

وابن زيدون يُكرِّرُ هذا المعنى في أغلب قصائده الاستشفاعية ومنها قصيدته الميمية:

لهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذاك النسيم^(١)

إذ يقول إنَّ بإمكان حاكمه أن يُنْجيه من الموت وأن تكون ناره كنار إبراهيم، إذ قال الله سبحانه وتعالى " قلنا يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم "^(٢):

ياأبي أنت ! إنَّ تشأْ تكُ برداً وسلاماً كنار إبراهيم

وفي هذه السورة من المشاعر الهائجة المتضاربة تتسللُ قصيدته الطائية التي مطلعها:
شَحَطْنَا، وما للدارِ نأْيٌ ولا شَحْطُ وشَطَّ يَمَنْ هَوَى المزارُ، وما شَطُّوا^(٣)

وقد نظمها بعد أن فرَّ من حبسه، أملاً في النجاة من بطش السلطان، وأنى له ذلك؟!، فيها هو يرسمُ حاله المُفضي إلى هبوط كبريائه التي تعاظمت قبل الآن، وعندما كان في الحبس، إلى الحفيض، فلم يبقَ في جعبته غير البكاء ونفث الحشرات والزفرات، إذ أن ذلك الفرس الجموح منعته القيود من الحركة فلم تعد جموحاً ولا ماشيةً على أرجلٍ أربع، وأنَّ ذلك " الصارم الذكر " الذي افتخر به في قصيدته الرائية الماضية لم يعد كذلك:

إذا ما كتابُ الوجدِ أشكلَ سطره فَمِنْ زفرتي شَكلٌ ومِنْ عَبرتي نُقْطُ
ألا هل أتى الفتيانُ أن فتاهمُ فَرِيسَةٌ مَنْ يَعدو، وئهِزَةُ مَنْ يَسطو؟
وأنَّ الجوادَ الفاتتَ الشاؤِ صافِنُ تَحْوَنُهُ شَكلٌ وأزرى به رَبِطُ؟
وأنَّ الحُسمَ العَضْبَ ثاوٍ يَجفِنُه وما دُمُ مِنْ غَرْبِيهِ قَدْ ولا قَطُ؟

(١) نفسه: ص ٢٨٣.

(٢) الأنبياء: ٦٩.

(٣) نفسه: ص ٢٨٥.

ويستمرُّ على وصف حال البؤس والحرمان اللذين أَمسى يُعانيهما مع ما يعانيه من
خوفٍ شديدٍ من وشكِّ القبض عليه، في أبياتٍ طويلةٍ تاليةٍ فكأنَّه يحاول من خلال ذلك
أن يرقِّق قلب حاكمه ويستجدي منه العطفَ به، إذ يقول مخاطبه وكأنه يُعاتبه:

فما لك لا تَخْصُني بِشِفاعَةٍ يلوحُ على دَهري لِميسِمْها عَظُ؟
يَفي يَنسيم العنبر الوَرْدَ نَفْحُها إذا شَعشَعَ المِسْكُ الأَحْمَ بِهِ خَلْطُ

ويُقارنُ، أيضاً، بين عَفْوٍ ونِجاةٍ، وبين يَأْسٍ وتَسليمٍ لِمَا قَدَّرَ اللهُ، فإليه هو راجع:
فإنَّ يُسَعِفُ المَوْلَى فَتُعَمَى هَنيئَةً تُنْفَسُ عَن نَفْسٍ أَلْظَ بِها ضَغْطُ
وإنَّ يَأْبَ إلاَّ قَبْضَ مَبسوطٍ فَضْلِهِ ففِي يَدِ مَوْلَى فَوْقَهُ القَبْضُ والبَسْطُ

أما بلوغه اليأس الشديد الذي بعثه على رثاء نفسه بإمعان فيتجلَّى في قصيدته
اللامية الرائعة " ألم يأن " التي بلغت الخمسين بيتاً^(١)، ويبدو أنه نظمها قبيل هربه من
سجنه، وبعد أن يئسَ من عفو ابن جهور نهائياً، ولعلَّ هذا اليأس الشديد هو الذي دفعَ
به إلى الهرب فيما بعد، ثمَّ ربما أُشيعَ إليه أنَّ ابن جهور عازمٌ على قتله، تدلُّ على ذلك
معاني قصيدته نفسها، وهو باعثٌ يُضافُ إلى نظمه هذه القصيدة في رثاء نفسه، وإلى هربه
معاً.

يؤكدُ ابن زيدون أنَّ الوقتَ قد حانَ للبكاء عليه وإقامة المآتم عليه وندبه والأخذ،
بعد ذلك، بثأره، وبما أنَّ المقتول هو شاعر مبرِّزٌ وكاتبٌ مُبدعٌ وأديبٌ كبيرٌ ورجل دولة
مؤثِّرٌ فلا بدَّ من أن تُنَاطَ هذه المهام إلى الطبيعة بعناصرها البارزة المؤثِّرة: البكاء للغمام،
والبرقُ لأخذ الثَّار، والنجوم للندب في المآتم في الآفاق المختلفة:

ألم يَأْنِ أن يَبْكي الغَمَامُ على قَتلي؟ ويَطْلُبُ ثأري البرقُ مُنْصِلَتَ النَّصْلِ؟

(١) ديوانه: ص ٢٦١-٢٧٣.

وهَلَّا أَقَامَتْ أَنْجُمُ اللَّيْلِ مَأْتَمًا لَتَنْدَبَ فِي الْأَفَاقِ مَا ضَاعَ مِنْ تَنَلِّي؟

وَيُسَاوِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَذِهِ الْعُنَاصِرِ فِي عُلُوِّ قَدْرِهِ وَعَظِيمِ هِمَّتِهِ، وَلِهَذَا السَّبَبُ فَإِنَّ مَا يَصِيبُهُ مِنَ الذَّلِّ لَا بَدَأَ مِنْ أَنْ يَشْمَلَهَا أَيْضًا، وَمَا اجْتَمَعَ مِنْهَا وَتِلْكَ هِيَ نَجُومُ الثَّرِيَّا فَلَهَا أَنْ تَتَفَرَّقَ كَمَا تَفَرَّقَ شَمْلُهُ، أَخْذًا بِمَبْدِئِ الْإِنْصَافِ:

وَلَوْ أَنْصَفْتَنِي - وَهِيَ أَشْكَالُ هِمَّتِي - لَأَلَقْتُ بِأَيْدِي الذَّلِّ لَمَّا رَأَتْ دُلِّي
وَلَا فَرَقْتُ سَبْعُ الثَّرِيَّا وَغَاضَهَا بِمَطْلَعِهَا مَا فَرَّقَ الدَّهْرُ مِنْ شَمْلِي

وَيَلْقِي بِاللُّومِ عَلَى اللَّيَالِي، وَيَقْصِدُ حَظَّهُ مِنَ الْمَقَادِيرِ وَصُرُوفِ الدَّهْرِ، فَقَدْ طَالَمَا رَمَتْ بِسَهَامِهَا وَلَكِنَّمَا أَصَابَتْ الثُّبُلَ وَهِيَ صِفَةُ حَسَنَةٍ عَلَى أَنَّهَا كَانَ يَجِبُ أَنْ تُصِيبَ الصِّفَاتِ الرَّدِيئَةَ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ تَحَلَّتْ هِيَ نَفْسُهَا بِصِفَاتِ الْحَسَنَةِ وَهِيَ كَثِيرَةٌ نَصْرٌ عَلَى عَدُوِّهَا، وَكَأَنَّ الزَّمَانَ يَقِفُ بِالْمُرْصَادِ لِأَصْحَابِ الْمَوَاهِبِ:

لَعَمْرُ اللَّيَالِي إِنْ يَكُنْ طَالَ نَزْعُهَا لَقَدْ قَرِطَسَتْ بِالثُّبُلِ فِي مَوْضِعِ الثُّبُلِ
تَحَلَّتْ بِأَدَابِي، وَإِنَّ مَارَبِي لَسَانِيحَةً فِي عَرْضِ أُمْنِيَّةٍ عُطِّلِ
أَخَصُّ لِفَهْمِي بِالْقِلَى، وَكَأَنَّمَا يَبِيتُ لِذِي الْفَهْمِ الزَّمَانُ عَلَى دَخْلٍ
وَأَجْفَى عَلَى نُظْمِي لِكُلِّ قِلَادَةٍ مُفَصَّلَةِ السَّمْطَيْنِ بِالْمَنْطِقِ الْفَصْلِ

وَيُعَبَّرُ عَنْ مَدَى أَسْفِهِ لِأَنَّ أَصْحَابَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَالْمَعْرِفَةِ لَا يَأْخُذُونَ حَظَّهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ كَمَا يَنْبَغِي، بَلْ هُمْ مَظْلُومُونَ مَحْسُودُونَ مَبْخُوسُو الْحَقُوقِ، بَيْنَمَا يَنْعَمُ سِوَاهُمْ بِلَذِيذِ الْعَيْشِ وَحُلُوِّ الْحَيَاةِ، حَتَّى إِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَشْتَرِيَ الْجَهْلَ بِالْعِلْمِ، لِيَرْضَى بِذَلِكَ أَعْدَاءَهُ فَيَنْجُو مِنْ مِثْلِ مَا أَصَابَهُ، وَأَتَى لَهُ ذَلِكَ؟! وَهُوَ هُنَا يَصِفُ لَنَا مَا كَانَ يَعْتَوِرُ الْحَيَاةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ وَالسِّيَاسِيَّةَ فِي زَمَانِهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْمُمَارَسَاتِ:

ولو أنني أسطيعُ كي أرضيَ العدا شريتُ ببعضِ العلمِ حظاً من الجهل!

وبعد ذلك يتوجّه بالخطاب إلى أمّه وهي والة قد أصابها الجزع حُزناً على تُكلِّها
إيَّاه، ويُحاول التخفيف عنها ومواساتها، ويطلب منها الإقلال من البكاء عليه، فهي
ليست أول أم تفقد ابنها، وليس هو أول نجم يهوي، ويضرب لها أم النبي موسى عليه
السلام مثلاً، "إذ رمت به إلى اليم في التابوت"، ويطلب منها الاعتبار بذلك والتسلي:

أَمَقْتُولَةَ الْأَجْفَانِ مَالِكٍ وَالْهَاءِ؟ أَلَمْ تُرِكِ الْأَيَّامُ نَجْماً هَوَى قَبْلِي؟
أَقْلِي بُكَاءً، لست أول حُرّة طَوَتْ بِالْأَسَى كَشْحاً عَلَى مَضَضِ الْكُلِّ
وفي "أم موسى" عبرة إذ رمت به إلى اليم في التابوت، فاعتبري واسلي

وعلى مدى ثمانية وثلاثين بيتاً هي ما بقي من القصيدة يتوجّه ابن زيدون إلى
حاكمه ابن جهور يكيل له المديح ويعتذر منه ويتذلّل له ويدور في لُجج من الظنون
والوساوس، وينفي عن نفسه ما وُجّه إليه من التهم، ويُلقِي باللائمة على الحساد والوشاة
في وسط ما أشرنا إليه من إحساسه باليأس الشديد.

ويجدرُ بنا أن نُشيرَ هنا إلى أن هذه القصيدة، على طولها، خلّت من معاني الغزل
والهوى واللهو الشباب، وهو مما اعتاد أن يُعرِّجَ عليه ابن زيدون حتّى في قصائده
الاستشفاعية غير ما ندر، إذا استثنينا تشبيهه البارع في قوله:

أَلَا إِنَّ ظَنِّي بَيْنَ فِعْلَيْكَ وَاقِفٌ وَقُوفَ الْهَوَى بَيْنَ الْقَطِيعَةِ وَالْوَصْلِ

وهذا حَقِيقٌ بأن يدلّ على اللون القائم الذي يُغلّفُ مشاعره، والظلام الذي تَغِيبُ في
أرجائه روحه في حال نظم القصيدة^(١). كما يجدرُ أن نُشيرَ إلى أن جميع هذه القصائد، غير

(١) هناك اختلاف في رواية هذه القصيدة في مصادرنا. ينظر على سبيل المثال: جنة الرضا: ٢/٢١٩،
والذخيرة: ١/٢١٦-٧.

ما ندر، اشتملت على افتخار ابن زيدون بنفسه والتذكير بصفاته الحسنة. وهو فضلاً عن ذلك يُقدِّم ذكر نفسه على ذكر مَنْ يستشفع بهم ويكيلُ لهم المديح في قصائده هذه.

وقد انطوت هذه الصفحة القائمة في حياة ابن زيدون "إذْ إِنَّهُ أَعْمَلَ لِنَفْسِهِ فِي الْخَلَّاصِ مِنْ سِجْنِهِ حَيَّلاً، وَاتَّخَذَ اللَّيْلَ لِلْهَرَبِ جَمَلاً، فَقَطَعَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ مَا بَيْنَ قُرْبَةِ وَأَشْبِيلِيَةِ مِنَ الْمَفَاوِزِ وَالْمَرَا حِلِّ، وَمَسَافَتِهَا ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ لِيَوَاحِدَاتِ الرِّوَاحِلِ. وَلَمَّا اتَّصَلَ خَبْرُ وَصُولِهِ بِأَبِي عَمْرٍو عَبَّادَ، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ سُلْطَانُ تِلْكَ الْبِلَادِ، تَلَقَّاهُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ جَاهِلِيَةِ الْكُمَاةِ، وَمَشَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ وَالْقُضَاةِ، فَأَلْقَى مَقَالِيدَ وَزَارِيَةِ وَجَمِيعِ أُمُورِ دَوْلَتِهِ إِلَيْهِ، وَأَفَاضَ الْخَلْعَ وَالسَّوَابِغَ عَلَيْهِ"^(١)، فَتَنَفَّسَ الصُّعْدَاءُ، وَأَشْرَقَتْ صَفْحَةُ حَيَاتِهِ مِنْ جَدِيدٍ، وَانْقَطَعَ هَذَا الْوَتَرُ الْحَزِينُ فِي قَيْثَارَتِهِ الشَّعْرِيَّةِ.

١٣- أَبُو بَكْرٍ ابْنُ عَمَّارٍ يَرِثِي نَفْسَهُ

هو ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عَمَّارٍ المَهْرِي الشَّلِي، كَانَ وَزِيرًا لِلْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ وَمُسْتَشَارَهُ وَنَدِيمَهُ، ثُمَّ خَلَعَ عَلَيْهِ خَاتَمُ الْمُلْكِ وَلَقَّبَهُ بِالْإِمَارَةِ، وَاسْتَنَابَهُ عَلَى "مُرْسِيَةِ" فَعَصَى بِهَا وَتَمَلَّكَهَا، فَاحْتَالَ الْمُعْتَمِدُ حَتَّى أَوْقَعَهُ فِي قَبْضَتِهِ فَحَبَسَهُ ثُمَّ قَتَلَهُ بِيَدَيْهِ فِي إِشْبِيلِيَةِ. قَالَ عَنْهُ ابْنُ بَسَّامٍ فِي كِتَابِهِ "الذَّخِيرَةُ"^(٢): "كَانَ شَاعِرًا لَا يُجَارَى، وَسَاحِرًا لَا يُبَارَى، إِذَا مَدَحَ اسْتَنْزَلَ الْعُصْمَ، وَإِنْ هَجَا أَسْمَعَ الصُّمَّ، وَلَا سِيَمَا فِي الْمُعْتَدِّينَ مِنَ الْغُلَمَانِ، أَسْمَعَ سَحَرًا لَا يَعْرِفُهُ الْبَيَانُ، وَكَيْفَ لَا يُرْغَبُ فِي شَعْرِهِ، وَيُتَنَافَسُ فِيْمَا يَنْفُثُ بِهِ مِنْ سَحَرِهِ، وَهُوَ يَضْرِبُ فِي أَنْوَاعِ الْإِبْدَاعِ بِأَعْلَى السَّهَامِ، وَيَأْخُذُ مِنَ التَّوْلِيدِ وَالْإِخْتِرَاعِ بِأَوْفَرِ الْأَقْسَامِ"، وَقَالَ عَنْهُ ابْنُ الْأَبَّارِ فِي كِتَابِهِ الْحُلَّةُ السَّيْرَاءُ^(٣) "كَانَ ابْنُ عَمَّارٍ شَاعِرَ الْأَنْدَلُسِ غَيْرَ مَدَافِعَ وَلَا مَنَازِعَ، إِلَّا أَنَّ مَسَاوِي أَعْمَالِهِ ذَهَبَتْ بِمَحَاسِنِ أَقْوَالِهِ: أَدْمَنَ الْخَمْرَ، وَهُوَّنَ عَلَى نَفْسِهِ الْغَدْرَ، فَأَدَاهُ ذَلِكَ إِلَى رَدَاهُ".

(١) المطرب: ص ١٦٨.

(٢) ٢٢٢/٢.

(٣) ١٣٤/٢.

وقال عنه ابن دحية في كتابه "المطرب"^(١): "كانت ملوك الأندلس تخافه لبذاءة لسانه، وبراعة إحسانه، لاسيما حين اشتمل السلطان المعتمد على الله وأنهضه جليساً وسميراً، وقدمه وزيراً ومُشيراً، ثم خلع عليه المُلْك ووجَّهه أميراً، وقد كان أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، فتتبعته الموابك والمضارب، والنجائبُ والجنائب، وانقادت له العساكرُ والكتائبُ والجنود، وضربت خلفه العُطُولُ ونُشرت على رأسه الراياتُ والبنود، فمَلِكٌ مدينةٌ تُدْمِر، وأصبحَ راقِي منبرٍ وسرير، مع ما كان فيه من عدم السياسة وسوء التدبير، ثم انتزى على مالِك رَقِّه، ومستوجب شُكْرِهِ ومستحقِّهِ. فبادَرَ إلى عقوبِهِ وبَحَسَ حقَّهِ، فَتَحَيَّلَ المعتمدُ عليه، وسدَّدَ سِهَامَ المكايدِ إليه، حتَّى حَصَلَ في قبضتِهِ قنيصاً، وأصبحَ لا يجدُ له مَحِيصاً، إلى أن قَتَلَهُ المعتمدُ في قصرِهِ ليلاً بيده، وأمرَ مَنْ أنزَلَهُ في مَلَحِدِهِ، وذلك سنة سبعٍ وسبعين وأربعمائة".

كان ابن عمَّار قد استبدَّ به حُبُّ السُلْطَةِ والطغيان منفرداً بهما، وقد أشار ابن سعيد الأندلسي إلى هذا بقوله^(٢): "داخلَ ابنَ عمَّار العُجْبُ، وسَمَتْ به نفسُهُ إلى مُجاذبة رداء المُلْك، فوثَّبَ على مُرسية لما أخذها لابن عبَّاد، وانفردَ بها بنفسِهِ"، كما أشار ابن الأبار إلى حاله بعد استيلائه على مرسية بقوله^(٣): "قعدَ بها مقعدَ الرؤساء، وخاطبَ سُلْطانه مُخاطبة الأكفاء، مستظهراً على ذلك بجرِّ الأذيال، وإفساد قلوب الرجال، معتقداً أنَّ الرئاسة كأسٌ يشربها، وملاءةٌ مجونٍ يسحبها".

وقد فعلَ ابنُ رَشِيق قائدُ ابنِ عمَّار وخليفَتُهُ على مرسية عندما قصَدَ ابنُ عمَّار طليطلة محاولاً الاستيلاء عليها، ما فعله سيِّدُهُ، حيثُ استغلَّ فرصةَ غيابه واستبدَّ بِمُرسية وأغلقَ أبوابها بوجهه، فلجأ ابنُ عمار عند ذالك إلى مُرسية ومَلِكِهَا المؤتمن بن هُوْد، وعاشَ في كنفِهِ بين عامي ٤٦١-٤٧٧هـ.

(١) ص ١٦٩.

(٢) المغرب في حلى المغرب: ١/٣٨٩-٣٩٠.

(٣) الحلة السيرة: ٢/١٣٤-٥.

وقد حاول ابن عمار التقربَ إلى المؤتمن من خلال إظهاره الاستعداد لإعادة الحصون التي خرجت من طاعته إليه، وقد نجح فعلاً في إعادة حصن من حصونه، إلا أنه لم ينجح في إعادة قلعة شقورة، إذ احتال أهلها عليه وأسقطوه في قبضتهم والقوة في سجنهم، حتى استطاع المعتمد شراءه بالمال وتحصيله وإيداعه في سجنه.

وكان ابن عمار قد رأى نفسه مرتين، كانت أولاهما في العام ٤٧١ هـ عندما اتهمه المعتمد بن عباد في معركة اعتقل ابنه الرشيد رهينة لدى صاحب إشبيلية بسببها، واضطراً إلى فدائه بأموال طائلة فيما بعد^(١). وقبل نجاة الرشيد بالفدية كتب ابن عمار إلى المعتمد قصيدة^(٢) يستشفعه فيها مستشعراً الخطر الشديد بسبب اتهام المعتمد له في ذلك، لأنه هو صاحب فكرة تجييش الجيوش والخروج إلى الاستيلاء على مرسية مع الرشيد.

يرثي ابن عمار نفسه في هذه القصيدة منذ البيت الأول، فعبارته "أصدق ظني" تدل على أنه كان يظن أن المعتمد سيعاقبه بالموت على أن الآخرين من أصحابه لا يرون ذلك، وهو لهذا السبب في حيرة بين الأمرين وبين أمرين آخرين ذواتي علاقة بهذين: أيقبل على المعتمد أم يفر منه؟

أصدق ظني أم أصبح إلى صحي؟ وأقضي غريمي أم أعوج مع الركب؟
إذا انقدت في رأيي مشيت مع الهوى وإن أتعبته نكصت على عقبي

ويعضي ابن عمار في التعبير عن القدر الذي بلغه من اليأس، وعن مقدار ما غلف قلبه من الحزن لما آل إليه حاله أمام صديقه (الودود) الملك، حتى يبلغ الغاية من التصريح بخوفه وشبه يقينه من حقيقته على يد المعتمد، وله الحق في ذلك، عندما يقول:

أخافك للحق الذي لك في دمي وأرجوك للحب الذي لك في قلبي

(١) انظر في ذلك الحلة السيرة: ١٢٠/٢ وما بعدها.

(٢) الذخيرة: ٢٤٤/٢، والحلة السيرة: ١٣٥/٢.

يبدو أنَّ المعتمد رَقَّ قلبه لِصديقه ابن عمار فكتبَ إليه قصيدةً معارضاً فيها قصيدته^(١) على عادته السابقة أيام كان هو وابن عمارَ شابين صغيرين يقتسمان المتعة ويتبادلان المشاعر بالأشعار، فأدخلَ الطمأنينة في قلبه، وكان ذلك تأخيراً لِمصيره على يديه ستَّ سنوات، وعندئذٍ رثى نفسه للمرة الثانية.

وعلى الرغم من أنَّ مدة اعتقال ابن عمار لم تطلْ كما طالت مدة اعتقال ابن زيدون، إلا أنَّ ابن عمار أتحفنا بطائفةٍ رائعة من رثائيات النفس التي وصفتُ المراحل التي مرَّ بها حاله من طلبه واعتقاله. ويبدو أنَّ أولَ مرحلةٍ من تلك المراحل عندما هربَ الى المؤمن وتولَّى وزارته، ثمَّ "تجافى عنه مع ذلك فأقامَ على البطالة مقبلاً"^(٢)، فسئمَ تلك الحالة فرحلَ إلى صاحب لاردة المظفر حسام الدولة أبي عمر يوسف بن سليمان المستعين، ويبدو أنَّ المقام لم يطب له، فرحلَ إلى سرقسطة^(٣)، وفي هذه الأثناء أحسَّ بالضيق، حيثُ لا حافظَ له من سطوة المعتمد، والقبضِ عليه، فكتبَ رائعته الميمية "عليَّ وإلاً"، التي "تنيفُ على تسعين بيتاً"^(٤) وفيها أقرَّ بحقيقة موته منذ البيت الأول منها:

عليَّ وإلاً ما نياح الحمائم	وفيَّ وإلاً ما بُكاء الغمام
وعني أثارَ الرعدُ صرخةً طالبٍ	لثأرٍ وهزَّ البرقُ صفحةً صارمٍ
وما لبستُ زهرُ النجومِ جدادها	لغيري ولا قامتُ له في مآتم
وهلْ شققتُ هُوجُ الرياحِ جيوبها	لغيري أو حثتُ حنينَ الروائم ^(٥)

(١) أنظر جواب المعتمد في ديوانه: ص ٥٢.

(٢) الحلة السيرة: ١٤٦/٢.

(٣) أنظر نفسه: ١٤٦/٢-٨.

(٤) الحلة السيرة: ١٤٨/٢.

(٥) الذخيرة: ٢٢٣/٢.

وهو في هذه المقدمة مثل غيره من أصحاب الشأن من الشعراء في مثل حالته، فهو يرى أنَّ حدثاً مثل موته لا يمرُّ بهدوء كما يمرُّ موت الناس العاديين البسطاء، دون أنَّ تشترك عناصر الطبيعة في إقامة الحداد وإعلان الحزن الشديد عليه، فما هديلُ الحمامِ إلاَّ نواحٌ، وما مطرُ السماءِ إلاَّ بُكاءٌ، وليست أصوات الرعدِ إلاَّ أصوات ارتفعت لتطلبَ الثَّارَ له، وما ذاك البرقُ إلاَّ التماعَةُ سيفٍ سُلَّ لهذا الغرض، أمَّا النجوم فلم تجتمع في كبد السماء، ولم تتوشَّحْ بظلام الليل إلاَّ حداداً عليه، ولم تُقَمِّ مأتماً لسواه، ومثلها الرياح العاصفة التي شقَّتْ جيوبها و حَتَّتْ حنين الظباء لِمَن تفقد.

وهو مثل مَنْ سَبَقَهُ يُحاول أن يَتَكَيَّ على ذكرياته وماضيه السعيد ليُخَفِّفَ مِنْ وطأة التفكير بالموت على نفسه، وفي ذلك إشارةٌ توديعٍ لِدُنْيَاهُ التي تُشكِّلُ ذكرياته الجانبَ الأهمَّ منها، إذ أنَّ استحضار مثل هذه الذكريات هو شيءٌ يحتاجُه مَنْ يحضرُه الموت ويزمَعُ توديعَ الحياة بوصفها أعزَّ شيءٍ لديه، وتتردَّدُ ذكرياتُ ابنِ عَمَّارِ الجميلة بين شِلْبٍ حيثُ مسقطُ رأسه في إحدى قراها: شُبُّوس، وجمُص (إشبيلية) حيثُ ملاعب الشباب ومسرح السلطة مع صديقه محمد بن عباد في الحالين، ولا مَنجى لديه من نار الشوق إلى تلك العهود بأيامها ولياليها، وهو شوقٌ لا يستطيع أحدٌ أن يَشْتِيَه عنه:

أشِلْبٌ ولا تنسابُ عَبرةٌ مُشْفِقٌ	وَجَمُصٌ ولا تَعْتادُ زَفرةٌ نادم
كساها الحيا بُردَ الشباب فإنها	"بلادٌ بها عَقُّ الشبابُ قمامي "
ذكرتُ بها عهدَ الصبا فكأنما	قدحتُ ينارَ الشوقِ بينَ الحيازمِ
ليالي لا ألوي على رُشدٍ لائمٍ	عناني، ولا أثنِيه عن غيِّ هائمٍ
أنالُ سُهادي عن جفونٍ نواعسٍ	وأجني عذابِي من غصونٍ نواعِمِ

ويرسُّمُ في هذه القصيدة ملامح وصوراً من تلك العهود، ولكنه يستخدم ضمير المتكلمين "نا"، وكأنه يريدُ بذلك مغازلةَ مشاعر المعتمد، حيثُ كان وإياه يقتسمان تلك

الملذات وينسجان خيوط تلك الحياة العابثة، قبل أن يُصبح المعتمد ملكاً وبعد ذلك، تلك الحياة التي أصبحت ذكرياتٍ يتحدث عنها ابن عمار الآن:

وليلٍ لنا بالسُّدِّ بين معاطفٍ	من النهر ينسابُ انسيابُ الأرقامِ
بحيثُ اتخذنا الروضَ جاراً تزورُنا	هداياه في أيدي الرياحِ النواسمِ
يُبَلِّغُنَا أنفاسَه فنردّها	بأعطر أنفاسٍ وأذكى لناسمِ
تسير إلينا ثمَّ عَنَّا كأنها	حواسدٌ تمشي بيننا بالنمائمِ
سَقَتْنَا بها الشمسُ النجومَ ومَن بدتْ	له الشمسُ في قِطْعٍ مِنَ الليلِ فاحمِ
وبتنا بلا واشٍ يُحَسُّ كأنما	حللنا مكانَ السرِّ من صدرِ كاتمِ

ويستمرُّ ابن عمار على هذه الوتيرة ويتنقلُ منها إلى الشكوى، ويعرفُ أنَّ شكواه يجب أن تتوجّه إلى سامعٍ راحمٍ، وإلاَّ فهي ذلٌّ مجرّد، ولكنه في الوقت نفسه يستحي أن يُواجه المشكو إليه لما اقترَفَه من ذنبٍ في حقّه، ولذلك فهو يتمنّى البُعدَ عنه ولا نَجاة له مع ذلك من المصير الذي ينتظره، كما يتمنّى هذه النجاة بمساعدة "الدهر" وهو ظالمه على أية حال، فلا سبيل أيضاً إلى ما يتمنّى، لأنَّ المعتمد - "إخوان الصفاء" قد أوقع اللوم عليه، ونسيَ ما كان منه من إخلاص سابق:

وإني لأدعو لو دعوتُ لسامعٍ	مُجيبٍ، وأشكو لو شكوتُ لراحمِ
أريد حياة البَينِ، والبينُ قاتلي	وأرجو انتصار الدهر، والدهرُ ظالمي
وُبَيِّتُ إخوان الصفاءِ غيروا	وذمّوا الرضى من عهدي المتقادمِ

ويسترسلُ في عَرَضِ تمنيّهِ عفوَ المعتمد، ويتذلّل له غاية التذلّل، طمعاً في بلوغ هذا العفو، وهو لا يجرؤ على اللجوء إليه قبل بلوغه، ففي ذلك إحقاقٌ للمصير المتوقع:

ولو أنَّ عفواً مِن هنالك زارني لَزَرْتُ، وما عَدَوُ الزمانِ بدائمِ

وما هو إلا لَئِمْ كَفَّ مُحَمَّدٍ وتمكينُ كَفِّي مِنْ نواصي المظالمِ

ثم يُستنفذُ باقي أبيات القصيدة في كيل المديح للمعتمد وأبيه ونسبه، ويبالغ في ذلك كلَّ المبالغة، مُخالفًا ما يعتقدُه ويؤمن فيه، أليسَ هو القاتلُ مِن قبلُ:

مما يُقَيِّحُ عِندي ذَكَرَ أُنْدَلُسٍ سَماعِ معْتَضِدٍ فيها ومَعْتَمِدِ
أَسْماءِ مَمْلَكَةٍ في غيرِ مَوضعِها كاهِرٌ يَحْكِي انتِفاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ^(١)

عندما فشل ابن عَمَّار في استخلاص شقورة من أيدي أهلها لصالح ابن هود، كما مرَّ، فوقعَ في أيديهم، ثمَّ آلَ حالُهُ إلى أنْ عَرَضوه لِلبيعِ من رؤساء الأندلس، فتناقلوا جميعاً عن ذلك، وأسرعَ ابنُ عبادٍ إلى شرائه بكلِّ ما طُلِبَ من الأموال، وأرسلَ ابنَه الراضي لِيَتَسَلَّمَه، "وانصرفَ إلى أبيه المعتمد وهو بقرطبة، وابن عَمَّار بين يديه مقيَّد بين عِدَلَيَّ تَبْنٍ على هُجْنِ زوامل العسكر، وميلَ به إلى سجنٍ قد أُعِدَّ له"^(٢).

ومن سجنه في قرطبة هذا كتب إلى المعتمد في إشبيلية قصيدته الحائية "سجايك"^(٣)، وفيها يستشفعه ويرجو عفوَه، ولكنه في الوقت نفسه يؤكِّد مصيرَه المحتوم: الموت على يد صديقه وسيده عاجلاً أم آجلاً، ويرثي نفسه ولكن ليسَ في أول القصيدة. إنه أراد فيها أنْ يتوجَّه إلى عاطفته، ويستمطر كرمَه في العفو، ويرقِّق قلبَه من خلال التذلل لأجل ذلك، ولكنه ليس من أجل الخلاص من الحبس، وإنما الخلاص من الموت:

سجايك إن عافيتَ أُنْدَى وأَسْمَحُ وعُذْرُكَ إنْ عاقبتَ أَجَلِي وأَوْضَحُ

(١) وفيات الأعيان: ٤/ ٤٢٨، وفي المصادر الأخرى بعض خلاف طفيف في رواية النص.

(٢) الحلة السيرة: ٢/ ١٥٠-١٠١.

(٣) ذكر الفتح بن خاقان (فلائد العقيان: ص ٢٣٢) أن ابن عمار قرأ هذه القصيدة للمعتمد عند زيارته له في سجنه ثم قتله بعد فراغه من قراءتها، وهو غير صحيح، والصحيح ما عليه بقية المصادر وأوردناه.

وإن كان بين الخطّتين مزيّة
فأنت إلى الأدنى من الله أجحُ
حنانيك في أخذي برأيك، لا تُطع
وشاتي، ولو أثنوا عليّ وأفصحوا^(١)

وأول إشارة إلى موته تردُّ في قوله:

وإن رجائي أن عندك غير ما
يخوضُ عدوي اليوم فيه ويمرحُ
وقالوا: سيجزيه فلان بذنبه
فقلت: وقد يعفو فلان ويصفحُ

فهو يرجوه ألا يُحقّق لأعدائه ما يتشدّقون به من أنه سيقتله، ويدعوه إلى أن يكذبَ
ظنهم هذا، وهو مع ذلك متردّد بين إقراره بحقيقة قتله (بطشاً)، وبين أملٍ ضعيفٍ هو قيد
الظن والغيب يطلب الشفاعة بسببه من المعتمد ويخاطبه بلقب "المؤيد" وهو أحد ألقابه
الأخرى:

ألا إن بطشاً للمؤيد يرغمي
ولكن بطشاً للمؤيد يرجحُ

أما البيت التالي فيُقرّ فيه ابن عمار بياسه من الحياة دون شك ودون أملٍ له باقٍ:
وبين ضلوعي من هواه تميمةٌ
ستنفعُ لو أن الحمام يُجلحُ

وفي البيت إشارة خفية إلى بيت أبي ذؤيب الهذلي:

وإذا المنية أنشبت أظفارها
ألقيت كل تميمة لا تنفع^(٢)

وقد انتبه المعتمد نفسه إلى هذا فقال لمن كان في حضرته ساعة وصول القصيدة
إليه: "مهما سلّبه الله من المروّة والوفاء، فلم يسلبه الشعر، إنما قلب بيت الهذلي
فأحسن"^(٣).

(١) الحلة السراء: ١٥٣/٢.

(٢) ديوان الهذليين: ص ٣.

(٣) الذخيرة: ٢٥٢/٢.

ويؤكدُ هذا الإقرار في البيت الأخير من القصيدة، إذ بدا وكأنه يودّع المعتمد ويودّع معه الحياة التي لم يعد فيها بقية بالنسبة إليه، وبذلك أيضاً تبلغُ القصيدة نهايتها:

ويَهْنِيهِ إِنَّ مُتَّ السَّلْوُ فَإِنِّي أَمُوتُ وَبِي شَوْقٌ إِلَيْهِ مُبْرَحٌ

وفي عجز هذا البيت يُراهنُ ابن عمار على ما بينه وبين الملك-الصديق من صداقة ومودة سابقة قبل أن يُنتزى هو عليه في مرسية، محاولاً تغليب تلك الصورة الرائعة التي كان فيها صديقاً وفيّاً على صورة استجدّت برزّ فيها خائناً. وهذا ما فعله في كل قصائده الاستعطافية ما رثى بها نفسه وما لم يفعل.

وفي هذه الأثناء كتبَ إلى المأمون بن المعتمد قصيدةً يهزُّ فيها سجاياه "الحميذة" ويستمطر قدرته على التوسّط لدى أبيه، من خلال مخاطبته لنفسه، وهذا لا ينسى، طبعاً، أن يذكره بلقبه، ويردّد هذا اللقب ثلاث مرّات، ليُشعره بجديّة الاستشفاع وليُعمّق من مسؤوليته إزاءه، وكأنه يطلبُ منه أن يكونَ حقيقاً بما ينطوي عليه لقبه "المأمون" من معنى، كما يذكرُ له لقبه الآخر "الفتح"، ليُعظّم فعلَ استعطافه استناداً إلى معنى هذا اللقب، ولهذا، من ناحيةٍ أخرى، دلالة نفسية على أن الشاعر يُعلّق كلّ الآمال بالنجاة من عقوبة الموت على المأمون وكأنه الشفيع الوحيد الباقي:

هَلَا سَأَلْتَ شَفَاعَةَ الْمَأْمُونِ	أَوْ قُلْتَ مَا فِي نَفْسِهِ يَكْفِينِي
مَا ضَرَّ لَوْ نَبَّهْتَهُ بِتَحِيَةٍ	يَسْرِي النَّسِيمُ بِهَا عَلَى دَارِينِ
وَهَزَزْتَ مِنْهُ فَقَدْ يُقَلِّبُ سَيْفَهُ	يَوْمَ الْجَلَادِ الْحَيْنَ بَعْدَ الْحَيْنِ
مَالِي أُنْبِيءُ نَازِراً لَمْ يَغْفُ عَنْ	حَظِّئِهِ مِنْ دُنْيَا وَلَا مِنْ دِينِ
وَأَهْزُ مِنْ عِطْفِ ثَنَاهُ عَظْفُهُ	حَتَّى خَشِيتُ عَلَيْهِ فَرْطَ اللَّيْنِ
بِيَدِي مِنَ الْمَأْمُونِ أَوْثَقُ عِصْمَةٍ	لَوْ أَنَّ أَمْرِي فِي يَدِ الْمَأْمُونِ

كما لا ينسى أن يكيل المديح إلى أبيه وجده، ولكن ما يهمنا من هذه القصيدة وسواها هو رثاؤه لنفسه، وهو هنا يصف حاله من خلال ما كان من أمره وما آل إليه مع أبيه، ويصفه بالبحر ذي الحالين من العطاء عند الوفاء والبطش عند الذنب:

بحرٌ إذا ركب العُفَاة سكونه وهب الغنى في عزّة وسكون
وإذا طمى للذنب لم يسمع به إلا الدعاء يُعان بالتأمين

وقد كان هذا البحر يروي عطشه بالماء العذب، ويُغني فقره باللؤلؤ المكنون، ولكنه الآن على أشدّ حالة من الهياج، وقد تلاعبت أمواجه بسفين (مَصير) ابن عمار، وقد بعدت سواحله عنه، فلم يعد يشك في أنه غارق لا محالة:

كَمْ أسكَبَ العَذْبَ الفِراتَ على فمي ورمى يدي باللؤلؤ المكنون
واليوم قد أصبحت في غمّراته إن لم تُغثني رحمة تُنجيني
بعدت سواحله عليّ وأدركت أمواجه فتلاعبت بسفيني
لاشك في أنّي غريق عبابه إن لم يمدّ الفتح^(١) لي يمين

ويستمر ابن عمار في استعطاف المأمون حتى آخر القصيدة.

ويبدو أنّ المأمون لم يُسعفه بشفاعته، أو أنّ شفاعته لم تُجدِ عفواً، فاستدار إلى الرشيد ابنه الآخر للغرض نفسه، متوصلاً إليه من خلال عنصرٍ سريع ومؤثّر من عناصر الطبيعة هو البرق الذي وجد فيه ما يُضاهيه من الصفات: القلب الخافق المضطرب من الخوف، وضجيج السلاسل التي تُقيّده:

قلّ لبرق العمام مطو البريد قاصداً بالسلام قصر الرشيد
فتقلّب في جوّه كفؤادي وتنائر في صحنه كالفريد

(١) الفتح هو لقب آخر للمأمون.

وانجذب في صلاصل الرعد تحكي

ضَجَّتِي في سلاسلِي وقيودي^(١)

ويتوصّل بعدَ أبياتٍ إلى رثاء نفسه، حيث يُرديه هذه المرة طائرٌ من كواسير الطير قويّ المخالب هو العقاب، وهو الآن في حالة انقضاخ:

وأنا اليوم تحت ظلّ عقابٍ لقوةٍ مُحوتِ الجناح صيود

وتستمرّ القصيدة على نحو آخر هو كيل المديح للرشيد دون التعرّيج على أبيه حتّى نهاية القصيدة، مُغازلاً بهذه الطريقة الجانب الذاتي الفردي في شخصيته، فلعلّ في ذلك تحريكاً أقوى لأريجته ونزوعه إلى التوسّط لدى أبيه في هذا الشأن.

بعد أن أقام ابن عمّار في قرطبة ليليّ عدداً جاء به الراضي الى إشبيلية مقر حُكم المملكة فسجّنه المعتمد "في بيتٍ خاملٍ من بيوت القصر أياماً، ثم قتله بيده. وكان أسرُه بشقورة لست بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وقدومُ الراضي به على قرطبة يوم الجمعة السادس من رجب فيها"^(٢)، ولذلك فإنّ إقامته أسيراً في شقورة (عدة أشهر) أطول كثيراً من مدة حبسه لدى المعتمد في قرطبة وأشبيلية (عدة أيام).

وكان قد ثقلَ على ابن عمار أن يلقى المعتمد بعد الذي حصل، وقد اعتملت في نفسه، وقد تأكّد من مقتله، مشاعر قوية التناقض والتضارب والارتباك إزاء المعتمد، وقد أحسنَ في وصفها غاية الإحسان:

والله ما أدري إذا قالوا: غداً يومُ اللقاء

ما أقتل الحالين لي إن كان خوفي أو حيائي؟

"فما أصعَى إليه ولا أبقى عليه"^(٣).

(١) الذخيرة: ٢٥٥/٢.

(٢) الحلة السيرة: ١٥٨/٢.

(٣) الحلة السيرة: ١٥٤/٢.

تحدث ابن الأبار عن حال ابن عمار يومَ الحجيء به إلى إشبيلية فقال: "وقيل إنَّ القادمين به مع الراضي لما سلموه إلى القصر، دُعوا ذلك اليوم بعدَ العصر في سلاحٍ شاكٍ وتعبئةٍ ظاهرة، ليصحبوه إلى إشبيلية، فأقاموا على ذلك إلى الليل ينتظرون تسليمه إليهم، ثمَّ لم يرُعْهم إلاَّ خروج المعتمد والشمع بين يديه، والحرُّم حواليه، وابن عمارٍ بينهنَّ على بغلٍ، وهنَّ يهزَّأن به ويتضحكنَّ منه، فأعربتُ حاله يومئذٍ بمبادئها عن سوء العاقبة فيها. ووردَ على المعتمد غيرُ ما خطابٍ فيه بالشفاعة، فسدَّ الباب في ذلك وشدَّ صفاده هنالك" ^(١).

وكاد المعتمد أن يعفو عن ابن عمار بعد استعطافه لولا ما كان منه من مخاطبة الرشيد بن المعتمد وإخباره بوعد أبيه له بالعفو عنه، ولم يكن المعتمد راغباً في إفشاء خبر هذا العفو، فكان ذلك هو السبب المباشر لقتل المعتمد له ^(٢) إذ "أخذ طبرزينا" ^(٣)، وجاء إلى موضع ابن عمار الذي كان فيه مسجوناً، ودخلَ إليه، ففرغ -كما كان في قيوده- إلى تقبيل رجله، فضربه به، ثمَّ أمرَ أن يتمَّ عليه، وأُخرج ووُري في قيوده، خارج باب القصر المبارك المعروف في إشبيلية بباب النخيل" ^(٤).

وذكر ابن الأبار أنَّ "اعتماد الرميكية" حظية المعتمد "وكان مفرطاً الميل إليها حتَّى تلقَّب بالمعتمد ليتنظَّم اسمه حروف اسمها، ... هي التي أغرت سيدها يقتل ابن عمار لذكره إيَّاه في هجائه المعتمد الذي أوله:

ألا حيَّ بالغرب حيَّا جلالاً
أناخوا جِمالاً وحازوا جِمالاً" ^(٥)

(١) الحلة السراء: ١٥٨/٢.

(٢) انظر في ذلك الذخيرة: ٢٥٧/٢، والحلة السراء: ١٥٩/٢.

(٣) هو فاسي ذو حدئين مُرهفين كان يستخدمه الحرس.

(٤) الذخيرة: ٢٥٧/٢.

(٥) الحلة السراء: ٣-٦٢/٢.

ويضيف ابن سعيد الأندلسي إلى هذه الحادثة أنَّ المعتمد "كان ليلةً يشرب، فذكرته الرميكيةُ به، وأنشدته هجاءه فيه، وقالتُ له: قد شاعَ أنكَ تعفو عنه، وكيفَ يكونُ ذلكَ بعدَ ما نازعَكَ مُلكَكَ، ونالَ مِن عِرْضِ حُرْمِكَ؟ وهذانِ لا تحتملُهما الملوكُ. فثارَ عند ذلكَ، وقصدَ البيتَ الذي هو فيه، فهشَّ إليه ابنُ عمار، فضربهَ بطبرزين شقَّ به رأسه، ورجعَ الى الرميكية، وقال: تركته كالهدهد" ^(١)، كما يُضيفُ الفتح بن خاقان أنَّ هذا الطبرزين "كان أدفونش قد أهدها إلى ابن عمار فأهداهُ هو إلى المعتمد" ^(٢) !.

وتمام قصيدة ابن عمار في هجاء المعتمد هو :

"وعرَّجُ بيومينِ أمَّ القرى ونمَّ فعسى أن تراها خيالا

ويومين: قرية بأشبيلية كانت منها أولية بني عباد، وفي هذه القصيدة يقول معرّضاً بالرميكية:

تخيَّرْتها مِن بناتِ الهجانِ	رُميكيةٌ مأثساوي عقالا
فجاءتُ بكلِّ قصيرِ العذارِ	لئيمِ النجارينِ عمَّأ وخالا
قصارِ القدودِ ولكنتهم	أقاموا عليها قروناً طوالا
أتذكرُ أيامنا بالصبا	وأنتِ إذا لحتِ كنتِ الهلالا
أعانقُ منكِ القضيْبَ الرطيبَ	وأرشفُ مِن فيكِ ماءً زلالا
وأقنعُ منكِ بدونِ الحرامِ	فُتقِسمُ جهْدَكَ أن لا حالالا
سأهتكِ عِرْضَكَ شيئاً فشيئاً	وأكشفُ ستركِ حالاً فحالالا

ومنها:

فيا عامرَ الخيلِ يا زبدها منعتِ القرى وأجحتِ العيالا

(١) المغرب في حلى المغرب: ١/ ٣٩٠-١.

(٢) قلائد العقيان: ص ٢٣٢.

وسببُ قول ابن عمار هذه القصيدة أنَّ المعتمد نذرَ به ... وسخرَ به في أبيات مشهورة" (١) ولا شكَّ في أنَّ أبيات ابن عمار لا يحتملُها ملكٌ مثل المعتمد ولا محظيةٌ مثل اعتماد.

ومن طريف ما يُروى في حكاية ابن عمار مع المعتمد " خبرٌ غريب المسموع، في ذلك الأوان، وحديثٌ ظريفٌ من الحِذْثان، أُخبرْتُ به عن غير واحدٍ من وزراء المعتمد، وذلك أنه لما مضتْ لقتل ابن عمار أيام، حضروا مع المعتمد في مجلس أنس، فلما طابت الأنفُس، وأخذت منهم حُمياً الأكؤس، وارتاح المعتمد وهزَّ عِظفه، وبدا على قسماته عِظفه، سئلَ عن هذا الخبر المستظرف، الذي كانوا سمعوه من بعض السلف، وأقسموا عليه بتخليد مُلكه في أنَّ يحدثهم بحديثٍ كان إليه يُنسب، وقالوا: هو مِن فم مولانا أطيّب، فقال لهم كلاماً معناه لعلَّ هذا الاستخبار عن شأن ابن عمار، قالوا: أجل، وطفقوا يُفدُّونه بالأنفُس، وأكثرُوا في وداده من شُرب الأكؤس، فأخبرهم أنه كان أيام مُقامه بِشَلَب، قد غلبَ ابنُ عمارٍ على نفسه، وأخذَ بمجامع أنسه فأمره وأخذَ عليه - إذا دعا أصحابه - أن يكونَ أولَ داخلٍ وآخرَ خارجٍ، ليأنسَ به ويتمتعَ بِأدبه، فيجده ينفرُ نفار الشارد، ويتسلَّلُ من مجلسه تسلُّلَ الطريدة من يد الصائد، فلما أبى إلاَّ اطرأداً عن أصله، وطال ذلك عليه من فعله، تقدَّم ليلةً إلى أصحاب سُدَّتْه ليلةً في ترقُّيه، ومنعه من مذهبه، وأنذرَ وتهدَّد، وأقامَ في ذلك وأقعد، وقامَ ابن عمار كعادته، فلم يحفل المعتمد ليلته بمكانه، لما كان قدَّم في شأنه، فلما انفضَّ مَنْ كان عنده، التمسَه ففقده، وطلبَه مُنتَهَى جهده فما وجَّده، وأحضرَ مَنْ كانَ أوصى فيه إليه، فأخبرَ أنه لم تقعْ له عينٌ عليه، فراه أمره، وخفيَ عنه سرُّه، فشهرَ فيما بلغني سيفه وأخذَ الشمع بينَ يديه وجعلَ يطلبُه حيثُ يحسُّه ولا يحسُّه، فلما انتهَى الى بعض الدهاليز، إذا بِمحصرٍ مَطوِيٍّ، وابن عمار فيه أغمض من سرِّ خفيٍّ، عريان كأنه أفعوان، فأمرَ بِحمله وهو قد تعجَّب من فعله، فلما استقرَّ بالمعتمد المجلس، جعلَ ييسطُ جانبَ ابن عمار ويؤنس، وابنُ عمار يبكي فيضحك، ويشكو فيشكُّك، فلما سكنَ قليلاً، وأفرخ رَوْعه، ورقاً دمعته، سأله عن شأنه فأخبرَ أنه

(١) نفع الطيب: ٤/ ٢١٢-٣.

كلما كانت تأخذ منه الشمولُ يسمعُ كأنَّ قائلاً يقول: "يا مسكين، هذا يقتلك ولو بعدَ حين" (١).

كما أنَّ من طريف الرثاء قول عبد الجليل بن وهبون في رثاء صديقه ابن عمار:
عَجَباً لِمَنْ أَبْكَيَهُ مَلَأَ مَدَامِعِي وَأَقُولُ: لَا شُلْتَ يَمِينُ الْقَاتِلِ!

وذلك لأنَّ "قلوب الناس لم ترقْ لمقتل ابن عمار، وخصوصاً بعد أن اشتهر عنه أنه كان يُداخل ملوك الأسبان لانتزاع المدن من أيدي ملوك الأندلس حتَّى يستبدَّ هو بحُكم تلك المدن أو يضيفها إلى مُلك بني عباد أو حتَّى تخرج من يد أصحابها المسلمين ليتدخل في حُكم الأسبان" (٢).

(١) الذخيرة: ٢/٢٥٨، وانظر كذلك الحلة السيرة: ٢/١٦١-٢.

(٢) تاريخ الأدب العربي (فروخ): ٤/٦٤٠.

١٤- المعتصم بن صمادح يرثي نفسه

هو أبو يحيى المعتصم محمد بن معن بن محمد بن صمادح التجيبي، ولي حُكم المرية بعد أبيه في العام ٤٣٣هـ وكان عمره أربع عشرة سنة فتولّى عمّه الوصاية عليه حتّى بلغ الثامنة عشرة فاستقلّ بالملك في المرية وبجاية الأندلس وما حوّلها. (وقد كان أبوه أخذ البيعة له في حياته وأحكم أمرها، بعد أن عرضها على أخيه أبي عتبة صمادح فدفعها وأبى قبولها، فتمّت له الإمارة بعد أبيه وسمّى نفسه بـ "معزّ الدولة". فلما تلقّب سائر أمراء الأندلس بالألقاب الخلافية، تلقّب هو أيضاً بـ "المعتصم بالله" و"الواثق بفضل الله": لقبين من ألقاب خلفاء بني العباس^(١)). كان أديباً شاعراً رقيق الشعر عذبه، مُقلّلاً، محباً للعلم والأدب وأهلها.

وكان المعتصم بن صمادح منصرفاً إلى لذّاته، لم يُعرف عنه جهادٌ ولا دفاعٌ عن بلاد. قال ابن بسام عنه: "لم يكن أبو يحيى هذا من فحولة ملوك الفتنة، أخلد إلى السّعة، واكتفى بالضيق من السّعة، واقتصر على قصر يمينه، وعلق يفتنيه، وميدان من اللذة يستولي عليه ويبرز فيه"^(٢). وقد تُوفّي المعتصم عندما بلغ زحفُ المرابطين المرية "فحاصروه وقتلوه من مقامه في قصبة المرية وهو يعالج الموت"^(٣)، وعند ذاك رثى نفسه، ولكن الوقت والظرف الطارئ لم يُسعفا قريحته لتجوّد بأكثر من بيتٍ واحد، فضلاً عن أنه كان مُقلّلاً كما مرّ. روى ابن بسام عن "أروى" وهي إحدى حظايا المعتصم أنها قالت: "إني لَعندهُ وهو يُوصي بشأنه، وقد غلبَ على أكثر يده ولسانه، ومعسكرُ أمير المسلمين يومئذٍ بحيثُ نَعُدُّ خيماتهم، ونسمع اختلاط أصواتهم، إذ سمع وجبةً من وجباتهم، فقال: لا إله إلا الله، نُغصّ علينا كلُّ شيءٍ حتّى الموت! قالت أروى: فدمعت عيني، فلا أنسى طرفاً إليّ يرفعه، وإنشاده إياي بصوتٍ لا أكادُ أسمعُه: ترَفَّقَ بِدَمْعِكَ لَا تُفْنِنِهِ فَبَيْنَ يَدَيْكَ بُكَاءٌ طَوِيلٌ!"^(٤)

(١) الحلة السيرة: ٨١/٢.

(٢) الذخيرة: ٤٥٧/١، وانظر المغرب في حلى المغرب: ١٩٥/٢.

(٣) الحلة السيرة: ٨٣/٢.

(٤) الذخيرة: ٩-٤٥٨/١، وانظر المغرب في حلى المغرب: ١٩٦/٢.

وكانه يخشى على الدمع أن يُستنفذ ساعة احتضاره وقد يُحاجُّ إليه في إجراءات تلي الموت، أو هو لا يرغبُ في أن يرى أحداً يبكي عليه فوق ما يشعرُ به من فضاة مفارقة الحياة.

كان ذلك في العام ٤٨٤هـ، "فكانت مدة إمارته بالمرية أربعين سنة" (١).

١٥- أبو عيسى بن لبون يرثي نفسه

هو ذو الوزارتين أبو عيسى لبون بن عبد العزيز بن لبون. كان وزيراً للمأمون بن ذي النون و لأخيه في طليطلة، ثم والياً على قلعة عبد السلام قرب وادي الحجارة، ثم استبدَّ بحكم مُربيطر على الساحل من شمال بلنسية. وعندما خدَّعه عبد الملك بن هذيل أمير السهلة وأخذَ مربيطر منه على أن يُعوِّضَه منها بلداً آخر ولم يفعلْ عزَّفَ ابن لبون عن القتال من أجل الملك، إذ هو لم يستطعه، "ثم ندمَ بعدَ ذلك" (٢)، ولجأ إلى العيش في سلام ودعة، وانتقلَ الى شنتمرية لهذا الغرض.

وقد رأى ابن لبون سُلطانه الضائع في المرحلة الأولى من رثائه لنفسه، فهاهو يتكئُ على تذكُّر الماضي السعيد، كما فعلَ غيره في توديعهم للحياة، وقد تخلَّى عن الحسَّ المادي الذي يُحيط به، وهربَ منه إلى ما هو أبعد بكثير، إلى الحياة الجاهلية التي غابت مادتها ولم يبقَ منها غير الروح، كما لم يبقَ منه غير روحه، فيحاول أن يضعَ الروحَين في كفتيْ تعادل، ويستعير من تلك الحياة الفاظاً وصوراً وأسلوباً ووقفَةً على أطلال، وفي هذا دلالة على حالة النكوص التي يعيشها الآن بعدَ فقده سلطانه:

خليلي عوجا بي على مسقط اللوى	لعلَّ رسوم الدار لن تتغيَّرا
فأسألُ عن ليلِ تولَّى بأنسينا	وأندبُ أياماً تقضتْ وأعصراً (٣)

(١) الحلة السيرة: ٨٤/٢.

(٢) الحلة السيرة: ١٦٨/٢.

(٣) قلائد العقيان: ص ٢٤١.

وإذ هو يستخدمُ كلمة "أندب" وهو من ملازمات الموت، فإنه يندبُ حياته التي تقضتْ، وهو هنا يؤكدُ أيضاً معنى زوال الحياة بزوال السلطان، فقد كان غُصن العيش "أخضر" وذلك دلالة على الحياة، فماذا بقيَ منها إذ لم يُعدْ كذلك؟، ومثل ذلك "الأمان":

لياليَ إذ كان الزمانُ مسالماً	وإذ كان غُصنُ العيشِ فَيَنانُ أخضراً
وإذ كنتُ أَسقى الرَّاحَ مِن كَفِّ أَغْيَدٍ	يناولنيها رائحاً ومُبَكِّراً
أُعانقُ منه الغُصنَ يَهْتزُّ ناعماً	وَأَلثمُ منه البدرَ يَطْلُعُ مُقَمِّراً
وقد ضربتُ أيدي الأمان قبابها	علينا وكفَّ الدهرُ عُنَّا وأَقْصَراً
فما شئتُ مِن لَهوٍ وما شئتُ مِن دَدٍ	وَمِن مَبْسمٍ يَجْنِيكَ عَذْباً مَوْشِراً
وما شئتُ مِن عودٍ يَغْنِيكَ مَفْصِحاً	(سما بك شوقٌ بعدما كان أقصراً)

هذه هي عناصر الحياة وملاحمها التي يتساءل عن سبب ذهابها، فلماذا تغيَّرت الدنيا وانقلبَ كلُّ شيءٍ إلى خلاف ما كان؟، أفكانتْ الدنيا تُخادعُ أهلها؟، ثمَّ يُعاذِلُ بين تحصيله تلك الحياة بعناصرها المذكورة وبين دولته-سلطانه:

ولكنها الدنيا تُخادعُ أهلها	تغرَّ بصفوٍ وهي تُطوي تكذِّراً
لقد أوردتني بعدَ ذلك كلِّه	موارد ما أَلْفيت عنهنَّ مَصْدِراً
وكم كابدتُ نفسي لها مِن مَلَمَّةٍ	وكم بات طرفي من أساها مَسْهَراً
خليلي ما بالي على صِدْقِ عَزِيمتي	أَرى مِن زَماني وئِيَّةً وتَعَدُّراً
ووالله ما أدري لأي جَريمةٍ	تَجَنَّى ولا عن أيِّ ذنبٍ تَعَيَّراً
ولم أَلُكْ عَن كَسْبِ المِكارِمِ عاجِزاً	ولا كُنتُ في نَيْلِ أنيَلٍ مَقْصِراً
لئن ساءَ تَمْزِيقُ الزمانِ لِدولتي	لقد رَدُّ عن جَهِلٍ كَثِيرٍ وبِصْراً
وَأيقظُ مِن نومِ الغرارة نائماً	وكَسَّبَ علماً بالزمانِ وبِالوَرَى

ويبدو أنه عاشَ طويلاً في ظلال هذه الذكريات التي كانت تستهلك الكثير من شعوره بالحياة التي ما كانت تستوي عنده إلا حقيقةً يعيشها في الواقع لا سائحة من سوانح الخيال، ولذلك تقوى عنده نزعة التمني (ليت) أن يُعيد التاريخ نفسه، وأن تستحيل الذكريات جميعها إلى واقعٍ مُعاشٍ لا مُتخَيَّلٍ، من حيث لا طائل من وراء هذا التمني:

يا ليت شعري وهل في ليتٍ من أرب	هيهات لا تنقضي من ليتٍ آرابُ
وأين تلك الليالي إذ تُلمُّ بنا	فيها وقد نام حُرْسٌ وحُجَّابُ
إنَّ الشموسَ التي كانت تُطالعنا	والجوَّ من فوقه لليل جلابُ
تُهدي إلينا لُجِيناً حَشَوُهُ ذَهَبٌ	أناملُ العاج والأطرافُ عَنَابُ ^(١)

ويضيق صدره بالذكريات كما يضيق بالواقع الجديد الذي يفرض عليه حصاراً وكأنه سجين لا يقدر على الحركة بحرية الشخص العادي، فلا بدَّ من أن تكون يدُ الحاكم الجديد قد بسطت سلطتها عليه، فيطلق صرخةً قويةً تدلُّ على ما يخترنه روحه في وضعه المأساوي الجديد من ألمٍ وأسى، وما كان من وضعه الماضي من قوةٍ وحركة:

ذروني أجبُ شرقَ البلاد وغربها	لأشفي نفسي أو أموتَ بدائي
فلستُ ككلبٍ سوءٍ يُرضيه مَرَبَضٌ	وعَظُمَ ولكّني عَقَابُ سماءِ
وكنْتُ إذا ما بلدةٌ لي تنكَّرتُ	شددتُ إلى أخرى مطيَّ إِبائي
وسرتُ ولا ألوي على مَعْدَرٍ	وصمَّمتُ لا أصغي إلى اللُصحاءِ
كشمسٍ تبدَّتْ للعيونِ بِمَشْرِقٍ	صباحاً وفي غربٍ أصيلٍ مساءً ^(٢)

(١) قلائد العقيان: ص ٢٤٠، والذخيرة: ٦٧/٣، والمغرب في حلى المغرب: ٣٧٧/٢.

(٢) قلائد العقيان: ص ٢٤٢-٣، الذخيرة: ٦٨/٣.

وتتسع دائرة هذه المشاعر لدى ابن لبون، في المرحلة الثانية من رثائه لنفسه، إذ يئأسُ تماماً من الحياة ويزمغ على توديعها من غير ما ندم أو أسف، فلم يرثُ منها غير حُطام بيتٍ وكتابٍ عوّضه عن الكثير من الناس الذين كانوا يتصلون به أيام كان له سلطان، ولم يبقَ له غير أن يموت دون أن يعرف دافنوه حقيقته التي يعبر عنها ماضيه السعيد:

نفضتُ كفي عن الدنيا وقلتُ لها إليك عني فما في الحقِّ أعتبُ
من كسر بيتي لي رَوْضٌ ومن كتي جليس صديقٍ على الأسرار مؤتمنُ
أدري به ما جرى في الدهر من خبرٍ فعندهُ الحقُّ مسطورٌ ومختزنُ
وما مُصابي سوى موتي ويدفني قَومٌ وما لهمُ علمٌ بمنْ دفنوا^(١)

مات سنة ٤٩٠ هـ على وجه التقريب.

١٦- أبو بكر بن الصائغ يرثي نفسه

هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ التجيني السرقسطي، ويُعرف بابن باجة، من فلاسفة الإسلام ممن شغلوا أيضاً بالطبيعات والفلك والطب والموسيقى وبرعوا في الشعر وفن التوشيح. استوزره أبو بكر بن إبراهيم والي غرناطة ثم سرقسطة، واستوزره يحيى بن يوسف بن تاشفين في المغرب بعد خروجه من الأندلس، وتوفي بفاس في العام ٥٣٣ هـ.

وقد رثى ابن باجة نفسه مرتين، كانت أولاهما عندما اعتقله عماد الدولة عبد الملك بن يوسف بن هود صاحب سرقسطة بسبب سعايات بعض حساده وغيرها وكان وزيره. قال الفتح بن خاقان في كتابه "قلائد العقيان"^(٢) عن ابن باجة واعتقال عماد الدولة له: "ومن قلة عقله ونزارته، أنه في مدة وزارته، سفر بين الأمير أبي بكر وبين عماد الدولة

(١) قلائد العقيان: ص ٢٤٣، والذخيرة: ٦٨/٣، والمغرب في حلى المغرب: ٣٧٧/٢.

(٢) ص ٧٣٦. وينظر كذلك نفح الطيب: ٧/٢٣.

بن هود بعد سعايات عليه أسلفها، وذخائر كانت له على يديه أتلّفها، فوافاه أوغر ما كان عليه صدره، وأصغر ما كان عنده قدره، فآلَ به ذلك إلى الاعتقال، فأقام فيه شهوراً يُغازله الحِمَامُ بِمُقْلَةٍ شوهاء، وتنازله الأوهامُ بفطرتِه الشوهاء".

وواضحٌ من كلام الفتح أنّ ابن باجة أمضى في الحبس عدة شهورٍ جعلته يشعر باحتمال بطش ابن هود به وقتله بين لحظةٍ وأخرى، وأوضحٌ من كلام الفتح أبياتُ ابن باجة نفسه وهو يعبر عن هذا الشعور الفضيع، مخاطباً ذا الوزارتين أبا جعفر يزيد بن مجاهد، إذ يعجبُ من بقاءه حياً:

لعلّك يا يزيدُ علمتَ حالي فتعلم أيّ خطبٍ قد لقيتُ
وإني أنُ بقيتُ بمثل ما بي فمن عجب الليالي أنُ بقيتُ

ولا ينسى ذكر الشامتين به وهو على هذه الحال ويؤيدهم في ما يقولون، إذ هو يائسٌ تماماً من النجاة من الموت، وعارف كيف يكون بطش الحاكمين:

يقولُ الشامتون شقاءً بختٍ لعمر الشامتين لقد شقيتُ

ولكنه لا ينسى أيضاً أن يذكرهم بمكر الزمان ودورته، ويحذّرهم من الاطمئنان إليه، ثم يحاول أن يُقرَّ حقيقة الموت الذي لا يفلتُ من قبضته أحد، وما القضية إلاّ قضية وقتٍ فقط وسيدركهم الموت وإن كرهوا، فلمَ الشاماتة بموته، وهو معنى شاع في هذا الغرض كما رأينا وسنرى:

أعندهمُ الأمانُ من الليالي وسالّمهم بها الزمنُ المقيتُ؟
وما يُدرى أوائلهمُ لئسَقوا على كُرو يكأسٍ قد سُقيتُ

أما المرّة الثانية فهي عندما "عزَمَ عماد الدولة يوماً على قتله، وألزمَ المُرقِبَيْنَ به التحيّل في ختله، فنمى إليه ذلك الأمرُ الوعر، وارتمى في لُجج البأسِ والدُّعر"^(١)، فكتب

(١) نفسه ص ٧٣٧.

وهو على هذه الحال من الذعر بيّته اللذين يُعبّر فيهما عن استسلامه لقَدَرِه، وعدم جدوى الاستمرار في الهرب الذي طالما لجأ إليه وتذرّع به، ولا بدّ من مواجهة ما هو محتوم مُقدّر وهو الموت:

أقولُ لِنفسي حينَ قابَلها الردى
فراغتُ فراراً منه يُسرى إلى يُمْنى
قَرِيّ تحمدي بعض الذي تكرهينه
فقد طالَ ما اعتدتِ الفرارَ إلى الأهنى

وفي البيتين يُحاول ابن باجة، بما يمتلكه من قدرة على التفلسف، إظهار الصراع بين التفكير العقلي والشعور النفسي، بين العقل والروح.

١٧- أبو جعفر بن عطية يرثي نفسه

هو أبو جعفر أحمد بن جعفر بن محمد بن عطية القضاعي، أصله من طرطوشة ثم دانية بالأندلس، ولكنه عاش وتعلّم في مراكش حتّى استوزرَ عبد المؤمن بن عليّ مؤسس دولة الموحّدين بالمغرب والأندلس، "وكانت وزارته زينة للوقت، وكمالاً للدولة، وفي أيام توجّهه للأندلس وجدَ حُسَّادُه السبيلَ إلى التدبير عليه والسَّعي به، حتّى أوغروا صدرَ الخليفة عبد المؤمن عليه، فاستوزرَ عبد السلام بن محمد الكومي، وانبرى لمطالبة ابن عطية، وجدّ في التماس عوراته، وتشنيع سقطاته، وطُرحت بمجلس السلطان أبيات منها:

قل للإمام أطال الله مُدَّتَه	قولاً تبينُ لذي لبّ حقائقُه
إنّ الزراجين قومٌ قد وترتهمُ	وطالبُ الثأر لم تُؤمّن بوائقُه
وللوزيرِ إلى آرائهم مِيلٌ	لذاك ما كثرت فيهم علائقُه
فبادر الحزمَ في إطفاء نارهمُ	فرمما عاقَ عن أمرٍ عوائقُه
همُ العدو ومَنْ والاهمُ كهْمُ	فاحذرْ عدوكَ واحذرْ مَنْ يُصادقُه
الله يعلمُ أنّي ناصحٌ لكمُ	والحقُّ أبلجُ لا تخفى طرائقُه

قالوا ولما وقفَ عبد المؤمن على هذه الأبيات البليغة في معناها وَغَرَّ صدرُهُ على وزيره أبي جعفر، وأسرَّ له في نفسه تغيراً، فكان من أقوى أسباب نكبته " (١) وفي الأبيات اتَّهامٌ واضحٌ لأبي جعفر بن عطية بالميل إلى المرابطين (الزرايين)، ونيته للأخذ بثأرهم، وكان عبد المؤمن بن علي قد قضى على دولتهم، وقتل آخرهم إبراهيم بن تاشفين، وتمت له البيعة بالخلافة بعدهم، وفيها أيضاً حضُّ قويٌّ على القضاء على ابن عطية وعلى آخرين يَفترضُ ناظم هذه الأبيات وجودهم إلى جنبه في دائرة هذه الدعوى (العداء)، ولا أشدَّ من تهمة المساس بالسلطة لتودي بصاحبها وتُفضي به إلى عقوبة الموت من لدن السلطان، أي سلطان، فكيف يكون الأمر إذا كان السلطان هو عبد المؤمن بن علي الذي كان يُعاقب بأشدَّ العقوبات على أبسط الذنوب ؟.

ويُقالُ أن الشاعر كان قد أفشى سرّاً للسلطان عبد المؤمن "وانتهى ذلك كله إلى أبي جعفر وهو بالأندلس فقلق وعجل الانصراف إلى مراكش، فحُجِبَ عند قدومه، ثم قيد إلى المسجد في اليوم بعده حاسرَ العمامة، واستُحضرَ الناسُ على طبقاتهم، وقرروا على ما يعلمون من أمره، وما صار إليهم منه، فأجاب كلُّ بما اقتضاه هواه، وأمر يسجنه، ولُفَّ معه أخوه أبو عقيل عطية، وتوجَّه عبدُ المؤمن في إثر ذلك، زائراً إلى تربة المهدي بن تومرت، فاستصحبهما منكوَّينِ بحالٍ ثقافٍ... ولما انصرف من وجهته أعادهما معه قافلاً إلى مراكش، فلما حاذى تاقمرت أنفذ الأمرَ بقتليهما بالشعراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحه هناك، فمضيا ليسيئلهما" (٢).

وقد صدرت عن ابن عطية خلال هذه المحنة، ولاسيما عند تربة المهدي بن تومرت، نصوص شعرية ونثرية في سبيل التوسُّل بالسلطان واستعطافه، ومما يؤسف له أنَّ كثيراً من قصائد ابن عطية في هذا الشأن لم تصل إلينا، ومن ذلك قصيدة نونية ضمَّنها إحدى رسائله إلى السلطان، ولم تقع منها إلا على هذا البيت:

فَعَفُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَنْ لَنَا بِرَدِّ قُلُوبٍ هَدَّهَا الْخَفَقَانُ (٣)

(١) نفح الطيب: ٥/ ١٨٣-٤.

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة: ١/ ٢٧٤-٥.

(٣) نفح الطيب: ٥/ ١٨٥.

وفي عبارة "قلوب هدها الخفقان" ما يكفي لِرثاء نفسه، ولكننا وقعنا على جملة صالحة من نونية أخرى استشعرَ فيها الشاعر إيقاع عقوبة الموت عليه من قبل السلطان ابن علي، لذلك أراد أن يشتري حياته بأي ثمنٍ ومن ذلك لجوؤه إلى الإفراط في المديح، على نحوٍ قد لا يمتُّ بصلَة لما يعتقده به، لاسيما وقد اعترف بذنبه في هذه القصيدة نفسها، بعد أن استعطفَ ممدوحه وأعربَ عن قدره المُفضي إلى الحزن الشديد على ما سيؤول إليه مصيره بسبب نغمته عليه:

عطفاً أمير المؤمنين فقد	بان العزاء لفرط البث والحزن
قد أغرقنا ذنوبٌ كلها لججٌ	وعطفةٌ منكم أنجى من السفن
وصادفتنا سهامٌ كلها غرضٌ	لها ورحمتكم أوقى من الجنن
هيهات للخطب أن تسطو حوادثه	بمن أجارته رُحماكم من المحن
من جاء عندكم يسعى على ثقةٍ	ينصره لم يخف بطشاً من الزمن
فالثوب يطهر بعد الغسل من درنٍ	والطرف ينهض بعد الركض من وسن ^(١)

وهو في هذه الأبيات ينسبُ إلى عبد المؤمن ما يتمنى أن يتحقق فيه من إنجائه من الغرق، ووقايته من السهام، ورحمته وإجارته من الحن، ونصره على بطش الزمن، ثم يتوصلُ إلى ذلك الإفراط في مديحه على نحوٍ يُذكرنا بمدح ابن هاني الأندلسي للخليفة المعز لدين الله^(٢)، فينسب إليه واحدة من أهم صفات الخالق، فيبدو عبد المؤمن هنا واهباً لحياة الخلق جميعاً، والشاعر وأهله، بطبيعة الحال، منهم:

أنتم بذلتُم حياة الخلق كلهم	من دون من عليهم لا ولا ثمن
ونحن من بعض من أحييت مكارمكم	تلك الحياتين من نفسٍ ومن بدن

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة: ٢٧٦/١.

(٢) انظر القصيدة رقم ٥٣ من ديوان محمد بن هاني الأندلسي: ص ١٨١.

ويُحاول أن يستدرّ عطفه من خلال رسمه صورةً مأساويةً له، وهي صورة أطفاله وهم ينوحون عليه، بعد أن يتمّ تنفيذ عقوبة الموت فيه، على أن النواح كثيرٌ عليهم وهم في سن صغيرة ولم يألّفوه من قبل، مؤكّداً معنى الخلق الذي نسبته إليه قبل قليل:

وصبيّة كفراخ الورق من صغرٍ لم يألّفوا النوح في فرعٍ ولا فننٍ
قد أوجدتهم أيادٍ منك سابقةٍ والكلُّ لولاك لم يُوجد ولم يكن

ولكنّ كلّ ذلك لم يحرك مشاعر السلطان على نحوٍ إيجابي تجاهه، بل لقد وقّع على القصيدة بعد أن قرأها بما نصّه: "الآن وقد عصيت قبلُ وكنت من المفسدين"^(١)!. ويصل الشاعر، في قصيدةٍ أخرى له وهو في هذه الحال، إلى غاية جزعه وعدم قدرته على انتظار مضيره المحتوم الذي يتوقّعه ولا يجد منه بُدّاً، ولكنه، مع ذلك، لا يجد من الأمل في النجاة مهرباً، فيتردّد خاطره بين النواح على نفسه ميتاً على يد عبد المؤمن لما يجده في نفسه من سخطٍ شديدٍ عليه، وبين انتظار صفحه بعد أن اعتذّر له بما يُوجب الصفح، لو كان السلطان غير عبد المؤمن:

أنوحُ على نفسي أم انتظرُ الصفحا فقد آن أن تُنسى الذنوبُ وأن تُمحى؟
فها أنا في ليلٍ من السخطِ حائرٌ ولا أهتدي حتّى أرى للرضى صُبحاً^(٢)

ولكنّ حاله في هذا كحال ابن عمّار مع المعتمد، إذ لم ينفع الاستعطاف، ولم ينعطف كلا السلطانين إلى العفو. وكان عبد المؤمن مُعجباً أشدّ الإعجاب بابن عطية، وهو القائل في ابن عطية بعد أن قتله في العام ٥٥٣هـ: "ذهب ابنُ عطية وذهب الأدبُ معه"^(٣)، كما كان المعتمد مُعجباً بابن عمّار، على ما هو معروف مشهور في علاقتهما.

(١) نفح الطيب: ١٨٦/٥.

(٢) نفح الطيب: ١٨٦/٥.

(٣) نفح الطيب: ١٨٦/٥.

١٨- المظفر بن عبد العزيز يرثي نفسه

هو أبو مروان عبد الملك المظفر بن المنصور عبد العزيز بن أبي عامر. كان أبوه المنصور عبد العزيز ملكاً على بلنسية، "وامتدَّت دولته في نعمةٍ مُتصلةٍ، ودامتُ إلى أن تُوفيَّ سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة" ^(١)، فوليَّ بعده ابنُه عبد الملك المظفر هذا "واستقرَّ أمرُه على ضعفِ ركنه، لعدم المال، وقلة الرجال، وفساد أكثر الأعمال" ^(٢)، وتملَّك شاطبة ولقنت أيضاً، ولم تُمهله المقادير طويلاً حتَّى فقدَ مُلكه، إذ "صادفَ في شرق الأندلس الأمير أبا محمد بن عياض أسد الحروب، وقطب القطوب، رجل الثغر شهرةً وشجاعة، قد ألقى جميعُ تلك البلاد له بالسمع والطاعة، فهوت قلوبُ أهل بلنسية إليه، ورام ابن عبد العزيز صرفهم عن ذلك فثاروا عليه" ^(٣) وهكذا فقدَ سُلطانه ثمَّ آلَ أمرُه إلى الحبس في ميورقة على يد عدوِّه ابن غانية وثُمَّ له الخلاص بعدَ ذلك على أيدي الموحِّدين ^(٤).

ولم يكن المظفر سعيداً بنجاته من الموت على يد ابن عياض، بل قضى حياته حزناً على مُلكه الضائع راثياً له مستريحاً بذلك. قال ابن سعيد الأندلسي ^(٥): "أخبرني أحد الأدباء الأعيان، ممن كان يُمازجُه يركنُ إليه، أنه كان دائمَ الحيرة على كونه لم يَطلْ مُلكه، وكان انجعافه مرة، وأنه كان يستريح في ذلك بما ينظمه".

ومن قصائده التي رثى بها نفسه-مُلكه قصيدته الرائية التي عارضَ بها قصيدة المعتمد بن عباد في رثائه لنفسه "غريبُ بأرض المغربين" ^(٦)، وختمَ بمطلعها قصيدته.

(١) المغرب في حلى المغرب: ٣٠٠/٢.

(٢) (٣) الذخيرة: ١٥٩/٣.

(٣) المغرب في حلى المغرب: ٣٠١/٢.

(٤) أنظر نفسه.

(٥) المغرب في حلى المغرب: ٣٠١/٢.

(٦) ديوانه: ص ٩٨-٩٩.

يقول المظفر إن الدائرة دارت عليه فكُشِفَ بدره، ثم تُودِي به للترحُّل فخرج من الدنيا بعد أن كان يأمرها فتطيعه، فأصبحت تجور عليه بعد أن هوى نجمه:

علمتُ بأنَّ الدائرات تدورُ	وقد كُشِفَتْ مِنَّا هُنَاكَ بدورُ
ونادَى مُنادي البينِ فينا ترحَّلوا	فطارَ فؤادُ للفراقِ صبورُ
وُنُثِرَ سِيلُكَ طالَ في الملكِ نَظْمُهُ	كذا كلُّ نَظْمٍ بالزمانِ نُثِيرُ
خرجنا من الدنيا وكانت بأسرها	نُصَيِّحُ لِمَا تُومِي بِهِ وَنُشِيرُ
نهضنا بها ما دامَ في السعدِ نَجْمُنَا	فلَمَّا هَوَى جارتَ وليسَ مُجِيرُ ^(١)

ويلجأ، كالمعتاد، إلى ماضيه السعيد الذي انقضى، يستحضره ويندب نفسه من خلاله:

فلا يَنسَ تسليمَ السَّماطينِ مسمعي	بجيثُ القنا والمرهفاتُ سطورُ
وحيثُ بنو الآمالِ تَكَرَّعُ كالقطا	وقد زخرتُ للمكرماتِ بحورُ
وقد قامتِ المَدائحُ تَنثُرُ نَظْمَهَا	ودارتُ علينا للشَّاءِ خورُ
وللهِ يومٌ قد نهضتُ بِصدرِهِ	وَحَوْلِي من صيدِ الكُماةِ صُفُورُ
أثارَ به ركضُ الفوارسِ قَسْطَلاً	يُرْصِّعُهُ للِبَاتراتِ قَتِيرُ
وقد جازَ جرَّارُ الذبولِ مَاصِغٌ	وطارَ إلى نَهبِ النفوسِ مُغِيرُ
وقد صمَّتِ الأسماعُ إذ طاشتِ النَهْيُ	وحامتُ على ما عودتُه طيورُ
وأصدرتِ الراياتِ حُمراً كأنها	صدورُ حسانِ مَسْهَنٍ عَبيْرُ
ألا يَأْبِي ذاكَ الزمانُ الذي قَضَى	وتَعَسَّأَ لِدهرٍ جاءَ وهو عَثورُ
نُصَاجِنَا فيه الرزايا فتارةً	نُصَمُّ صِماخاً أو تَجيشُ صدورُ
لقد أسخنَ المقدارُ طَرْفِي بَعْدَهُ	وكمْ قَرَّ بِالآمالِ وهو قَريْرُ

(١) المغرب في حلى المغرب: ٣٠٢/٢.

ثمَّ يحاولُ أنْ يُعزِّي نفسه من خلال خلق حوارٍ بينه وبين مَنْ يسأله عما جرى له،
ويؤكدُ أنه مسبورٌ إلى ذلك، وليسأل الزمان عنه فإنه هو الخبير الذي يستطيع الجواب:

أيا مُهدياً نحوي التحية عن نوى تُسائلني، إنَّ الزمانَ خبيرٌ
فَسَلُّهُ عن الماضيِ قبلي فإِنَّهُ على كلِّ حالٍ لا يزالُ يَجُورُ

ويرجعُ مرةً أخرى إلى الندبِ والنواح، وهو رجوعٌ يدلُّ على قدر ما في نفسه من
الاضطراب والتشوش، ويشبُّه حاله بحال المعتمد بن عباد الذي بكاه المنبرُ وسريرُ الملك
من قبلُ:

فلو أبصرتُ عيناك هَمِّيَ حالِكاً وشُهبُ السدياجي في السماءِ تُنيرُ
ومن أدُمعي زَهْرٌ تنائرٌ غُصْنُهُ ينكبأءُ يُزجيهما جَوَى وزَفِيرُ
لأنشدتُ من طولِ التفجُّعِ والأسَى وقد قصُرتُ عني مُنَى وقُصورُ
"غريبٌ بأرضِ المغربينِ أسيرُ" سيبكي عليه منبرٌ وسريرُ"

توفيَ المظفرُ في العام ٥٧٨هـ.

١٩- لسان الدين بن الخطيب يرثي نفسه

هو ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي
الغرناطي الأندلسي، الشهير بلسان الدين بن الخطيب. استوزره سلطان غرناطة أبو
الحجاج يوسف ابن إسماعيل في العام ٧٣٣هـ، ثم ابنه الغني بالله من بعده، وعندما
عظمت مكانته في السلطة والدولة توجه إليه الحاسدون بالسعاية والوشاية به، فما كان
منه إلا أن كاتبَ السلطان عبد العزيز في تلمسان برغبته في الرحيل إليه، وترك الأندلس
وحيداً ثم أرسلَ بطلب أهله وولده فالتحقوا به، واستقرَّ بمدينة فاس القديمة مكرماً
مُعزراً.

وتشاء الأقدار أن يموت السلطان عبد العزيز ويخلفه ابنه السعيد بالله الذي لم يكن سعيداً حقاً، إذ سرعان ما خُلِعَ فتولَّى السلطة السلطان أحمد بن إبراهيم المستنصر الذي ساعده الغني بالله صاحب غرناطة على الوصول إليها على شروط منها أن يُسلمه لسان الدين ابن الخطيب، ففعلَ إذ قبضَ عليه، وكتب بذلك إلى الغني بالله، فأرسلَ هذا وزيره ابن زمرك، وكان تلميذاً لابن الخطيب، إلى فاس، فعقد بها مجلس الشورى، وأحضر ابن الخطيب، فأهينَ ووجهتْ إليه تهمة الزندقة والإلحاد والتفلسف، فأفتى بعضُ الفقهاء بقتله، وأُعيدَ إلى السجن. ودرسَ له رئيس الشورى سليمان بن داوود بعضَ الأوغاد من حاشيته، "فطرقوا عليه السجن ليلاً، ومعهم زعانفة جاؤوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر وقتلوه خنقاً في محبسه"^(١) ولم يُكتَفَ بذلك، بل أخذتْ جثته في اليوم التالي وأُضرمَت فيها النار، فاحترق شعره وبشرته، ثم دُفنت في ضاحية فاس في العام ٧٧٦هـ.

وكان لسان الدين بن الخطيب قد أحسَّ بالموت يقترب منه بين لحظةٍ وأخرى وهو في السجن، بل لقد أحسَّ بأنَّ حياته قد انتهت فعلاً، ولذلك لجأ إلى الشعر يرثي نفسه من خلاله بأسلوبٍ هادئٍ رصينٍ يشيع فيه الحزن الشديد، والأسف المُمضٍ على ما في هذه الحياة من المفارقات، لا يخلو من قليلٍ من التفلسف، كما لا تخلو هذه الأبيات من الشعور بالكبرياء والفخر بما كان له من المجد والسؤدد:

وَجئْنَا بِوَعظٍ وَنَحْنُ صُمُوتُ	بَعُدْنَا وَإِنْ جَاوَرَتْنَا الْيُيُوتُ
كَجَهْرِ الصَّلَاةِ تِلَاةُ السَّكُوتِ	وَأَنفَاسِنَا سَكَّتْ دَفْعَةً
وَكُنَّا نَقُوتُ فَهَذَا نَحْنُ قُوتُ	وَكُنَّا عِظَاماً فَصَرْنَا عِظَاماً
غُرْبَيْنَ فَنَاحَتْ عَلَيْنَا السَّمُوتُ	وَكُنَّا شَمُوسَ سَمَاءِ الْعُلَا
وَذُو الْبَخْتِ كَمِ جَدَّتْهُ الْبُخُوتُ	فَكَمِ جَدَّلْتُ ذَا الْحَسَامِ الطَّبَى
فَتَى ثُلُثْتُ مِنْ كُسَاهِ التَّخُوتِ ^(٢)	وَكَمْ سَيِّقَ لِلْقَبْرِ فِي خَرْقَةٍ

(١) نفح الطيب: ١١١/٥، وانظر الأعلام للزركلي: ٢٣٥/٦.

(٢) نفح الطيب: ١١٢/٥.

ولا ينسى ابن الخطيب أن يشير إلى أعدائه الذين سوف يتشفون بموته ويفرحون، ومنهم تلميذه ابن زمرك الذي كان ابن الخطيب قد مهد له الطريق إلى بلاط ملوك بني الأحمر، والذي لقي فيما بعد ما لقيه ابن الخطيب من مصير، فسوف يغيب عن ساحة التنافس على المناصب واحد من أقوى المرشحين لأعلاها منزلة، فإن فرحهم بموته لا مبرر له طالما هم سيموتون أيضاً، فمن ذا الذي لا يموت ؟:

فقل للعِدا ذهبَ ابنُ الخطيبِ وفات، ومَن ذا الذي لا يفوت
ومَن كانَ يفرحُ منهمْ لَهُ فقل: يفرح اليومَ مَن لا يموت !

إن شعور ابن الخطيب بأنه مات فعلاً، جعله لا يلجأ إلى الاستشفاع بأحد، أو التوسل إلى السلطان، رغبة في البقاء على قيد الحياة، إذ أن هذه الحياة لم يعد لها من وجود عنده حقاً، ولذلك رثى نفسه بيقين واستسلام تامين.

٢٠- الملك يوسف الثالث يرثي نفسه

هو أبو الحجاج يوسف بن يوسف بن محمد الغني بالله بن يوسف النصري الملقب بالناصر من ملوك الأندلس بني نصر في غرناطة. كان ولي عهد أبيه، فلما توفي أبوه شاء القدر أن يستولي على السلطة أخ له أصغر منه اسمه محمد بدلاً منه، إذ أبعده عنها وحبسه في قلعة شلبونية من أعمال غرناطة مدة تقرب من أربعة عشر عاماً، بعدها توفي أخوه في العام ٨١٠هـ فتولى الملك بعده حتى توفي هو في العام ٨٢٠هـ.

وقد نظم الملك المخلوع الشاعر عدة قصائد يندب فيها سلطانه وحياته الزائلين تضمّنّها ديوانه، في المدة بين خلعِهِ وتوليّه السلطة بعد وفاة أخيه. ومن تلك القصائد تائيته التي يعبر فيها عن نكوصه بالرجوع إلى الأسلوب الشعري القديم في المخاطبة بضمير المتكلم ولفظ "خليلي"، وبذكره للموت ومرادفاته وصيغته الأخرى، ويعقد مقارنة بين حاله قبل زوال سلطانه وحاله بعده، ففي الحال الأولى كان هو الذي يُوقع الموت على الآخرين، أو يُقيل الموت عنهم، وكان ملكاً يهابه الملوك، وبطلاً ترهب الأبطال سطوته

وترتاع منه الأسود الضارية، وتفتديه الناس بأرواحها، أما في الحال الثانية فإن الدهر يُقيلُ
عشرة لموته، أو هكذا يتمنى، وهو في عجبٍ من ذلك كله:

خليلي لم يخشَ الردى حدُّ مرهفي	فيا عجباً والموتُ في صفحاته
وكيف يُقيلُ الدهرُ للموتِ عشرة	ونحنُ نُقيلُ الدهرَ من عثراته؟
ولائي من يردي الكُماة بُائهُ	وقد هُدَّ ركن الصبر في وثباته
ولائي من يخشى الملوكِ نزالهُ	ولم يخشَ صرف الدهر من عزماته
ولائي لمن تهوى الخلائق أن ترى	وقد جُعلت طراً فداءً لذاته
ولائي من ترجو العُفاة نوالهُ	وتخشى أسود الحرب حدَّ شباته
ومن ترهبُ الأبطالُ سطوةَ بأسه	ويرتاعُ منه الليثُ في أجماته
ومن يتقي في بطشه يُعداته	ويُلقي الرضا في حلمه وأناته
ومن إن دجا ليلٌ وأظلمَ حادثٌ	تطلع نور الصبح من قسماته
ومن راقَت الشهبان رفعة قدره	ومن زهت الدنيا يُغرُّ شباته
ومن يغمر الأنداء ترداد ذكره	ومن يعجزُ المذاح بعض صفاته ^(١)

ولكنه، في خاتمة الأمر، لا يجدُ بُدّاً من الاستسلام للموت الذي لم يجدْ منه مهرباً، ولم
يبقَ له غير أن يتمنى حُسنَ العاقبة: رضوان الله سبحانه وتعالى:

ولكنني لم ألقَ للموتِ مهرباً	يردُّ الذي قد خيفَ من سطواته
عسى الله بالصبر الجميل يُعيننا	ويعنحنا الرضوان بعض هباته

ومن الجدير بالنظر أن شعر هذا الملك يغصُّ في أغلبه بالفخر بنفسه وبنسبه وأهله
من الآباء والأجداد حتى في أبعد قصائده عن هذا الغرض، وقد رأينا كيف يفخر بنفسه
وهو يرثيها في هذه القصيدة.

وإذ يتسنى للسلطان أن يتولّى السلطة بعدَ يأسٍ منها، فإنه يطوي مرحلةً قاسيةً من مراحل حياته كانت باعثاً لنظم هذه القصيدة التي لم تكن، في الواقع، إلّا رثاءً لسلطانه الزائل، الذي هو المعادل الموضوعي لحياته التي لم تظهر أية إمارة على اقتراب زوالها في هذه المرحلة.

٢١- أبو عبد الله الصغير يرثي نفسه

هو أبو عبد الله محمد بن علي بن سعد بن يوسف بن الغني بالله محمد النصري، آخر ملوك الأندلس الذي على يديه انقرضت دولة الإسلام هناك. تولّى الملك في غرناطة الأندلس بعد أبيه بدلاً من عمّه (الزّغل). نشبت بينه وبين عمّه معارك استعان فيها بالأسبان، ثم بينه وبين الأسبان أنفسهم بعد أن حاولوا بناء قوّة لهم في غرناطة وكثرت غاراتهم عليها على مدى سنتين حتّى استطاعوا محاصرتها وتجويع أهلها وإنهاكهم، فمكّنهم أبو عبد الله الصغير هذا من غرناطة في العام ٨٩٧هـ، وارتحل هو وأهله إلى مدينة فاس في المغرب، وبقي هناك حتى توفي في العام ٩٤٠هـ^(١).

وقبل أن يرحل أبو عبد الله الصغير بقليل إلى فاس لاجئاً أرسل إلى سلطانها الشيخ الوطّاسي رسالةً سمّاها: "الروض العاطر الأنفاس في التوسّل إلى المولى الإمام سلطان فاس"^(٢) يستنجد فيها، ويطلبُ منه الموافقة على اللجوء إليه، وكانت الرسالة من إنشاء محمد بن العربي العُقيليّ الذي كان كاتباً للإنشاء في بلاط الحمراء. تضمنت هذه الرسالة قصيدةً طويلةً نصّ المقرّي على مائةٍ وثمانيةٍ وعشرين بيتاً منها^(٣)، على لسان الملك المغلوب على أمره، وهي أيضاً من نظم العُقيلي، إذ لم يكن الملك شاعراً، ولكنه يعرف أهمية الشعر في التعبير عن القضايا ذات الأهمية في الحياة عند العرب، فأمر كاتبه الشاعر أن يعبرَ له عن قضيته: زوال السلطان، فضلاً عن طلب اللجوء لدى سلطان فاس، وهو أمر سار عليه ملوك الأندلس غير الشعراء قبله، وحتّى الشعراء منهم أحياناً.

(١) أنظر نفح الطيب: ٥٠٧/٤ وما بعدها، والأعلام: ٢٩٠/٦.

(٢) نفح الطيب: ٥٢٩/٤.

(٣) أنظر نفح الطيب: ٥٢٩/٤-٥٣٤.

يُخاطب الملك سلطان فاس مستجيراً به، فاضحاً له، في شيء من المديح والتعظيم بما يقتضيه الحال، ما حلَّ به من ذلٍّ ومهانة بعد عزٍّ وسلطان، وذلك أمر موكولٌ بمشيئة الله عزَّ وجلَّ الذي لا اعتراضَ على مشيئته:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم	رعيأ لما مثله يُرعى من الدّم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن	جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً	وأفطع الخطب ما يأتي على الرّغم
حكم من الله حتم لا مرد له	وهلّ مردّ لحكم منه مُنحتم؟
وهي الليالي وقاك الله صولتها	تصول حتى على الأساد في الأجم ^(١)

ثمَّ يوازي بين ما كان من أمره عندما كان زمام السلطة بيده وبين ما حلَّ به الآن من حرمان منها، وزوال لها، وليس هذا الزوال إلا زوالاً للحياة نفسها، ولذلك فقارئ هذه الأبيات لا يُحسُّ بفرق بين رثاء الملك لسلطانه الزائل ورثائه لنفسه، وإلا فما مقام "سهام الردى" و"أفجع حتفٍ" و"يبكي عليه..." في هذه الأبيات:

فأيقضتنا سهام للردى صيبٌ	يُرمى بأفجع حتفٍ من بهنٍ رُمي
فلا تنم تحت ظلّ الملكِ نومتنا	وأى ملكٍ بظلّ الملكِ لم ينم؟
يبكي عليه الذي قد كان يعرفه	بأدمعٍ مُزجت أمواتها بدم
كذلك الدهر لم يبرح كما زعموا	يُشمّ بو الصغار الأنفَ ذا الشمم

وبعد أن يرسم لسلطان فاس هذه الصورة المأساوية، يطلب منه أن يبسط له جناح العطف والعفو عما كان ربما اقترفه من ذنوب أيام كان ملكاً، وهو هنا يشير إلى ما كان منه من تفريطٍ بمملكة الإسلام في الأندلس، فما ذلك إلا قدرٌ مكتوب لا يستطيع أحد

(١) نفح الطيب: ٥٢٩/٤.

على رده، وأن لا يسمع لأقوال الوشاة، وأن يكون وفيّاً كالسموأل عندما أودع امرؤ القيس الكندي لديه أسلحةً ودروعاً ولم يسلمها سموأل لأعدائه وافتدى بذلك ابنه، فضرب بذلك المثل "أوفى من سموأل" ^(١)، ومُجيراً كالمعلّى بن تميم بن ثعلبة الطائي الذي أجاز امرأ القيس نفسه ونجّاه من المنذر بعد أن أخفاه في قبة حرمه، فما كان من امرئ القيس إلا أن امتدحه بقصيدةٍ وسمّى قومه بني تميم بن ثعلبة "مصاييح الظلام" فاشتهروا بعد ذلك بهذا اللقب ^(٢)، وأن لا يُعاتبه على شيءٍ ذهب ولا سبيل إلى رجوعه:

وصل أواصر قد كانت لنا اشتبكت	فالملك بين ملوك الأرض كالرّجيم
وابسط لنا الخلق المرجو بأسطه	واعطف ولا تنحرف واعذر ولا تلم
لا تأخذنا بأقوال الوشاة ولم	تذنب ولو كثرت أقوال ذي الوخم
فما أطقنا دفاعاً للقضاء، ولا	أردت أنفسنا ما حل من نقم
ولا ركوباً بإزعاجٍ لسابحة	في زاخرٍ بأكف الموج مُلتطم
والمرء ما لم يُعنه الله أضيع من	طفل تشكى بفقد الأم في اليتيم
وكل ما كان غير الله يجرسه	فإن محروسه لحم على وضم
كن كالسموأل إذ سار الهمام له	في جحفل كسواد الليل مرتكم
فلم يبح أدرع الكندي وهو يرى	أن ابنه البر قد أشفى على الرجم
أو كالمعلّى مع الضليل الأروع إذ	أجازه من أعاريب ومن عجم
وصار يشكره شكراً يكافى ما	أسدى إليه من الآلاء والتعم
ولا تعاتب على أشياء قد قدرت	وخط مسطورها في اللوح بالقلم

(١) أنظر في المثل وحكايته مجمع الأمثال: ٣٧٤/٢.

(٢) أنظر الأعلام: ٢٧١/٧.

ويبالغُ في الخضوع والتوسُّل والتذلُّ وطلب الرحمة حتَّى يرضى لنفسه ولمنْ معه أنْ يكونوا خدماً "عُدَّ أحرارنا في جملة الخدم" وعبيداً "وافاك العبيد" :

"وعُدَّ عمّا مضى إذْ لا ارتجاع له"	وعُدَّ أحرارنا في جملة الخدم
إيه حنائيك يا ابن الأكرمين على	"ضيفٌ أُم بفاسٍ غير محتشم"
فأنت أنت، ولولا أنت ما نهضتْ	بنا إليها خطا الوخادة الرُّسم
رُحماك يا راحماً ينمي إلى رُحما	في النفس والأهل والأتباع والحشم

ويتراوحُ باقي القصيدة بين رواية ما حدثَ في غرناطة وتسليمها إلى العدوِّ والاعتذار عن ذلك، وبين تبريرٍ له، ودفعٍ للمسؤولية عنه، في إطارٍ من الفخر بماضيه السعيد، والاستشهاد بمجوات التاريخ، والمديح المبالغ فيه لسلطان فاس مصرحاً بالأسماء والكنى والألقاب حتَّى الانتهاء بالصلاة والتسليم على النبي محمد عليه الصلاة والسلام وذكر شفاعته:

فكم مواقف صدقٍ في الجهادِ لنا	والخيلُ عالكة الأشداقِ للجُمر
والسيفُ يخضبُ بالحمَرِّ من علقى	ما ابيضُّ من سُبُلٍ واسودُّ من للم
ولا ترى صدرَ عصبٍ غير منقصفٍ	ولا ترى متنَ لدنٍ غير منحطمٍ
حتَّى دُهينا بدهيا لا اقتدار بها	سوى على الصونِ للأطفالِ والحُرَمِ
فقال مَنْ لم يُشاهدها فرئتما	يخالُ جامعها يقتادُ بالخطمِ
هيهات لو زبنتُ الحربُ كان بها	أعبى يداً من يدِ جالتِ على رَجمِ
تالله ما أضمرتُ غشاً ضمائرنا	ولا طوتُ صحّة منها على سقمِ
لكنْ طلبنا من الأمر الذي طلبتْ	ولأئنا قبلنا في الأعصرِ الدُّهمِ
فخاننا عنده الجدُّ الخوونُ، ومَنْ	تعدُّ به نكباتُ الدهرِ لم يَقمِ

فاسودَّ ما اخضرَّ من عيشٍ دهنه عداً
 وشئتَ البينُ شمالاً كانَ منتظماً
 فربُّ مبنَى شديدٍ قد أناخَ بهِ
 قُمنَّا لديه أصيلاً نُسائلُهُ
 وما ظنُّنا بأنْ نبقى إلى زمنٍ
 لكنْ رضَى بالقضا الجاري وإن طويت
 لبيك يا مَنْ دعانا نحو حضرتهِ
 واعطِ الأمانَ الذي رُصَّتْ قواعدهُ
 خليفة الله وافاك العبيدُ فكنْ
 وبينَ اسلافنا ما قد علمتَ بهِ
 وأنتَ منهم كأصلٍ مُطليحٍ غُصناً
 وقد خُطوتَ خطاهم في مآثرهم
 وصيتُ مولى الورى الشيخ الإمام غدا
 سلاله الأمراء الجلالة الكُبرا
 بنو مرينٍ ليوثُ في عرين أبوا
 النازلين من البيضاء وسطاً حمى
 والجائسين يذُهم الخيل كلَّ ذرا
 يريك فارسُهم إن هزَّ عاملُهُ
 ليثاً على أجدلٍ عارٍ من اجنحةِ
 في السلام يدغمُ من عسالة ألفاً

بالأسمر اللدنِ أو بالأبيض الخدم
 والبينُ أقطعُ للموصولِ مِن جَلَمِ
 ركبُ البلا فقرته أدمعُ القديم
 أعياءُ جواباً وما بالربعِ من إرم
 نرى به غررَ الأحابِ كالحمم
 منّا الضلوع على برجٍ من الألم
 دعاء إبراهيم الحُجَّاجَ للحرم
 على أساسٍ وفاءٍ غير مُنهدم
 في كلِّ فضلٍ وطولٍ عندَ ظنهم
 من اعتقادٍ يحكم الإرثَ مقتسم
 أو كالشرائك الذي قد قُدَّ من آدم
 فلم يذموا إذن فيهم ولم تذر
 في الناس أشهر من نارٍ على علم
 عِ العلية الظهراء القادة البهم
 رؤيا قرين لهم في البأس والكرم
 أحمى من الأبلق السامي ومن إرم
 والداعسين يسمر الخطَّ كلَّ كومي
 في مارقٍ يلظى الهيجاء مضطرم
 يسطو بأرقم لدأغٍ بغير فم
 ولم نجد ألفاً أصلاً يمدغم

أهل الحفيظة يوم الروع يحفظهم
يا من تطيرُ شراراً منه مُحرقَةٌ
هُمُ بطائفةِ التليثِ قد فتكوا
وإن يلثمهم يوم الوغى رهجٌ
تضئ آراؤهم في كلِّ معضلةٍ
هذا ولو من حياءِ ذابٍ محتشمٍ
طابت مدائحهم إذ طابت أنفسهم
لله درُّهم والسُّحبُ باخلةٌ
بحيثُ الأفقُ يرى من لونِ حُمرتهِ
هناك تنهلُ أيديهم بصوبِ حياءٍ
وأنَّ يَبْتَيَّ زيادٍ طالما دُكرِا
أحلامُ عادٍ وأجسامُ مُطهَّرةٌ
يرونَ حقاً عليهم حفظَ جارهم
فروعه بالدواهي لا يراغُ، ولا
هُمُ البحارُ سماحاً غيرَ أنَّ بها
وليس يسلمُ من حَتَفٍ مُحاربهم
كم فيهمُ من أميرٍ أوحدٍ نُدسٍ
ولا كسبطِ أبي حُسُونٍ من حسنتِ
هذاكم ابنُ أبي ذكري الإمامِ فقلْ
خليفة الله حقاً في خليقته

من عصمة الله ما يُربي على العصمِ
لكلِّ مُدَّرِعٍ بالحزمِ محتزمِ
كمثل ما يفتكُ السرحانُ بالغنمِ
أنسوك ما ذكروه عن ذوي اللثمِ
إضاءة السُّرجِ في داجٍ من الظُّلمِ
لَذابٍ منهم حياءُ كلِّ محتشمِ
فاشتقتُ النسماتِ اسماً من النسمِ
بدرهنَّ على الأنعامِ والنعمِ
كالشيبِ يخضبُ بالحناءِ والكثمِ
يحيي بالأحداثِ ما فيها من الرَّممِ
إذا أَلَمَّتْ أحاديثُ بذكرهم
من للمعقَّةِ والآفاتِ والأثمِ
فلم يُضِرْ نازلٌ فيهم ولم يُضِرْ
يغمُّ منها بما يعرفون الغمِ
ما قد أنافَ على الأطوادِ من هممِ
حتى يكون إليهم ملقي السَّلَمِ
يقرطسُ الغرضُ المقصودِ بالفهمِ
أمداحه حُسَنَ ما فيه من الشيمِ
في أصلِهِ المُنتقى من مجدِ العممِ
كنائبٍ نابٍ في حُكمٍ عن الحُكمِ

مهما تنزّ قسّمات منه نيرة
فوجهه يذجى أو كفه بجدى
وفضله وله الفضل المبين جرى
وجوده المتوالي للبرية ما
إذا ابتغت نعماً منه العفاة له
وإن يُعبس زمان في وجوههم
وجه تبيّن سمات المكرمات به
وراحة لم تنزل في كل أونة
لله ما التزمته من نوافله
أنسى الخلائف في حلم وفي شرف
فجاز معتمداً منهم ومعضداً
وناصر الدين في الإقبال فاق، وفي
أفعال أعدائه معتلةً أبداً
فويل أهل القلى من حية ذكر
راموا عداوة من إن شاء غادرهم
فسوف يأكلهم من جيشه لجب
وإن الاعراب إذ ساروا لغايته
وهم كما قاله ماضٍ "أرى قدمي
فقلّ إذن للمناوي الناور لأن أذى
له صوارم لو ناجتكَ ألسنها

تنل ينال له ما جلّ من نعم
أبهى من الزهر أو أندى من الديم
كجري الامثال في الأقطار والأمم
وجوده بينها طراً بمنهدم
لم يسمعو كلمة منه سوى نعم
لم يبصروا غير وجهه منه مبسم
كما تبيّن سمات الصدق في الكلم
في نيلها راحة الشاكي من العدم
أيام لا فرض مفروض يملتزم
وفي سخاء وفي علم وفي فهم
وامتاز عن واثق منهم ومعتصم
محبة العلم أزرى بابنه الحكم
متى يرمّ جزمها بالحذف تنجزم
للمثلثب الهاهم المجر ملتقم
مثل الأحاديث عن عادٍ وعن إرم
يكلّ قرم إلى لحيانهم قرم
لسائرون إلى لقم على لقم
يسعيه نحو حتفي قد أراق دمي
يا غرّ غرّك ما أبصرت في الحلم
لبشرتك يعمر منك منصرم

وإنَّ روحَكَ عن قَرَبٍ سيقبضُهُ
 فهو الذي مالَهُ نَدٌّ يشابهُهُ
 يدبُّرُ الأمرَ تدبيراً يُخلِّصُهُ
 ويبصرُ الغيبَ لحظَ الذهنِ منه إذا
 وينعمُ النظرَ المفضي بناظرِهِ
 ذو منطقٍ لَمْ تزلْ تجلو نتائجهُ
 ومِسمعٍ ليسَ يُصغي للوشاةِ فلمْ
 فعقلُهُ لا توازيهِ العقولُ، وهلْ
 إليه جميعُ الورى من بدوٍ أو حضرٍ
 شدوا وجدوا ولا تعنوا ولا تهنوا
 هذا الإمامُ الميرني السعيد له
 قد أقسمتُ أنَّه المنصورُ السنةُ
 فشيعوهُ ووالوهُ تروا عَجَباً
 والحمدُ لله إذْ أبقي خلافتَهُ
 حِرزُ حريزٍ وعزُّ قائمٍ ونسدى
 دامتْ ودَامَ لها سعدٌ يساعدها
 فالله عزَّ اسمُهُ قد زائها يحلى
 الواهبُ الألفُ بعد الألفِ من ذهبٍ
 والفاعلُ الفعلُ لم يهَمُّ بهِ أحدٌ
 ذاكُم هو الشيخُ فاعجبْ إنَّه هَرَمَ

قبضَ المسلَّم ما قد حاز من سلمٍ
 من كلِّ مُتصِفٍ بالدَّهْيِ مُتَّسِمٍ
 ممَّا عسى أن يرى فيه من الوهمِ
 تعمى عن ادراكهِ الحَاظُ كلَّ عَمِي
 لصَوْبٍ وجهِ صوابٍ واضح اللقَمِ
 عن مبطلٍ يخصامُ المبطلِ الخصمِ
 ينفقُ لديه الذي عنهم إليه نَمِي
 يوازنُ الطودَ ما قد طالَ من أكمِ
 نداءً مرتبطٍ بالنصرِ مرتسمِ
 قد لفَّها الليلُ بالسَّوْاقَةِ الحُطَمِ
 سعدٌ يؤيِّدُهُ في كلِّ مصطدمِ
 من نخبةِ الأوليا مبرورة القسمِ
 وتظفروا معهُ بالأجرِ والغنمِ
 كهفنا لنا من يخيمُ فيه لم يرمِ
 غمرٌ دراكٌ بلا منٍّ ولا سأمِ
 في كلِّ مبتدأٍ منه ونختتمِ
 من غرٍّ أمداحِهِ كالدرِّ في النظمِ
 كالجمرِ يلمعُ في مستوقدِ الضرمِ
 والقائلُ القولُ فيه حكمةُ الحكمِ
 جوداً وحاشاهُ أنْ يُعزى إلى هَرَمِ

وحسبنا أن أيدينا به اعتصمت
فما محالفه يوماً بمضطهد
ولا موافيه في جهدٍ بمطرح
ولا محيّا محييه بمنكسف
وما تكرّمه سرّاً بمنكشف
وليس لامحّ مرآةً بمكتئب
ولا مُقبلٌ يميناهُ الكريمة في
وما وسيلتنا العُظمى إليه سوى
ولما هي وما أدراك ما هي من
نبيّنا المصطفى الهادي بخير هدى
داعي الورى من أولي خيم وأهل قري
عليه منّا صلاة الله ما دُكرت
وما تشفّع فيها بالشفيع له

من حبله بوثيق غير مُنفصم
ولا موالفه يوماً بمهتضم
ولا مُصافيه في ودٍ بمتهم
ولا رجاء مُرجّيه بمنخرم
ولا تنكّره جهراً بمكتنم
وليس راضعُ جدواه بمنفطم
محلّ ممتنّ بل دُست محترم
ما ليس يُنكر ما فيها من العظم
وسيلة رُدّها أدهى من الوخم
محمدٌ خيرُ خلقِ الله كلّهم
إلى طريق رشادٍ لاحبٍ أُمم
"أَمِنْ تَذَكُّرِ جِرَانِ بِذِي سَلَمٍ"
دخيل حرمة العلياء في الحرم

كان هذا آخر نص شعري أندلسي في رثاء النفس يُنظم تحت وطأة الظرف السياسي، وقد ترافق مع آخر حدث سياسي خلال الوجود العربي السياسي في الأندلس، بل خلال ساعاته الأخيرة. ويمكنُ عدُّ هذا النص وثيقة سياسية وشعرية أندلسية مهمة جداً، إذ يمكن أن يُزوّد الحدث بمقتائق إضافية لو أُريد تحليله تحليلاً شاملاً ودقيقاً فيما يتعلّق بالأيام الأخيرة للوجود العربي في الأندلس، والظروف النفسية التي كان عليها آخر الملوك الأندلسيين، الذي فقد من بين يديه هذا الفردوس الجميل.

الفصل الرابع

فلسفة الحياة والموت

تناول الشعراء الأندلسيون قضية الحياة والموت تناولاً يتفق غالباً وما جاءت به العقيدة الدينية الإسلامية وفلسفتها على نحو ما سنرى:

١- حتمية الموت

أجمع الشعراء الأندلسيون على أنَّ الموت شيء لا بد من وقوعه إن عاجلاً أم آجلاً، وأنَّ للمرء عمراً محدوداً لا يتعداه مهما طال، وكأنهم يضعون آي القرآن الكريم نصب أعينهم وهم يعبرون عن هذا المعنى، ويذكرون قوله تعالى: "أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة" ^(١)، وقوله تعالى: "كل نفس ذائقة الموت" ^(٢).

يؤكد أبو عثمان ابن عبد ربه الطيب، وهو ابن أخي ابن عبد ربه الشاعر أنَّ الموت حقيقة لا بد من إدراكها والإيمان بها، وأنه واقع لا محالة:

أبعد نفوذي في علوم الحقائق	وطول انبساطي في مواهب خالقي
وفي حين إشرافي على ملكوته	أرى طالباً رزقاً إلى غير خالقي
فأيام عمر المرء متعة ساعة	تمر سريعاً مثل لمعة بارق
وقد آذنت نفسي بتقويض رحلها	وأسرع في سوقي إلى الموت سائقي
وإني وإن أوغلت أو زغت هارباً	من الموت في الآفاق فالموت لاحقني ^(٣)

وفي هذا إشارة إلى قوله سبحانه: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ ^(٤)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِينَ تَفْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ^(٥).

(١) النساء: الآية ٧٨.

(٢) آل عمران: الآية ١٨٥.

(٣) طبقات الأمم: ص ١٨٨-٩، جذوة المقتبس: ٤٠٠، وبغية الملتبس: ٥٢٧، والوافي بالوفيات:

٢٣٨/١٥.

(٤) الأحزاب: الآية ٦١.

(٥) الجمعة: الآية ٨.

وقول أبو محمد بن حذام في يوم عيد:

يقولون لي خلّ عنك الأسى
فقلتُ لهم والأسى غالبٌ
توَعَّدني مَالِكي بالفراقِ
ووجدني يحیی وشوقي يزيدُ
فكيف أَسَرُّ وعيدي وعيدٌ؟^(١)

وكذلك أبو بكر بن منخل في قوله:

مضتُ لي سِتٌّ بعد سبعين حَجَّةً
فيا ليتَ شعري أينَ أو كيفَ أو متى
ولي حركاتٌ بَعْدَها وسكونُ
يكونُ الذي لابدُّ أن سَيكونُ^(٢)

ويرى الحميدي أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي أنه بعد أن قضى من الدنيا كلَّ وطَرٍ فلا بدُّ من أن يموت:

ألفتُ النوى حتى أنستُ بوحشتي
فلم أحصِ كم رافقتُ فيها مُرافِقاً
وصرتُ بها لا بالصباية مُولِعا
ولم أحصِ كم عَمْتُ في الأرض موضعا
ومِن بَعْدِ جَوْبِ الأرض شرقاً ومغرباً
فلا بدُّ لي مِن أن أوافي مَصرعا^(٣)

ويشيعُ في قصيدة رثاء النفس معنى الأجل المحدّد الذي لا يتقدّم ولا يتأخّر، وهو معنى الآية الكريمة: "وَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ"^(٤)، والآية الكريمة: «وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عَمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ»^(٥)، ومِن ذلك قول جعفر بن عثمان المصحفي:

(١) مستودع العلامة: ص ٧٤، والإفادات والإنشادات: ص ١٥٤، ونفح الطيب: ٣٨٣/٥.

(٢) نفح الطيب: ١١٧/٤.

(٣) معجم الأدباء: ٢٨٢/١٨، ونفح الطيب: ١١٤/٢.

(٤) الأعراف: الآية ٣٤.

(٥) فاطر: الآية ١١.

لي مُدَّةٌ لا بَدَّ أبْلَعُها فإذا انقضتْ أَيَّامُها مُتُّ
لو قابلتني الأسدُ ضارِيَةً والموتُ لم يُقَدِّرْ لِمَا خَفْتُ
فانظرْ إليَّ وَكُنْ على حَدَرٍ فبمثلِ حالِكَ أَمْسِرُ قَد كُنْتُ^(١)

ولعلَّ البَلْفِيقي يشير إلى المعنى ذاته في قوله:

وهبني أعشْ هل لي إذا شاب مفرقي ووَلَّى شِبابي هل يُباحُ التَّسَوُّفُ؟^(٢)

وكذلك معنى فناء الدنيا بأجمعها في إشارة إلى الآية الكريمة: "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ"^(٣)، ومن ذلك قول الأمير عبد الله، ويخاطب نفسه:

أرى الدنيا تصيرُ إلى فناءٍ وما فيها لِشَيْءٍ مِنْ بقاءٍ
فبادِرْ في الإنابةِ غيرَ لاوٍ على شَيْءٍ يصيرُ إلى فناءٍ
كأنَّكَ قد حُمِلْتَ على سريرٍ وصارَ جديداً حَسَنَكَ للبلاءِ
فنفْسَكَ، فابكِها، أو نُحْ عليها فربُّتَما رُحِمْتَ على البُكَاءِ^(٤)

وذهب كثير من الشعراء وهم يرثون أنفسهم إلى التخفيف من الإحساس بفاجعة الموت من خلال الاعتبار بموت السابقين من الناس مهما بلغ شأوهم في الحياة، ومهما طال أعمارهم. يقول أبو عامر ابن شهيد:

يقولون: قد أودى أبو عامر العُلا أَقْلُوا فَقَدِماً ماتَ أباءُ عامرٍ
هو الموتُ لم يُصرفْ بأجراسٍ خاطِبٍ بليغٍ ولم يعطفْ بأنفاسٍ شاعرٍ

(١) الحلة السيرة: ١/٢٦٧.

(٢) شعر البلفيقي: ص ٦٠، وفيه: "وهبني أعيشْ هل إذا شاب مفرقي"، ولا يستقيم معه الوزن.

(٣) الرحمن: الآية ٢٦.

(٤) الحلة السيرة: ١/١٢٢، والبيان المغرب: ٢/١٥٥.

ولم يَجْتَنِبْ لِلْبَطْشِ مُهْجَةً قَادِرٍ
يَحُلُّ غُرَى الْجَبَّارِ فِي دَارِ مُلْكِهِ
وَلَيْسَ عَجِيباً أَنْ بَيْنَ جَوَانِحِي
يُحَرِّكُنِي وَالْمَوْتُ يَخْفِزُ مَهْجَتِي

قَوِيٌّ وَلَا لِلضَّعْفِ مُهْجَةٌ صَافِرٍ
وَيَهْفُو بِنَفْسِ الشَّارِبِ الْمُتَسَاكِرِ
هُوَ كَشَرَارِ الْجَمْرَةِ الْمُتَطَايِرِ
وَيَهْتَاجُنِي وَالنَّفْسُ عِنْدَ مُحَاجِرِي^(١)

ويقول محمد بن عبد الله بن زمنين الألبيري:

الموت في كلِّ حينٍ يَنْشُرُ الكَفَنَا
لَا تَطْمَئِنُّ إِلَى الدُّنْيَا وَزَخْرَفَهَا
أَيْنَ الْأَحْبَةِ وَالْجِرَانُ؟ مَا فَعَلُوا؟
سَقَاهُمُ الدَّهْرُ كَأْساً غَيْرَ صَافِيَةٍ
تَبْكِي الْمَنَازِلَ مِنْهُمْ كُلَّ مَنْسَجِمٍ
حَسَبُ الْحِمَامِ لَوْ أَبْقَاهُمْ وَأَمَهْلَهُمْ

وَنَحْنُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُّ بِنَا
وَإِنْ تَوَشَّحْنَا مِنْ أَثْوَابِهَا الْحَسَنَا
أَيْنَ الَّذِينَ هُمْ كَانُوا لَنَا سَكَنَا؟
فَصَيَّرْتَهُمْ لِأَطْبَاقِ الثَّرَى رَهْنَا
بِالْمَكْرَمَاتِ وَتَرَثِي الْبِرِّ وَالْمِنَا
أَنْ لَا يَظُنَّ عَلَى مَعْلُوقَةٍ حَسَنَا^(٢)

ويقول عبد الله بن خلصة:

لَئِنْ كُنْتُ مُنْعِيّاً فَمَا الْمَوْتُ وَصِمَةٌ

لَقَدْ تُعَيِّتُ قَبْلِي الرِّسَالَةَ وَالْوَحْيَ^(٣)

وأما ابن الزقاق البلنسي فيعزي نفسه بأنّه لن يكون آخر الموتى، وأنّ أحداً لن ينجو من الموت بعده، فما القضية إلا قضية زمنٍ وحسب:

أَلِإِخْوَانِنَا وَالْمَوْتُ قَدْ حَالَ بَيْنَنَا
سَبَقْتُكُمْ لِلْمَوْتِ وَالْعُمُرُ طِيَّةٌ
وَلِلْمَوْتِ حُكْمٌ نَافِذٌ فِي الْخَلَائِقِ
وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكُلَّ لَا بَدَأَ لَاحِقِي^(٤)

(١) الذخيرة: ٢٠٤/١.

(٢) مطمح الأنفس: ص ٢٦٧، وجذوة المقتبس: ص ٥٧، ونفح الطيب: ٥٥٤/٣.

(٣) الوافي بالوفيات: ٥٤٣/١٧.

(٤) ديوانه: ص ٢٠٥.

ويؤكد أبو بكر ابن الصائغ هذا المعنى بقوله:

لعلك يا يزيد علمت حالي	فتعلم أي خطب قد لقيت
وإني إن بقيت بمثل ما بي	فمن عجب الليالي أن بقيت
يقول الشامتون شقاء بخت	لعمر الشامتين لقد شقيت
أعندهم الأمان من الليالي	وسالمهم بها الزمن المقيت
وما يدرون أنهم سيسقوا	على كره بكأس قد سقيت ^(١)

إن الإقرار بحلول الأجل عاجلاً أم بعد حين جعل جماعة من الشعراء يهوتون من أهمية الحياة، ويستشعرون عدم جدواها مهما طال العمر، وعدم أهمية طول الأمل فيها، فهذا ابن حزم يحث نفسه على عدم الاكتراث بملذات الدنيا لأنها متبوعة بالموت:

أقول لنفسي ما مبین كهالك	وما الناس إلا هالك وابن هالك
صن النفس عما عابها وارفض الهوى	فلن الهوى مفتاح باب المهالك
رأيت الهوى سهل المبادي لذيتها	وعقباه مر الطعم ضنك المسالك
فما لذة الإنسان والموت بعدها	ولو عاش ضعفي عمر نوح بن لامل ^(٢)

ويحدث إبراهيم بن علي بن هردوس نفسه بهذا المعنى:

إبراهيم إن الموت آت	وأنت من الغواية في سبات
رجاؤك مثل ظل الرمح طولاً	وعمرُك مثل إبهام القطاة ^(٣)

(١) نفح الطيب: ٢٣/٧.

(٢) طوق الحمامة: ص ٢٩٨.

(٣) الوافي بالوفيات: ٥٧/٦.

وَقَصَّرَ آمَالِي مَالِي إِلَى الرَّدَى وَأُنِي، وَإِنْ طَالَ الْمَدَى، سَوْفَ أَهْلِكُ^(١)

وينحرفُ أحمد بن إبراهيم بن صفوان المالقي عن معنى حتمية الموت قليلاً فيرى في موت أعدائه قبله سروراً، ولو بساعة واحدة، وهو معنى يُلمَح منه التَّشْفِي:

يقولون إنَّ الموتَ حتمٌ على الوري	يدير صغيراً كَأَسَهِ وكبيراً
فلا تبتسم ریحَ ارتياحٍ لفقدِهِ	فإنَّكَ عن قصدِ السَّيْلِ تجورُ
فقلتُ: بلى حُكْمُ المنيَةِ شاملٌ	وكلُّ إلى ربِّ العبادِ يصيرُ
ولكنْ لتقديمِ الأعادي على الردي	نشاطٌ يعود القلبُ منه سرورُ
وأمنُ ينامُ المرءُ في بردٍ ظلِّهِ	ولا حيَّةٌ للحقدِ ثمَّ تثورُ
وحسبي بيتي قاله شاعرٌ مضى	غداً مَثَلًا في العالمينِ يسيرُ
وإنَّ بقاءَ المرءِ بعدَ عَدُوِّهِ	ولو ساعةً مِنْ عُمُرِهِ لَكثيرُ ^(٢)

٢- الإِعداد للموت:

اهتمَّ الشعراءُ الأندلسيون، وهم يرثون أنفسهم، بموضوع الإِعداد للموت والتَّحضير للآخرة، يستحوذ عليهم طول تفكيرٍ في مفارقة الحياة إلى ملاقاتِ الله سبحانه، والوقوف بين يديه، فمنهم مَنْ يحاسبُ نفسه على ما اقترفتْ من ذنوبٍ هو أدري بها، فيحثها على الإقبال على ما يرضاه الله وما يكون شفيعاً له في يوم الحساب، ومنهم مَنْ هو يائسٌ من رحمة نفسه لضيق فسحة الحياة وقرب الموت، فيطمع في مغفرة من الله ورحمة منه تنجيه من عذاب الآخرة، وكأنهم في ذلك كله ينظرون إلى قوله سبحانه وتعالى (البقرة:

(١) برنامج الوادي أشي: ص ٧٥.

(٢) الديباج المذهب: ص ٤٣.

الآية: ٩٤): ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لَكُمْ الدار الآخرة عند الله خالصةً من دون الناس فتمنّوا الموتَ إِنْ كُنتُمْ صادقين﴾، وقوله جلّ وعلا: ﴿وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموتُ قالَ إني تبتُ الآنَ ولا الذين يموتون وهم كفّارٌ أولئك اعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾^(١).

ومن هؤلاء الشعراء أبو عمران المارثلي الذي لم ينتبه إلى انغماسه في المعاصي إلا بعد أن أحسّ بدنوّ الموت، فلم يتسنّ له إلا أن يوم نفسه:

إلى كم أقول ولا أفعلُ	وكم ذا أحوم ولا أنزلُ
وأزجر عيني فلا ترعوي	وأصح نفسي فلا تقبلُ
وكم ذا تعلّل لي ويحها	بعلّ وسوف وكم تمطلُ
وكم ذا أوّمل طول البقاء	وأغفل والموت لا يغفلُ
وفي كل يوم ينادى بنا	منادي الرحيل ألا فارحلوا
أمن بعد سبعين أرجو البقاء	وسبع أتت بعدها تعجلُ
كان بي وشيكاً إلى مصرعي	يساق بنعشي ولا أمهل ^(٢)

ومنهم أبو الوليد الباجي في قوله:

إلاهي قد أفيت عمري بطالة	ولم يشني عنها وعيد ولا وعد
وضيعة سيئين عاماً أعدّها	وما خير عمر إنما خيرة العد
وقدّمت إخواني وأهلي فأصبحوا	تضمهم أرض ويستترهم لحد
وجاء نذير الشيب لو كنت سامعاً	لوعظ نذير ليس من سمع به بد

(١) النساء: الآية ١٨.

(٢) تحفة القادم: ص ١٣٢.

تَلَبَّسْتُ بِالدُّنْيَا فَلَمَّا تَنَكَّرْتُ
وَتَابَعْتُ نَفْسِي فِي هَوَاهَا وَغِيَّهَا
وَأَجْهَدْتُهَا فِي نَيْلِ دُنْيَا فَلَمْ أَرْحُ
وَلَمْ آتِ مَا قَدَّمْتُهُ مِنْ جِهَالَةٍ
وَهَا أَنَا مِنْ وَرْدِ الْحِمَامِ عَلَى مَدَى
وَقَدْ فَاتَنِي الْإِعْدَادُ بِالْعَمَلِ الَّذِي
وَبُعْدِي عَنْ نَارِ الْجَحِيمِ وَحَرِّهَا
وَلَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا رَجَائِي فَضَلَ مَنْ
يُزْحِزِحُ بِالْإِيمَانِ عَنِّي جَهَنَّمَ
وَلَا يَشْمَتُنِي بِي كَافِرٌ كَانَ حَقْدُهُ
فِيَا نَفْسُ إِنَّ فَاتَكَ بِالْأَمْسِ تَوْبَةٌ
وَبَادِرٌ فَإِنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ رَاحِمٍ
فَلَمْ تَبْقَ إِلَّا سَاعَةٌ إِنَّ أَضْعَفَهَا

تَمَثَّلْتُ زُهْدًا حِينَ لَا يُمَكِّنُ الزُّهْدُ
وَأَعْرَضْتُ عَنْ رَشْدِي وَقَدْ أَمَكَّنَ الرُّشْدُ
وَكَمْ أَسْفَى قَدْ جَرَّ ذَلِكَ الْجُحْدُ
فِيْمَكْنِي عُذْرٌ وَلَا يَمَكِّنُ الْجَحْدُ
أُرَاقِبُ أَنْ أُمْسِيَ لَدَيْهِ وَأَنْ أَغْدُو
بِهِ كَانَ يُرْجَى الْقُرْبُ وَالْفُورُ وَالْخُلْدُ
وَأَنْسَى لِمَثَلِي عَنْ لَظَى حَرِّهَا بُعْدُ
لَهُ الْمُلْكُ وَالْإِحْسَانُ وَالْجُودُ وَالْحَمْدُ
وَيُورِدُهَا مَنْ دَيْنُهُ الْكَفْرُ وَالْجَحْدُ
عَلَيَّ لِتَوْحِيدِي فَمَا صَدَقَ الْحَقْدُ
فَبَادِرٌ وَلَا يَغْرُزُكَ سَوْفَ وَلَا بَعْدُ
يَقُومُ بِعَذْرِ الْعَبْدِ إِنْ رَاجَعَ الْعَبْدُ
فَمَا لَكَ فِي التَّوْفِيقِ نَقْدٌ وَلَا وَعْدُ^(١)

وَمَنْ يَأْمَلُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَعُطْفُهُ وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ فِكْرَةُ الْمَوْتِ وَالْإِنْتِقَالِ
إِلَى الدَّارِ الْآخِرَى أَبُو الصَّلْتِ الْأَنْدَلُسِيُّ أَمِيَّةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ:

سَكَنْتُكَ يَا دَارَ الْفَنَاءِ مُصَدِّقًا
وَأَعْظَمَ مَا فِي الْأَمْرِ أَنْسَى صَائِرًا
فِيَا لَيْتَ شَعْرِي كَيْفَ أَلْقَاهُ عِنْدَهَا
فَإِنْ أَكْ مَجْزِيًّا بِذَنْبِي فَأَلْنِي
بَأْنِي إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ أَصِيرُ
إِلَى عَادِلٍ فِي الْحُكْمِ لَيْسَ يَجُورُ
وَزَادِي قَلِيلٌ وَالذُّنُوبُ كَثِيرُ
بَشَرٌ عِقَابِ الْمَذْنُوبِينَ جَدِيرُ

وإنَّ يكُ عَفْوٌ مِنْهُ عَنِّي وَرَحْمَةٌ

فَاشْتُمْ نَعِيمٌ دَائِمٌ وَسُرُورٌ^(١)

وقد وقف الشعراء الأندلسيون طويلاً عند معنى حمل الزاد إلى الآخرة كنايةً عن الأعمال الصالحة، وفي ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وتزودوا فإنَّ خيرَ الزادِ التقوى﴾^(٢)، ومن ذلك قول أبي الحجاج يوسف المنصفي:

قالت لي النفسُ أذاك الردي

وأنت في بحر الخطايا مقيم

وما ادَّخرتَ الزادَ قلتُ اقصري

هل يُحملُ الزادُ لدارِ الكريم؟

واخجلتَا منه إذا جئْتُهُ

والعبدُ مطلوبٌ بدينٍ قديم

وما أرى يطلبني قد درى

أني محتاجٌ إليه عديم

ولستُ محتاجاً إلى شاهدٍ

لأنَّ مولاي بحالي عليم

وحكمه القسطُ ولا يقتضي

هلاكَ مديانٍ بمالِ الغريم^(٣)

ومن ذلك قول أبي عثمان سعيد بن حكم القرشي:

يا ربَّ إني راحلٌ والزاد ما

عندي منه للرحيل عتاد

والوقتُ عنه ضيقٌ ولديك ما

يسعُ الوري لهم وأنت جواد^(٤)

ولابن شرف قوله في ذلك:

رحلتُ وكنتُ ما أعددتُ زاداً

ولا قصرتُ في قوتِ المُقيم

فها أنا ذا رحلتُ بغيرِ زادٍ

ولكنني نزلتُ على كريم^(٥)

(١) الوافي بالوفيات: ٤٠٥/٩.

(٢) البقرة: الآية ١٩٧.

(٣) تحفة القادم: ص ٨٤-٥.

(٤) تحفة القادم: ص ٨٥.

(٥) تحفة القادم: ص ٨٤.

ولأبي بكر مالك بن حمير الأريولي في هذا المعنى:

رحلتُ وإنني من غير زادٍ وما قدّمتُ شيئاً للمعادِ
ولكنّي وثقتُ بجودِ ربي وهل يشقى المقلُّ مع الجوادِ^(١)

ومن ذلك ما قاله أبو عبد الله المرسى محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل:

قالوا: محمدٌ قد كبرتَ وقد أتى داعي المنونِ وما اهتممتَ بزادِ
قلتُ: الكريمُ من القبيحِ لضيفه عندَ القدومِ مجيؤه بالزادِ^(٢)

ويغلبُ في النصوص الشعرية الخاصة بالإعداد للموت أسلوب مخاطبة الشاعر الأندلسي لنفسه. يقول ابن جبير:

أتاك الرحيلُ فشمزْ له فإمّا إلى جنةٍ أو لنارِ
وكيفَ تقرُّ بدنياكَ عيناً ولم تدركِ أين يكون القرارُ^(٣)

ويقول الألييري:

بصرتُ بشيئةٍ وخطتُ نصيلي فقلتُ له: تأهبْ للرحيلِ
ولا يَهْنُ القليلُ عليكَ منها فما في الشيبِ ويحكُ من قليلِ
ولازمَ قرعَ بابِ الربِ دأباً فإنْ لزومهُ سببُ الدخولِ
فما من مخلصٍ لله إلا على أعمالِهِ أثرُ القولِ^(٤)

(١) تحفة القادم: ص ٨٤، وفي نفح الطيب: ٣٤٨/٤ أبو بكر مالك بن جبير.

(٢) معجم الأدباء: ٢١٢/١٨.

(٣) تراجم مغربية من مصادر مشرقية: ص ١١٤.

(٤) ديوانه: ص ١٠٥-٦.

ويخاطب مرج الكحل نفسه قائلاً:

واستغفرن الله رب الناس	اذكر ذنوبك أيها ذا الناسي
واكرع من العبرات في أكواس	واقرع على ما فات سنك نادماً
تُعنى بهذي الأربع الأدراس	وانفض عن الدنيا يديك ولا تكن
يرضى حبيبك غاية الإيناس	واكحل جفونك بالسهاد فإنما
واذكر بقبرك قلة الإيناس ^(١)	انظر لنفسك قبل وقت رحيلها

وكذلك فعل أبو محمد القاسم بن فتح بن يوسف بن الأريولي عندما قال:

وتغفل والموت لا يغفل	إلى كم تقول ولا تفعل
يُرى المرء يُدرك ما يأمل	أأملت خلداً فهيئات أن
ولو قد تحققت ما يمهل ^(٢)	أم الدهر غرك إمهاله

ولعل أبا عمران المارثلي يعارضه في قصيدته التي يقول فيها:

وكم ذا أحوم ولا أنزل	إلى كم أقول ولا أفعل
وأنصح نفسي فلا تقبل	وأزجر نفسي فلا ترعوي
بعل وسوف وكم تمطل	وكم ذا تعلل لي ويحها
وأغفل والموت لا يغفل ^(٣)	وكم ذا أومل طول البقاء

أما الغزال فإن سكنه بجوار المقابر في قرطبة جعله شاهداً على دخول الموتى إليها دون خروج منها، متذكراً الموت باستمرار، وفي ذلك خير موعظة له، ومن العبث أن يهرب من مواجهته باللجوء إلى ملذات الحياة، فيخاطب نفسه قائلاً:

يُرى كل يوم وارداً غير صادر	أي لاهياً في القصر قرب المقابر
-----------------------------	--------------------------------

(١) مرج الكحل: ص ١٢٢.

(٢) أخبار وتراجم أندلسية: ص ٥٣-٥٤.

(٣) تحفة القادم: ص ١٣٢.

كَأَنَّكَ قَدْ أَيقَنْتَ أَنَّ لَسْتَ صَائِراً
تُرَاهُمْ فَيُتْلَهُو بِالْشَرَابِ وَبِعُضِّ مَا
وَمَا أَنْتَ بِالْمَغْبُونِ عَقْلاً وَلَا حِجَى
وَفِي ذَلِكَ مَا أَغْنَاكَ عَنْ كُلِّ وَاعِظٍ
وَكَمْ نِعْمَةٍ يَعْصِي بِهَا الْعَبْدُ رَبَّهُ
سَتَرَحُلُ عَنْ هَذَا وَإِنَّكَ قَادِمٌ

غَدًا بَيْنَهُمْ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْخَفَائِرِ
تَلَدُّ بِهِ مِنْ نَقَرِ تِلْكَ الْمَزَاهِرِ
وَلَا بِقَلِيلِ الْعِلْمِ عِنْدَ التَّخَابِيرِ
شَفِيقٍ، وَمَا أَغْنَاكَ عَنْ كُلِّ زَاجِرٍ
وَيَلْسُوى عَذَّتُهُ عَنْ رُكُوبِ الْكِبَائِرِ
وَمَا أَنْتَ فِي شَكٍّ عَلَى غَيْرِ عَازِرٍ! ^(١)

٣- صورة ما بعد الموت:

أسهب الشعراء الأندلسيون في وصف صورة ما بعد الموت، فهذا لسان الدين بن الخطيب يصف لحظة الأجل وكيف هي انتقال من الحركة المطلقة إلى السكون المفاجئ، وما يتلوها من الرجوع إلى التراب، وهو انتقال من التقوى بملأ الحياة إلى الكينونة قوتاً لديدان الأرض، يقول:

بُعْدُنَا وَإِنْ جَاوَرْتَنَا الْبُيُوتُ
وَأَنْفَاسُنَا سَكَنْتْ دَفْعَةً
وَجَدْنَا بِوَعْظٍ وَنَحْنُ صُمُوتُ
كَجَهْرِ الصَّلَاةِ تَلَاهُ الْقَنُوتُ ^(٢)

وإلى مثل هذه المفارقة يشير ابن زهر الحفيد وهو طيب:

تَأْمَلْ بِحَقِّكَ يَا وَاقِفاً
تُرَابُ الضَّرِيحِ عَلَ وَجْنَتِي
وَلَا حِظَّ مَكَاناً دُفَعْنَا إِلَيْهِ
كَأَنِّي لَمْ أَمْشِ يَوْماً عَلَيْهِ
فَهَا أَنَا قَدْ صَرْتُ رَهْناً لَدِيهِ ^(٣)

(١) الغزال: ص ٨١-٨٢.

(٢) نفع الطيب: ١١١/٥.

(٣) التكملة لكتاب الصلة: ص ٢٦٨-٩، وأزهار الرياض: ١/٢٧٥، ونفع الطيب: ٣/٤٣٤.

والإيداع في القبر هو مرحلة من مراحل الوحدة والوحشة، حيث لا سمير ولا رفيق، حيث جميع الناس من الأحياء سينشغلون في أمور دنياهم، يقول الغزال:

وما أفرق يوماً مَنْ أفرقهُ
أنظر إليّ إذا أدرجت في كفني
إلا حسبتُ فراقِي آخرَ العهدِ
واقعدُ قليلاً وعاین مَنْ يُقيمُ نعي
وانظرُ إليّ إذا أدرجتُ في اللحدِ
هيهاتَ كلُّهمُ في شأنِهِ لعبٍ
مَنْ يُشيعُ نعشي مِنْ ذوي ودِّي
يرمي الترابَ ويحشوه على خَدِّي^(١)

ويقول أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي:

هأنذا في التراب وحدي
فلا ظهير ولا نصير^(٢)

ومع هذا الاستيحاش في ظلمة القبر فإنَّ الإقامة فيه طويلة الأمد. يقول إبراهيم بن عبد الرحمن بن يخلف القيسي المعروف بابن النشا الوادي أشي:

وعن قريبٍ أحلُّ قبراً
فبلغوا مَنْ رأيتموه
أطيلُ في قعرِهِ المُقاما
بعدي يا إخوتي السلام^(٣)

ويؤكد عبد الكريم القيسي هذا المعنى، وهو يتحدث عن نفسه بضمير الغائب، مشيراً إلى أنَّ إقامته في القبر، ستطول حتى يوم القيامة:

ويجنحُ للدنيا اعتذاراً وإنه
ويترك فيها ما حواه لغيره
سيرحلُ عنها عن قريبٍ إلى القبرِ
إلى جدتِ بيتِ التغرُّبِ والبلَى
ويذهبُ عنها مُعدماً منه ذا فقرٍ
يُقيمُ بهُ حتى القيامة والحشر^(٤)

(١) ديوانه: ص ٦٤.

(٢) المطرب: ص ٢٣٣.

(٣) بغية الوعاة: ٤١٧/١.

(٤) ديوانه: ص ٤٦٣.

وأما أبو جعفر أحمد بن أيوب اللّماي فيصف القبر ويشير إلى مساحته:

بنيتُ ولم أَسْكُنْ وَحَصَّنْتُ جَاهِداً
فلما أتى المقدورُ صَيَّرَهُ قَبْرِي
ولم يكُ حَظِّي غَيْرَ ما أَنتَ مبصرٌ
بعينك ما بين الذراعِ إلى الفترِ^(١)

وإذا كان يتعذّرُ على الأهل والأصدقاء والأحباء أن يرافقوا الميتَ في قبره، ويؤنسوا وحشته، وكلّ منهم سوف يضحك بعد بكاء ويسلو بعد فراق، فلم يبقَ إلى الأمل بالله سبحانه وتعالى، وإلى هذا المعنى يشير أبو بكر محمد بن ولّاد:

أرجوك يا ربُّ في سرِّي وفي علني
إنَّ الرجاءَ إليك اليومَ يحملني
مَنْ ذا يُوْنْسِي في القبرِ منفرداً
إنَّ لم تكنْ أنتَ يا مولاي تُؤنّسني
وسوف يضحكُ خلٌّ قد بكى جَزَعاً
بعدي ويسلو الذي قد كان يندبني^(٢)

ويقول أبو الوليد وأبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي القرطبي:

أسير الخطايا عند بابك واقفُ
على وجلٍ مما به أنتَ عارفُ
يخاف ذنباً لم يغبْ عنك غيبها
ويرجوك فيها فهو راجٍ وخائفُ
ومن ذا الذي يُرجى سواك ويُتقى
وما لك في فصل القضاء مُخالفُ
فيا سيدي لا تُخزني في صحيفتي
إذا نُشرتْ يوم الحساب الصحائفُ
وكنْ مؤنسي في ظلمة القبرِ عندما
يَصُدُّ ذوو القربى ويجفو المؤالفُ
لئن ضاق عني عفوك الواسعُ الذي
أُرجي لإسرافي فأُنسي لتألف^(٣)

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة: ٢٤٣/١ وفيه: "ولم يكن" ولا يستقيم معه الوزن.

(٢) تحفة القادِم: ص ٣٨، والوافي بالوفيات: ١٧٦/٥.

(٣) نفع الطيب: ١٢٩/٢.

وتناول جملة من الشعراء الأندلسيين فكرة اللقاء بالأحبة بعد الموت، ومنهم لسان الدين بن الخطيب:

هل يُباحُ الورودُ بعدَ زيادٍ أو يُتاحُ اللقاءُ بعدَ انتزاحٍ؟
وإذا أعوزَ الجسومَ التلاقي نابَ عنه تعارفُ الأرواح^(١)

ولهُ وقد حزن على موت زوجته حزناً شديداً وكانَ دفَنَها بنفسه في مدينة "سلا" المغربية، يقول:

أما وقد غاب في تراب سلا وجهُك عني فلستُ بالسالي
فانتظريني فالشوق يُقلقني ويقتضي سرعتي وإعجالي
ومَهَّدي لي لديك مضجعاً فعن قريبٍ يكونُ ترحالي^(٢)

ولعلَّ أحمد بن سعيد بن سليمان بن جودي يشير إلى مثل هذا بقوله عندما أيقن بحلول موته:

وأدُّ إلى عِرسي السلامَ وقلْ لها عليك سلامي إلى موقفِ الحشر^(٣)

وإلى هذا المعنى أيضاً ذهب الوزير أبو بكر الصائغ بقوله:

وسألنا متى اللقاء فقالوا الـ حشرُ قلنا: صبراً إليه وحُزنا^(٤)

أمَّا العاقبةُ بعد الموت، والحساب في يوم القيامة، وهي مرحلة تالية للقبر، فقد أخذت حيزاً كبيراً في قصيدة رثاء النفس الأندلسية، ومن المعاني التي تدور حول هذه

(١) نفح الطيب: ٦/٥٠٩-١٠.

(٢) نفاضة الجراب: ص ٢٠٥.

(٣) المقتبس في تاريخ الأندلس: ص ١٤٩.

(٤) فلاتد العقيان: ص ٧٣٠.

العاقبة الحيرة والسؤال في ذهن الشاعر عنها وكيف تكون في اليوم الآخر. يقول أبو عمران موسى بن عمران المارثلي:

كَأَنْ بِي وَشِيكاً إِلَى مَصْرَعِي يُسَاقُ بِنَعْشِي وَلَا أُمَهْلُ
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي بَعْدَ السَّوَالِ وَطُولِ الْمُقَامِ لِمَا أُنْقَلُ! ^(١)

ويقول أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت:

سَكْتُكَ يَا دَارَ الْفَنَاءِ مُصَدِّقاً بَأْتِي إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ أَصْغِيرُ
وَأَعْظَمُ مَا فِي الْأَمْرِ أَنِّي صَائِرُ إِلَى عَادِلٍ فِي الْحُكْمِ لَيْسَ يَجُورُ
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ الْقَاءُ عِنْدَهَا وَزَادِي قَلِيلٌ وَالذُّنُوبُ كَثِيرُ
فَإِنْ أَكْ مَجْزِئاً بِذَنْبِي فَإِنْسِي بِشَرِّ عِقَابِ الْمَذْنُوبِينَ جَدِيرُ
وَإِنْ يَكْ عَفْوٌ مِنْهُ عَنِّي وَرَحْمَةٌ فَكَيْفَ نَعِيمٌ دَائِمٌ وَسُرُورُ ^(٢)

وما هذه الحيرة إلا لأنَّ الشاعر كان قد انغمس بملذَّات الدنيا وارتكب المعاصي، ولم يتوقَّ لهذه العاقبة ولم ينتبه إلا بعد الإحساس باقتراب الأجل المحتوم، كما هو حال أبي إسحاق الألبيري:

هِيَ الْأَقْدَارُ وَالْأَجَالُ تَأْتِي فَتَنْزِلُ بِالْمَطْطَبِ وَالطَّبِيبِ
تَفُوقُ أَسْهَمًا عَنْ قَوْسٍ غَيْبِ وَمَا أَغْرَضَهَا غَيْرَ الْقَلُوبِ
فَأَتَى بِاحْتِرَاسٍ مِنْ جَنُودِ مُؤَيَّدَةٍ تُمَدُّ مِنَ الْعُيُوبِ
وَمَا آسَى عَلَى الدُّنْيَا وَلَكِنْ عَلَى مَا قَدْ رَكِبْتُ مِنَ الذُّنُوبِ

(١) الغصون الياضعة: ص ١٣٧، والمغرب في حلى المغرب: ٤٠٧/١، ونفع الطيب: ٢٩٦.

(٢) أبو الصلت: ص ٨٧، وانظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ٥٠٣/١، ووفيات الأعيان:

٢٧٠/٢، والوفاء بالوفيات: ٤٠٥/٩، ونفع الطيب: ١٠٨/٢ و ٢٩٧/٣-٨.

فيا لهفي على طولِ اغتراري
إذا أنا لم أنح نفسي وأبكي
فَمَنْ هذا الذي بعدي سييكي

ويا ويحي من اليوم العصيب
على حُوبي بـتـهـتانٍ سـكـوبٍ
عليها من بعيدٍ أو قريبٍ؟^(١)

ومثله أبو بكر عبد الرحمن بن محمد بن مغاور الشاطبي الذي أرقه التفكير في ما ارتكب من ذنوبٍ ثقالٍ عند حضور الموت:

قل لمن سأل عن شكاتي وحالي
ليث شعري وهي الجبال الرواسي
وهي دائي وليس لي من دواءٍ
فإذا متُ مسلماً فانتقالي
وإذا كان لـلالـه مـرادـي
إن ظنني بالله ظنٌ جميلٌ

لست أشكو غير الذنوب الثقال
مَنْ يُجرني من صعق هذي الجبال
غير صفحٍ لذي الرضى والجلال
من محل الغرور خير انتقال
لا أبالي من ميتة لا أبالي
وهو حسي في مبدلٍ ومآلٍ^(٢)

وفي قصيدة رثاء أخرى لنفسه يأمل عفو ربه لما اقترف من تلك الذنوب، بعد أن ينسب الجزع الخوف من العاقبة لأهله ومحببه الذين تولوا دفنه:

أودعوني بطن الضريح وخافوا
قلت: لا تجزعوا عليّ فأنني
واتركوني بما اكتسبت رهيناً

من ذنوبٍ كلومها بأديمي
حسن الظن بالرووف الرحيم
غلق الرهن عند مولى كريم^(٣)

(١) ديوانه: ص ٣٧.

(٢) ابن مغاور الشاطبي: ص ٢٢٨.

(٣) زاد المسافر: ص ٨١، والتكملة لكتاب الصلة: ٤٠/٣، وتحفة القادم: ص ٢٥، ونفح الطيب:

٣/٣٣١.

ويتعلق ابن شهيد بمثل هذا الرجاء فيقول مخاطباً صديقه ابن حزم:

وتذكر أياي وفضل خلائقي	فلا تنس تأبيني إذا ما ذكرتني
إذا غيبتني كل سهم غرائق	وحررك له بالله مهما ذكرتني
بترجيع شاد أو بتطريب طارق	عسى هامتي في القبر تسمع بعضه
فلا تمنعوها لي علالة راهق	فلي في ادكاري بعد موتي راحة
ذنوبي به مما درى من حقائق ^(١)	وإنى لأرجو الله فيما تقدمت

أما عاقبة المذنبين فما هي إلا النار والعذاب، فهذا ابن حمديس يحدث نفسه ويتذكر موقفه في ذلك اليوم وما يمكن أن يناله من عقاب شديد:

يكون منهُ مطلعك	مغربك القبر الذي
فالله سوف يجمعك	إن فرقتك تُربة
أهوأله ترؤعك	وللحساب موقف
لمسك منهُ إصبعك	كم جر ما أشفقت من
من كل وجه تلذعك	فكيف بالنار التي
ناديتهُ ويسمّعك	يراك ذو العرش إذا
لغيره تضرعك ^(٢)	فثق به ولا يكن

ومنهم من يكتفي بالنلميح والإشارة إلى ما تكون عليه العاقبة مثل محمد بن عبد الله ابن الغازي بن قيس القرطبي:

ماذا تعين هذي العين من عجب
عند الخروج من الدنيا إلى الله؟^(٣)

(١) مطمح الأنفس: ص ٢٠١.

(٢) ديوانه: ٣٤٨.

(٣) بغية الوعاة: ١/ ١٤٠.

ويؤمل ابن الناظر الحسين بن عبد العزيز بن محمد أن يحظى بدار النعيم ويوضع موضع الأبرار في الجنة:

وأملتُ من مولاي نظرة رحمةٍ يكونُ بها مَتى إليه بلاغُ
فأحظى إذا الأبرار قيل لهم غداً هلمُّوا إلى دار النعيم فراغوا^(١)

ويعارضه أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف السكوني، فينظم رثاءه لنفسه على وزن قصيدة ابن الناظر وقافيتها، وهي قافية صعبة، ويؤكد معنى الرجاء بحسن العاقبة بعد أن يتفكر المسلمُ بحتمية الموت وأن يعيشه قبل أن يحدث:

ومن لم يمتَ قبل المماتِ فإنه يُراعُ بهولٍ بعدهُ ويُراعُ
فيا ربَّ وفقني إلى ما يكون لي به للذي أرجوك منه بلاغُ^(٢)

ويقول الفقيه علي بن أحمد بن سعيد بن حزم مشيراً إلى شدة العاقبة:

هل الدهرُ إلّا ما عرفنا وأدركنا فجائعه تبقي ولدائهُ تَفنى
إذا أمكنتُ منه مَسرةُ ساعةٍ تولّتُ كمرَّ الطرفِ واستخلفتُ حُزنا
إلى تبعاتٍ في المعادِ وموقفٍ نوذُ لسيده أننا لم نكنْ كُنّا^(٣)

وقد شاعت على ألسن الشعراء الأندلسيين وهم يرثون أنفسهم معاني الجزاء بجنس العمل، فإما أن يفوز المسلمُ في الآخرة بجنات النعيم فيكون فيها من الخالدين، وإما أن يُعاقب بجهنم يصلى فيها ناراً تستعر، وإلى هذا المعنى ذهب أبو الحسن منذر بن سعيد البلوطي بقوله محدثاً نفسه:

(١) بغية الوعاة: ٥٣٦/١.

(٢) نفع الطيب: ٥١٦/٥.

(٣) جدوة المقتبس: ص ٣٠٩، وبغية الملتبس: ص ٤١٦، والمعجب في تلخيص أخبار المغرب: ٤٧/١.

فلو كنت تَعْقِلُ ما ينقضي
فمالك لا تستعدُّ إذا
أترغبُ عن فجأةٍ للمنون
فإمّا إلى جنةٍ أزلقت

ويقول الوزير الحسن بن رحيم:
ولا خُطّة غير إحدى اثنتين

من العمر لا اعتضت خيراً يشرُّ
لدار المقام ودار المقرِّ؟
وتعلمُ أن ليسَ منها مفرُّ؟
وإمّا إلى سَقَرٍ تستعرُّ^(١)

فإمّا نعيمٌ وإمّا عذاب^(٢)

ويقول القاضي الشريف ابن الجياب الغرناطي:

مُعَمَّى كتابٍ فكُّهُ "احذر" فهذه
وإن طالما خاضت به اللججُ التي
وما زلت في أمواجه مُتَقَلِّباً
فقد أوشكتُ ثُلُقِيكَ في قعر حفرةٍ
ولست على علم بما أنت بعدهما
سفينة هذا العمرِ قاربت الشطّا
خبطت بها في كل مهلكة خبطاً
فآونةً رفعاً وآونةً حطّاً
تشدُّ عليك الجانبين بها ضغطاً
مُلاقٍ أرضواناً من الله أم سَخَطاً!^(٣)

ويقول الحجاري:

وقد حان ترحالي فقلْ لي عاجلاً
أأثني بخير أم أقول تمثلاً
إذا لم يكن فيكنّ ظلٌّ ولا جنى
على أي حالٍ تُنقضي عزماتي
كما قالت الخنساء في السُّمُراتِ
فأبعدكنَّ الله من شجراتِ^(٤)

(١) مطمح الأنفس: ص ٢٤٩.

(٢) ابن خفاجة: ص ٤١٣.

(٣) نفح الطيب: ٤٤٠/٥.

(٤) المغرب في حلى المغرب: ١٠١/٢.

وما هذه العاقبة إلا بحسب ما كان للمسلم من عمل في دنياه. يقول الألبيري:

وقد سلَّ الحِمَامُ عليَّ نصلاً سيقتلني وإن شأكت سلاحي
ويحملني إلى الأجداث صحي إلى ضيقٍ هنالك أو انفساح
فأجزى الخيرَ إن قدّمتُ خيراً وشرّاً جُزيتُ على اجتراحي^(١)

وأما عبد الكريم القيسي فيشير إلى هذا المعنى مع فضل تفصيلٍ فيقول متحدثاً عن نفسه بضمير الغائب:

فيُبصر أهوالاً ويلقى شدائدًا يشيبُ لها رأسُ الفتى الحدث العُمرِ
ويُسأل عن أعماله في حياته ويُجزى على ما كان من خيرٍ أو شرٍّ
فذو الخيرِ مثواه الجنانُ مرفعاً وذو الشرِّ مأواه من النارِ بالقعرِ
وشيآنِ كلِّ منهما هوَ بالجزا كفيلٌ نعيمٌ أو جحيمٌ كما تدري^(٢)

ولهذا السبب يؤكد الشعراء معنى عمل الخير في الدنيا ليحسن الجزاء في الآخرة.

يقول عيسى بن عبد الله بن قرلمان الخازن المعروف بابي الأصبغ:

كأنني سامعٌ بعدي وقد ذهبتُ نفسي ووافاني المحذور من أجلي
قولين والنعشُ موضوعٌ على جدثي قولاً عليّ بمكروهٍ وآخر لي
من شامتٍ بيّ أو محض الوداد ولم ينفع ولا ضرراً إلا سالفُ العملِ^(٣)

(١) ديوانه: ص ٤٩.

(٢) ديوانه: ص ٤٦٣.

(٣) جذوة المقتبس: ص ٢٩٩، وبغية الملتبس: ص ٤٠٣.

وإلى هذا المعنى يشير ابن شهيد بقوله:

وما أنا إلا رهنٌ ما قدّمتُ يدي إذا غادروني بين أهل المقابر^(١)

ولأبي عمر ابن عبد البر النمري الحافظ قوله:

تذكرتُ من يبكي عليّ مُداوماً فلم ألف إلا العلم بالدين والخبر

علومُ كتاب الله والسنن التي أتت عن رسول الله مع صحّة الأثر

وعلم الألى من ناقيديه وفهم ما له اختلفوا في العلم بالرأي والنظر^(٢)

ويتعلّق المؤمن بحاجته للدعاء والاستشفاع، ويتشبّث بالاستغفار وطلب العفو والرحمة من الله سبحانه وتعالى، وقد شاعت مثل هذه المعاني في قصيدة رثاء النفس الأندلسية. يقول ابن أرقم النميري الوادي آشي:

أتيتُ إلى خالقي خاضعاً ومَن خدّه في الثرى يخضع

وإن كنتُ وأفيئُهُ مُجرماً فإتني في عَفْوِهِ أَط مع

وكيف أخافُ ذنوباً مضت وأحدُ في زَلّتي يشفع!

فأخلصُ دعاءك يا زائري لعلّ الإله به يَنفَع^(٣)

ويقول أبو يحيى محمد بن عاصم الغرناطي:

أنا مما اقترفتُ في نُقَمَاتٍ كدّرتُ من مواهب العيشِ شربي

أنا مما جنيتُ في ظلماتٍ طبّقتُ لي ما بين شرقٍ وغرب

حملتني أوزارها كلُّ ثقلٍ أنا منه ما بين خوفٍ ورعب

(١) فلاتد العقيان: ص ٢٠٤.

(٢) نفح الطيب: ٣٢٧/٤.

(٣) بغية الرعاة: ٤٢/١.

وغزاني للابتلا أي جيش
وبجدي بالسيئات انتفاء
فبفكري في أمرها طار عقلي
قد أقضت من مضجعي في حياتي
لست أخشى بؤساً ولا أئقياً
دهمتني بكل خطب وإني
طرقني بكل كرب وإني

أنا منه ما بين طعن وضرب
حال فرض الدعاء منه يحجب
ويخوفي من شرها طاش لبي
وهي أدهى إذا امتطى الثرب جني
من سواها عند انفرادي بربي
لست أرجو سواه في كشف خطي
منه مستوثق بتفريج كرب^(١)

ويطلب أبو اسحاق ابن خفاجة من الواقفين بقبره السلام عليه والدعاء له بالرحمة:
خليلي هل من وقفة بتألم
خليلي هل بعد الردى من تنية
وإنا حيناً أو ردينا لأخوة
وماذا عليه أن يقول مُحياً
وفاء لأشلاء كرم من على البلى
على جدتي أو نظرة بترحم
وهل بعد بطن الأرض دار خيم؟
فمن مربّي من مسلم فليسلم
ألا عم صباحاً أو يقول ألا اسلمي
فعا ج عليها من رفات وأعظم^(٢)

وإلى مثل هذا المعنى ذهب أبي إسحاق الألبيري وزاد ذكره بعد موته من لدن
إخوته وأصدقائه وبالصفات الحسنة دون السيئة والغض من هفواته ففي ذكرهم سيئاته
شقاء له:

فيا إخوتي مهما شهدت جنازتي
وجدوا ابتهالاً في الدعاء وأخلصوا
فقوموا لربي واسألوه نجاتي
لعل إلهي يقبل الدعوات

(١) جنة الرضا: ١/١٤٤-٥.

(٢) تحفة القادم: ص ٢٤.

وقولوا جميلاً إن علمتم خلافة
ولا تصفوني بالذي أنا أهله

وأغضوا على ما كان من هفواتي
فأشقى وحلوني بخير صفات^(١)

أما المعتمد بن عباد فيستسقي لقبره فيقول:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي
كفاك، فارق بما استودعت من كرم
يبكي أخاه الذي غيبت وابلته
حتى يجودك دمع الطفل منهوراً
ولا تزل صلوات الله دائمة

حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد!
رواك كل قطوب البرق رعاد
تحت الصفيح، بدمع رائح غادي
من أعين الزهر لم تبخل بإسعاد
على دفينك لا تحصي بتعداد^(٢)

ويُجملُ ابن حمديس الكلام على ما يحدث له بعد الموت من مساءلة الملكين له،
وتجشمه جواز الصراط دون زلل يوم القيامة ليفوز بالجنة ويتفادى نار جهنم:

ما الذي أعددت للموت فقد
أذنوباً كاثرت عند الحصى
بئس ما يسمع من تعظيمها
أي خطب فادح في رقدة
وصراط لست بالناجي إذا
فلك الويل من النار إذا

قُدِّر الموت بلا شك عليك
بئس ما استكثرت من كسب يديك
ملكاً القبر به من ملكيك
يوقظ الحشر إليها مُقلتيك
وطئته زلة من قدميك
مُقلة الرحمن لم تنظر إليك^(٣)

(١) ديوانه: ص ٦٣.

(٢) ديوانه: ص ٩٦.

(٣) ديوانه: ص ٣٤٦.

ويشير في قصيدة أخرى إلى قضية فناء الدنيا، والبعث والنشور، والبقاء لله وحده سبحانه، وينصُّ على مصطلحين آخرين هما العالم السفلي وهو الحياة الدنيا، والعالم العلوي وهو الحياة الآخرة:

أرى العالمَ العلويَّ يَفْنَى جميعُهُ	إذا خَلَّتِ الدنيا من العالمِ السفلي
ويبقى على ما كانَ مِنْ قَبْلِ خَلْقِهِ	إِلَهُ هَدَى أَهْلَ الضلالةِ بالرُّسُلِ
ويبعثُ مَنْ تَحْتَ الترابِ وفوقَهُ	نشوراً، إِلَيْهِ الفضلُ، يا لَكَ مِنْ فضلٍ ^(١)

وهكذا رأينا أن صورة ما بعد الموت لم تكن لتتعدى الحدود التي رسمتها العقيدة الإسلامية السمحاء، وهي صورة خلا منها الشعر العربي في عصر ما قبل الإسلام، ولاسيما في إطار موضوعنا، فخلت، تبعاً لذلك، معانيها لدى الشعراء في عصر ما قبل الإسلام الذين "نجدهم في رثائهم لأنفسهم يسخرون مما يُصنَعُ لهم بعد موتهم"^(٢).

٤- الروح والجسد:

يرى عبد الجليل بن وهبون أنَّ الروح سرابٌ أو شعلةٌ تتصل بالتراب والماء فيتخلَّق الجسد، ثمَّ ترجعُ عنه عند الموت وتخلص منه، ولكنَّ الخلاص منه ليس كالاتصال فيه، ففي الخلاص مشقةٌ وعناء، مشيراً إلى ما يواجهه المرء ساعة مفارقة الحياة:

نَفْسِي وَجَسْمِي إِنْ وَصَفْتُهُمَا مَعاً	أَلْ يَذُوبُ وَصَخْرَةٌ خَلَقَاءُ
مَا النَّفْسُ إِلَّا شَعْلَةٌ سَقَطَتْ إِلَى	حَيْثُ اسْتَقَلَّ بِهَا الثَّرَى وَالْمَاءُ
حَتَّى إِذَا خَلَصْتُ تَعَوَّدُ كَمَا بَدْتُ	وَمِنَ الْخُلَاصِ مَشَقَّةٌ وَعَنَاءُ ^(٣)

وفي قوله: "تعود كما بدت" إشارة إلى خلود الروح في مقابل فناء الجسد.

(١) ديوانه: ص ٣٦٤.

(٢) شعر الرثاء في العصر الجاهلي: ص ٢٠١.

(٣) الذخيرة: ٧-٢٨٦/٢.

وإلى مثل هذا الرأي يذهب ابن الطفيل محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي الوادي آشي (ت ٥٨١هـ) ويرى أن الروح نورٌ يتردد في طينٍ هو الجسد لمدة معلومة محددة، وعند انتهاء هذه المدة التي هي حياة الفرد يتخلّى هذا النور (الروح) عن الطين (الجسد) ليرقى إلى مقام رفيع ويتركه للكفن، فما تلك المدة بين دخول النور في الطين ومفارقته له سوى هدنة على فساد باطن، وهو معنى قوله "هدنة على دخن":

يا باكيًا فرقة الأحباب عن شحطٍ	هلاً بكيت فراق الروح للبدن
نورٌ تردّد في طينٍ إلى أجلٍ	فانماز علواً وظلّ الطين للكفن
يا شدّ ما افترقا من بعدما علقا	أظنها هدنة كانت على دخن ^(١)

ويشير أبو عامر بن سوار الشنتريني إلى مفارقة الروح للجسد بعد الموت، ويعلن أن لا قيمة للجسد بعد أن تُفارقة الروح، فهو مفضٍ إلى التفسخ والتعفن، ولذلك فلا يستحق البكاء عليه، والثناء له، وأمّا الروح فهي باقية، وفي بقائها موجبٌ لترك البكاء عليها أيضاً:

يا لقومي دفنوني ومضوا	وبنوا في الطين فوقى ما بنوا
ليت شعري إذ رأوني ميتاً	وبكنوني أي جزأي بكوا؟
أنعوا جسمي فقد صار إلى	مركز التعفين أم نفسي نعو؟
كيف ينعون نفوساً لم تنزل	قائمات في حضيض وبجو ^(٢)

وإلى معنى تلاشي الجسد وبقاء الروح ذهب علي بن أبي جعفر بن همشك، وأقر بأن لا فائدة من وجود قبر لجسدٍ لن يكون له بقاء:

لعمرك ما أردت بقاء قبرٍ	وجسمي فيه ليس له بقاء ^(٣)
-------------------------	--------------------------------------

(١) تراجم إسلامية ومشرقية وأندلسية: ص ١٦٣.

(٢) الذخيرة: ٢/ ٢٨٧.

(٣) الروض المعطار: ص ٣٤٩.

ويؤكد أبو إسحاق الألبيري هذا المعنى من حيث أن الروح هي المحرك الأساس للجسد، فهي بمثابة القطب الذي تدور حوله وبه أدوات الجسد، ولذلك فهو يسمع ما يُقالُ عنه لأنَّ روحه يبقى حياً بعد فناء جسده، وكذلك يتكلم مع محبيه ويُناجيهم عن طريق الإيحاء:

وإن كنتُ ميتاً بين أيديكمُ لَقَى	فروحي حيٌّ سامعٌ لِنُعَاتِي
أناجيكمُ وَحياً وإن كنتُ صامتاً	ألا كلُّكمُ يوماً إليَّ سَيَاتِي
وليسَ يقومُ الجسمُ إلا بروحه	هو القطبُ والأعضاءُ كالأدواتِ ^(١)

وقد تجرأ بعض الشعراء في التطرق إلى فكرة دورة الحياة، وإن لم يتعمقوا فيها، فهذا أبو بكر ابن الصائغ التجيبي السرقسطي الذي قال عندما بلغه موته:

ألا يا رزء والأقدار تجري	بما شاءتْ نَشَأُ أو لا نَشَأُ
هَلْ أنتَ مُطارحي شجوي فتدري	وأدري كيف يُحتمَلُ القضاءُ
يَقولونَ الأمورُ تكونُ دوراً	وهذا فَقْدُهُ فمتى اللقاءُ؟ ^(٢)

ويقول الوزير أبو بكر بن زهر:

إني نظرتُ إلى المرأةِ إذ جُلِيتُ	فأنكرتُ مقلتاي كلَّ ما رأتا
رأيتُ فيها شُيخاً لستُ أعرفُهُ	وكنْتُ أعهدُهُ من قبل ذاك فتى
فقلتُ أين الذي بالأمس كان هنا	متى ترحَّلَ عن هذا المكانِ متى؟
فاستجھلنني وقالت لي وما نطقْتُ	قد كان ذاك وهذا بعد ذاك أتى ^(٣)

(١) ديوانه: ص ٦٣.

(٢) قلائد العقيان: ص ٧٢٦، ونفع الطيب: ١٩/٧.

(٣) معجم الأدباء: ٢١٨/١٨.

ويثيرُ منظرُ الجبلِ ابنَ خفاجةَ فيراهُ باقياً شاهداً على تجدد العصور، وتعاقب الأجيال والأزمنة، مع استمرار الحياة فيجسّدُ على لسانه فكرة بقاء الحياة من خلال دوران الأرواح بين أجساد البشر وشخوصهم التي تفتنى باستمرار:

أصختُ إليه وهو أحرصُ صامتٌ	فحدّثني ليل السرى بالعجائبِ
وقال: إلى كم كنتُ ملجأً قاتلٍ	وموطن أواهٍ تبتلّ تائبِ
وكم مرّ بي من مدلجٍ ومؤوبٍ	وقال بظّلّي من مطيّ وراكبِ
ولا طم من نكب الرياحِ معاطفي	وزاحم من خصر البحار غواربي
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى	وطارت بهم ريح النوى والنوائبِ
فما خفق أيكي غير رجعة أضلعٍ	ولا نوح ورقى غير صرخة نادبِ
وما غيّض السلوان دمعِي، وإنما	نزفتُ دموعي في فراق الصواحبِ
فحتّى متى أبقى ويطعنُ صاحبٌ	أودع منه راحلاً غير آئبِ
وحتّى متى أرعى الكواكب ساهراً	فمن طالع أخرى الليالي وغاربِ ^(١)

ويتمنى أبو عامر بن ينق الشاطي أن تكون دورة الحياة في الشخص نفسه، إذ تتجدد حياته برجوع روحه مباشرةً إلى جسده نفسه بعد خروجها، وبهذا يُكتَب له الخلود، ولكن هذا الأمر لن يتعدّى كونه أمنية تعز على التحقيق، ويبقى جسد الإنسان غير جدير بها:

ما أحسن العيش لو أن الفتى أبداً	كالبدْرِ يرجو تماماً بعد نقصانِ
إذ لا سبيلَ إلى تخليد مائرةٍ	إذ لا سبيلَ إلى تخليدِ جثمانِ ^(٢)

وهكذا رأينا أن الشاعر الأندلسي لم يتعمّق كثيراً في تناول الروح والجسد أكثر مما كان يُسمح له بذلك، على وفق ما نعرفه من ضيق مجال التفلسف هناك.

(١) ديوانه: ص ٣٦٧-٨.

(٢) نفح الطيب: ٥٩٦/٣.

٥- التعلق بالحياة

على الرغم من سيادة الإيمان بالموت والاعتراف بمغادرة الحياة في رثاء النفس في الشعر الأندلسي، فإن كثيراً من الشعراء لم يتوانوا عن التصريح بتعلقهم بالحياة، وأسفهم الشديد لانتهائها ومغادرتهم لها، وكان هذا أمراً غير مُستغرب لدى أصحاب الجاه والسلطان والثروة، وآخرين ممن تعلّقوا بأسباب الحياة من لَهوٍ ولذّةٍ ومتعةٍ واسترخاء، تجافوا عن تعاليم الدين الحنيف.

على أن هؤلاء الشعراء أنتجوا شعراً على قدر كبير من الأهمية من حيث توفّره على جمال الأسلوب وقوّة النظم وبراعة المعاني، وما ذاك إلا لأنهم تشبّثوا بالحياة بأقوى الأسباب، وأفرغوا من أجلها شديد عاطفتهم، وعميق حُبهم، وحقيقة نزوعهم، وعظيم حرصهم على اقتطاف المزيد من ملذّاتها، وفي مقابل ذلك نجد الهدوء والاستسلام وضعف العاطفة من أهم ما يطبع شعر المؤمنين الصالحين الذين آمنوا باليوم الآخر، وأيقنوا بشديد العقاب وجزيل الثواب، فضعف شعرهم لضعف تعلقهم

بالحياة وهي زائلة وهم يودّعونها، وكأنهم يتمثلون الآية الكريمة: "وإنما تُوفّون أجوركم يوم القيامة فمن رُحِزَ عن النار وأُدْخِلَ الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا مُتّعٌ وغرور"، أو الآية الكريمة^(١): "فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين"^(٢)، وشأن بين تمنّي الحياة والتشبّث بها، وبين طلب الموت والتعلّق بالآخرة.

هذا أبو الحسن بن الفضل الأريولي يأسف على أنه سيغادر الدنيا قبل أن يبلغ ما يرجوه منها:

ولم أبلغ من الدنيا مُرادِي؟

حيا الإخوان أو حرب الأعادي^(٣)

فأأسف أن أدركني المنايا

وما هو غير أن أدعى وحسي

(١) آل عمران: الآية ١٨٥.

(٢) الجمعة: الآية ٩٤.

(٣) أدباء مالقة: ص ٤٠٦.

وإلى مثل هذا المعنى أشار أبو الحجاج البلوي في قوله:

أؤمِّلُ آمالاً ولستُ بعارفٍ أأبلغها أم يبلغ الموتُ قبلها
وللمرءِ نفس لا تزال بحرصها تُمَنِّي وتهوى أن تُبلِّغَ سُؤلها^(١)
وهو لشدة تعلُّقه باللذات وارتكاب الخطايا من أجلها لا يمنح للتوبة والإحسان
على الرغم من إحساسه بالخطأ وإعجابه بالتوبة إذا صدرت من سواه:
ألا يا ويح نفسي ما لها إذ تميلُ بها إلى الخيرات. تابي
فما لي لا أتوبُ من الخطايا ويعجبني إذا ذو الذنب تابا!^(٢)
وهذا أبو بكر الصائغ وقد فشل في الفرار من الموت، ولم يكن له بدٌّ من الاستسلام
له في نهاية الأمر:

أقول لنفسي حين قابلها الردي فراغتُ فراراً منه يُسرى إلى يُمْنِي
قري تحمدي بعض الذي تكرهينه فقد طال ما اعتدتُ الفرار إلى الأهنى^(٣)

وأما الألبيري فإنه على الرغم من موته إلا أنه يبقى متعلّقاً بأسباب الحياة، يطلب
من إخوانه وأحبته أن يدعوا له بالنجاة من عذاب الآخرة، وأن يذكروه بخير، ويعترف
بأنه لم يفارق الحياة إلا مجبراً، وإن زفراته ما زالت متعلقةً بالدنيا:

فيا إخوتي مهما شهدتم جنازتي فقوموا للرُّبِّي واسألوه نجاتي
وجدوا ابتهالاً في الدعاء وأخلصوا لعلَّ إلهي يقبلُ الدعواتِ
وقولوا جميلاً إن علمتمُ خلافةُ وأغضوا على ما كان من هفواتي
ولا تصفوني بالذي أنا أهله فأشقي، وحلّوني بخير صفاتِ

(١) زاد المسافر: ص ٨٢، وأدباء مالقة: ص ٣٣٠.

(٢) أدباء مالقة: ص ٤٠٢.

(٣) قلائد العقيان: ص ٧٣٧، والوافي بالوفيات: ٢/ ٢٤١، ونفح الطيب: ٧/ ٢٤.

ولا تتناسوني فقيماً ذكرتكم وواصلتكم بالبرّ طولَ حياتي
وبالرغم فارتقتُ الأحبة منكم ولما تفارقني بكم زفرا تي^(١)

ويعجب ملك غرناطة يوسف الثالث من تمكن الموت منه وعدم قدرته على رده
وتفاديه وقد كان الموت طوع حدّ سيفه:

خليلي لم يخش الردى حدّ مرهفي فيا عجباً والموت في صفحاته
وطيف يقيل الدهر للموتِ عشرة ونحن نقيل الدهر من عثراته
ولكنني لم ألق للموتِ دافعاً يرُدُّ الذي قد خيف من سطواته^(٢)

وعندما يحيق الموتُ بآبن شهيد فإنه يتمنى الهرب منه إلى رأس جبلٍ شاهقٍ يتغذى
بقليلٍ من الخبواب ويحتسي النزرَ من ماء صخوره حيث يظنُّ الخلاص:

ولما رأيتُ العيشَ ولّى برأسه وأيقنتُ أن الموتَ لاشكّ لاحقي
تميّتُ أني ساكنٌ في غيابةٍ بأعلى مهبّ الريح في رأس شاهقٍ
أذرُ سقيطَ الحبِّ في فضل عيشةٍ وحيداً وحسبي الماءُ ثني المفالق^(٣)

ويصل التشبث بالحياة والحرص عليها من قبل بعض الشعراء إلى البكاء جزعاً من
الموت، ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن علي بن أحلى الذي يقول:

خليلي قد ضاقت عليّ مذاهي وكفكفت نفسي عن جميع مطالبي
وضاقت جفون العين من عبراتها لأمرٍ يراه الخبرُ ضربةً لازباً^(٤)

(١) ديوانه: ص ٩٩.

(٢) ديوانه: ٢١-٢٢.

(٣) ديوانه: ص ١٠١.

(٤) الحلة السراء: ٣١٦/٢.

ويقول محمد بن سعد بن أحمد بن لبّ:

أَبَادَ الْبَيْنُ أَجَادَ التَّلَاقِي
وَحَالَتْ بَيْنَنَا خَيْلُ الْفِرَاقِ
فَجُودُوا وَارْحَمُوا وَارْثُوا وَرُقُوا
عَلَى مَنْ جَفَّتْهُ سَكْبُ الْمَآقِي^(١)

ويقول أبو بكر الكتندي:

لَأَمْرٍ مَا بَكَيْتُ وَهَاجَ شَوْقِي
وَقَدْ سَجَعْتُ عَلَى الْأَيْكِ الْحَمَامُ
لَأَنَّ بِيَاضَهَا كِيَاضَ شَيْيِ
فَمَعْنَى سَجَعَهَا قُرْبَ الْحِمَامِ^(٢)

وقد يعظمُ حزنُ الشاعر وهو ينظرُ في أمر مفارقتِه الحياة، فيرى أنَّ بكاءه وحده على هذا القدر المحتوم لا يَكفيه، ولا يقومُ بحقه، فيطلب من أحبته أن يساعده على ذلك ليخفف عنه عبء هذا القدر الذي لا يختصُّ به وحده، وهذا ما كان لدى البليقي:

أَلَا سَاعِدُونِي فِي الْبَكَاءِ فَأُدْمَعِي
غَزَارٌ وَلَكِنْ مَا قَضَتْ حَقَّ أَشْجَانِي
فِيَا كَمَدِي رَدُّ الدَّمُوعِ لِبَاطِنِي
لَتَسْقِي أَوْجَالِي فَتَمُرَ أَشْجَانِي
أُبْكِي شَبَاباً قَدْ مَضَى صَفْوُ مَائِهِ
وَأَقْبَلَ شَيْبٌ أَبْيَضٌ مِثْلُ أَكْفَانِي
مَضَى كُلُّ أَقْرَانِي وَأَهْلِي وَأَسْرَتِي
وَمَا قَدْ لَقُوا يَا حَسْرَتِي سَوْفَ يَلْقَانِي
بَكَيْتُ لِبَلَوَى كُلِّكُمْ مُبْتَلَى بِهَا
فَفِي الْحَقِّ أَنْ تَبْكُوا عَلَى مَا قَدْ أَبْكَانِي^(٣)

ويبلغُ التشبُّثُ بالحياة أقصى مَدَيَاتِهِ عندما لا يكتفي الشاعر بالبكاء على نفسه، بل يُحْمِلُ الموجوداتِ وعناصرَ الطبيعة وزرَّ مفارقتِه الحياة، ويرى لبكائها عليه بعد موته

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج: ص ٤٦٠.

(٢) زاد المسافر: ص ٨٢.

(٣) شعر البليقي: ص ٧٧-٧٨.

تخفيفاً عنه وقد واجهَ قَدْرَ الموتِ مجبراً، وتعظيماً لشأنه في الحياة، وأسفاً على أنه مات، وأغلب هؤلاء الشعراء هم ممن كان لهم شأن خطير في الحياة في مجالات السياسة والشهرة والعلم، ومنهم ذوو الوزارتين أبو بكر محمد بن أحمد بن رُحيم الذي يقول:

تُقَارِعُنِي أَيْدِي النُّوَى كُلِّ سَاعَةٍ	وَتُخَصِّمُنِي الدُّنْيَا بِالسَّنَةِ لُدٍّ
تُسَاتِرُ حَرْبِي ثُمَّ تُظْهِرُ سِلْمَهَا	وَتُنَوِي هَلَاقِي وَهِيَ تُسَفِّرُ عَنْ وَدٍّ
لِذَلِكَ سَلَّ الْبَرْقُ صَفْحَةً نَصْلِهِ	وَصَلَّصَ صَوْتُ الرِّعْدِ خَوْفًا عَلَى فَقْدِي
أَلَمْ يَأْنِ لِلْأَيَّامِ أَنْ تَقْضِيَ النُّوَى	وَتَبْكِي كَمَا يَبْكِي الْغَمَامُ عَلَى بُعْدِي؟ ^(١)

ومثل هذا المعنى تردّد لدى ذي الوزارتين ابن زيدون إذ قال:

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَبْكِي الْغَمَامُ عَلَى مِثْلِي؟	وَيَطْلُبُ ثَأْرِي الْبَرْقُ مَنْصَلَتَ النَّصْلِ؟
وَهَلَّا أَقَامَتْ أَنْجَمُ اللَّيْلِ مَأْتَمًا	لِتَنْدَبَ فِي الْآفَاقِ مَا ضَاعَ مِنْ تَتْلِي؟ ^(٢)

ولابن خفاجة في مثل ذلك:

أَلَا سَاجِلُ دُمُوعِي يَا غَمَامُ	وَطَارِحِي بِشَجْوِكَ يَا حَمَامُ
فَقَدْ وَفَّيْتُهَا سِتِّينَ حَوْلًا	وَنَادَيْتَنِي وَرَائِي: هَلْ أَمَامُ؟ ^(٣)

وينضمُّ الرمادي إلى هذا الرعيل من الشعراء فيقول في هذا المعنى:

عَلَى كَبْرِي تَهْمِي السَّحَابُ وَتَذَرُفُ	وَمِنْ جَزْعِي تَبْكِي الْحَمَامُ وَتَهْتَفُ
كَأَنَّ السَّحَابَ الْوَارِفَاتِ غَوَاسِلِي	وَتِلْكَ عَلَى فَقْدِي نَوَائِحُ هُتَفُ ^(٤)

(١) فلائذ العقيان: ص ٣٠٤.

(٢) ديوانه: ص ٢٦٢-٣.

(٣) ديوانه: ص ٢٣٨.

(٤) مطمح الأنفس: ص ٣٢٠، ونفح الطيب: ٣٩/٤.

وأما الملك المعتمد بن عباد فإنَّ أقرب من يبكي عليه بعد موته هو أدواتُ ملكه
وآياتُ سلطانه، ومنها سريرُ الملك وتاجُهُ وقصوره "الزاهي" والزاهر" و"الثريا"
والوحيد"، وقد أشار إلى ذلك في عددٍ من قصائده، فمنها قوله:

غريبٌ بأرض المغربين أسيرُ	سيبكي عليه منبرٌ وسريرُ
وتندبُه البيضُ الصوارمُ والقنا	وينهلُ دمعُ بينهنَّ كثيرُ
سيبكيه في زاهيه والزاهر الندى	وطلابُه، والعرفُ ثمَّ نكيرُ ^(١)

ومنها قوله كذلك:

بكى المباركُ في إثرِ ابنِ عبَّادٍ	بكى على إثرِ غزلانٍ وآسادٍ
بكتُ ثريَّاهُ لا غُمْتُ كواكبُها	يمثلُ نوءُ الثريا الرائح الغادي
بكى الوحيدُ، بكى الزاهي وقبَّتهُ	والنهرُ، والتاجُ، كلُّ دُلَّه بادي ^(٢)

ومن الشعراء الأندلسيين مَنْ كان يطمع بحياةٍ أطول، ويمتني نفسه بأملٍ واسعٍ في
الحياة ويأسف لانقطاعها، ومنهم محمد بن عبد الله الأنصاري البُلنسي بقوله:

النفْسُ تطمعُ والأقدارُ واسعةٌ	وبين هذينِ عمرُ المرءِ ينقطعُ
وكَلِّما زدتُ سنًا زادني أملِي	فالعمرُ ينقصُ والأيامُ تُسعُ ^(٣)

بل هناك مَنْ تمتَّى ألاً ينقضي العمر، فلا يبلغ العمرُ المدى حتى يرجعَ ليبدأ من
جديد، وهو نزوع إلى الخلود الذي لا سبيل إليه لمخلوق، وهذا هو المعنى الذي أراده أبو
عامر بن يَتَّى الشاطبي في قوله:

(١) ديوانه: ص ٩٨.

(٢) ديوانه: ص ٩٥.

(٣) أدباء مالقة: ص ١٠٢.

ما كان أحسنَ لو أنَّ الفتى أبداً كالبدْرِ يرجو تماماً بعدَ نُقصانٍ^(١)
ومن وجوه تعلّق الشعراء بالحياة رغبَتهم في بقاء ذكرهم مخلّداً بين الناس، بعد الموت، وهو نوع من أنواع الاعتزاز بالذات والفخر بها، ومن هؤلاء الشعراء ابن الخداد الوادي أشي الذي يقول:

إلى الموتِ رُجعي بعد حينٍ فإنَّ أُمْتُ فقد خُلِدْتُ خُلْدَ الزمانِ منافي
وذكرِي في الآفاقِ طار كأنه بكلِّ لسانٍ طيبٍ عذراءٍ كاعِبٍ
ففي أيِّ عِلْمٍ لم تَبَرِّزْ سوابقي وفي أيِّ فنٍّ لم تُبَرِّزْ كتائبِي^(٢)

ومنهم أبو الفضل بن شرف الذي يرى في تخليد مآثره بعد موته تعويضاً له عما فاتته في حياته من كثيرٍ مما كان يطمع فيه، ومن ذلك منزلة ساميةً تليقُ به بين الناس:

لعمرك ما حصلتُ على خطيرٍ من الدنيا ولا أدركتُ شَيْئاً
وها أنا خارجٌ منها سلباً أَقْلَبُ نادماً كلتَا يَدَيَا
وأبكي ثمَّ أعلمُ أنَّ مَبْكَأ يَ لا يُجدي فأمسحُ مُقْلَتِيَا
ولم أجزعْ لهولِ الموتِ لكنَّ بَكَيْتُ لِقَلَّةِ الباكي عَلِيَا
وأنَّ الدهرَ لم يعلمْ مكاني ولا عرفتُ بنوهُ ما لَدَيَا
زمانٌ سوفَ أنشرُ في نُشْرَا إذا أنا بالحمامِ طُويْتُ طَيَا
أَسْرُبًا نِي سَاعِيشُ مَيَّتَا بِهِ ويسوؤني أنْ مُتُّ حَيَا^(٣)

ومثل هذا الاتجاه إلى الحياة والتشبث بها والتعلق بأسبابها يندرُ أن يُسهم فيه الشعراء من الفقهاء ورجال الدين والمؤمنين الصالحين الذين يرون فيه اعتراضاً على مشيئة الله، بل هم يتشوّقون إلى لقائه، باستثناء ما كان طلباً للذكر والدعاء بعد الموت طلباً

(١) نفح الطيب: ٥٩٦/٣.

(٢) نفح الطيب: ٤٩/٤.

(٣) نفح الطيب: ٢٢٩/٣.

للمغفرة، فضلاً عن أنه يتذبذبُ بين الضعف والقوة تبعاً لضعف العامل السياسي أو قوته، فكلما قويَّ العامل السياسي ضعفَ الاتجاه إلى الدين، وقويَّ التَّشبُّثُ بالحياة، وكلما ضعفَ العاملُ السياسي قويَّ الاتجاهُ إلى الدين، والتَّشبُّثُ بالآخرة، ولقد كان الأمر على هذه الوتيرة من التذبذب في العصور السياسية كافةً في الأندلس.

الخاتمة

حاولت هذه الدراسة أن تُثبت أن رثاء النفس في الشعر يمكن أن يكون غرضاً قائماً بذاته شأنه شأن الأغراض الأخرى المستقلة، وقد أرُخت لهذا الغرض فرأيناه يُرافق الأغراض الأخرى منذ وقتٍ مبكّر جداً في الأندلس واستمرّ حتى آخر يوم من أيام الوجود العربي فيها، بل إلى ما بعد ذلك بقليل.

ولقد كان رثاء النفس في الشعر الأندلسي سيجلاً لأحداث تاريخية كثيرة لارتباطه برثاء أصحاب السلطان لأنفسهم ولاسيما عندما يتعرضون لعقوبة الموت أو زوال سلطانهم، كما كان سيجلاً لطبيعة العلاقات الاجتماعية بين الآباء والأبناء، والأزواج، والإخوة، والأصدقاء، والأساتذة والطلاب من خلال رثاء الآخر، وسيجلاً لتاريخ حياة الشاعر نفسه من حيث الدلالة على ما بلغه من العمر، أو تاريخ ولادته ووفاته، غير أن إسهام المرأة فيه كان نادراً.

وفضلاً عن ذلك استوعب هذا النمط من الرثاء التعبير عن حياة الأندلسيين في جانبها الروحي والمادي، وفلسفتهم في الحياة والموت موقفهم منهما، كما دلّ على إسهام عدد كبير جداً من الشعراء، ومنهم الكبار والمشهورون، فيه، فضلاً عن إسهام غلبة القوم من الرؤساء والملوك والأمراء والوزراء والقوّاد ورجال الدولة على اختلاف منازلهم، وكذلك رجال الدين والفقهاء والزهاد والمتصوفة، فأدّى ذلك إلى كثرة بواعث النظم في هذا الغرض وتنوّعها، وإسهام الشاعر في أكثر من باعث واحد، ومن الشعراء من رأى نفسه عدة مرات، كما نتج عن ذلك كله كمّ هائل من النصوص الشعرية التي كان الكثير منها ذا قيمة فنية عالية تبعاً لظروف الشاعر وهو يرثي نفسه، وطبقته الشعرية، ومقدار تعلقه بالحياة، وعمره، ومكانته في المجتمع.

ومن طريف ما أفاد به رثاء النفس في الشعر الأندلسي هو التقاليد والعادات والمعتقدات الخاصة بالموت لدى المسلمين في الأندلس كالاختصار والوصية والتشييع والدفن والدعاء والقبر وما بعد الدفن من ضيق القبر وظلمته والاستيحاش فيه وسماع

كلام الآخرين، وما بعد الموت في الحياة من دعاء للميت وذكرٍ طيبٍ حسنٍ وآثار باقية، وما بعده في الآخرة من عاقبة وحساب وثواب، وكثيراً ما يشيرون بشكل مباشر أو غير مباشر إلى معاني أي الذكر الحكيم.

ومن ناحية أخرى دلَّ هذا النمط الشعري على طبيعة الأندلسيين الميالة إلى التحرر والتجريب والتجديد، وعدم التقيد ببعض ما شاع من القواعد الموضوعية في عصورٍ سابقة، فتركوا نفوسهم على سجيتهما وهم يرثون أنفسهم، فنزعوا إلى النظم على البحور المختلفة حتى القصيرة والخفيفة منها فجاءت قصائدهم متنوعة الإيقاع، متلونة الموسيقى، كما جربوا كل أنواع القوافي حتى قليلة الاستخدام في الشعر العربي منها.

وقد خلط بعض الشعراء رثاء النفس بموضوعات أخرى مثل رثاء الآخر والمديح ووصف الطبيعة وشكوى الزمان ووصف الشيب، كما عبّروا عن ثقافتهم الشخصية المتعلقة بالموت والحياة من خلال التاريخ والأخبار والقصص والتجارب الإنسانية والحكم والأمثال، وهم يرثون أنفسهم، فكان ذلك واحداً من أسباب طول القصائد التي زاد بعضها عن سبعين بيتاً.

كما استطاعت قصيدة رثاء النفس أن تؤسس نموذجاً يُحتذى، فنشأت عن ذلك ظاهرة كبيرة هي المعارضات التي أدّت إلى التوسع في النظم، من خلال احتذاء شعراء تالين لشعراء سابقين للنظم في مثل قصائدهم من حيث الوزن والقافية والموضوع، نظراً إلى وجود المثال الذي يمكن مجارأته وتقليده، وهي بذلك تؤكد استقلالية هذا الغرض وقدرته على الوقوف بين الأغراض الأخرى منفرداً.

ولقد كانت قصيدة رثاء النفس الأندلسية وعاءً شافاً للتعبير عن أعماق المشاعر الإنسانية تجاه أكثر الموضوعات أهميةً وخطورة في حياة الفرد والمجتمع، ذلك هو موضوع الحياة والموت، كما كانت جديرةً بإظهار المشاعر المتضاربة لدى الأفراد وهو يرثون أنفسهم من حيث اليأس والرجاء، والرفض القبول، والحزن والفرح، والخوف والاطمئنان، والرضا والغضب، والفرار والاستسلام، فضلاً عن قوة هاجس الشعر لدى الشعراء الأندلسيين ونظمهم له حتى في أشدّ ساعات الحياة صعوبة وحرجاً وهي ساعات الاحتضار.

المصادر والمراجع

• القرآن الكريم

- ١- ابن حريق البلنسي حياته وآثاره: أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد (ت ٦٢٢هـ)
- دراسة وتح. د. محمد بن شريفة - مط النجاح الجديدة بالدار البيضاء - ط ١
١٩٩٦م.
- ٢- ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية: د. محمد بن شريفة - مط النجاح الجديدة بالدار
البيضاء - ط ١ ١٩٩٩م.
- ٣- ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه: د. حازم عبد الله خضر - منشورات وزارة
الثقافة والإعلام بالجمهورية العراقية - دار الحرية للطباعة ببغداد - ١٩٨٤م.
- ٤- ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره: د. محمد بن شريفة - مط النجاح الجديدة -
١٩٩٤م.
- ٥- البداية والنهاية: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي
(ت ٧٧٤هـ) - دار ابن كثير بيروت - ١٩٦٧م.
- ٦- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري: د. محمد مصطفى هدارة - ط ١
دار المعارف بمصر بمصر - ١٩٦٣م.
- ٧- اتجاهات الشعر في العصر الأموي: د. صلاح الدين الهادي - مكتبة الخانجي
بالقاهرة - ط ١ ١٩٨٦م.
- ٨- الإحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن
سعيد السلماني ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) - تحقيق محمد عبد الله عنان - مكتبة
الخانجي ط ٢ - ١٩٧٣م.
- ٩- أخبار وتراجم أندلسية: تح. د. إحسان عباس - دار الثقافة بيروت - ط ١
١٩٦٣م.

- ١٠- اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلّى: أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي (ت ٦٨٥هـ) - تحقيق إبراهيم الإبياري - دار الكتاب اللبناني - بيروت ط ٢ - ١٩٨٠م.
- ١١- أدباء مالقة: أبو بكر محمد بن محمد بن علي بن خيس المالقي (ت بعد ٦٣٩هـ) - تح د. صلاح جرار - دار البشير بعمّان ومؤسسة الرسالة بيروت - ط ١ - ١٩٩٩م.
- ١٢- أديب الأندلس أبو بحر التجيبي عمر قصير وعطاء غزير: د. محمد بن شريفة - مط النجاح الجديدة بالدار البيضاء - ط ١ ١٩٩٦م.
- ١٣- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ) - تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري - مط لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٣٩-١٩٤٢م.
- ١٤- إعتاب الكتاب: ابن الأثير أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨هـ) - تح د. صالح الأشر - مط مجمع اللغة العربية بدمشق - ط ١ - ١٩٦١م.
- ١٥- الأعلام: خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين بيروت - ط ١١ ١٩٩٥م.
- ١٦- الأعمى التطيلي حياته وأدبه: عبد الحميد عبد الله الهرامة - المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان بطرابلس ليبيا - ط ١ ١٩٨٣م.
- ١٧- الإفادات والإنشادات: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الأندلسي (ت ٧٩٨هـ) - تح د. محمد أبو الأجفان - مؤسسة الرسالة بيروت - ط ٢ ١٩٨٦م.
- ١٨- الأمراء الأمويون الشعراء في الأندلس: د. إبراهيم بوضون - دار النهضة العربية بيروت - تاريخ المقدمة ١٩٨٦م.
- ١٩- برنامج الوادي آشي: أبو عبد الله محمد بن جابر بن سعيد القيسي (ت ٧٤٩هـ) - تحقيق محمد محفوظ - دار الغرب الإسلامي - بيروت - ١٩٨١م.

- ٢٠- البسطي آخر شعراء الأندلس: د. محمد بن شريفة - دار الغرب الإسلامي بيروت - ط ١ ١٩٨٥ م.
- ٢١- بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي (ت ٥٩٩هـ) - دار الكاتب العربي - القاهرة ١٩٦٧ م.
- ٢٢- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - مط عيسى البابي الحلبي وشركاه - ط ١ - القاهرة ١٩٦٥ م.
- ٢٣- البلغة في تاريخ أئمة اللغة: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) - تح محمد المعري - منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق - ط ١ ١٩٧٢ م.
- ٢٤- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: محمد (أو أحمد) بن محمد بن عذاري المراكشي (ت نحو ٦٩٥هـ) - تح ج.س. كولان، وأ. ليفي بروفنسال - مط دار الثقافة بيروت - بدون تاريخ.
- ٢٥- تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة: د. إحسان عباس - دار الثقافة بيروت - ط ٧ ١٩٨٥ م.
- ٢٦- تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين: د. إحسان عباس - دار الثقافة بيروت - ط ٧ بدون تاريخ.
- ٢٧- تاريخ الأدب العربي: د. عمر فروخ - دار العلم للملايين - بيروت - ج ٤ ط ٣ ١٩٩٢، ج ٥ ط ٢ ١٩٨٥ م، ج ٢ ط ٦ ١٩٩٢ م.
- ٢٨- التاريخ السياسي والاجتماعي لأشبيلية في عهد دول الطوائف - أحمد بن عبود - مط الشويخ بتطوان - المغرب ١٩٨٣ م.
- ٢٩- تاريخ العرب في الأندلس عصر الإمارة: د. خالد الصوفي - منشورات جامعة قاريونس - ليبيا - ط ٢ ١٩٨٠ م.

- ٣٠- تحفة القادم: أبو عبد الله محمد بن الأبار القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ): تح د.
إحسان عباس - دار الغرب الإسلامي بيروت - ط ١ ١٩٨٦م.
- ٣١- تراجم إسلامية شرقية وأندلسية: محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي - ط ٢ -
١٩٧٠م.
- ٣٢- تراجم مغربية من مصادر مشرقية: د. محمد بن شريفة - مط النجاح الجديدة
بالدار البيضاء - ط ١ ١٩٩٦م.
- ٣٣- ترجمان الأشواق: محيي الدين بن عربي أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن
عبد الله الحاتمي الطائي (ت ٦٣٨هـ) - دار صادر بيروت - ١٩٦٦م.
- ٣٤- التكملة لكتاب الصلة: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن الأبار
القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ) - تح د. عبد السلام الهراس - دار الفكر
بيروت - ١٩٩٥م.
- ٣٥- جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس: أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح
الأزدي الحميدي (ت ٤٨٨هـ) - الدار المصرية للتأليف والترجمة - مط سجل
العرب ١٩٦٦م.
- ٣٦- جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى: أبو يحيى محمد بن عاصم الغرناطي
(٨٧٥ هـ) - تح د. صلاح جرار - دار البشير للنشر والتوزيع بعمّان - ١٩٨٩م.
- ٣٧- الحلة السيرة: ابن الأبار البلنسي - تح د. حسين مؤنس - دار المعارف - ط ٢ -
١٩٨٥م.
- ٣٨- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب: أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن فرحون
المالكي (ت ٧٩٩هـ) - تح محمد الأحمد أبو النور - دار التراث للطبع والنشر
بالقاهرة - ١٩٧٢م.
- ٣٩- ديوان ابن حمديس: عبد الجبار بن أبي بكر محمد الأزدي الصقلي (ت ٥٢٩هـ)
- تصحيح وتقديم د. إحسان عباس - دار صادر ودار بيروت - ١٩٦٠م.

- ٤٠- ديوان ابن خفاجة: أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح عبد الله بن الهواري الشُّقْري (ت ٥٣٣هـ) - تح د. سيد غازي - منشأة المعارف بالأسكندرية - ط ١٩٧٩م.
- ٤١- ديوان ابن دراج الأندلسي: أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن دراج (ت ٤٢١هـ) - تح د. محمود علي مكّي - المكتب الإسلامي بدمشق - ط ١-١٩٦١م.
- ٤٢- ديوان ابن سهل الأندلسي: إبراهيم بن سهل الأشبيلي الأندلسي (ت ٦٤٩هـ) - تقديم الدكتور إحسان عباس - دار بيروت للطباعة والنشر - دار صادر - ط ١٩٨٠م.
- ٤٣- ديوان ابن شهيد الأندلسي: أحمد بن أبي مروان بن عبد الملك (ت ٤٢٦هـ) - تح د. محي الدين ديب - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - ط ١-١٩٩٧م.
- ٤٤- ديوان ابن الزقاق البلبسي: أبو الحسن علي بن عطية الله بن مطرف بن سلمة اللخمي (ت ٥٢٩هـ) - تح عفيفة محمود ديراني - دار الثقافة ببيروت - ط ١٩٨٩م.
- ٤٥- ديوان ابن زيدون ورسائله: أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب المخزومي (ت ٤٦٣هـ) - تح علي عبد العظيم - نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة - ط ١٩٧٧م.
- ٤٦- ديوان ابن سهل الأندلسي: أبو إسحاق إبراهيم بن سهل الأشبيلي (ت ٦٤٩هـ) - تقديم د. إحسان عباس - دار بيروت للطباعة والنشر - دار صادر - ط ١٩٨٠م.
- ٤٧- ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله: أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عيسى (ت ٤٢٦هـ) - جمع وتحقيق د. محي الدين ديب - المكتبة العصرية ببيروت - ط ١-١٩٩٧م.
- ٤٨- ديوان ابن الصباغ الجذامي: أبو علي محمد بن أحمد (ت ٧٥٨هـ) - تح د. محمد زكريا عناني ود. أنور السنوسي - دار الأمين للنشر والتوزيع - القاهرة - ط ١٩٩٩م.

- ٤٩- ديوان ابن عبد ربه: أبو عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ) - تح محمد رضوان الداية - مؤسسة الرسالة بيروت - ط ١ - ١٩٧٩ م.
- ٥٠- ديوان ابن عربي: - محيي الدين بن عربي - شرح وتقديم نواف الجراح - دار صادر بيروت - ط ١ ١٩٩٩ م.
- ٥١- ديوان ابن فركون: أبو الحسين بن أحمد بن سليمان بن أحمد (ت ق ٩ هـ) - تقديم وتعليق د. محمد بن شريفة - مط النجاح الجديدة بالدار البيضاء - ط ١ ١٩٨٧ م.
- ٥٢- ديوان ابن هانئ الأندلسي: أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي (ت ٣٦٢هـ) - تح محمد اليعلاوي - دار الغرب الإسلامي - ط ١ - ١٩٩٥ م.
- ٥٣- ديوان أبي إسحاق الألبيري: إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي (ت نحو ٤٦٠ هـ) - تح د. محمد رضوان الداية - دار الفكر المعاصر بيروت ودار الفكر بدمشق - ط ١ ١٩٩١ م.
- ٥٤- ديوان الأعمى التطيلي: أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي هبيرة (ت ٥٢٥هـ) - تح د. إحسان عباس - دار الثقافة بيروت - ١٩٦٣ م.
- ٥٥- ديوان حازم القرطاجني: حازم بن محمد بن حسن بن محمد بن خلف بن حازم الأنصاري (ت ٦٨٤هـ) - دار الثقافة بيروت - ١٩٨٩ م.
- ٥٦- ديوان الحكيم: أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني (ت ٥٢٩هـ) - جمع وتح محمد المرزوقي - دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع - تونس ١٩٧٩ م.
- ٥٧- ديوان الرصافي البلسني: أبو عبد الله محمد بن غالب (ت ٥٧٢هـ) - جمع وتقديم د. إحسان عباس - دار الشروق بيروت - ١٩٨٣ م.
- ٥٨- ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي: بن محمد بن عبد الكريم - تح د. جمعة شيخة ود. محمد الهادي الطرابلسي - المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات - "بيت الحكمة" - قرطاج تونس - ١٩٨٨ م.

- ٥٩- ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماي: تح د. محمد مفتاح- دار الثقافة للنشر والتوزيع- الدار البيضاء- ط ١ ١٩٨٩ م.
- ٦٠- ديوان محمد بن هاني الأندلسي: أبو القاسم محمد بن هاني بن محمد بن محمد بن سعدون (ت ٣٦٢هـ) - تح محمد العلاوي - دار الغرب الإسلامي بيروت - ط ١ ١٩٩٥ م.
- ٦١- ديوان المعتمد بن عباد ملك أشبيلية: أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد (ت ٤٨٨هـ) - تح د. حامد عبد المجيد ود. أحمد أحمد بدوي - مط دار الكتب المصرية بالقاهرة - ط ٢ ١٩٩٧ م.
- ٦٢- ديوان ملك غرناطة: يوسف بن يوسف الثالث (ت ٨١٩هـ تخميناً) - تح عبد الله كنون - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ط ٢ ١٩٦٥ م.
- ٦٣- ديوان الهذليين: الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة - ١٩٦٥ م.
- ٦٤- ديوان يحيى بن حكم الغزال: يحيى بن حكم البكري الجياني الأندلسي الملقب بالغزال (ت ٢٥٠هـ) - تح د. محمد رضوان الداية - دار قتيبة بدمشق - ط ١ ١٩٨٢ م.
- ٦٥- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ) - تح سالم مصطفى البدري - دار الكتب العلمية بيروت - ط ١ ١٩٩٨ م.
- ٦٦- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة: أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي (ت ٧٠٣هـ) - تح د. إحسان عباس - دار الثقافة بيروت - السفر الخامس ١٩٦٥، السفر السادس ١٩٧٣ م.
- ٦٧- رحلة التجاني: أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد (ت ق ٨هـ) - تح حسن حسني عبد الوهاب - الدار العربية تونس - ليبيا - ١٩٨١ م.
- ٦٨- الروض المعطار في خبر الأقطار: محمد بن عبد المنعم الحميري (ت ٩٠٠هـ) - تح د. إحسان عباس - مؤسسة ناصر للثقافة - ط ٢ ١٩٨٠ م.

- ٦٩- زاد المسافر وغرة محيا الدب السافر: أبو بحر صفوان بن إدريس المرسي (ت ٥٩٨هـ) - تح عبد القادر محداد - دار الرائد العربي ببيروت - ١٩٨٠م.
- ٧٠- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون: ابن نباتة المصري أبو بكر جمال الدين محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين (ت ٧٦٨هـ) - تح محمد أبو الفضل إبراهيم - منشورات المكتبة العصرية ببيروت - ١٩٨٦م.
- ٧١- شعر ابن مرج الكحل، جمع وتوثيق وتقديم مصطفى الغديري - مستل من مجلة كلية الآداب بوحدة - العدد ٥ السنة ١٩٩٥م.
- ٧٢- شعر أبي البركات بن الحاج البليقي: محمد بن محمد بن إبراهيم (ت ٧٧١هـ) - بعناية عبد الحميد عبد الله الهرامة - مط مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي - ط ١ ١٩٩٦م.
- ٧٣- شعر الرثاء في العصر الجاهلي: د. مصطفى عبد الشافي الشوري - الدار الجامعية ببيروت - ١٩٨٣م.
- ٧٤- شعر المكفوفين في العصر العباسي - د. عدنان عبيد العلي - دار أسامة للنشر والتوزيع بعمّان الأردن - ١٩٩٩م.
- ٧٥- الشعر النسوي في الأندلس: محمد المنتصر الريسوني - منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت - ١٩٧٨م.
- ٧٦- كتاب الصلة: أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت ٥٧٨هـ) - الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة ١٩٦٦م.
- ٧٧- صلة الصلة: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير (ت ٧٠٨هـ) - تح أ. ليفي بروفنسال - مط الاقتصادية بالرباط ١٩٣٨م.
- ٧٨- طبقات الأمم: أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن التغلبي (ت ٤٦٢ هـ) - تح حياة بوعلوان - دار الطليعة ببيروت - ط ١ ١٩٨٥م.
- ٧٩- طبقات الشعراء: محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ) - دار الكتب العلمية ببيروت - ط ١ ١٩٨٢م.

- ٨٠- طوق الحمامة في الألفة والإلف: ابن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ) - ضبط وتفسير سعيد محمود عقيل - دار الجليل ببيروت - ط ١ ١٩٩٧م.
- ٨١- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت ٤٥٦هـ) تح محمد محيي الدين عبد الحميد - دار الجليل ببيروت - ط ٤ ١٩٧٢م.
- ٨٢- عيون الأنباء في طبقات الأطباء: موفق الدين أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ) - تح د. نزار رضا - مكتبة الحياة ببيروت - ١٩٦٥م.
- ٨٣- الغصون اليناعة في محاسن شعراء المائة السابعة: ابن سعيد الأندلسي - تح إبراهيم الإياري - دار المعارف بمصر - ١٩٤٥م.
- ٨٤- الثغنية "فهرست شيوخ القاضي عياض": أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن يحيى (ت ٥٤٤هـ) - تح د. محمد بن عبد الكريم - الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس - ١٩٧٨م.
- ٨٥- الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي: د. جمعة شيخة - المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار بتونس - ط ١ - ج ١ وج ٢ ١٩٨٤ - ج ٣ ١٩٩٧م.
- ٨٦- فوات الوفيات والذيل عليها: محمد بن شاکر الکتبي (ت ٧٦٤هـ) - تح د. إحسان عباس - دار صادر ببيروت - تاريخ المقدمة ١٩٧٣م.
- ٨٧- في الأدب الأندلسي: د. جودت الركابي - دار المعارف بالقاهرة - ١٩٨٠م.
- ٨٨- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس: د. السيد عبد العزيز السالم - دار النهضة ببيروت - ١٩٧٢م.
- ٨٩- قلائد العقيان: ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الأشبيلي (ت ٥٢٩هـ) - تح محمد الطاهر ابن عاشور - الدار التونسية للنشر - ١٩٩٠م.
- ٩٠- كتاب الكافي في العروض والقوافي: ابن الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢هـ) - تح الحساني حسن عبد الله - نشر خانجي وحمدان ببيروت - بدون تاريخ.

- ٩١- الكامل في التاريخ: علي بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير (ت ٦٣٠هـ) - ط دار صادر بيروت - ١٩٦٦م.
- ٩٢- الكتيبة الكامنة في مَنْ لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة: لسان الدين بن الخطيب السلماني: تح د. إحسان عباس - دار الثقافة بيروت - ١٩٨٣م.
- ٩٣- المختار من شعر بشار اختيار الخالدين: شرح أبي الطاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة التجيبي البرقي - مط الاعتماد بمصر - بدون تاريخ.
- ٩٤- مرج الكحل سيرته وشعره: د. صلاح جرار - دار البشير للنشر والتوزيع بعمّان - ط ١ ١٩٩٣م.
- ٩٥- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا: أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد الجذامي المالقي النباهي (ت بعد ٧٩٣هـ) - تح أ. ليفي بروفسال - دار الكاتب المصري - القاهرة ١٩٤٨م.
- ٩٦- مستفاد الرحلة والاغتراب: القاسم بن يوسف بن محمد التجيبي السبتي (ت ٧٣٠هـ) - تح عبد الحفيظ منصور - الدار العربية للكتاب - ليبيا تونس - (مقدمة المحقق ١٩٧٥م).
- ٩٧- مستودع العلامة ومستبدع العلامة: أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر (ت ٨١٠هـ) - تح محمد التركي التونسي - مط المهدية بتطوان - ١٩٦٤م.
- ٩٨- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس: أحمد مختار العبادي - مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية - ١٩٨٣م.
- ٩٩- مصارع العشاق: أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القارئ (ت ٥٠٠هـ) - دار صادر بيروت - بدون تاريخ.
- ١٠٠- المطرب من أشعار أهل المغرب: ذو النسيبن أبو الخطاب عمر بن حسن ابن دحية (ت ٦٣٣هـ) - تح إبراهيم الإيباري ود. حامد عبد المجيد - مط دار الكتب المصرية بالقاهرة - ١٩٩٧م.

- ١٠١- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس: ابن خاقان- تح محمد علي شوابكة - دار عمار - مؤسسة الرسالة - ط ١ ١٩٨٣ م.
- ١٠٢- المعجب في تلخيص أخبار المغرب: عبد الواحد بن علي المراكشي (ت ٦٤٧هـ) - مط الاستقامة بالقاهرة - ط ١ ١٩٤٩ م.
- ١٠٣- معجم الأدباء: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي (ت ٦٢٦هـ) - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - ط ٣ ١٩٨٠ م.
- ١٠٤- معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة - مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي بيروت - بدون تاريخ.
- ١٠٥- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: وضعه محمد فؤاد عبد الباقي - دار الجليل بيروت - بدون تاريخ.
- ١٠٦- المعيار في أوزان الأشعار: أبو بكر محمد بن عبد الملك بن السراج الشنتريني الأندلسي (ت ٥٥٠هـ) - تح د. محمد رضوان الداية - دار الأنوار بيروت - ط ١ ١٩٦٨ م.
- ١٠٧- المغرب في حلى المغرب: ابن سعيد الأندلسي - تح د. شوقي ضيف - دار الكتب بالقاهرة - ط ٤ ج ١ ١٩٩٣، ج ٢ ١٩٩٥ م.
- ١٠٨- المقتبس في تاريخ الأندلس: أبو مروان حيان بن خلف بن حسين (ت ٤٦٩هـ) - تح د. إسماعيل العربي - منشورات دار الآفاق الجديدة بالمغرب - ط ١ ١٩٩٠ م.
- ١٠٩- المقتضب من تحفة القادام: ابن الأبار - اختيار وتقييد أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم البلفيقي (ت؟) - تح إبراهيم الإياري - دار الكتاب اللبناني بيروت - ط ٢ ١٩٨٣ م.
- ١١٠- ملامح الشعر الأندلسي: د. عمر الدقاق - دار الشرق العربي بيروت - بدون تاريخ.

- ١١١- منهاج البلغاء وسراج الأدباء: أبو الحسن حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) - تح محمد الحبيب بن الخوجة - مط الرسمية - تونس ١٩٦٦م.
- ١١٢- نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان: أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر- تح د. محمد رضوان الداية- دار الثقافة ببيروت- ١٩٧٦م.
- ١١٣- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب: لسان الدين بن الخطيب - تح د. أحمد مختار العبادي - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة - بدون تاريخ.
- ١١٤- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: المقري التلمساني - تح د. إحسان عباس - دار صادر ببيروت - طبعة جديدة ١٩٩٧م.
- ١١٥- نقد الشعر: أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) - مكتبة الخانجي بالقاهرة - ط ٣ ١٩٧٨م.
- ١١٦- نيل الابتهاج بتطريز الديباج: أحمد بابا التنبكي (ت ١٠٣٠هـ) - إشراف وتقديم عبد الحميد الهرامة - منشورات كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس ليبيا- ١٩٨٩م.
- ١١٧- الوافي بالوفيات: صلاح الدين أبو الصفاء خليل بن أبيك بن عبد الله (ت ٧٦٤هـ) - تح مختلفين - مطابع مختلفة وتواريخ مختلفة.
- ١١٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت ٦٨١هـ) - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر بيروت - بدون تاريخ.



المحتويات

٧	المقدمة
١٣	الفصل الأول: تاريخ رثاء النفس في الشعر الأندلسي وأهميته
١٥	أولاً: تاريخ رثاء النفس في الأندلس
٢٠	ثانياً: أهمية رثاء النفس في الشعر الأندلسي
٢١	١- إظهار الجوانب الروحية
٢٢	٢- إظهار الجوانب المادية
٢٤	٣- إظهار الجوانب الاجتماعية
٣١	٤- إظهار موقف الأندلسيين من الحياة والموت
٣٣	٥- توثيق جوانب من التاريخ السياسي
٣٣	٦- التأريخ لشعر الشاعر نفسه
٣٤	٧- إسهام عليّة القوم
٣٥	٨- إسهام كبار الشعراء
٣٥	٩- كثرة الشعراء
٣٥	١٠- كثرة النصوص الشعرية
٣٦	١١- الحضور المتواصل
٣٦	١٢- قيمة النصوص الشعرية فنياً
٣٧	١٣- عادات وتقاليد خاصة
٣٧	١٤- هاجس الشعر
٣٨	١٥- ثقافة الشاعر
٣٨	١٦- تلون الإيقاعات
٤٤	١٧- القصيدة الأنموذج

٦٧	الفصل الثاني: بواعث رثاء النفس في الشعر الأندلسي
٦٩	- الاتجاه الأول: الإحساس بقرب الموت
٦٩	١- الشيخوخة
٧٧	٢- الشيب
٨١	٣- المرض والعاهة
٨٧	٤- الاحتضار
٩٠	٥- العقوبة
١٠٤	٦- الكوارث الطبيعية
١٠٧	- الاتجاه الثاني: الدين
١٠٧	١- الكتابة على القبر
١١٦	٢- التوبة والاستغفار
١٢١	٣- التفكير بالموت والإعداد له
١٢٤	٤- الزهد في الدنيا
١٢٧	٥- تمثي الموت/ الاستشهاد
١٣٠	٦- الوصية
١٣٤	٧- الاستشفاع
١٣٩	- الاتجاه الثالث: الدنيا
١٣٩	١- الحب - حب الآخر
١٤٢	٢- حب الحياة
١٤٤	٣- الغربة
١٤٧	٤- الفخر

- ٥- الوصف ١٤٨
- ٦- الإخوانيات ١٥٣
- ٧- التذليل والإجازة ١٥٦
- ٨- موت الآخر - الاعتبار ١٦٠
- ٩- رثاء الآخر - المقتد ١٦٤

الفصل الثالث: الرثاء السياسي ١٧٩

- ١- هاشم بن عبد العزيز يرثي نفسه ١٨١
- ٢- سعيد بن جودي يرثي نفسه ١٨٥
- ٣- الأمير عبد الله يرثي نفسه ١٨٧
- ٤- الحاجب المصحفي يرثي نفسه ١٨٩
- ٥- عبد الله بن عبد العزيز يرثي نفسه ١٩٤
- ٦- عبد الملك الجزيري يرثي نفسه ١٩٨
- ٧- مروان الطليق يرثي نفسه ٢٠٠
- ٨- أبو عامر بن شهيد يرثي نفسه ٢٠٢
- آل عباد يرثون أنفسهم ٢٠٧
- ٩- المعتضد يرثي نفسه ٢٠٨
- ١٠- المعتمد يرثي نفسه ٢١٠
- ١١- الراضي بن المعتمد يرثي نفسه ٢١٦
- ١٢- ابن زيدون يرثي نفسه ٢١٩
- ١٣- أبو بكر بن عمّار يرثي نفسه ٢٢٦

- ١٤- المعتصم بن صمادح يرثي نفسه ٢٤١
- ١٥- أبو عيسى بن لبون يرثي نفسه ٢٤٢
- ١٦- أبو بكر بن الصائغ يرثي نفسه ٢٤٥
- ١٧- أبو جعفر بن عطية يرثي نفسه ٢٤٧
- ١٨- المظفر بن عبد العزيز يرثي نفسه ٢٥١
- ١٩- لسان الدين بن الخطيب يرثي نفسه ٢٥٣
- ٢٠- الملك يوسف الثالث يرثي نفسه ٢٥٥
- ٢١- أبو عبد الله الصغير يرثي نفسه ٢٥٧

الفصل الرابع: فلسفة الحياة والموت ٢٦٧

- ١- حتمية الموت ٢٦٩
- ٢- الإعداد للموت ٢٧٤
- ٣- صورة ما بعد الموت ٢٨٠
- ٤- الروح والجسد ٢٩٣
- ٥- التعلُّق بالحياة ٢٩٧

الخاتمة ٣٠٥

المصادر والمراجع ٣٠٧

المحتويات ٣١٩

للمؤلف

- ١- النوريات في الشعر الأندلسي - بيروت ١٩٨٦ م.
- ٢- نظرية نشأة الموشحات الأندلسية بين العرب والمستشرقين - بغداد ١٩٨٦ م.
- ٣- الموشحات في بلاد الشام - بيروت ١٩٨٧ م.
- ٤- عروض الموشحات الأندلسية - بغداد ١٩٩٠ م.
- ٥- أبحاث في الشعر الأندلسي - مصراته - ليبيا ١٩٩٤ م.
- ٦- ملامح من تاريخ الخليج والجزيرة العربية - الإسكندرية - مصر ١٩٩٨ م.
- ٧- مصادر التراث الأندلسي من كتاب كشف الظنون - أبو ظبي ١٩٩٩ م.
- ٨- اتجاهات نقد الشعر في الأندلس في عصر بني الأحمر - أبو ظبي ٢٠٠٠ م.
- ٩- رثاء النفس في الشعر الأندلسي (هذا) -
- ١٠- نقد الشعر في الأندلس قضايا ومواقف - تحت الطبع.
- ١١- معجم الجملة الأسبانية المفيدة - لم يطبع.
- ١٢- الحب مرتين (شعر) - بغداد ١٩٧٥ م.
- ١٣- لا شيء سوى الحب (شعر) - بغداد ١٩٨٠ م.
- ١٤- عفواً أيها السائر (شعر) - بغداد ١٩٨٨ م.
- ١٥- ليلة شهرزاد الأخيرة (شعر) - القاهرة ٢٠٠٣ م.
- ١٦- بكاء النخيل (شعر) تحت الطبع.
- ١٧- مجمرة النبض (شعر) - لم يطبع.
- ١٨- قالوا هو الحب (شعر) - لم يطبع.

المؤلف في سطور

- شاعر و ناقد وباحث.
- ولد ببغداد في العام ١٩٥٣، وبها أكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة والثانوية والجامعية.
- نال شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها من جامعة بغداد في العام ١٩٨٢، ثم نال شهادة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية وآدابها من جامعة بغداد في العام ١٩٨٩.
- عمل في الصحافة محرراً ثقافياً ١٩٧٧-١٩٧٩، وكاتباً مشاركاً فيما بعد.
- زاول التدريس الجامعي، ورئاسة قسم اللغة في كلية الآداب جامعة البصرة، وألقى محاضراته على طلبة الدراسات الأولية والعليا في الأدب العربي، ولاسيما الأندلسي تخصصه الأول، والنقد الأدبي وعلم العروض، في جامعتي بغداد والبصرة في العراق ١٩٨٢-١٩٩٢، وجامعة التحدي في ليبيا ١٩٩٢-١٩٩٦، واللغة لغير الناطقين بها في جامعة غوتنبرغ والجامعة الشعبية في السويد.
- أسهم في المؤتمرات العلمية العربية والعالمية والندوات والمهرجانات في مجال الأدب العربي، وتحقيق التراث، والنقد الأدبي، والدراسات المورسكية، والبحث العلمي في العراق ومصر وليبيا وتونس والمغرب والسويد.
- صدر له في مجال الدراسات: النوريات في الشعر الأندلسي - بيروت - ١٩٨٦. نظرية نشأة الموشحات الأندلسية بين العرب والمستشرقين - بغداد - ١٩٨٦. الموشحات في بلاد الشام منذ نشأتها حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري - بيروت - ١٩٨٧. عروض الموشحات الأندلسية - بغداد - ١٩٩٠. أبحاث في الأدب الأندلسي - ليبيا - ١٩٩٤. دراسات في تاريخ الخليج والجزيرة العربية - المكتب الجامعي الحديث - ١٩٩٨. مصادر التراث الأندلسي من كتاب كشف الظنون - أبو

ظي - ١٩٩٩. اتجاهات نقد الشعر في الأندلس في عصر بني الأحمر - أبو ظي -
٢٠٠٠. فضلاً عن مجموعة من الأبحاث المنشورة في المجلات والدوريات المحكمة،
ومجموعة كبيرة من المقالات المنشورة في الصحف والمجلات في قضايا الأدب والنقد
والثقافة والتراث العربي.

- وله تحت الطبع: نقد الشعر في الأندلس - قضايا ومواقف. ويانتظار الطبع معجم
الجملة الأسبانية المفيدة.
- وله في مجال الإبداع (الشعر): الحب مرثين - بغداد - ١٩٧٥. لا شيء سوى الحب -
بغداد - ١٩٨٠. عفواً أيها الساتر - بغداد - ١٩٨٨. ليلة شهرزاد الأخيرة - القاهرة -
٢٠٠٣. وتحت الطبع: "بكاء النخيل" و"مجرة النبض".
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقيين، وعضو مؤسس لاتحاد الأدباء
والكتاب في البصرة، وعضو اتحاد الكتاب السويديين، وعضو الجمع اللغوي
السويدي، ومنتدى الشعر السويدي.

* * *

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com



رثاء النفس في الشعر الأندلسي

المؤلف في سطور

- شاعر وناقد وباحث.
- ولد ببغداد في العام ١٩٥٣، أكمل فيها دراسته الابتدائية والثانوية والجامعية.
- نال شهادة الماجستير من جامعة بغداد ١٩٨٢، وشهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها ١٩٨٩.
- مارس تدريس اختصاصه في الأدب والنقد في جامعة البصرة وجامعة بغداد في العراق (١٩٨٢-١٩٩٢)، وفي جامعة التحدي في ليبيا (١٩٩٢ - ١٩٩٦)، واللغة العربية لغير الناطقين بها في جامعة غوتنبورغ والجامعة الشعبية في السويد حيث يقيم منذ أواخر العام ١٩٩٦.
- صدر له في الدراسات: نظرية نشأة الموشحات الأندلسية بين العرب والمستشرقين ١٩٨٦، والثوريات في الشعر الأندلسي ١٩٨٦، والموشحات في بلاد الشام ١٩٨٧، وعروض الموشحات الأندلسية ١٩٩٠، وأبحاث في الأدب الأندلسي ١٩٩٦، وملاحم من تاريخ الخليج والجزيرة العربية ١٩٩٨، ومصادر التراث الأندلسي من كتاب كشف الظنون ١٩٩٩، واتجاهات نقد الشعر في الأندلس في عصر بني الأحمر ٢٠٠٠، وله تحت الطبع: «نقد الشعر في الأندلس - قضايا ومواقف».
- كما صدر له في الشعر: الحب مرتين ١٩٧٥، ولا شيء سوى الحب ١٩٨٠، وعضواً فيها الصائغ ١٩٨٨، وليلة شهرزاد الأخيرة ٢٠٠٣، وله تحت الطبع: «مجمرة اللبض».
- نشر مجموعة كبيرة من المقالات النقدية حول الشعر والقصة منذ أواسط السبعينيات، فضلاً عن البحوث الأكاديمية في المجالات المحكمة.
- عضو في اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين، وعضو في اتحاد الكتاب السودي، والجمع اللغوي السودي ومئذنى الشعر السودي.

جُهَيْنَا
 للنشر والتوزيع

العبدلي - عمارة جوهرة القدس - ص.ب ٨٦٧٠ عمان ١١١٢١ الأردن

تلفاكس: ٩٦٢٦٦٢٠٧٨

www.juhaina.net - info@juhaina.net